
www.kotobarabia.com
المجلد الثالث
معالم تاريخ
الإنسانية
تأليف
هـ. ج. ولز
ترجمة
عبد العزيز توفيق جاويد
www.kotobarabia.com

هـ. ج. ولز

معالم تاريخ الإنسانية

المجلد الثالث

في المسيحية والإسلام والعصور الوسطى وعصر النهضة

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

هذه ترجمة لكتاب:

The Outline of History

Being A Plain History of Life and Mankind from Primordial Life to Nineteen

By

H. G. Wells

Revised and brought up to the end of the Second World War by Raymond Postgate.

١- راجع الطبعة الأولى المرحوم الأستاذ محمد مأمون نجا والأستاذ الدكتور عبـد الحميـد يونس، وراجع المترجم الطبعة الثانية.

٢- وعاود المترجم مراجعة هذه الطبعة الثالثة على طبعة ١٩٦٣ التي أشرف عليها الأستاذ رايموند بوستجيت الكاتب والصحفي الإنجليزي المعروف.



الكتاب السادس

المسيحيــة والإســـلام

الكتـــاب الســـابع

الإمبراطوريات المغولية صاحبة الطرق البرية والإمبراطوريات الجديدة صاحبة الطرق البحرية

كلمة المترجم

نال الزمان بعد الإغريق من صولة الرومان، ومالت شمس قيصـر، وولـت الأيـام العظيمـة والأيـام دول........

وانقضت خمس عشرة مائة من السنين... تلقت فيها البشرية من الدروس ما تلقت، وقاست مـن العـذاب والآلام ألوانًا.

خمس عشرة مائة سنة أو تزيد.. مرت هزالا عجافًا حتى لأخال التاريخ شديد الرغبة في تخليص ذاكرتـه من شوائبها؛ لما حطمت من نظام، وشتتت من جموع، ولما قوضت من خُلق، ولما اجترحتـه فـي الوحـدة العالمية العامة التي كانت الشيء الوحيد الذي أفادته الدنيا من الرومان والتي لا تبرح هدفنا الأعلى الذي نسعد بدلوفنا إليه.

خمس عشرة مائة من السنين.. توقف فيها موكب الحضارة، وأخذ الناس يتلمسون طريقهم فـلا يجدونـه؛ وكأني بهم يطلبون القديم فلا يستطيعون إليه وصولاً، ويجنحون إلى إصلاح الحاضـر والحاضـر خرائـب وأنقاض، ويتطلعون إلى المستقبل فلا يجدون فيه بارقة تحيي نفوسهم. وكان الناس في قـديم العصـور فـي همجية فآلت بهم الحال إلى نظام، وها هم أولاء في حال لا هي بالهمجية ولا هي بالمدنية، حال من الانتكاس المؤنس الموحش.

خمس عشرة مائة من السنين أو تزيد.. أطبقت فيها عن العالم المعروف سدفة محلولكة، فقد فيها الإنسـان كل أمل في هذا الوجود، وارتد إلى الكون قانون الغاب الذي قوامه الظفر والناب، والذي يغتال فيـه القـوى الضعيف، وترجح فيه القوة كل حق.

ظلام حالك وفوضى شاملة، وتفتت لكل شيء إلى جزيئاته بل ذراته الأولـى. وذوو الضـمائر يسـائلون أنفسهم أهكذا نهاية البشرية؟ أهكذا تتحطم كل الآمال التي عقدها الناس على مستقبل مشرق سعيد؟

ليل عبوس عصيب رهق حتى تقطعت نياط الآمال وطال ما جثم حتى بلغت النفوس الحناجر، فما يستطيع أحد أن يفيق مما غشيه من هم وحزن.

ولولا أن يد القدر امتدت إلى تلك الحقبة الطويلة المديدة من الليل الأكدر، فأومضت فيها ثلاث ومضـات خطفت الأبصار بادئ الرأي، ثم استردت الأمور بغض وعيها، وأخذت تتلمس بعدهن طريقها نحو نور ابتدأ شعاعا في دقة الخيط: وما زال يقوى وينبسط حتى أصبح في القرن العشرين فيضا منهمرا من باهر الضياء وساطع الإشراق، لولا هذا لقضي على المدنية في غابرها وحاضرها، ولأديل من الإنسانية إلى أبد الآبدين.

فأما الومضة الأولى التي شق نورها غياهب تلك الظلمة الفاحمة، فذلك الوليد الذي انتبذت بـه أمـه مكانـًا قصيا، والذي كان كلمة من ا شاءت بها إرادته القدسية، أن تعيد إلى النفوس شيئًا من الأمل، وأن تلقـي فـي روع الإنسانية ألا تقنط من رحمة ا ، وإذا هو يعلم القوي الرحمة بالضعيف ويـدعو إلـى التفـاني الأرض، ويجرده من عرض الدنيا ويتوج مفرقه بحب من يحيطون به إذ يمنحهم كل ما تملكه يداه من مال وقوة ونشب.

وكانت الومضة التي أوراها ذلك النبي الرحيم خاطفة وضاءة أطاشت صواب الإنسانية فمدت يديها تواري العينين قبل أن يخطف البرق ضياءهما. وما هي إلا هنيهة حتى كان ستار الظلام قد أسدل من جديـد كثيفًـا فاحما مدلهما.

وهوت البشرية مرة ثانية صريعة أو تكاد...

ثم دار الزمان دورته، وآن للعناية أن تلحظ الدنيا برحمة من لدنها، تعيد إليها شيئًا من الثقة والطمأنينـة. وجاءت النفحات القدسية في البوادي العربية على يد ذلك اليتيم العائل، الذي آواه ربه وأغنى. إذ يقـول لـه الملك: "اقرأ" وما هو بقارئ، ولا يبرح به حتى يقرأ على الناس كتابا مطهرا، يدعوهم فيه إلى عبادة الأحـد الصمد، وإلى إخاء شامل ومساواة بين القرشي والحبشي. ويأمرهم بالتسامح والعدل والإحسان ويحضهم على العمل الشريف في هذه الدنيا والتزود للآخرة بالصلاح والتقوى. لقد أشرق ضياء الطاهر الصـادق، وهبـت لنصرته البوادي وأقبل عليه الناس رجالاً وعلى كل ضامر، وسعدت البشرية هنيهـة بالإيمـان والمسـاواة والتضحية في سبيل الحق والخير.

ثم غلبت على الإنسانية شقوتها، ففقدت إيمانها بالحق، وحرمت التعلق بالمُثُل وتجانفت عن كل تضحية.

وانطبق الستار كرة أخرى مرخيا دياجيره، وران على الناس سبات عميق طال في الشرق حتى لتحسـبه نعاس الأبد.

ثم خفق سراج القدر في القرون الوسطى بالومضة الثالثة التي، أرسلت شرارة بارقـة اتصـلت بهشـيم الحيوات الأولى، ووجدت من المسيحية والإسلام ذخرا لا ينضب له معين؛ فأوقدت نارا بدأت بإحياء العلـوم خافتة تسري ولا ترى، وانتهت بنهضة القرون الوسطى مشبوبة حارة، حتى ترامت إلى ما ترى حولك مـن مشاعل وهاجة ونيران فياضة الضياء مشرقة السطوع....

تلك هي الومضات الثلاث التي يؤرخ لها سفرنا هذا إذ ينظر إلى المسيحية وبشيرها الناصـري الكـريم؛ وإلى الإسلام ورسوله المصطفى الهادي الأمين، وإلى ذلك النهوض الذي دفع بدولاب المعرفة والحيـاة فـي القرون الوسطى دفعة توثب أدارته إلى ما يحيط بك من حال الشئون في القرن العشرين.

ولن أزيد القارئ بيانًا بالجذل الطروب الذي يستعرض به المؤلف هذه الومضات الثلاث بوصفهن صـوى عظمي في تاريخ الإنسانية وركائز ترتكز عليها في دلوفها نحو الأمام ولا بالتعقيبات الفلسفية العميقـة التـي يعقب بها عليها ولا بالنظرات الناقدة الدقيقة والتوجيهات التي مهما يكن رأي بعض الناس فيها فإنها صـادرة من قلب مخلص مؤمن بما يدعو إليه.

وبحسب القارئ أن يقلب صفحات الكتاب ليستمتع ويتزكى.

عبد العزيز توفيق جاويد

كلمة المترجم للطبعة الثانية

أحمد ا كثيرا إذ أقدم لقراء العربية هذه الطبعة الجديدة. وقد بذلت في تنقيح هذه الطبعة ومراجعتها على أحدث الطبعات الإنجليزية للكتاب نفس ما بذلت من جهد في مجلديه الأول والثاني. وأضفت إليه كدأبي فـي سالفيه الشروح والفهارس الأبجدية. وبسطت عبارته لتكون في متناول كل فهم، رغبة مني في إبـلاغ ثقافـة المؤلف الرفيعة وعلمه الغزير وبصائره النفاذة إلى كل ذي عقل مستطلع يطلب النور.

ع.ت.ج

تصدير الطبعة الثالثة

كان من الطبيعي أن تنفد طبعتا الكتاب الأولى والثانية. ولا غرو فإنه بما حوى من ثقافة عميقـة وفلسـفة عقلانية ونظرة علمية حديثة ودعوة مخلصة إلى خير البشرية تكاد تتمم الرسالات العليا التي قام بهـا أفـذاذ الرجال، قد أصبح من الأركان العقلية التي لا يستغنى عنها مثقف في هذا العصر.

وقد تصادف، وأنا أطبع الطبعة الثانية من المجلد الرابع، أن وقعت في يدي طبعة إنجليزية حديثـة جـدا نقحها المستر رايموند بوستجيت فضبطته عليها، وفعلت ذلك أيضا بالمجلدين الأول والثاني من الطبعة الثالثة. وكذلك نقحت عليها هذه الطبعة من مجلدنا الثالث هذا.

وقد راجعت ترجمته مراجعة دقيقة. وأعدت النظر في الأعلام فجاءت مطابقة لما ورد بالكتـاب المقـدس وغيره من المظان والمراجع وبذا أقدمه إلى القراء راجيا أن ينتفعوا به باعتباره موسوعة ضخمة من العلـم والثقافة والتاريخ أتمنى أن يقبل عليها شبابنا اطلاعا وانتهالاً.

ع. ت. جاويد

الكتاب السادس

المسيحية والإسلام

الفصل الثامن والعشرون

قيام المسيحية وسقوط الإمبراطورية الغربية

١- اليهودية إبان الحقبة المسيحية.
٢- تعاليم يسوع (عيسى) الناصري.
٣- الديانات العامة الجديدة.
٤- صلب يسوع الناصري.
٥- مبادئ أضيفت إلى تعاليم يسوع.
٦- كفاحات المسيحية واضطهاداتها.
٧- قسطنطين الأكبر.
٨- تأسيس المسيحية الرسمية.
٩- خريطة أوربا في ٥٠٠م.
١٠- خلاص العلوم على يد المسيحية.

١ - اليهودية [١] إبان الحقبة المسيحية

لن يتهيأ لنا فهم خصائص المسيحية التي عليها الآن أن تلعب دورا كبيرا في تاريخنا، والتي فتحت أعـين الناس على نواح جديدة تبشر بإمكان قيام عالم موحد، حتى نرجع البصر بضعة قرون ونحدثك عن الأحـداث التي جرت في فلسطين وسوريا، وهما القطران اللذان نشأت فيهما المسيحية. ولقد أسلفنا إليك من قبـل أهـم الحقائق المتعلقة بأصل الشعب اليهودي وتقاليده، وتحدثنا عن يهود التشتت (Diaspora) وعما فطرت عليـه اليهودية من حيث جوهرها من تشتت وتشرد حتى وهي في مهد بدايتها، وعن التطور التدريجي لفكـرة إلـه أحد عادل يحكم في الأرض ويرتبط بوعد خاص قطعه على نفسه: أن يحفظ الشعب اليهودي ويرفعه مكانًـا عليا. والفكرة اليهودية كانت ولا تزال مزيجا عجيبا من رحابة أفق لاهوتية ووطنية عنصرية حادة ضـيقة. وكان اليهود يترقبون مخلّصا معينًا: مسيحا يخاص البشرية بطريقة محببة إليهم، تنطوي على اسـترجاع مـا كان لداود وسليمان من مجد أسطوري، ووضع العالم آخر الأمر تحت أقدام اليهودية الخيرة والحازمة أيضا. حتى إذا انحطت القوى السياسية للشعوب السامية، وإذ أفل نجم قرطاجة من بعد صور وهوتا فـي غياهـب الظلمات، وأصبحت إسبانيا ولاية رومانية، فقد ترعرع ذلك الحلم وشاع. ولـيس ثمـة شـك أن الفينيقيـين المتناثرين في إسبانيا وإفريقية وفي كل أرجاء البحر المتوسط، وهم قوم يتكلمون لغة شديدة القربى بالعبرانية، ويعيشون محرومين من حقوقهم السياسية الأصلية الحقة، - قد تحولوا إلى أتباع لدين اليهودية. ذلك أنه مرت في التاريخ اليهودي أدوار قوية من الدعوة واستمالة الأنصار إلى اليهودية كما تقلبت عليه أدوار أخرى مـن شامل الغيرة والاعتزال. إذ حدث يوما أن اليهود قهروا الإدوماييين (Idumeans) وأجبـروهم أجمعـين أن يصبحوا يهودا [٢].

وهناك قبائل عربية كانت على دين اليهودية في زمان محمد ﷺ، وثمة شعب تركي في جنوب الروسـيا كان في معظمه يهوديا في القرن التاسع. والواقع أن اليهودية هي المثل الأعلى السياسي المعاد تشكيله لكثيـر من الشعوب المحطمة وهي في غالب أمرها سامية الأصل. ولا مراء أن ما لليهـود مـن التقاليـد الماليـة والتجارية إنما يعود إلى الفئة الفينيقية منهم وإلى دخول الآراميين ملة اليهود في بابل. على أن هذه الائتلافات والاندماجات وألوان التمثل، التي كانت تقوم تقريبا بكل مدينة من مدن الإمبراطورية الرومانية، بل تتجـاوز حدودها إلى مسافة بعيدة شرقًا؛ قد ترتب عليها أن المجتمعات اليهودية كانت تتجر وتزدهر وتثرى وتتصـل بعضها ببعض بفضل التوراة وبواسطة هيئة دينية وتعليمية. ولم يحدث في يوم من الأيام أن الشطر الرئيسي من الشعب اليهودي كان يقطن اليهودية، كما أنه لم ينبعث إلى العالم من ذلك القطر أبدا.

---

(١) أرض أو بلاد يهوديا أو يهودية أو اليهودية هي ترجمة للفظة (Judea) الأجنبية. كما ورد في المجلد الثاني من المعـالم. وتسميها الموسوعة العربية الميسرة باسم جوداليا. (المترجم).

(٢) تاريخ يوسيفوس.

ومن الواضح أن هذه المجموعة المتصلة الحلقات من المجتمعات المتهودة كانت تنعم بتسهيلات وفـرص عظيمة جدا من الناحيتين المالية والسياسية. فكانوا يستطيعون أن يجمعوا الموارد والقوى في أيديهم، وكـانوا يستطيعون أن يستثيروا وأن يهدئوا وما بلغوا من الكثرة ولا الحضارة مبلغ الإغريق الذين كانوا حتى آنـذاك أوسع منهم انتشارا، ولكن كان لهم تراث قديم امتاز بتماسك أقوى مما كان لدى الإغريق. فكـان الإغريقـي عدوا للإغريقي؛ أما اليهودي فكان لليهودي أخًا ونصيرا. فحيثما حل يهودي، وجد رجالاً لهـم عقـل مثـل عقليته وتقاليد مثل تقاليده. فكان في وسعه أن يجد المأوى والطعام والقروض المالية والعون القـانوني. مـن أجل هذا التماسك اضطر الولاة أن يحسبوا لهؤلاء القوم حسابا في كل مكان إما بوصفهم مصدر عون لهم أو منهلاً للقروض أو مبعثًا للمتاعب. وهكذا حدث أن اليهود ظلوا محتفظين بكيانهم كشعب، على حين أصبحت "الهلينية" نورا عاما يضيء للجنس البشري كافة.



(شكل ١٢٠) منطقة الجليل والولايات المحيطة بها

ولسنا بمستطيعين أن نسرد هنا على سبيل التفصيل تاريخ ذلك القسم الأصغر من الشعب اليهودي الذي عاش في بلاد اليهودية (Judea) نفسها. عاد هؤلاء اليهود إلى مركزهم القديم المحفوف بالمخاطر؛ عادوا يلتمسون السلام مرة ثانية في وسط طريق كبير مطروق إن صح هذا التعبير. لقد كانوا في الزمان القديم ينزلون بين سوريا وآشور إلى الشمال ومصر إلى الجنوب. وها هم الآن بين السلوقيين شمالاً والبطالمة جنوبا، فلما أن ذهبت ريح السلوقيين، هوت على رأسهم قوة الرومان. ونتيجة لهذا كله كان استقلال "بلاد اليهودية" على الدوام أمرا مقيدا غير مستقر. ولا بد للقارئ أن يرجع إلى كتابي "الأخبار العتيقة" (Antiquities) و "حروب اليهود" لفلافيوس يوسيفوس – (وهو كاتب مطنب ممل ذو نزعة وطنية جامحة تبعث في الرأس الجنون) – إذا هو شاء أن يعرف من تقلب عليهم من الحكام ومن الملوك الكهنة الأعلين، والمكّابيين والهيروديين ومن شاكلهم. كانت غالبية هؤلاء الحكام من الطراز الشرقي المعتاد، ماكرين، غادرين وملطخي الأيدي بالدماء. وقد أخذت منهم أورشليم ثلاث مرات ودمر لهم المعبد مرتين. ولم ينقذ هذا القطر الصغير من أن تمتد إليه يد المحو التام إلا معونة يهود التشتت الأقوى نفوذًا، حتى كان عام ٧٠م وفيه فتح المدينة تيتوس الابن المتبنى للإمبراطور فسبازيان وخليفته، ودمرها هي والمعبد على السواء بعد حصار يضارع في العنف والمرارة والهول حصار صور وقرطاجة. وقد فعل تيتوس ذلك محاولاً أن يقضي على الشعب اليهودي القضاء المبرم إلا أنه في الواقع زاد الشعب اليهودي قوة بتدميره النقطة الوحيدة الحساسة المهيضة فيه.

مرت بين العودة من الأسر وبين تدمير أورشليم قرون خمسة انقضت في حروب واضطرابات أهلية داخلية، ولكن ظل اليهود أثناءها محتفظين بصفات معينة ثابتة. فاليهودي لم يفتأ يؤمن بوحدانية الإله إيمانًا راسخًا؛ وهو لا يقبل أي إله آخر إلا الإله الواحد الحق. وإنه ليقف في روما كما يقف في أورشليم رافضا في رجولة عبادة أي قيصر رب. كما أنه استمسك جهد طاقته بمواثيقه مع ربه. فلم يكن يسمح بدخول أية تماثيل منحوتة إلى أورشليم؛ بل إن الأعلام الرومانية نفسها بما عليها من نسور اضطرت أن تبقى خارج المدينة.

وإنك لتستطيع أن تتعقب عند اليهود اتجاهين فكريين متباعدين أثناء تلك المئات الخمس من السنين. فأنت واجد إلى اليمين، إن جاز لنا مثل هذا التعبير، فئة اليهود العليا المتشددة، وهم الفريسيون الذين يستمسكون بعقيدة السلف أبلغ استمساك ويحافظون تماما حتى على أدق تفاصيل الشريعة؛ وهم شديدو الوطنية قويو النزعة الانعزالية. وحدث ذات مرة أن سقطت أورشليم في يد الملك السلوقي أنطيوخوس الرابع، لأن استمساكهم بعقيدتهم أبى عليهم أن يدافعوا عنها يوم السبت حين يحرم عليهم العمل. وكذلك ترتب على امتناع اليهود فيما بعد عن بذل أي جهد يوم السبت لتدمير أدوات الحصار الذي ألقاه بومبي العظيم على أورشليم، أنه استطاع أن يستولي عليها.

ولكن كان يوجد لقاء هؤلاء اليهود المتشددين، يهود أُخر واسعو الأفق، هم يهود اليسـار، الـذين كـانوا يؤمنون بالمذاهب الهلينية، ويمكن أن يضم إليهم الصدوقيون (Sadducees) – الذين لم يكونوا يعتقدون فـي الخلود. وكان هؤلاء اليهود الأخيرون وهم اليهود الواسعو الأفق، يميلون جميعا – وإن بدرجات متفاوتـة – إلى الامتزاج والاندماج في الإغريق والشعوب "المهلّنة" المحيطة بهم. وكانوا على أتم الأهبة أن يقبلـوا فـي مذهبهم أتباعا جددا، وبذلك يتقاسمون ربوبية الرب ووعده مع البشرية كافة. بيد أن ما كسبوه مـن السـماحة وسعة الأفق خسروه في ناحية الاستقامة وحسن السمعة. فهم في "بلاد اليهودية" يعتبرون العلمانيين المتكالبين على الأمور الدنيوية. ولقد ذكرنا من قبل كيف أن يهود مصر المهلّنين فقدوا لغتهم العبرية واضـطروا إلـى نقل توراتهم إلى الإغريقية.

وظهر في "بلاد اليهودية" في أيام طيبريوس قيصر، معلم عظيم قُدر له أن يحرر الإدراك العميق لبـر ا ووحدانيته التي لا تقبل تحديا ولا جدلاً، والتزامات الإنسان المعنوية نحو ا ، وهي التي كانت دعامـة لقـوة العقيدة اليهودية السلفية، - يحررها من ذلك التشدد الضيق الاعتزالي الجشع، الذي كان يخالطها في الـذهن اليهودي على أبلغ صورة خارقة. كان ذلك المعلم هو يسوع (عيسى) الناصري، الذي هو نواة المسيحية أكثر منه مؤسسها.

٢- تعاليم يسوع (عيسى) الناصري

إن الجمهور الذي سيقدم إليه هذا الكتاب أول ما يقدم، سيكون معظمه من المسيحيين، وربما يكـون فيـه بعض قراء متناثرين من اليهود، والأولون على أقل تقدير، يعدون يسوع الناصري شيئًا أعظـم كثيـرا مـن مجرد معلم من البشر، كما يعدون ظهوره في العالم ليس حدثًا طبيعيا في التاريخ بل شيئًا إعجازيـا خارقًـا، يعترض ويغير ما للحياة من ناموس ثابت للتطور يهدف إلى "وعي مشترك وإرادة مشتركة" ويحولـه عـن سبيله – الأمر الذي ما برحنا حتى الآن نقفو أثره في هذا الكتاب. بيد أن هذه المعتقدات على ذيوعهـا فـي أوربا وأمريكا، ليست مع ذلك معتقدات الناس كافة ولا الغالبية العظمى من الجنس البشري، ونحن إنما نكتب هذه "المعالم" في التاريخ الحياة، مجانبين بأقصى مستطاعنا كل ما من شأنه أن يثير منازعة أو جدلاً. كما أننا نحاول أن نفترض ونحن نكتب أن من سيقرءون هذا الكتاب من الهندوك أو المسلمين أو البوذيين يعدلون في عددهم من يقرءونه من الأمريكيين والأوربيين الغربيين. لذلك سنستمسك بالحقائق الظاهرة استمسـاكًا دقيقًـا ونجانب – دون أية منازعة أو إنكار – كل الشروح اللاهوتية التي فرضت عليها فرضا.

وسنخبرك بما اعتقده الناس في يسوع الناصري، أما هو فإنّا سننظر إليه كما بدا، أي بوصفه بشرا علـى نحو ما يفعل المصور تماما حيث يلتزم حين يصوره إظهاره في صورة البشر. وسنعالج الوثائق التي تـدون أعماله وتعاليمه على أنها وثائق بشرية عادية. فإذا سطع ضياء الألوهية من خلال تلاوتنا لها، فلن نعينه ولن نحجبه. وهذا هو ما فعلناه آنفًا في حالة بوذا، وهو ما سننهجه قريبا مع محمد (ﷺ). فليست مهمتنا أن نكتب عن يسوع من الناحية اللاهوتية بل من وجهة التاريخ. وليست عنايتنا موجهة إلى أهميـة حياتـه الروحيـة واللاهوتية، بل إلى تأثيراتها على حياة الناس السياسية واليومية.

ويكاد يكون المصدر الوحيد لمعلوماتنا عن شخصية يسوع (عليه السلام) محصورا في الأناجيل الأربعـة (Gospels)، وكلها كانت بالتأكيد موجودة بعد وفاته ببضع عشرات من السنين، ومن الإشارات إلى حياتـه في رسائل (Epistles) الدعاة المسيحيين الأوائل، ويظن الكثيرون أن الأناجيل الثلاثة الأولى، متّى ومرقص ولوقا، مستمدة من بعض وثائق أقدم منها؛ ولكن إنجيل القديس يوحنا يتصف بطابع أخص وأبرز؛ كمـا أنـه يصطبغ بصبغة لاهوتية ذات طابع هليني قوي. ويميل النقاد إلى اعتبار إنجيل القديس مرقص أصح ما كتب عن شخص يسوع وأعماله وأقواله وأجدرها بالثقة. بيد أن الأناجيل الأربعة جميعا تتفق في إعطائنا صـورة لشخصية واضحة الحدود تماما. وهي تحمل من الاقتناع بصحتها نفس ذلك الاقتناع الذي تحمله إلينا البيانات الأولى المتواترة عن بوذا وبالرغم مما أضيف إلى القصة من إضافات معجزية وأمور لا تصدق، فإن المرء لا يسعه إلا أن يقول "إن هنا لإنسانًا حقًا. إذ ليس من الممكن أن يكون هذا القسم من القصة من نسج الخيـال والاختراع".

ولكن كما أن شخصية جوتاما بوذا قد شوهت وانطمست وراء تلك الصور الجامدة المتربعة التـي عليهـا وثن البوذية المتأخرة المذَهب، فكذلك يشعر المرء أن شخص يسوع النحيل المكدود قد أضر به كثيـرا ذلـك الجو الوهمي وتلك الروح التقليدية اللذان فرضهما على صورته في الفن المسيحي الحديث تبجيل خاطئ مـن رسام تقي قانت. كان يسوع معلما ذا خصاصة، يتجول في "بلاد اليهودية" المتربة اللافحة الشمس، ويعـيش على هبات عرضية من الطعام؛ ومع ذلك فإنه يصور على الدوام نظيفًا ممشط الشعر مرجله صقيل الإهاب، نقي الثياب مستقيم العود، ومن حوله سكون لا يريم كأنما هو منزلق في الهواء. وهذا وحده قد جعله وهما لا يؤمن به الكثير من الناس، الذين لا يستطيعون أن يميزوا بين لباب القصة وبين زخرف إضـافات التحسـين والتحلية غير الموفقة التي يضيفها بعض المتبتلين بغباء.

ومن الجائز أن الأجزاء الأولى من الأناجيل استطرادات وإضافات من نفس هذا الطراز. فإن المعجـزات المتصلة بمولد يسوع: ذلك النجم العظيم الذي جاب الحكماء من الشرق ليعبدوا ا عاكفين عند مهده بالمِذْود، ومذبحة الأطفال الذكور في بيت لحم بأمر هيرودس نتيجة لهذه الظواهر والنذر، والهرب إلى مصر، إنما هي أمور يظنها كلها كثير من الثقات من أمثال تلك المواد المضافة. وهي في خير أحوالها حوادث لا ضرورة لها للتعاليم، وهي تسلبها الشيء الكثير مما لها من قوة وسلطان عندما تجرد من مثل تلك الإضافات وكذلك الشأن في مسألة النسب المتناقضة التي أوردها متى ولوقا، والتي يحاولان فيها إرجاع النسب المباشر لأبيه يوسـف إلى الملك داود، كأنما كان شرفًا ليسوع أو لأي إنسان آخر أن يكون رجل كهذا أحد أسلافه. وإدخـال هـذه الأنساب أشد إمعانًا في الغرابة ومنافرة المعقول لأن يسوع كما تقول القصة لم يكن ابنًا ليوسف بتاتًا، إذ قـد حملت فيه أمه بطريقة إعجازية.

فإذا نحن جردنا هذه القصة من هذه الإضافات العسيرة، وجدنا أنفسنا إزاء كائن مكتمل الإنسانية موفـور الجد مرهف العاطفة والحساسية، عرضة للغضب السريع، يعلم الناس مبادئ جديدة بسيطة عميقة: هي أبـوة الرب العامة المحبة ومجيء مملكة السماء. وغني عن البيان أنه كان شخصا – إن جاز لنا أن نطلق عليه هذا اللفظ العادي – ذا جاذبية شخصية بالغة القوة. فكان يجتذب إليه الأتباع ويملؤهم بالحب والشـجاعة. وكـان الضعفاء والمرضى من الناس يتشجعون بحضرته ويبرءون مما بهم، ومع ذلك فإنه كان على الأرجح ذا بنية ضعيفة، استنتاجا منا من السرعة التي مات بها من آلام الصلب. وهناك خبر متواتر يقول بأنه أغمي عليـه عندما كلف بأن يحمل صليبه إلى مكان التنفيذ كما جرى بذلك العرف. وكان يناهز الثلاثين من عمره عنـدما شرع لأول مرة يعلم الناس. وظل يجوب البلاد ثلاثة أعوام ينشر مبادئه، ثم هبط أورشليم، واتهم بأنه يحاول أن يقيم مملكة عجيبة في "بلاد اليهودية"، وحوكم بهذه التهمة، وصلب مع اثنين من اللصوص. وقبل أن يموت هذان بزمان طويل كانت آلامه قد انتهت.

ومن الحقائق الثابتة أن ما تحويه الأناجيل من مجموعة الأخبار والتأكيدات اللاهوتية التي تؤلف المبـادئ المسيحية الطقوسية لا يقوم إلا على سند محدود جدا. إذ لا يوجد في هذه الكتب كما قد يرى القارئ بنفسه، ما يدعم ويؤيد كثيرا من تلك المبادئ التي يرى معلمو المسيحية على اختلاف نحلهم أنها ضرورية بوجه عـام للخلاص. فإن سندها من الأناجيل غالبا ما يكون سندا غير مباشر ومعتمدا على الإشارة. ولا بـد إذن مـن تصيد ذلك السند تصيدا وإقامة الحجة عليه بالبحث والمجادلة. وفيما عـدا بعـض فقـرات تـدور حولهـا المنازعات، يعسر عليك أن تجد كلمة تنسب فعلاً إلى يسوع فسر فيها مبادئ الكفّارة والفداء أو حـض فيهـا اتباعه على تقديم القرابين أو تناول سر مقدس [1] (Sacrament) (وهي أعباء وظيفـة رجـال الكهنـوت). وسنرى من فورنا كيف مزق الشقاق حول مسألة الثالوث فيما بعد، العالم المسيحي بأسره. وليس هناك مـن دليل واضح على أن حواريي المسيح اعتنقوا ذلك المبدأ. كذلك لا يبرز هو دعواه أنه "المسـيح" ولا يضـفي على اشتراكه مع ا في الربوبية أي ثوب بارز ربما أحسسنا أنه لم يكن ليفوته أن يضفيه لو أنه كان يـراه أمرا في الدرجة الأولى من الأهمية.

ومن أشد ما يحير اللب قوله (إنجيل متى: الإصحاح ١٦ – ٢٠): "حينئذ أوصى تلاميذه ألا يقولوا لأحـد إنه يسوع المسيح" فمن العسير أن يفهم الإنسان السر في هذا المنع [2]، إذا فرضنا أنه كان بعد هذه الحقيقـة من ضروريات الخلاص.

ثم إن مراعاة طقس السبت اليهودي، وهو الذي استبدلوا به الأحد الميثرائي [3]، ظاهرة هامة عند كثير من النحل المسيحية، على أن يسوع لم يرع السبت معتمدا وقال إنه خلق لأجل الإنسان، ولم يخلق الإنسان لأجـل السبت. وهو لم يفُه بكلمة واحدة عن عبادة أمه مريم في صورة إيزيس مليكة السماء، كما أن الكثير مما هـو من أخص خصائص المسحية في العبادة والطقوس لقي منه إغضاء تاما. ولقد بلغ من جرأة الكتّاب المتشككين أن أنكروا إمكان أن يسمى يسوع مسيحيا على الإطلاق. ويجب على كل قارئ أن يلجأ إلى مرشديه الـدينيين ليستضيء بهديهم في هذه الثغرات الخارقة في تعاليمه. ونحن ها هنا ملزمون بأن نذكر تلك الثغرات لما تولد عنها من صعوبات ومنازعات، كما أننا مضطرون أيضا ألا نتوسع فيها.

ومما يسترعي الأنظار أيضا، تلك الأهمية الهائلة التي يضفيها يسوع على الفكرة التعليمية التـي أسـماها "مملكة السماء"، وعدم أهميتها النسبية في إجراءات وتعاليم غالب الكنائس المسيحية.

---

(1) على أن السيد المسيح عليه السلام: "أخذ خبزا وشكر وكسر وأعطاهم قائلاً هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم: اصـنعوا هـذا لذكري" (لوقا ٢٢ : ١٩). (المترجم).

(2) كان المنع لحكمة، لأن الجهر بأنه المسيح كما تقول الدوائر المسيحية المطلعة كان يؤدي إلى إيقاف الصلب، والصلب وسيلة الخلاص. (المترجم).

(3) انظر المعالم جـ ٢ ط٣ ص ٥٤٥، ٦٣٣. (المترجم).

إن هذا المبدأ، مبدأ مملكة السماء، الذي كان رأس تعاليم يسوع، والذي يلعب دورا ضئيلاً جدا في العقائـد المسيحية، إنما هو ولا مراء من أشد المبادئ الثورية، التي قدر لها – أبد الدهر كلـه – أن تحـرك الفكـر الإنساني وتغيره. فلا غرو إذن أن عالم ذلك الزمان فاته أن يدرك مغزاها الكامل – وتراجع يائسـا مرتاعـا ناكصا عن أية درجة من الفهم لتحدياتها الهائلة لعادات الجنس البشري ونظمـه الراسـخة. ولا عجـب أن المسيحي الحديث والتلاميذ الجدد المترددين ينقلبون من فورهم إلى الفكرات المألوفة القديمة: فكرات المعبـد والهيكل والآلهة الشرسة، ومرعيات الاسترضاء والكاهن المتكرس والبركات السحرية. ولم تلبث رعاية القوم لهذه الأمور، أن انتكست بهم ثانية إلى الحياة القديمة المألوفة الأثيرة، حيـاة الأحقـاد والأربـاح والمنافسـة والاستكبار. ذلك أن مبدأ مملكة السماء، كما يلوح أن يسوع كان يبشر به، لم يكن ليقل عن طلب جـريء لا هوادة فيه ينادي بإدخال تغيير وتطهير كاملين على حياة جنسنا المناضل، أي إحداث تطهير شامل مطلق في جوانية الناس وبرانيتهم [1]. وعلى القارئ أن يرجع إلى الأناجيل ملتمسا كل ما تبقى من هذه التعليمة الهائلة. فلسنا هنا بمعنيين إلا بالزلزلة القوية التي أحدثتها في الفكرات الوطيدة القائمة.

كان اليهود على اقتناع تام بأن ا ، الرب الأوحد للعالم بأسره – رب بر وهدى، بيد أنهم زعموه كذلك ربا متّجرا، أتم مع أبيهم أبراهام (إبراهيم) صفقة هم قوامها، وهي لا جرم صفقة طيبة جدا لهم، هي أن يـرفعهم آخر الأمر إلى مكانة الصدارة في الأرض. ولشد ما كان ارتياعهم وغضبهم عندما شهدوا يسوع يكتسح أمامه كل ما يعتزون به من ضمانات، إذ يعلّم الناس أن ا ليس من المساومين. وأن ليس هناك شعب مختار، ولا أحظياء في ملكوت السماوات. وأن ا هو الأب المحب لكل الأحياء، وأنه لا يستطيع اختصـاص الـبعض بالرعايات وعدم استطاعة الشمس ذلك سواء بسواء. وأن الناس جميعا إخوة كلهم خاطئ آثـم وكلهـم أبنـاء محبوبون لذلك الأب القدوس. وإن يسوع في ضربه للناس مثل ذلك السامري الطيب، قد ازدرى ذلك الميـل الطبيعي الذي تخضع له نفوسنا جميعا، والذي ننزع به إلى تمجيد شعبنا نحن وإلى الحط من شأن مـا لـدى النحل الأخرى والأجناس الأخرى من هدى وبر. وإنه في المثل الذي ضربه عن العمال قـد اطّـرح تلـك الدعوى العنيدة التي يدعي بها اليهود بأن لهم ضربا من حق الرهن الأول على ا جل جلاله. فـا – كمـا علم السيد المسيح – يخدم على السواء كل أولئك الذين يتلقاهم في الملكوت. فليس هناك تمييز في معاملتـه إذ ليس لفضله وطيبته من حدود. وهو فضلاً عن ذلك يطالب الناس جميعا ببذل أقصى ما في مستطاعهم – كما يشهد المثل الذي ضربه عن "الوزنة المدفونة" وكما تعززه حادثة فَلْس الأرملة. وليست هناك أيـة امتيـازات ولا خصم في الأسعار ولا معاذير في مملكة السماء.

---

(1) يقول رسول ا صلى ا عليه وسلم : "أصلح جوانيتك يصلح ا برانيتك". (المترجم).

بيد أن يسوع لم يقتصر فقط على ازدراء وطنية اليهود القبلية الحادة وحدها، فإنهم كانوا أيضـا شـعبا ذا ولاء عائلي شديد، وذلك بينما كان يسوع يبتغي أن يكتسح طوفان جارف من حب ا كل العواطف العائليـة المتشددة الحافلة بالقيود الضيقة. فلم يكن بد لمملكة السماء بأسرها من أن تكون عائلة أتباعه. ويحدثنا الإنجيل أنه "وفيما هو يكلم الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجا طالبين أن يكلموه. فقال له واحـد: هـو ذا أمـك وإخوتك واقفون خارجا طالبين أن يكلموك. فأجاب وقال للقائل له: من هي أمي ومن هم إخوتي؟ ثم مد يـده نحو تلاميذه وقال: ها أمي وإخوتي!! لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي وأمـي"، (إنجيل متى الإصحاح الثاني عشر ٤٦ – ٥٠).

ولم يقتصر يسوع على كيل الضربات للوطنية ولروابط الولاء العائلي باسم أبوة ا العامة وأخوة الجـنس البشري أجمع، بل إن من الواضح أن تعاليمه كانت تستنكر كل ما ركب عليه النظام الاقتصادي من تدرجات ومراتب وكل ثروة خاصة وكل منفعة شخصية. فالناس جميعا ينتمون إلى الملكوت؛ وكل ممتلكـاتهم تنتمـي إلى الملكوت؛ والحياة الصالحة البرة لكل الناس، الحياة البرة الوحيدة، إنما هي في خدمة إرادة ا بكـل مـا لدينا من عدة وبكل ما نملك من كيان. ولطالما شهر بالثروة الخاصة مرة بعد مرة، كما ذم مدخرات الأفـراد وعمل الاحتياطات في حياتهم الخاصة.

"وفيما هو خارج إلى الطريق ركض واحد وجاء له، وسأله: أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحيـاة الأبدية. فقال له يسوع لماذا تدعوني صالحا؟ ليس أحد صالح إلا واحد وهو ا . أنت تعـرف الوصـايا: لا تزن، لا تقتل، لا تسرق، لا تشهد بالزور، لا تسلب، أكرم أباك وأمك. فأجاب وقال له يا معلـم هـذه كلهـا حفظتها منذ حداثتي. فنظر إليه يسوع وأحبه وقال له يعوزك شيء واحد، اذهب بع كل مالك وأعط الفقـراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني حاملاً الصليب. فاغتم على القول ومضى حزينًا لأنه كان ذا أمـوال كثيرة.

"فنظر يسوع حوله وقال لتلاميذه: ما أعسر دخول ذوي المال إلى ملكوت ا ! فتحير التلاميذ من كلامـه. فأجاب يسوع أيضاً وقال لهم: يا بني، ما أعسر دخول المتكّلين على الأموال إلى ملكوت ا . مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت ا " (إنجيل مرقس. الإصحاح العاشر ١٧ – ٢٥).

وفضلاً عن ذلك فإن يسوع في نبوءته الهائلة عن هذا الملكوت الذي يجمع الناس كلهم ويجعلهم فردا واحدا في ا ، كان يضيق صدرا بما في الديانة الرسمية من بر وصلاح يقوم على المساومة.

وهناك أيضا جزء كبير من أقواله المسجلة موجه ضد الرعاية الدقيقة لقواعد التقوى وحياة التقى. "واجتمع إليه الفريسيون وقوم من الكتبة قادمين من أورشليم. ولما رأوا بعضا من تلاميذه يأكلون خبزا بأيد دنسـة أي غير مغسولة لاموا. لأن الفريسيين وكل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم باعتناء لا يأكلون متمسكين بتقليد الشيوخ. ومن السوق إن لم يغتسلوا لا يأكلون. وأشياء أخرى كثيرة تسلموها للتمسك بها من غسل كئـوس وأبـاريق وآنية نحاس وأسرة. ثم سأله الفريسيون والكتبة لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ بل يأكلون خبـزا بأيد غير مغسولة. فأجاب وقال لهم: حسنًا تنبأ إشَعياء عنكم أنتم المرائين كما هو مكتوب. هذا الشعب يكرمني

بشفتيه، أما قلبه فمبتعد عني بعيدا. وباطلاً يعبدونني وهم يعلمون تعاليم هي وصايا الناس. لأنكم تركتم وصية ا وتتمسكون بتقليد الناس. غسل الأباريق والكئوس وأمورا أخرى كثيرة مثل هذه تفعلون. ثم قال لهم: حسنًا، رفضتم وصية ا لتحفظوا تقليدكم" (إنجيل مرقس. الإصحاح السابق ١ – ٩).

كذلك أيضا، نستطيع أن نلحظ عشرات المواضع التي ازدرى فيها تلك الفضيلة الأثيرة لدى المستمسكين بالشكليات، وأعني بها رعاية السبت.

لم يكن ما أعلنه يسوع مجرد ثورة أخلاقية واجتماعية. فإن من الواضح من عشرات الدلائل، أن تعاليمه كان لها طابع سياسي من أبسط الأنواع وحقًا إنه قال إن مملكته ليست من هذا العالم ولكنها موجودة في قلوب الخلْق، وليست فوق عرش؛ ولكن يضارع هذا في الوضوح أنه حيثما أقيمت مملكته وأيا كان المدى الذي تقوم به في قلوب الخلْق، فإن العالم الخارجي يتجدد ويحدث له انقلاب ثوري بنفس ذلك المدى بالضبط.

ومهما يكن ما فات سامعيه من أشياء أخرى من أقواله بسبب صممهم وعمايتهم، فإن من الواضح أنهم لم يخف عليهم اعتزامه إحداث انقلاب ثوري في العالم. وبعض الأسئلة التي كانت تحمل إلى يسوع والأجوبة التي أدلى بها، تمكننا من أن نحدس نوع واتجاه الكثير من تعاليمه غير المسجلة. فإن نزعته الصريحة في مهاجمته السياسية تتجلى في حادثة كحادثة العملة.

"ثم أرسلوا إليه قوما من الفريسيين والهيروديسيين لكي يصطادوه بكلمة. فلما جاءوا قالوا له: يا معلم، نعلم أنك صادق ولا تبالي بأحد، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس، بل بالحق تعلم طريق ا . أيجوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا؟ نعطي أم لا نعطي؟ فعلم رياءهم وقال لهم: لماذا تجربونني؟ إيتوني بدينار لأنظره. فأتوا به. فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ فقالوا له لقيصر. فأجاب يسوع وقال لهم: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما " (إنجيل مرقس. الإصحاح الثاني عشر ٢٣ – ١٧)، وهي قصة لو نظرنا إليها على ضوء سائر ما علمه، لم تبق لقيصر إلا الشيء القليل من نفوس الناس أو مما يمتلكون..

وإن الجو الذي يتكنف خصومه ومعارضيه وظروف محاكمته وإعدامه، لتظهر بأجلى بيان أنه كان يلوح لعين معاصريه في صورة من يقترح صراحة – بل من قد اقترح فعلاً صراحة – تغيير الحياة الإنسانية برمتها وصهرها وتوسيع جنباتها. ولكن حتى تلاميذه أنفسهم لم يدركوا المغزى العميق الشامل الذي ينطوي عليه ذلك الاقتراح. إذ كان لا يزال يغشي على عقولهم الحلم اليهودي القديم بملك أي مسيح يقضي على سلطان أسرة هيرودس المهلنين والسيد الأعلى الروماني، ويسترجع أمجاد داود الأسطورية ولعمري لقد أغفلوا مادة تعاليمه، على ما كان بها من وضوح وقصد إلى الغاية؛ وواضح أنهم زعموا أنها لم تكن إلا طريقته الخفية الفذة للبدء في المغامرة التي ترفعه آخر الأمر إلى عرش أورشليم. فزعموه مجرد ملك جديد في سلسلة الملوك التي لا نهاية لها، ولكن من طراز شبه سحري ينطق بتصريحات شبه سحرية عن فضيلة مستحيلة.

"وتقدم إليه يعقوب ويوحنا ابنا زبدي قائلين: يا معلم نريد أن تفعل لنا كل ما طلبنا. فقال لهما: ماذا تريدان أن أفعل لكما؟ فقالا له: أعطنا أن نجلس واحد عن يمينك والآخر عن يسارك في مجدك. فقال لهما يسوع لستما تعلمان ما تطلبان، أتستطيعان أن تشربا الكأس التي أشربها أنا وأن تصطبغا بالصبغة التي أصطبغ بها أنا؟ فقالا له نستطيع، فقال لهما يسوع: أما الكأس التي أشربها أنا فتشربانها، وبالصبغة التي أصطبغ بها أنا تصطبغان. وأما الجلوس عن يميني وعن يساري فليس لي أن أعطيه إلا للذين أُعِد لهم. ولما سمعوا العشرة ابتدءوا يغتاظون من أجل يعقوب ويوحنا. فدعاهم يسوع وقال لهم أنتم تعلمون أن الذين يحسبون رؤساء الأمم يسودونهم وأن عظماءهم يتسلطون عليهم. فلا يكون هكذا فيكم. بل من أراد أن يصير فيكم عظيما يكون لكم خادما ومن أراد أن يصير فيكم أولاً يكون للجميع عبدا. لأن ابن الإنسان أيضا لم يأت ليخدم بل ليخْدم. وليبذل نفسه فدية عن كثيرين" (إنجيل مرقس. الإصحاح العاشر ٣٥ – ٤٥).

كان هذا أسوأ عزاء لأولئك الذين كانوا يبحثون عن جزاء مناسب لخدماتهم ومتاعبهم التي يلاقونها في اتباعهم إياه. فلم يستطيعوا أن يصدقوا هذا المبدأ الشديد القائل بمملكة قوامها الخدمة كانت في حد ذاتها هي جزاءها العظيم الأوفى. ومع ذلك فإنهم حتى بعد وفاته على الصليب، استطاعت عقولهم أن تقبل بعد انقشاع ذعرهم الأول، الانكفاء إلى الاعتقاد بأنه كان مع ذلك ينزع منازع العالم القديم عالم الأبهات والامتيازات. وأنه سوف يبعث حيا من فوره بإحدى عجيبات المعجزات، ويعود ويقيم عرشه بالأبهة العظيمة والسماحة الفياضة في أورشليم. لقد ظنوا أن حياته خطة محكمة وأن مماته أحبولة مدبرة.

كان أعظم من أن يصل إلي إليه فهم تلاميذه. وهل يعجب القارئ – بالنظر إلى ما قاله صراحا – أن يشعر كل الأغنياء والموسرين برعب من أشياء غريبة، وأن يحسوا بأن عالمهم يميد ويدور من حولهم بسبب تعاليمه؟ ولعل الكهنة والحكام والأغنياء فهموه أكثر وأحسن مما فهمه أتباعه. ذلك بأنه كان يستخرج دفين مدخراتهم الصغيرة الخاصة التي كونوها من الخدمة في مجتمعهم ويكشفها للأنظار في ضوء حياة دينية عامة. كان أشبه شيء بصياد أخلاقي رهيب يحفر عن الإنسانية ويخرجها من جحرها الدفيء الذي عاشت فيه حتى ذلك الحين. وتحت أنوار السراج الوهاج لمملكته هذه، لم يكن يجوز وجود أية ممتلكات ولا امتيازات ولا استكبار ولا أفضلية (أسبقية). ولعمر الحق ما كان فيها من حافز ولا جزاء إلا المحبة. أفمن العجيب إذن أن انبهر منه القوم وعميت عيونهم فتصايحوا كلهم عليه؟ بل إن تلاميذه أنفسهم تصايحوا به عندما رفض أن يعفي أعينهم من ساطع الضياء. أفمن العجيب إذن أن يدرك الكهنة أنه لم يكن بين هذا الرجل وبين أنفسهم خيار إلا أن يموت هو أو تهلك الكهانة؟ أعجيب إذن أن الجنود الرومانيين، وقد واجههم وأذلهم شيء يعلو على أفهامهم ويهدد كل أنظمتهم، يلوذون بالضحك الضاري، ويتوجون هامته بالشوك ويضعون عليه ثوبا أرجوانيا ليتخذوا منه قيصرا سخريا؟ ذلك أن أخذهم إياه أخذ الجد، كان معناه الدخول في غمار حياة عجيبة رهيبة، وترك مألوف العادات وضبط هائج الغرائز والدوافع، ومحاولة درك سعادة لا يصدقها عقل.

أفمن العجيب أنه حتى هذا اليوم، ما يفتأ هذا الجليلي أكبر مما تتسع له قلوبنا الصغيرة؟

٣- الديانات العامة الجديدة

ومع هذا فمما يجب ملاحظته أنه بينما كانت تعاليم يسوع الحقيقية تضم كثيرا من الأشياء التي لا يستطيع أن يقبلها غني أو كاهن أو تاجر أو موظف إمبراطوري أو أي مدني عادي محترم إلا وألم بطرائق حياته انقلاب هائل يقلبها رأسا على عقب، فلم يكن منها شيء لا يبادر إلى تقبله بقبول حسن رجل ممن يتبعون تعاليم جوتاما ساكيا الحقة، إذ ليس ثمة شيء يحول بين بوذي بدائي وبين أن يكون نصرانيا، وكذلك ما من شيء يمنع أحد التلاميذ المباشرين ليسوع من اعتناق تعاليم جوتاما بوذا المسجلة.

وإليك الآن هذه القطعة المقتبسة من كتابات رجل صيني هو "موتي" (١)، الذي كان يعيش في زمان ما في القرن الرابع ق. م، وقت ما كانت تعاليم كنفوشيوس ولاهوتزه منتشرة في الصين، قبل هبوط البوذية إلى تلك البلاد، فتأمل نغمتها وانظر كم هي نصرانية الروح.

"إن الاعتداءات المتبادلة بين دولة ودولة، والاغتصابات المتبادلة بين عائلة وأخرى؛ والسرقات المتبادلة بين الإنسان وأخيه الإنسان؛ وافتقار الملك إلى الرفق والوزير إلى الولاء؛ والحاجة إلى الحنان والواجب البنوي بين الوالد وولده – هذه وأمثال هذه أمور ضارة بالإمبراطورية. وكل هذا راجع إلى انتفاء الحب المتبادل. فلو أمكن فقط أن تعمم بين الناس تلك الفضيلة الواحدة، فلن يصبح للأمراء – وقد أحب أحدهم الآخر – أي ميادين للقتال؛ ولن يحاول رؤساء العائلات أن يأخذوا أي شيء غصبا؛ ولن يرتكب الرجال أية سرقة؛ ولاتصف الحكام والوزراء بالسماحة والولاء؛ ولأصبح الآباء رحماء والأبناء بررة؛ ولصار الإخوة منسجمين وأمسى التراضي بينهم هينا. ولو أن الناس عامة أحب بعضهم بعضا، لما انقض قويهم على ضعيفهم؛ ولما نهبت كثرتهم قلتهم، ولما أهان غنيهم فقيرهم، ولما أظهر شريفهم قحة مع وضيعهم، ولما غش خبهم (٢) بسيطهم (٣) ".

لا شك أن في هذا مشابهة عجيبة لتعاليم يسوع الناصري، وإن صب في قالب سياسي. وهكذا اقتربت أفكار "موتي" من ملكوت السماء.

وهذا التطابق الجوهري هو أهم سمة تاريخية تجمع بين أسباب هاتين الديانتين العالميتين. فإن بداياتهما كانت مخالفة تمام المخالفة لنحل الكاهن والمذبح والمعبد، وهي تلك النحل المقامة لعبادة آلهة محدودة المعالم معروفة الحدود واللاعبة في مراحل تطور الإنسانية الأولى بين ١٥,٠٠٠ ق. م و٦٠٠ ق. م دورا عظيما كل العظم هاما كل الأهمية. أما هذه الديانات العالمية الجديدة، من ٦٠٠ ق. م دورا عظيما كل العظم هاما كل الأهمية. أما هذه الديانات العالمية الجديدة، من ٦٠٠ ق. م فصاعدا، فهي بالضرورة ديانات القلب والعالم العلوي الشامل. وهي التي جرفت أمامها كل تلك الأرباب المتنوعة المحدودة التي خدمت حاجة الإنسانية، منذ

---

(١) عن "موتي" انظر للمترجم كتاب "التاريخ وكيف يفسرونه" الهيئة المصرية العامة للطباعة والنشر. (المترجم)

(٢) الخب: بكسر الخاء هو الغشاش الخادع . (المترجم)

(٣) نقلاً عن هيرث (The Ancient History of China) الفصل الثامن.

أن تلاحمت المجتمعات الإنسانية بعضها في بعض بعاملي الخوف والرجاء. وسنرى من فورنا عندما نصل إلى الإسلام أنه حدث للمرة الثالثة، أن ظهر ثانية نفس المبدأ الأساسي الجديد، مبدأ الحاجة إلى إخلاص عام من جميع الناس "لإرادة" واحدة. على أن محمدا اتعظ بما مر بالمسيحية من تجاريب، فكان حاسما باتًا في إصراره على أنه هو نفسه ليس إلا بشرا كغيره من الناس، وبذا وقى تعاليمه شرا كثيرا من الفساد والتصحيف.

ونحن حين نتحدث عن ديانات الإنسانية العظيمة هذه، التي نشأت فيما بين غزو الفرس لبابل وتصدع الإمبراطورية الرومانية، - إنما نتحدث عنها بوصفها عقائد متنافسة. على أن مرد ذلك التنافس هو نقائصها وما تكدس فيها من إضافات وما زاد عليها من نمو طفيلي، واختلافها في اللغات وطريقة التعبير. وما ينبغي أن نشخص بأبصارنا إلى غلبة واحدة منها على الأخرى، أو قيام أي بديل جديد يحل محلها جميعا، بل إلى الصدق الصراح في كل منها، بعد إذ يصهر تماما ويخرج نقيا من كل الشوائب والأدران ويغدو فيهن جميعا هو نفس الصدق الواضح المبين: - وأعني بذلك أن قلوب الناس ومعها حياة الناس وأنظمتهم جميعا، يجب أن تخضع "لإرادة" عامة واحدة تحكمها وتصرفها جميعا. ويقول نائب الأسقف إنج في إحدى مقالاته الصريحة الجريئة:

"إن القديس بولس قد فهم ما لم يدركه معظم المسيحيين، وأعني بذلك أن "بشارة المسيح" ليست "إحدى" الديانات ولكنها الدين نفسه في أشد معانيه شمولاً وعمقًا".

ومع أن الحماقة دفعت الناس إلى كتابة الشيء الكثير عن التضارب بين العلم والدين، فالحق أن ذلك التضارب شيء لا وجود له. فكل ما تصرح به كل هذه الديانات العالمية بطريق الوحي والاستبصار، إنما هو شيء يكشف فيه التاريخ مع ازدياد وضوحه، ويتبين فيه العلم مع اتساع أفقه – حقيقة معقولة يمكن إثباتها: هي أن الناس جميعا يكونون أخوة واحدة عامة، وأنهم يرجعون إلى أصل واحد مشترك على هذا الكوكب الصغير السابح بين النجوم. وإن العالم النفساني ليستطيع اليوم أن يقف إلى جانب الواعظ ويؤكد لنا أنه ليس هناك سلام للقلب معقول ولا توازن ولا أمان للروح، ما لم يجد الإنسان حياته بفقده إياها، وما لم يدرب غرائزه وعواطفه الضيقة المحدودة وينظمها. ولا يخفى أن جنسنا وتجاربنا الدينية الشخصية يسيران جنبا إلى جنب في تحاذ وثيق يخيل معه للمشاهد العصري كأنما هما شيء واحد تقريبا فكلاهما يتحدث عن كائن كان في بادئة أمره مشتتًا تحجب العماية عينيه ويكتنفه جو من مطلق الحيرة والارتباك، وهو يتحسس طريقه في بطء سائرا نحو صفاء وخلاص يجمعهما هدف منظم متماسك. ولعلكم ترون معي أن هذه هي معالم التاريخ في أبسط صورها؛ وسواء كان للمرء هدف ديني، أم كان ينكر كل هدف ديني إنكارا باتًا، فإن خطوط المعالم تظل كما هي.

٤- صلب يسوع الناصري

في ٣٠ م حين كان طيبريوس الثاني إمبراطورا على روما، وبيلاطس البنطي واليا على بلاد اليهودية، وقبل عيد الفصح بقليل، هبط يسوع الناصري إلى أورشليم. والراجح أنه هبطها عند ذاك لأول مرة في حياته. إذ كان حتى ذلك الحين يعظ الناس أكثر ما يعظهم في الجليل، ويعظهم في كثير من الأحوال بمدينة كفر ناحوم وما حولها. يعظهم هناك في معبد اليهود.

كان دخوله مدينة أورشليم نصرا سلميا. إذ اجتمع حوله في الجليل عدد عظيم من الأتباع، وكان يضطر في بعض الأحايين أن "يعلم" الناس من زورق في بحيرة الجليل، بسبب تزاحم الجمهور على الشاطئ – وتسامع الناس به وساقته شهرته إلى العاصمة. فخرجت جماهير غفيرة لتحيته. وواضح بين أنهم لم يفهموا منحى تعاليمه، وأنهم كانوا يشركون من حولهم في اقتناعهم العام، بأنه سيقلب النظام القائم بضرب من سحر البر والصلاح. وقد دخل المدينة راكبا جحشًا استعاره له تلاميذه، والجمهور يرافقه رافعا صوته بالتهليل والتكبير هاتفًا بكلمة (أوصنّا!! Hosanna) وهي لفظة تعبر عن الفرح.

فذهب إلى الهيكل. وكانت أفنيته الخارجية غاصة بمناضد الصيارف وبخوانات أولئك الذين يبيعون اليمام لكي يحرره زوار المعبد الأتقياء!!! وانبعث هو وأتباعه يطردون هؤلاء المتجرين على حساب الدين وقلبوا لهم مناضدهم. وتكاد هذه أن تكون فعلته الإيجابية الوحيدة.

ثم استمر يعلم الناس في أورشليم أسبوعا يحيط به جمهور من الأتباع جعلوا اعتقال السلطات له أمرا عسيرا. ثم جمعت الهيئة الرسمية أمرها ضد ذلك المقتحم الرائع. ذلك أن يهوذا (Judas) أحد تلاميذه ملأ الجزع واليأس قلبه لما شهده في استيلاء معلمه على أورشليم من قلة غناء وجدوى، فتقدم إلى الكهنة اليهود ليقدم إليهم نصيحته ومعونته في القبض على يسوع. فكوفئ على تلك الخدمة بثلاثين قطعة من الفضة. وكان لكبير الكهنة ولليهود عامة أسباب كثيرة تدعوهم للجزع من ذلك العصيان الوادع الذي كان يملأ الشوارع بالجماهير المنفعلة، فمن الجائز مثلاً أن يسيء الرومان فهم الأمر، أو أن ينتهزوه فرصة لإيقاع الأذى بالشعب اليهودي كافة. ومن ثم كان الحبر الأكبر قيافا (Caiaphas) – في بالغ قلقه على إظهار ولائه للحاكم الروماني الأعلى – على رأس من قاموا بالإجراءات التي اتخذت ضد ذلك المسيح (Messiah) الأعزل، وكان الكهنة وغوغاء أورشليم المتمسكون بعقيدتهم السلفية أكبر المتهمين ليسوع.

وتحدثنا الأناجيل في جلال ليس عليه من مزيد كيف قبض عليه في ضيعة جثسيماني (Gethsemane)، وكيف حوكم وأدين على يد بيلاطس البنطي الوالي الروماني، وكيف نكل به الجنود الرومان وسخروا منه، وصلبوه على التل المسمى بتل جلجثة (Golgotha).

بذلك انهارت الثورة انهيارا تاما وتخلى عنه تلاميذه عن بكرة أبيهم، ولما اتهم بطرس بأنه واحد منهم قال "إنني لا أعرف الرجل". إذ لم تكن هذه هي النهاية التي كانوا يرجونها من قدومهم العظيم إلى أورشليم. ولـم يشهده في ساعاته الأخيرة وهو على الصليب يعاني مرارة الألم المبرح والظمأ الشديد، سوى بضع نفر مـن النساء والأصدقاء الأدنين. حتى إذا قارب هذا يوم العذاب نهايته، استجمع ذلك الزعيم الذي تخلى عنه الناس جميعا كل قواه باذلاً آخر جهد لديه وصاح بصوت جهير "إلهي! لماذا تركتني؟" ثم أسلم الروح مخلفًـا هـذه العبارة ترجعها العصور، أحجية أبدية للمؤمنين.

ولم يكن بد من أن يحاول بسطاء المؤمنين أن يهولوا من عنف الذعر الرهيب المتولد عن هـذه المأسـاة، بإذاعتهم أقاصيص سخيفة عن حدوث اضطرابات في الطبيعة تشابه تلك التي اختلقت لتوكيد اهتداء جوتامـا إلى الصراط السوي. فإنهم يخبروننا أن ظلمة قد غشيت الأرض... وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل. وإذا كانت هذه الأمور حدثت حقًا، فهي لم تحدث أقل تأثير في أذهان الناس في أورشليم فـي ذلك الزمان. ومن العسير علينا في هذه الأيام أن نصدق أن نظم الطبيعة قد سمحت لنفسها بالانغماس في مثل هاته التعليقات الجوفاء على الأحداث. ولكن الشيء الأشد هولاً من هذا بكثير أن يفترض المرء وجود عالم لا يهتم فيما يظهر بهذه الصلبان الثلاثة القائمة تحت شفق المساء المقاني، ولا يأبه بتلك الجماعة الصـغيرة مـن النظارة المرتبكين المستوحشين. وأرخى الظلام على التل سدوله. وشـرعت المدينـة البعيـدة فـي القيـام باستعداداتها لعيد الفصح؛ وما من أحد سوى ذلك النفر القليل من المخزونين العائدين إلى منازلهم يعنى بـأمر يسوع الناصري هل هو لا يزال يعاني سكرات الموت أو هو قد قضى وانتهى بالفعل...

أما الحواريون فقد غمرت أرواحهم إلى حين غاشية من الظلمات الدامسة. ثم ما لبثوا أن دب بينهم تهامس ثم أقاصيص متناقضة أو تكاد... بأن جسم يسوع ليس في القبر الذي وضع فيه، وأن واحدا منهم ثم آخر قـد رآه حيا. وسرعان ما أخذوا يعزون أنفسهم بالاعتقاد بأنه قد بعث من بين أهل القبور، وأنـه أظهـر نفسـه للكثيرين، ثم صعد على مرأى من الناس إلى السماء. وجيء بشهود أعلنوا بلهجة التأكيد القـاطع أنهـم رأوه يصعد بجسمه ظاهرا للعيان. لقد ذهب يطوي طباق السموات الزرقاء – إلى الرب. وسرعان ما ألقـوا فـي روع أنفسهم أنه لا بد عائد من فوره، في قوة ومجد ليحكم البشرية كافة. وقالوا إنه يعود إلـيهم بعـد برهـة وجيزة؛ على أنهم – وهم ينعمون بإحياء حلمهم القديم البراق بمجد دنيوي يحقق ذواتهم غـاب عـنهم ذلـك النصيب الأعظم، النصيب الهائل الجبار الذي خولهم إياه يسوع من ملكوت ا .

٥- مبادئ أضيفت إلى تعاليم يسوع

إن قصة البدايات الأولى للمسيحية إنما هي قصة الكفاح بين التعاليم الحقـة والـروح المحـض ليسـوع الناصري وبين التحديدات التي فرضها، والإطنابات والزيادات التي أضافها، والمسائل التـي أسـاء فهمهـا، أولئك الرجال البسطاء الذين أحبوه وساروا في إثره من الجليل، والذين غدوا يومئذ حماة رسالته وحملتها إلى البشرية. وتقدم إلينا الأناجيل وأعمال الرسل سجلاً مرقعا غير متوازن، ولكن لا مجال للشك في أنه في جملته سجل تام الأمانة في تصوير تلك الأيام الأولى.

والناصريون الأوائل وهو الاسم الذي كان يطلق على أتباع يسوع، يتخبطون منذ البدايـة فـي غمـرات الحيرة العظيمة إذ يتنازعهم أمران: تعاليمه من ناحية وما استحدثه التلاميذ من ناحية أخـرى مـن صـنوف الشروح والتفاسير. وقد أقاموا من بعده زمانًا عاملين بسنته في قهر النفس التام؛ فجعلوا بضـاعتهم مشـاعا بينهم، ولم يتخذوا رابطة تربطهم إلا الحب. ومع ذلك فإنهم أسسوا عقيدتهم على الأقاصيص التي كانت تدور حول قيامته وصعوده السحري الخلاب، وحول عودته الموعودة. وقل منهم من كان يفهم أن التبرؤ من النفس ونبذها هو جزاؤها بعينه، وأنه هو نفسه مملكة السماء؛ وكانوا يعدون ذلك التبرؤ قربانًا يخولهم جـزاء مـن القوة والسيادة، عندما تحدث العودة الثانية عما قليل. وقد أصبحوا جميعا يـرون أن يسـوع هـو المسـيح الموعود، ذلك المسيا الذي طالما انتظره الشعب اليهودي. واكتشفوا في أقوال الأنبيـاء تنبـؤات بالصـلب – ويشدد إنجيل متى بصفة خاصة في تأكيد هذه التنبؤات. وأنعشت هذه الآمال المبـادئ النصـرانية، وشـدت أزرها بفضل الحياة الحلوة النقية التي كان يحياها كثير من المؤمنين، فأخذت تنتشر انتشارا بالغ السرعة فـي أرجاء بلاد اليهودية وسوريا.

وظهر للوقت معلم آخر عظيم، يعده كثير من الثقات العصريين المؤسس الحقيقي للمسيحية – وهـو شـاءول الطرسوسي أو بولس. ويظهر أن شاءول هو اسمه اليهودي وأن بولس هو اسمه الروماني. كان مواطنًا رومانيا، ورجلاً أوتي علما أوسع كثيرا وعقلية أضيق كثيرا مما يبدو أن قد أوتي يسوع. والراجح أنه كان يهودي المولد، وإن كان بعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك. ولا مراء في أنه تعلم على أساتذة من اليهود. بيد أنه كان متبحرا في لاهوتيات الإسكندرية الهلينية [1] وكانت لغته الإغريقية. ويقرر بعض علماء الأدب الكلاسيكي القـديم أن لغتـه الإغريقية غير مرضية؛ فهو لم يستخدم لغة أثينا، بل إغريقية الإسكندرية، بيد أنه استخدمها بقوة وطلاقة. وينعتها البروفسور جلبرت موراي بأنها "بالغة الجودة".. "وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفي للمدارس الهلينستية وبأساليب الرواقيين (Stoicism). على أن تمكنه من اللغة الراقية الرفيعة عظيم مدهش". كان صاحب نظرية دينية ومعلما يعلم الناس قبل أن يسمع بيسوع الناصري بزمن طويل، وهو في رواية العهد الجديد يبدو بادئ ذي بدء في إهاب الناقد المرير، والخصم العنيد والمضطهد الناشط للناصريين (النصارى) جميعا.

([1]) يفرق المؤرخون بين العصر الهيليني السابق على الإسكندر والهيلينستي الذي يجيء في تاريخ الإغريق بعد وفاة الإسـكندر إلى ظهور أوغسطوس قيصر. (المترجم).

ولم يوفق كاتب هذه السطور إلى العثور على أي بحث في آراء بولس الدينية قبل أن يصبح مـن أتبـاع يسوع. ولا بد أنها كانت أساسا لآرائه الجديدة وإن لم تزد عن قاعدة انطلاق لها، كما أن أسـلوب تعبيرهـا وطريقتها أسبغت بالتحقيق على مبادئه الجديدة وإن لم تزد عن قاعدة انطلاق لها، كما أن أسـلوب تعبيرهـا وطريقتها أسبغت بالتحقيق على مبادئه الجديدة لونًا خاصا. وإنا نكاد نتخبط في نفس الظلمات حـول تعـاليم عمالائيل، الذي يقولون إنه هو المعلم اليهودي الذي كان بولس يجلس عند قدميه. كذلك لسنا ندري مـا هـي التعاليم غير اليهودية التي درسها. ومن الراجح جدا أنه تأثر بالمثرائية. إذ هو يستعمل عبارات عجيبة الشبه بالعبارات المثرائية. ويتضح لكل من يقرأ "رسائله المتنوعة، جنبا إلى جنب مع الأناجيل، أن ذهنه كان مشبعا بفكرة لا تبدو قط بارزة قوية فيما نقل عن يسوع من أقوال وتعليم، ألا وهي فكرة الشخص الضحية الذي يقدم قربانًا كفارة عن الخطيئة. فما بشر به يسوع كان ميلادا جديدا للروح الإنسانية؛ أما ما علمه بـولس فهـو الديانة القديمة، ديانة الكاهن والمذبح وسفك الدماء طلبا لاسترضاء الإله. كان يسوع في نظـره حمـل عيـد الفصح، تلك الضحية البشرية المأثورة المبرأة من كل عيب ودنس التي تتعقب في إصرار ديانات الشـعوب البيضاء الداكنة [1]. أمد بولس الناصريين بقوة جارفة لأنه جاءهم بتفسيره هذا المقنع تماما لكارثة الصـلب. وكان تفسيره ذاك نورا ساطعا سلط على دياجير الحيرة المطلقة التي رانت على عقول الناس.

ولم ير بولس يسوع قط. ولا بد أنه استقى معرفته بيسوع وتعاليمه سماعا عن التلاميذ الأصـليين. ومـن الجلي أنه أدرك الشيء الكثير من روح يسوع ومبدئه الخاص بالميلاد الجديد، بيد أنه أدخل هذه الفكرة فـي صرح نظام لاهوتي، نظام يتسم بشديد البراعة والخفاء، لا تبرح فتنته إلى اليوم تسـتهوي العقـول "فكريـا" بصفة رئيسية. ومن الواضح أن عقيدة الناصريين التي وجدها على صورة مبدأ للحفـز والإثـارة وأسـلوب للعيش، قد تحولت على يديه إلى مذهب "إيمان". ذلك بأنه وجد الناصـريين ولهـم روح ورجـاء؛ وتـركهم مسيحيين لديهم بداية عقيدة.

بيد أننا يجب أن نرجع القارئ إلى "أعمال الرسل" و "رسائل بولس"، ليحصل على بيان واضح عن رسالة بولس وتعاليمه. كان رجلاً هائل الطاقة والنشاط، وقد علم الناس في أورشليم وأنطاكية وأثينـا وكورنثـوس وإفيسوس وروما.

ويحتمل أيضا أنه انحدر إلى إسبانيا. وليست طريقة وفاته بمعروفة على وجه التحقيق، ولكن يقال إنه قتل في روما إبان حكم نيرون. فقد شب حريق عظيم أتى على قسم كبير من روما، فاتهمت الطائفة الجديدة بأنها تسببت في ذلك الحريق. ولا شك أن انتشار المسيحية السريع مدين لبولس أكثر منه لأي رجل آخر بمفـرده. فلم تكد تمضي على صلب المسيح عشرون سنة، حتى استرعت هذه الديانة نظر الولاة الرومان في ولايـات عديدة. ولئن حصلت من يد القديس بولس على لاهوتها، فلقد ظلت محتفظة بالكثير مما لتعاليم يسـوع مـن السمة الثورية والبدائية. وقد أصبحت أكثر تسامحا نوعا ما مع الملكية الخاصة، وأصبح في وسعها أن تقبـل

([1]) يشير المؤلف بهذا إلى الشعوب البيضاء الداكنة الأعين والشعر والساكنة أصولها حول البحر المتوسط (انظر المعـالم ج١، ص ١٧٧، ط٣) (المترجم).

نصارى أغنياء دون الإصرار على جعل ثرواتهم مشاعا، واغتفر القديس بولس نظام الرق عندما قال: "أيهـا العبيد أطيعوا في كل شيء سادتكم" [1]، ومع ذلك فقد صمدت كالصخر لا تلين إزاء بعض النظم الجوهريـة في العالم الروماني. فإنها لم تجز البتة ربوبية قيصر. فلم يقبل المسيحيون قط أن يعبدوا الإمبراطور، حتـى ولا بإيماءة صامتة عند المذبح، رغم ما في ذلك من تعريض حياتهم للخطر. وإنها لتستنكر حفلات المجالدين [2]. وهكذا فإن المسيحية غير مسلحة بشيء إلا قوى هائلة من المقاومة السلبية، بدت منذ مستهلها في ثـوب ثورة صريحة، تكيل الضربات للأسس الجوهرية للنظام الإمبراطوري السياسي إن لم يكن الاقتصادي. وأول ما نجد في الأدب (: الكتابات) غير المسيحي من الشواهد على وجود المسيحية، يبدو عندما أخذ الموظفـون المرتبكون يكتب بعضهم لبعض ويتبادلون الآراء في المشكلة الغريبة الماثلة بين أيديهم، مشكلة ذيوع عـدوى ذلك العصيان الصادر من قوم لا شر يخشى منهم فيما عدا ذلك من شئون الدنيا.

ويغشى الغموض التام شطرا كبيرا من تاريخ المسيحيين في القرنين الأولين من الحقبة المسيحية. فمع أنهم انتشروا في كل أرجاء العالم، فإنا لا نعرف إلا القليل النادر من فكراتهم أو طقوسهم وطرائقهم أثنـاء ذلـك الزمان. ولم تكن لهم حتى حينذاك عقائد مستقرة، إذ لا شك أنه كانت هناك اختلافـات محليـة كبيـرة فـي معتقداتهم ونظمهم غير المتكيفة إبان ذلك العصر. ولكن مهما يبلغ ما بينهم من فوارق محلية، فيلـوح أنهـم كانوا في كل مكان يحملون الشيء الكثير من روح يسوع. ومع أنهم كانوا حيثما حلوا أثاروا ضـدهم عـداء مريرا ودعاية مضادة قوية، فإن نفس التهم الموجهة إليهم تشهد بما هم عليه من خير وصلاح عام.

وفي أثناء ذلك الأمد غير المحدد كان يحدث فيما يبدو قدر جسيم من ضرب بعينه مـن الثيوكرازيـا (أي التوحيد والمطابقة بين الآلهة المختلفة) بين النحلة المسيحية والعقيدة المثرائية التي تكاد تضارعها فـي سـعة انتشارها بين سواد الشعب، ونحلة سيرابيس إيزيس حورس [3]. ويبدو أن المسيحيين اقتبسوا من الأولى يـوم الأحد بوصفه يومهم الأكبر للتعبد بدلاً من يوم السبت اليهودي، كما استعاروا فكرة الإكثـار مـن اسـتعمال الشموع في الحفلات الدينية، وأسطورة أداء العبادة بواسطة الرعاة (أعني القسس)، كما اقتبسوا أيضـا فيمـا يرجح، تلك الفكرات أو العبارات التي لا تزال تمتاز بها إلى يومنا هذا بعـض الشـيع والتـي تـتكلم عـن "الاغتسال في دم" المسيح وعن كون المسيح تضحية بالدم. ذلك أنه لزام علينا أن نتذكر أن الموت صـلبا، لا يكاد يهرق من الدم أكثر مما يريقه الشنق؛ فتصوير يسوع في صورة المراق دمه من أجل البشرية، إنما هـو في الحقيقة من أشد العبارات بعدا عن الدقة. ونحن وإن تذكرنا أنه لقي التعذيب والتنكيل وأنه ألبس تاجا مـن الأشواك، وأن جنبه قد طعن بحربة، فإنا لا نزال أبعد ما نكون عن "نبع يفيض دما". بيد أن المثرائية، وكانت

---

(1) كانت روح يسوع، الروح الباعثة للحياة في المسيحية، والتي تسري في الأناجيل، تتعارض تعارضا تاما مع كل من الملكية الخاصة والرق، إلا أن اتجاه المسيحيين، لم يتعين إطلاقًا بمثل هذا التحديد. وكانوا في الغالب أميل إلى التخفيف منهم إلـى الإلغاء. (المؤلف).

(2) المجالد Gladiator، شخص، وبخاصة عبد أو أسير، يقاتل حتى الموت (في المجتلد Arena) أو إنقـاذ الحيـاة، لإمتـاع الجماهير بروما القديمة. (المترجم).

(3) سيرابيس كان مركبا من أوزيريس وأبيس (انظر ج ٢ ص ٣٨٨ من المعالم). (المترجم)

تتركز حول بعض الخفايا التي عفى عليها اليوم النسيان، تتخيل مثرا وهو يضحي بعجل مقدس خير. ويلـوح أن جميع المقاصير المقدسة المثرائية تزدان بصورة لمثرا وهو يذبح ذلك العجل، الذي ينزف دمه نزفًا عظيما من جرح في جنبه، ومن ذلك الدم نشأت حياة جديدة. وكان المريد المتعبد الميثرائي يستحم بالفعـل فـي دم عجل التضحية، وبذلك "يولد من جديد". وكان عند انخراطه في النحلة لأول مرة يدخل تحـت سـقالة يـذبح العجل عليها، فيسيل عليه دمه. ويخيل إلينا أنا نعالج هاهنا استمرارا لسفك الدماء البدائي للتضحية عند وقـت البذار، وهي فيما يحتمل الفكرة الدينية الأولى لأقدم مدنيات المعابد.

على أن ما أسهمت به نحلة الإسكندرية في الفكر المسيحي والطقوس المسيحية كان أعظم قدرا أو يكاد. إذ كان طبيعيا أن يجد المسيحيون في شخصية حورس، (الذي كان ابنًا لسيرابيس وهو سـيرابيس فـي نفـس الوقت)، شبيها مرشدا لهم فيما يبذلون من جهود عنيفة لتفهم ما خلفه لهم القديس بولس من خفايا. وقد كـان الانتقال من هذا إلى المطابقة بين شخصية مريم وإيزيس. ثم السمو بها مرتبة شبه قدسية – بالرغم مما سبق أن اقتبسناه من أقوال يسوع عن أمه وإخوته – خطوة طبيعية جدا كذلك. وكان طبيعيا كـذلك للمسـيحية أن تقتبس وهي لا تكاد تعي، الطرائق العملية للديانات الشائعة في ذلك الزمان. فاتخذ قساوستها طريقة الـرءوس الحليقة والزي الخاص بالكهنة المصريين، لأن ذلك كان يبدو الطريقة المثلى لتمييز القسس. وتتابعت البـدع واحدة في إثر الأخرى. وكانت نتيجة ذلك أن دفنت التعاليم الثورية الأصلية بطريقة تكاد تكون غير محسوسة تحت تلك "الإضافات المألوفة". ولقد حاولنا من قبل أن نتصور عودة جوتاما بوذا إلى التبت، واندهاله لعبـادة تمثاله في لهاسا (Lhassa). ولو أن أحد الناصريين (النصارى) المخلصين ممن عرف واتبع معلمه الأشعث الضاوي من السفر في وهج الشمس اللافح بالجليل، أعيد فجأة إلى هذا العالم ثم زار مثلاً قداسا فـي كنيسـة القديس بطرس بروما، فلسنا بحاجة إلى تصوير ما يحل به من دهشة كبرى مماثلـة عنـدما يعلـم أن تلـك الخشكنانة (القربان) الموجودة على المذبح إن هي إلا معلمه المصلوب.

والدين في مجتمع عالمي ليس أشياء عديدة وإنما هو شيء واحد، ومن ثم لم يكن مناص لكل العقائد الدينية الحية في عالم ذلك الزمان، وكل ما اتصل بالمسيحية من فلسفة وفكر ديني، من أن تتحاسب وتتبادل العبارات والفكرات والطقوس. وكانت آمال الناصريين الأول قد طابقت بين ذاتية يسوع وبين المسيح. ولكـن ذكـاء بوليس المتوقد أحاط سيرته بالأهمية المستبقية. وكان يسوع دعا الناس رجالاً ونساء إلى أداء واجب جبـار: هو إنكار الذات والميلاد الجديد في مملكة المحبة. وكانت أهون السبل على ضعيف الإيمـان المسـتجد فـي ديانته أن يفر بعيدا عن هذا المبدأ البسيط الصريح، ذلك الاقتراح الشديد الصلابة، - إلى الغوص في مسـائل ذهنية بحتة قوامها نظريات ومراسم معقدة لا تمس جوهر نفسه بأي حال فما أسهل أن ينضح الإنسان ذاتـه بالدم ومن أن يطهر نفسه من الحقد والمنافسة؛ وأن يأكل الخبز ويشرب النبيذ مدعيا أنه قد امتص الألوهيـة؛ وأن يفضل تقديم الشموع على تقديم القلب، وأن يحلق الرأس ويستبقي النفس الأمارة بالسوء المسـتقرة فـي داخله!! كان العالم غاصا بأمثال هذه الفلسفة التهريبية والمادة اللاهوتية في القرون الاستهلالية الأولى للحقبـة المسيحية. وليس يعنينا هنا أن نتوسع في تفصيل الظواهر المميزة للأفلاطونية الحديثـة (Neoplationism)

[١] والأدرية [٢] (Gnosticism) والفيلونية (Philonism) [٣] وما إليها من تعاليم كانت كثيرة في العالم الإسكندراني. بيد أن الواقع أنه كان كله عالما واحدا، ذلك العالم الذي جمع بين هؤلاء وبين المسيحيين الأول. وتشهد كتابات رجال من أمثال أوريجين (Origen) وأفلوطين (Plotinus) وأوغسطين (Augustine) – بحركة الأخذ والعطاء التي لم يكن منها مفر في ذلك الزمان.

وقد سمى يسوع نفسه ابن ا وابن الإنسان أيضا؛ بيد أنه لم يركز إلا أقل الاهتمام بشخصه: من هو؟ أو ما هو؟ وإن اشتد تركيزه كثيرا على التعاليم المتعلقة بالملكوت. وعندما صرح بولس وأتباعه الآخرون بأنه أكثر من إنسان وأنه إله، فإنهم – أخطئوا أم أصابوا – قد فتحوا ميدانًا هائلاً من الجدل. فهل كان يسوع ربا؟ أم أن الرب خلقه؟ هل هو والرب سواء أو هو منفصل عن الرب؟ وليس من مهمة المؤرخ أن يجيب عن مثل هاته الأسئلة، بيد أنه مضطر أن يدونها وأن يلحظ كم هي أسئلة لم يكن منها بد، بسبب ذلك السلطان الهائل الذي كان لها على كل ما تلا ذلك من حياة البشرية في بلاد الغرب. حتى إذا وافى القرن الرابع من الحقبة المسيحية وجدنا المجتمعات المسيحية بأسرها في حالة من الهياج والسخط بسبب الجدل الملتوي الخداع حول طبيعة ا – بحيث أهملت بدرجة كبيرة التعاليم الأكثر بساطة، تعاليم الإحسان والأخوة والخدمة التي طبعها يسوع في العقول مرارا وتكرارا.

وأهم الآراء التي ينبغي أن يلحظها المؤرخ هي آراء الآريوسية (Arians) والسابيلية [٤] (Sabellians) والثالوثية (Trinitarians). وكانت الآريوسية تتبع آريوس الذي كان يعلم أن المسيح كان أقل منه إله، وكان السابيلية يعلمون أنه حالة أو أقنوم للإله – فالإله هو الخالق والمخلص والمواسي، كما يكون الرجل الواحد أبا وقيما وضيفًا؛ أما الثالوثية الذين كان إثناسيوس زعيمهم الأكبر فقالوا إن الأب والابن والروح القدس، أقانيم ثلاثة مميزة، بيد أنها إلى واحد. وإنا لنرجع القارئ إلى عقيدة إثناسيوس يطالب عندها التعبير الدقيق عن السر الأخير، ويطالب فيها النتائج المزعجة التي ستحل به إن فاته فهمها أو الإيمان بها!!. ويجب عليه أن يرجع إلى جيبون [٥] إن شاء بيانًا عن هذه الخصومات ملؤه السخرية والتهكم. على أن الكاتب الحالي لا يسعه إلا

---

[١] الأفلاطونية الحديثة: مزيج من الفلسفة الشرقية والأفلاطونية، وهي فلسفة أفلوطين، الذي عاش بالإسكندرية في القرن الثالث. (المترجم).

[٢] الأدرية أو الأغنسطية حركة دينية نشأت والمسيحية ناشئة يراها بعض الناس زندقة، ولكنها محاولة لتكوين مزيج من اللاهوت المسيحي والفلسفة الإغريقية، وعناصر مأخوذة من النحل السرية بعالم البحر المتوسط. ويرى الأغنسطيون أن لهم علما باطنيا بالمعنى الداخلي للديانة. وهو المعرفة التي يستطيعون أن يصلوا بها إلى الاستنارة والخلود . (المترجم).

[٣] الفيلوثية: نسبة إلى فيلون وهو فيلسوف إغريقي من أصل يهودي ولد بالإسكندرية قرابة ٢٠ ق. م أو فلسفته تخلط بين أفلاطون والكتاب المقدس ولها بعض الأثر في المؤلفات المسيحية. (المترجم).

[٤] السابيلية هم أتباع سابيليوس (القرن الثالث م) الذي كان يرى أن ا لا ينطوي إلا على شخص واحد وأن الثالوث لم يكن إلا ثالوثًا من الوظيفة والإظهار. (المترجم).

[٥] أصدرت المؤسسة المصرية للطباعة والنشر (في ١٩٦٩ – ١٩٧٠) ترجمة عربية لجيبون بإشراف الأستاذ أحمد نجيب هاشم. فليرجع إليها القارئ. (المترجم).

أن يعالجها دون أدنى رهبة ولا سخرية. وهو يرى من واجبه أن يعترف أنها تبدو له كأنما هي غليان مدمر تهدر مراجله في العقل البشري وتفيض منه الكوارث الوبيلة وأنها لا تتسق بتاتًا مع تعاليم يسوع البسيطة الصريحة المحفوظة لنا في الأناجيل. ولم يعد اعتناق المذهب التقليدي السليم (الأرثوذكسي) شرطًا لازمًا للحصول على الوظيفة المسيحية فحسب، بل لمزاولة التجارة بين المسيحيين والحصول على المعونة المسيحية كذلك. فإن التمسك بنقطة صغيرة من نقاط المبادئ الدينية أو التزحزح عنها قد يكون معناه ثراء رجل أو إدقاعه. ومن العسير أن يقرأ الإنسان الكتابات الباقية من ذلك الزمان، دون أن يشعر شعورا قويا بتحكم الاتجاه الاعتقادي (Dogmatism) وباستبداد الأحقاد والمنافسات والتفيهقات بالرجال الذين مزقوا المسيحية إربا من أجل هذه التفصيلات اللاهوتية الدقيقة. ومعظم المجادلين الثالوثيين – إذ إن أهم ما تبقى من الوثائق هو وثائق الثالوثية – يتهمون خصومهم (وبحق ما يتهمونهم في الغالب) بأن لهم دوافع دنيئة أخرى خفية. بيد أنهم يفعلون ذلك بطريقة تفضح روحهم الوضيعة في جلاء تام. مثال ذلك أنهم يتهمون أريوس مثلاً بأنه يعتنق الإلحاد (الهرطقة)، لأنه لم يعين أسقفًا على الإسكندرية. وكانت الفتن والحرمانات (من عضوية الكنيسة) والنفي تلازم على الدوام هذه الخصومات، ثم جاء دور الاضطهاد الرسمي آخر الأمر. إذ اختلطت هذه الفروق الدقيقة حول طبيعة تكوين الإله، بالسياسة والمنازعات الدولية. وكان الرجال الذين يتنازعون حول أشغالهم، والزوجات اللائي يرغبن في مضايقة أزواجهن، يعتنقون في هذا الموضوع الرفيع آراء متضادة. وكان معظم البرابرة غزاة الإمبراطورية الرومانية من الآريوسين؛ والراجح أن مرد ذلك هو أن عقولهم البسيطة لم تكن لتفهم العقيدة" الثالوثية".

ومن أيسر الأمور على المشكك أن يهزأ من هذه المنازعات. ولكن حتى لو كنا نرى أن هذه المحاولات التي ترمي على وجه الدقة إلى تبيين مقدار ارتباط ا بنفسه، فيها من الغرور والجرأة فضلاً عن الفظاعة من الناحية الذهنية ما فيها، فإنا على ذلك مضطرون إلى الاعتراف بأن تلك التفصيلات الدقيقة المخالفة لكل معقول، تفصيلات الاعتقاديات (Dogmas) المستحيلة، كثيرا ما كانت تكمن وراءها عاطفة صادقة تهدف نحو الحق، وإن أساء القوم تصور ذلك الحق وفهمه. وكان لكل من الجانبين شهداء صادقو الشهادة. والحماسة التي تجلت في هذه المنازعات وإن تكن حماسة وضيعة في غالب الأحيان، إلا أنها جعلت الشيع المسيحية على كل حال نشيطة جدا في ناحيتي الدعاية والتعليم. ومع ذلك فينبغي ألا يخدعنا تاريخ الجماعة المسيحية في القرنين الرابع والخامس من حيث هو في معظمه سجل لهذه المنازعات التعسة، إذ الواقع أن روح يسوع كانت تعيش فعلاً وتتسامى بأرواح كثيرة بين المسيحيين. وفوق ذلك فإن نصوص الأناجيل، وإن جرى على الراجح التلاعب بها أثناء تلك المدة، إلا أنها لم يقض عليها تماما، وظل يسوع الناصري في جلال عظمته الوضاحة التي لا تجارى، يعلّم الناس من خلال نصوصها. كذلك لم يمنع هذا الشقاق التعس المسيحية من الاحتفاظ بجهة موحدة ضد حفلات المجالدين وضد العبادة المشينة عبادة الأوثان والقيصر الرب.

٦- كفاحات المسيحية واضطهاداتها

كان طبيعيا أن تعد المسيحية حركة عصيان للدولة وتفكيك لعراها، ما تحدت ربوبية قيصر والنظم التـي تتميز بها الإمبراطورية، والواقع أنها كانت تعد كذلك في نظر معظم الأباطرة قبل قسطنطين الأكبر. فلقيـت عداء جسيما، انتهى آخر الأمر إلى بذل محاولات منظمة للقضاء عليهـا. وكـان ديكيـوس (Decius) أول إمبراطور أنزل بها اضطهادا رسميا، كما أن عهد دقلديانوس (٣٠٣ وما أعقبها من السنين) هو حقبة الشهداء العظيمة. والواقع أن اضطهادات دقلديانوس هي النزاع النهائي بين فكرة الإمبراطور الرب القديمـة وبـين الهيئة العظيمة البالغة بالفعل حد القوة والتي كانت تنكر ربوبيته. وكان دقلديانوس أعاد تنظيم شـئون الملـك والمملكة على أسس متطرفة من الحكم المطلق؛ وألغى آخر ما تبقى من آثار النظم الجمهوريـة؛ وهـو أول إمبراطور يحيط نفسه إحاطة تامة بكل ما للملوك الشرقيين من مظاهر باعثة على الرهبة. فاضطره منطـق مدعياته أن يحاول القضاء التام على ذلك النظام الذي كان ينكرها إنكارا صريحا. وكـان الاختيـار الممهـد للاضطهاد، أن يطلب إلى "المسيحي" أن يقرب إلى الإمبراطور قربانًا.

"ومع أن دقلديانوس الذي لم يبرح نافرا من سفك الدماء، قد خفف من غلواء جاليريوس الذي اقترح أن كل من رفض تقديم القربان يجب أن يحرق من فوره حيا، إلا أن العقوبات التي وقّعت على المسيحيين المعاندين، يمكن أن تعد من النكال الصارم ذي الأثر البالغ. فصدرت مراسـيم تقضـي بـأن كنائسـهم فـي أنحـاء الإمبراطورية يجب أن تهدم من أساسها؛ ثم أنذر بعقوبة الإعدام كل من يجرؤ على عقد أية اجتماعات سرية بقصد العبادة الدينية. واتخذ الفلاسفة في ذلك الأوان لأنفسهم وظيفة زرية، هي توجيه الحماسة العمياء للدولة في ذلك الاضطهاد؛ فأقبلوا يدرسون طبيعة الديانة المسيحية وعبقريتها دراسة كد وتـوفر؛ ولمـا كـانوا لا يجهلون أن من المفروض أن المبادئ النظرية للعقيدة تحتويها كتابات الأنبياء والإنجيليين والرسـل، فـأرجح الظن أنهم هم الذين اقترحوا إصدار الأمر بأن يسلم الأساقفة والقساوسة كل كتبهم المقدسة إلى الحكام، الـذين صدرت لهم الأوامر بأن يحرقوها في هيئة علنية رهيبة، وإلا نالهم شر الجزاء. وقد تضمن نفـس المرسـوم مصادرة أملاك الكنيسة على الفور؛ وكانت الأجزاء المختلفة التي تتكون منها، إما أن تباع لمن يـدفع فيهـا أغلى ثمن أو تضم إلى الأملاك الإمبراطورية أو توهب للمدن أو الهيئات أو تمنح تلبية لطلاب الطامعين مـن رجال البلاط. وبعد اتخاذ مثل هذه التدبيرات الفعالة لإلغاء العبادة، وللقضاء على رئاسة المسيحية، رؤي من الضروري تعريض أولئك الأفراد المنحرفين الذين يواصلون رفض عقيدة الطبيعة، عقيـدة رومـا وعقيـدة أسلافهم، لما لا يكاد يطاق من العنت والشقاء. وكان الأفراد المستنيرون من أبناء البيوتات يعدون غير أكفاء لحيازة الرتب أو تولي المناصب؛ فأما الأرقاء فيحرمون حرمانًا أبديا من التطلع إلى الحرية؛ كما أن الجماعة المسيحية بأجمعها حرمت حماية القانون. فقد خول للقضاة الحق في أن ينظروا وأن يقضوا في كـل قضـية ترفع أمامهم ضد أي مسيحي؛ بيد أنه لم يكن مسموحا للمسيحيين أن يشتكوا من جور يصيبهم؛ وهكذا كانـت هذه الطائفة المتعسة هدفًا لكل ظلم وعنت، على حين يحال بينهم وبين الانتفاع بالعدالة العامة. ولم يكد هـذا المرسوم يعرض على الملأ في أبرز المواضع بنيقوميديا، حتى امتدت إليه يدا مسيحي بالتمزيق المصـحوب

بأقذع التنديد والسباب تعبيرا عن المقت والاحتقار لمثل هؤلاء الحكام الفسقة الطغاة. وكانت جريمتـه طبقًـا لأخف القوانين وطأة، توضع بمنزلة الخيانة العظمى وتجازى بالإعدام فإن صح أنه كـان رجـلاً ذا مرتبـة وعلم، فإن تلك الظروف ما كانت إلا لتزيد في جرمه، وإذا هو يحرق أو قل يشوى على نـار بطيئـة. وإذا بجلاديه وقد امتلئوا حماسة للانتقام للإهانة الشخصية التي لحقت بالأباطرة، يفتنّون في إنزال العـذاب ألوانًـا بالمسكين دون أن يستطيعوا لصبره قهرا، وأن يغيروا من ابتسامة الثبات والزراية التي ظل محتفظًا بها على محياه وهو في آلام نزعه الأخير". [1]

وهكذا افتتحت الصفحة الأولى من الاضطهاد العظيم بموت ذلك الشهيد المجهول. ولكن ما وصـلنا مـن معلومات عن مدى غلظة الاضطهاد وشدته إنما هو – كما يلاحظ جيبون – موضع الشك الكثير. وهو يقـدر مجموع الضحايا الكلي بما يقارب الألفين، ويقارن هذا بالثابت المؤكد من عدد جماهير المسـيحيين الحاشـدة الذين استشهدوا على أيدي زملائهم في الدين أثناء فترة الإصلاح الديني. ومن المعلـوم أن جيبـون شـديد التحامل على المسيحية، وهو ها هنا يبدو كأنما ينزع إلى التهوين من شأن تجلد المسيحيين وما عـانوه مـن الآلام. ولا مراء أن كثيرا من المقاطعات أبدت نفورا عظيما في تنفيذ المرسوم. بيد أن السلطات بذلت جهـدا كبيرا في تصيد نسخ الكتب المقدسة، كما حدث أيضا في أماكن كثيرة هدم معظم الكنائس المسيحية. وعـذب وأعدم كثير، كما ملئت السجون بالأساقفة والقساوسة المسيحيين. ولزام علينا أن نتذكر أن المجتمع المسـيحي كان يؤلف عنصرا ضخما جدا بين السكان، وأن نسبة كبيرة من الموظفين المكلفين بتنفيذ المرسوم كانوا هـم أنفسهم يدينون بالعقيدة المحرمة. وكان جاليريوس صاحب الأمر في الولايات الشـرقية مـن أشـد أنصـار الاضطهاد قوة شكيمة وشدة، بيد أنه أدرك آخر الأمر وهو على فراش الموت (٣١١) أن لا فائدة ترجى من اعتداءاته على هذا المجتمع الضخم، فأصدر مرسوما بالتسامح، يترجم جيبون خلاصته على الوجه التالي:

"كان من بين الأمور الجوهرية التي أهمتنا لمنفعة الإمبراطورية والمحافظة عليها، اعتزامنـا أن نصـلح ونقيم من جديد كل شيء وفقًا للقوانين القديمة ونظام الرومان العام، وقد رغبنا رغبة خاصة في أن نهدي إلى سواء سبيل العقل والطبيعة أولئك المسيحيين المخدوعين الذين تركوا الديانة والطقوس التي اسـتنها آبـاؤهم؛ واحتقروا في جرأة وغرور شريعة الأقدمين، واخترعوا قوانين وآراء هوجاء وفقًا لما تمليه عليهم أهـواؤهم، وجمعوا من حولهم مجتمعا مخلصا من مختلف ولايات إمبراطوريتنا. وإذ إن المراسيم التي أصدرناها لـدعم عبادة الآلهة، قد عرضت كثيرا من المسيحيين للأخطار والمحن، فلقي الكثيرون منهم حتفهم، وترك الأكثرون ممن لا يزالون يصرون على ضلالهم الأحمق محرومين من أي ممارسة عمومية للديانة، فإنا نميل إلـى أن نشمل هؤلاء التعساء بآثار رحمتنا المعتادة. لذلك فنحن نسمح لهم بأن يعبروا بحرية عن آرائهم الخاصة وأن يجتمعوا في اجتماعاتهم الدينية دون خوف أو مضايقة، على شريطة دائمة هي أن يحافظوا علـى الاحتـرام

---

[1] انظر جيبون في "Decline & Fall of the Roman Empire" الفصل السادس عشر. وبإشراف أحمـد نجيـب هاشـم وترجمة محمد علي أبو درة وآخرين، أصدرت المؤسسة المصرية للطباعة والنشر طبعة عربية لطبعـة مختصـرة مـن جيبون أصدرها الأستاذ د. م. لو. (المترجم).

اللائق للقوانين والحكومة القائمة. وسنوضح في أمر آخر مقاصدنا للقضاة والحكام؛ ونأمل أن يطوع تسامحنا للمسيحيين بأن يقدموا صلواتهم للرب الذي يعبدون، من أجل سلامتنا ورخائنا ومن أجل سلامتهم ورخـائهم ومن أجل سلامة الجمهورية ورخائها".

وفي بضع سنين كان قسطنطين الأكبر في دست الملك، يحكم في مبدأ الأمر بالاشتراك مع آخر (٣١٢) ثم يحكم منفردا بالسلطان (٣٢٤)، فانتهت على يديه أقسى محن المسيحية. ولئن كانت المسيحية قوة عصـيانية مدمرة حيال روما الوثنية، فلقد كانت قوة موحدة ومنظمة في داخل مجالها ومجتمعاتها هي. وأدرك قسطنطين بعبقريته هذه الحقيقة. فإن روح يسوع بالرغم من الخلافات النظرية التي سادت المسـيحيين جعلـت مـنهم جماعة متعاطفة كبيرة في كل أرجاء الإمبراطورية بل في خارج حدودها. وأخذت العقيدة في الانتشار مـن وراء الحدود من البرابرة، كما امتدت إلى فارس وآسيا الوسطى. وكانت مصدر الأمل الوحيد للتماسك الخلقي الذي استطاع قسطنطين أن يدركه في حمأة الآراء الضيقة والأثرة التي كان لزاما عليه أن يحكم من فوقهـا. فهي، وهي وحدها، كانت صاحبة الوسائل المهيئة لتكـوين "الإرادة" المنظمـة، تلـك الإرادة التـي كانـت الإمبراطورية بسبب حاجتها إليها تتناثر أشلاء تناثر قطعة بالية من القماش. وفي (٣١٢) اضطر قسـطنطين أن يحارب دفاعا عن روما وعن مركزه ضد مكسينتيوس (Mxentius) فوضع طغراء [1] اسـم المسـيحية على تروس جيشه وراياته، وادعى أن رب المسيحيين قاتل زيادا عنه في نصره المبين في معركـة جسـر ميلفيان (Milvian) خارج روما بالضبط. وبهذا العمل تنازل عن كل ادعاء له بالربوبية التي أدخلها غـرور الإسكندر الأكبر لأول مرة إلى العالم الغربي. وبموافقة المسيحيين ومعونتهم نصب نفسه ملكًا، له من الحكـم المطلق نصيب أعظم مما أتيح لدقلديانوس نفسه. ولم تنقض بضع سنوات حتى أصبحت المسـيحية الديانـة الرسمية للإمبراطورية، وفي (٣٣٧م) عمد قسطنطين مسيحيا وهو على فراش موته.

([1]) الطغراء: علامة ترمز إلى شخص أو جماعة ما تتألف من أحرف الاسم الأولى مرقومة على نحو متشابك. (المترجم).

٧- قسطنطين الكبير

إن شخص قسطنطين الكبير جوهري في التاريخ ويعدل في جوهريته على أقل تقدير شخص الإسكندر الأكبر أو أوغسوس قيصر. ولسنا نعرف إلا أقل القليل عن شخصيته أو حياته الخاصة؛ إذ لم تهيئ لنا المقادير في زمانه مؤرخًا مثل بلوتارك [١] أو سويتونيوس [٢] (Suetonius) يبقي لنا على تفاصيل زاهية التلاوين تتصل اتصالاً وثيقًا بمعيشته الداخلية. أجل لدينا الآن مطاعن مما كتب أعداؤه، كما أن لدينا في مقابل ذلك من الثناء عليه ما هو ظاهر الغلظ والسماجة. بيد أن واحدا من هؤلاء الكتاب لم يعطنا صورة له حية زاهية الألوان، فإنه ليس بالنسبة إليهم إلا رمزا لطائفتهم، أو راية حزبية لهم. ويذكر خصمه زوسيموس (Zosimus) أنه كسرجون الأول، كان غير شرعي المولد. إذ كان أبوه قائدا شهيرا، على حين كانت أمه هيلانة ابنة صاحب خان في نيش ببلاد الصرب. على أن جيبون يرى مع ذلك أنه ثمرة زواج شرعي. ومهما يكن الأمر فإنه كان زواجا وضيعا؛ وقد طغت عبقرية قسطنطين الشخصية على نقائص خطيرة تكنفته. فإنه كان من الأميين أو يكاد، وكان يعرف القليل الذي لا يكاد يذكر من الإغريقية. ويبدو أنه نفى حقًا ابنه الأكبر كريسبوس، وأمر به فأعدم بتحريض من فاوستا امرأة أبي الفتى؛ كذلك تحمل إلينا السجلات أنه اقتنع فيما بعد ببراءة كريسبوس، وأمر بفاوستا فأعدمت، بأن أُغلي عليها ماء حمامها حتى ماتت – على قول إحدى الروايات؛ وبأن ألقيت للضواري (في رواية أخرى) عارية الجسم على جبل موحش، على حين توجد كذلك وثائق مقنعة جدا تدل على أنها عاشت من بعده. فإن كانت أعدمت فعلاً، فإن ذلك لا يؤثر في الحقيقة القائلة بأن أولادها الثلاثة ومعهم اثنان من أبناء إخوتها، أصبحوا ورثة قسطنطين "بالتعيين". وواضح أنه لا يمكن الحصول على شيء يعتمد عليه في هذه المعقدات الغامضة، وعلى القارئ المتطلع أن يطلب أخبار هذه "الخبيصة" القائمة على مادة بالغة الندرة عند جيبون الذي دبجها بمهارة فائقة (الفصل ١٨).

ومعروف أن جيبون كاتب ذو ميول مضادة للمسيحية، فهو من ثم خصم معاد لقسطنطين؛ بيد أنه يعترف أنه كان معتدلاً عفيفًا. وهو يتهمه بالإسراف بسبب مبانيه العامة العظيمة، كذلك يتهمه بالغرور والخلاعة! لأنه لبس وقد تقدمت به السن شعرا مستعارا (ولا يخفى أن جيبون نفسه كان يلبس شعره المستعار ويربطه برباط أسود مناسب) وتاجا ملكيا وثيابا فاخرة. على أن جميع الأباطرة المتأخرين بعد دقلديانوس لبسوا التيجان والثياب الفاخرة.

---

(١) بلوتارك: (ح٦٤ – ١٢٠) كاتب تراجم يوناني حاضر في الفلسفة بروما. وعينه هادريان واليا على اليونان. وكتابه "التراجم المتوازية" فيه موازنة بين كل اثنين من كبراء الإغريق والرومان. (المترجم)

(٢) سويتونيوس: مؤرخ لاتيني (ازدهر بالقرن الثاني الميلادي) ويعطينا كتابه "حياة القياصرة" معلومات شخصية كثيرة عنهم. (المترجم)

ومع ذلك فلئن ظلت شخصية قسطنطين الكبير أشبه شيء بالأطياف، ولئن لم تتكشف تفاصيل حياته الخاصة إلا عن مأساة يغشاها الإبهام، فإنا مع ذلك نستطيع أن نتخيل كثيرا مما كان يجول في ذهنه. ولا بد أنه كان ذهنًا يشعر بالوحشة الأليمة وهو في خاتمة سني حياته. كان أكثر استبدادا من أي إمبراطور سابق – أعني أنه كان أقل استشارة واستعانة بغيره، إذ لم يبق لديه أحد من أهل الثقة ذوي الروح الغيرية العامة [1]، ولم يكن هناك مجلس شيوخ (سناتو)، ولا أي مجلس أيا كان يشاركه وضع الخطط وتطويرها. فإلى أي مدى أدرك ذلك الرجل ضعف إمبراطوريته وإلى أي حد كان يرى الكارثة الشاملة التي كانت عند ذاك وشيكة الحدوث؟ ذلك ما لا نستطيع أن نعتمد فيه إلا على الحدس والتخمين. ومهما يكن الأمر فإنه جعل عاصمته الحقيقية مدينة نيقوميديا بولاية بيثنيا. وقد مات والقسطنطينية عبر البسفور لا تزال تبنى. ويلوح أنه – شأن دقلديانوس – قد أدرك انقصام [2] ظهر معالم ممتلكاته وشكلها العام.

وركز اهتمامه على الشئون الخارجية، وعلى الأخص إلى شئون بلاد المجر وجنوب الروسيا والبحر الأسود. وقد أعاد تنظيم أداة الحكم في الإمبراطورية، وأعطاها دستورا جديدا وسعى في أن يكون أسرة مالكة. وكان مجددا لا يهدأ له بال؛ فحاول أن يعالج الفوضى الاجتماعية بمساعدته نظام الطوائف على التطور. وهو في هذا يترسم خطى سلفه العظيم دقلديانوس. فحاول أن يجعل من الفلاحين وصغار الزراع طائفة، وأن يحظر عليهم الانفصال عما في حوزتهم من أرض، وهو في الحقيقة قد سعى أن يجعلهم موالي أرض (Serfs). ذلك بأن الوارد من الأرقاء العمال قد نضب معينه، إذ إن الإمبراطورية لم تعد بعد قوة غازية بل قوة معرضة للغزو. فانقلب يتلمس العلاج في نظام موالي الأرض، واقتضت جهوده الخلاقة فرض ضرائب ثقيلة لم يسبق لها مثيل. وتشير كل هذه الأمور إلى عقل قوي يشعر بالوحدة الموحشة. وتتجلى قوة ابتكاره الأصيلة في فهمه البين للحاجة إلى بعض القوى الأخلاقية الموحدة التي لا بد منها لتماسك بنيان الإمبراطورية.

ويبدو أنه لم يدرك الاختلافات العنيفة القائمة بين رجال اللاهوت إلا بعد أن تحول بوجهه صوب المسيحية. فأنفق جهدا عظيما للتوفيق بين هذه الفروق لكي يتسنى له أن يبث في المجتمع تعاليم تتصف بالتناسق والانسجام، وبناء على مشورته عقد مجمع عام للكنيسة (٣٢٥) في نيقيا، وهي مدينة تقع قرب نيقوميديا في مواجهة القسطنطينية. ويقدم إلينا يوسبيوس (Eusebius) [3] بيانًا عجيبا عن هذا الاجتماع الغريب، الذي كان يترأسه الإمبراطور وإن لم يكن بعد مسيحيا معمدا لم يكن أول مجلس عقده من أجل الكنيسة، لأنه سبق له أن رأس في (٣١٤) مجلسا في آرل (Arles). جلس الإمبراطور في بهرة مجلس نيقيا على عرش من ذهب، وإذ إنه كان رقيق الزاد من الإغريقية، وجب علينا أن نفرض أنه اكتفى بملاحظة

([1]) يقصد المؤلف بهؤلاء كل شخص يعنى بالشئون العامة وخدمة الجمهور (المترجم).

([2]) انقصم الظهر بمعنى انكسر. (المترجم).

([3]) يوسبيوس (ح ٢٦٠ – ٣٤٠ م.) هو أبو التاريخ الكنسي. ويعتقد أنه ولد بفلسطين. عين أسقفًا لقيصرية ح ٣١٣ ولعب دورا هاما في مجمع نيقيا. (المترجم).

ملامح وسحنة وإيماءات المتناظرين وسماع نغمات أصواتهم. وكان المجلس عاصـفًا. ولمـا قـام آريـوس (Arius) المسن ليتكلم، لطمه على وجهه شخص هو نيقولا الميري (Nicholas of Myra)، ثـم هـرول الكثيرون بعد ذلك إلى الخارج، وقد وضعوا أصابعهم في آذانهم في رعب مفتعل من هرطقات الرجل الشيخ. وإن المرء ليلذ له أن يتصور الإمبراطور العظيم، وهو في أشد القلق على روح إمبراطوريته، كما أنه كذلك وطيد العزم على إنهاء تلك الانقسامات، منحنيا نحو مترجميه يسألهم إيضاح تلك الضجة.

وتمخض هذا المجمع عن "بيان العقيدة النيقية" وهو بيان "ثالوثي" دقيق، وناصر الإمبراطور هذه العقيـدة "الثالوثية". ولكن لما حدث فيما بعد أن أثناسيوس اشتط في الحملة على الأريوسيين، أمـر بـه فنفـي مـن الإسكندرية، ولما رغبت كنيسة الإسكندرية في حرمان آريوس، أجبرها على أن تعيده إلى حظيرتها.

٨- تأسيس المسيحية الرسمية

إن عام (٣٢٥ م) يعد من أنسب التواريخ لكتابنـا هـذا. إذ هـو تـاريخ أول مجمـع عـام "مسـكوني Oecumenical" بكامل هيئته للعالم المسيحي بأسره: (فأما ذلك المجمع الذي عقد في آرل وذكرناه آنفًا فكان اجتماعا للنصف الغربي فقط). وهو يسجل دخول الكنيسة المسيحية والدير المسيحي بصفة قاطعة إلى مسرح الشئون الإنسانية، على النحو المفهوم عن ذلك الدين في العالم اليوم عامة. وهو يحدد التعريف الدقيق للتعاليم المسيحية بواسطة قرار العقيدة النيقية (Nicene Creed).

ومن الضروري أن نستلفت نظر القارئ إلى الفروق العميقة بين مسيحية نيقيا هذه التامة التطـور وبـين تعاليم يسوع الناصري. فإن المسيحيين جميعا يعتقدون أن الأولى تنطوي على الثانية وتحتويها احتواء تامـا، على أن هذه مسألة تخرج عن مجالنا. فمن الواضح تماما أن تعاليم يسوع الناصري تعاليم نبوية من الطـراز الجديد الذي ابتدأ بظهور الأنبياء العبرانيين. وهي لم تكن كهنوتية، ولم يكن لها معبد مقدس حبسا عليهـا ولا هيكل. ولم يكن لديها شعائر ولا طقوس. وكان قربانها "قلبا كسيرا خاشعا". وكانت الهيئة الوحيدة فيها هيئـة من الوعاظ، وكان رأس ما لديها من عمل هو الموعظة. بيد أن مسيحية القرن الرابع الكاملة التكـوين، وإن احتفظت بتعاليم يسوع في الأناجيل كنواة لها – كانت في صلبها "ديانة كهنوتية"، من طراز مألوف للناس من قبل منذ آلاف من السنين، وكان المذبح مركز طقوسها المنمقة، والعمل الجوهري في العبادة فيها هو القربان يقربه قسيس متكرس للقداس. ولها هيئة تتطور بسرعة مكونة من الشمامسة والقساوسة والأساقفة.

ولئن اتشحت المسيحية بأردية خارجية تشابه نحل سيرابيس أو آمون أو بعل مردك مشابهة غير عاديـة، فلا بد لنا من تذكر أنه حتى كهانتها نفسها كانت لها مظاهر جديدة بأعيانها. فإنها لم يكن لديها في أي مكـان أية صورة مجسدة شبه قدسية للرب. ولم يكن هناك معبد رئيسي يحوي الرب، وذلك لأن الرب موجود فـي كل مكان ولم يكن هناك قدس أقداس. وكانت مذابحها المنبثة في كل مكان موجهة كلها إلى الثالوث العام الذي لا يرى. والمسيحية حتى في أقدم مظاهرها كانت تحوي شيئًا جديدا.

وثمة أمر هام جدا علينا أن نلحظه ونسجله وهو الدور الذي لعبه الإمبراطور في تثبيت المسـيحية. فلـم يقتصر الأمر على أن قسطنطين الكبير هو الذي دعا لاجتماع مجمع نيقيا، بل إن كل المجامع العظيمة، ومنها اثنان بالقسطنطينية (٣٨١، ٥٥٣) وواحد بإفيسوس (Ephesus) (٤٣١) وخلقـدون (Chalcedon)(٤٥١)، جمعتها كلها يد الإمبراطور. والجلي الذي لا خفاء فيه أن قدرا كبيرا من تاريخ المسيحية في ذلـك العصـر يشف عن روح قسطنطين الكبير بقدر ما يشف عن روح يسوع إن لم يزد. وكان قسطنطين كمـا سـبق أن نوهنا مستبدا (أوتوقراطيا) مطلقًا. ذلك بأن آخر آثار الروح الجمهورية الرومانية قد اختفت في أيام أوريليان ودقلديانوس. وكان يحاول بالقدر الذي هيأته لـه معارفـه، أن يعيـد – قبـل أن يفـوت الأوان – تكـوين الإمبراطورية المتضعضعة، وكان يعمل من غير مستشار أو ناصح، أو أي رأي عام أو أي شعور بالحاجـة إلى مثل هذا النوع من وسائل العون والضبط. فإن فكرة محق كل خصومة وانقسام، والقضاء على كل فكـر

بواسطة فرض عقيدة "اعتقادية Dogmatic" واحدة على المؤمنين جميعـا، إنمـا هـي فكـرة اسـتبدادية أوتوقراطية بأشمل معاني الكلمة، وإنها لفكرة الرجل الفرد الذي يعمل بغير معين والذي يشـعر أنـه لكـي يستطيع أن يعمل ينبغي أن يكون غير مقيد بأية معارضة أو نقد. ومن ثم يصبح تاريخ الكنيسة بتأثيره، سلسلة من الكفاحات العنيفة التي كان لا بد من حدوثها نتيجة لمباغتته الناس بدعوته الفجة إلى الإجماع علـى رأي. وعنه اقتبست الكنيسة الميل إلى الاستبداد وعدم الخضوع للمسئولية، وإنشاء هيئة تقوم على المركزية وتعيش على غرار الإمبراطورية وإلى جوارها.

وجاء بعد ذلك مستبد عظيم ثان هو ثيودوسيوس الأول (Theodosius I) أو ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ – ٣٩٥) فساهم من فوره في فرض طابع استبدادي صريح على المسيحية الكاثوليكية. فحرم على من لم تصح عقيدتهم من المسيحيين عقد الاجتماعات، وسلم كل الكنائس للثالوثيين، وقضى على معابد الوثنيـة فـي كـل أرجاء الإمبراطورية، وفي ٣٩٠ أمر بتمثال سيرابيس العظيم بالإسكندرية فحطم. إذ لم يكن ليسمح بعد ذلـك بوجود أية منافسة ولا أية مناقضة لوحدة الكنيسة المتماسكة.

ولسنا بمستطيعين أن نخبرك هنا بما عانته الكنيسة من المتاعب الداخلية الهائلة ولا عـن عـدم هضـمها للزنادقة مثل أتباع أريوس وأتباع بولس [1] والأدريين (الأغنسطيين) والمانويين. ولو أنها كانت أقل اسـتبدادا وأكثر تسامحا مع الأفكار المتنوعة، فلربما أصبحت هيئة أقوى بكثير مما وصلت إليه. ولكنها على كل هـذه الاضطرابات، ظلت زمانًا تحتفظ بالفعل بفكرة لوحدة الإنسانية فيها من التعاطف ورحابة الأفق ما لم تصـل إليه الإنسانية قبل ذلك قط. ولما وافى القرن الخامس إذا المسيحية أخذت بالفعل تتبوأ منزلة أعظـم وأقـوى وأشد دواما مما وصلت إليه أية إمبراطورية في الماضي. لأنها لم تكن مجرد شيء مفروض علـى النـاس فرضا بل هي قطعة من نسيج عقولهم. وقد تجاوز اتساعها أقصى حدود الإمبراطورية بكثير، حتـى شـملت أرمينية وفارس والحبشة وأيرلندة وألمانيا وحتى تغلغلت في الهند والتركستان. "وهي وإن تألفت من مجـاميع منتثرة انتثارا متباعدا، فإن الناس كانوا يفكرون فيها بوصفها جماعـة واحـدة للمسـيح وشـعبا واحـدا . واستطاعت هذه الوحدة المثالية أن تجد للتعبير عن نفسها سبلا عديدة. فإن تبادل الاتصال بـين المجتمعـات المسيحية المتنوعة كان قائما على قدم وساق. وكان المسيحيون الذين هم على سفر، على يقـين دائمـا مـن استقبال حار وترحاب كريم من إخوانهم في الدين. وكثر تبادل الرسل والرسائل بين كنيسة وأخرى. وكـان المبشرون ودعاة الإنجيل ينتقلون على الدوام من مكان إلى مكان. وكانت الوثائق المتنوعة الأصناف، بما فيها الأناجيل والرسائل الرسولية، منتشرة انتشارا واسعا. وهكذا وجد الشعور بالوحدة طرائق منوعة للتعبير عـن نفسه. حتى لكأن تطور أجزاء متباعدة الشقة من المسيحية يطابق على درجات متفاوتة، طرازا مشتركًا بينهن جميعا" [2].

---

(1) أتباع بولس (Paulicians): فرقة من الزنادقة نشأت بسوريا والشرق في القرن السابع عقيدتها خلـيط مـن الأغنسـطية والمانوية. واشتق اسمهم من القديس بولس الذي كانوا يوالونه وكتاباته تبجيلاً عظيما. (المترجم).

(2) الموسوعة البريطانية مادة "تاريخ الكنيسة" ص ٣٣٦.

وقد احتفظت المسيحية على الأقل بالتقاليد الشكلية لهذه الوحدة العامة للروح حتى عام ١٠٥٤، عندما انفصلت كل من الكنيسة الغربية اللاتينية اللسان، والكنيسة الرئيسية الأصلية الإغريقية اللغة، وهي الكنيسة "الأرثوذكسية"، انفصلتا إحداهما عن الأخرى لسبب صوري هو إضافة كلمتين على العقيدة، فإن الملة القديمة كانت أعلنت: "إن روح القدس منبثق من الأب". وأرادت اللاتينية أن تضيف لفظة (Filioque) (أي ومن الابن أيضا) بل وأضافتها فعلاً، وبذلك أخرجوا اليونان من مجتمعهم الديني لأنهم أبوا أن يتبعوا ملتهم. على أن مسيحيي شرق سوريا وفارس وآسيا والهند كانوا قد انفصلوا بأنفسهم من قبل في زمن مبكر يرجع إلى القرن الخامس متذرعين بمثل هذه الذرائع، - إذ كانت هناك كنائس في مرو وهيرات وسمرقند. فهؤلاء المسيحيون الآسيويون الشديدو الطرافة يعرفون في التاريخ باسم الكنيسة النسطورية، وقد امتد سلطانهم إلى صميم بلاد الصين. كذلك فصلت الكنيستان المصرية والحبشية نفسيهما في زمن مبكر جدا لمثل هذه النقاط التي لا سبيل إلى تفسيرها. ومهما يكن الأمر، فالواقع أنه قبل هذا الانفصال الرسمي بين شطري الكنيسة الرئيسية الناطقين باللاتينية والإغريقية بزمن كبير، كان هناك انفصال فعلي جاء في أعقاب انقسام الإمبراطورية. ذلك بأن أحوالهما تباعدت منذ البداية. فعلى حين كانت الإمبراطورية الشرقية الإغريقية اللغة متماسكة البنيان، وعلى حين ظل الإمبراطور في القسطنطينية متسلطًا على الكنيسة، فإن النصف اللاتيني من الإمبراطورية قد انهار كما سبق أن قلنا، وترك الكنيسة الغربية حرة من كل قيد إمبراطوري.

وفضلاً عن ذلك فإنه بينما كانت السلطة الكنسية (الإكليروسية) في إمبراطورية القسطنطينية موزعة بين الأساقفة الكبار أو البطاركة في القسطنطينية وأنطاكية والإسكندرية والقدس، فإن السلطة في الغرب تركزت في بطريرك أو بابا روما. وكان الجميع يعترفون على الدوام بأن أسقف روما هو الأول بين البطاركة، وتآزرت كل هذه الأمور على تبرير ادعائه بصورة غريبة بأن له الحق في ممارسة سلطات شبيهة بسلطات الإمبراطور. حتى إذا سقطت الإمبراطورية الغربية سقطتها النهائية، اتخذ البابا لقب الحبر الأعظم (Pontifex Maximus) الذي كان الأباطرة يتخذونه لأنفسهم، وبذا أصبح كاهن القرابين الأعلى في قديم التقاليد الرومانية، فأما في بلاد الغرب فقد اعترف الناس له اعترافًا كاملاً بالسيادة العليا على المسيحيين هناك، فأما في داخل ممتلكات الإمبراطور الشرقي ودائرة اختصاص البطاركة الأربعة الآخرين، فقد كان من الضروري منذ البداية توخي منتهى الحذر في حث الناس على تقبل تلك السيادة.

وكان القول بتولي الكنيسة الحكم الدنيوي منتشرا بالفعل في القرن الرابع الميلادي. فإن القديس أوغسطين وهو من أهل مدينة هيبو [1] بشمال إفريقية، كتب بين ٣٥٤، ٤٣٠ معبرا عن تطـور الفكـرات السياسـية للكنيسة في كتابه "مدينة الرب". وكتاب "مدينة الرب" ينتقل بفكر قارئه مباشرة إلى إمكان تحويل العالم إلـى "مملكة سماء" لاهوتية منظمة. والمدينة كما يصورها أوغسطين إنما هي "مجتمع روحي من المؤمنين المقدور لهم الإيمان منذ الأذل"، بيد أن الانتقال من ذلك إلى التطبيق السياسي للفكرة لم يكن بالخطوة الواسعة. إذ كان ينبغي للكنيسة أن تصبح حاكمة العالم التي تسود الشعوب جميعا، والقوة التي ترشدها العناية الربانية وتحكـم من فوق عصبة عظيمة من الدول الأرضية. وتطورت هاته الفكرات فيما أعقب ذلك من أعـوام فأصـبحت نظرية سياسية وسياسة محددة. وبينما الشعوب البربرية تستقر وتتحول إلى المسيحية، شرع البابا يدعي أن له السيادة العليا على ملوكهم. ولم تنقض بضع قرون حتى أصبح البابا من الناحية النظرية، وإلى حد معين مـن الناحية العملية – الكاهن الأعلى والرقيب والقاضي والملك القدسي للعالم المسيحي. وامتد سلطانه غربا إلـى ما وراء أقصى مدى بلغته الإمبراطورية القديمة: إلى أيرلندة والسويد والنرويج وشمل كـل بـلاد ألمانيـا. وانقضت ألف عام أو تزيد، وأوربا تسود فيها هذه الفكرة القائلة بوحدة المسيحية، وهي التي تتصـور العـالم المسيحي في صورة ضرب من حلف من الدول، يمتنع أعضاؤه حتى في أيام الحرب عن إتيان كثيـر مـن الأمور المتطرفة بدافع فكرة من الأخوة المشتركة والولاء المشترك للكنيسة. ومن أسف أن تاريخ أوربا منـذ القرن الخامس فما بعده حتى القرن الخامس عشر ظل في الأغلب تاريخًا يسجل فشل هذه الفكـرة العظيمـة، فكرة قيام حكومة عالمية مقدسة، - عن تحقيق نفسها عمليا.

(1) في الموسوعة العربية الميسرة أنه ولد بمدينة تجستي النوميدية. ونوميديا إقليم قديم في شمال غرب أفريقيا يطابق بالتقريب الجزائر الحديثة. (المترجم)

٩- خريطة أوربا في ٥٠٠ م

أدلينا إليك في الفصل السابق ببيان عن أهم الغارات التي قامت بها الشعوب المتبربرة. وفي إمكاننـا الآن أن نقوم بمساعدة إحدى الخرائط بمراجعة وجيزة لأقسام أوربا السياسية عند ختام القرن الخامس. فـي ذلـك الحين، لم يبق للإمبراطورية الغربية وهي الإمبراطورية الرومانية الأصلية، أثر بوصفها قسما سياسيا متميزا منفصلاً. فإنها من الناحية السياسية أصبحت حطاما باليا وحل محلها في عقول الناس بأجزاء كثيرة من أوربا الشرقية الهلينية التي أصبحت هي "الإمبراطورية" في عرفهم. وكان الإمبراطور في القسطنطينية لا يزال هو الإمبراطور – من الناحية النظرية على الأقل.

أما في بريطانيا فكان الأنجل (الإنجليز) والسكسون والجوت – وهم أجيال من التيوتون البرابرة البـالغي الهمجية قد غزوا نصف إنجلترة الشرقي. وكان البريطون (Britons) لا يزالـون صـامدين فـي غربـي الجزيرة، بيد أنهم كانوا يرغمون على التقهقر إلى الخلف رويدا رويدا نحـو ويلـز وكورنـوال. علـى أن الأنجلوسكسون كانوا فيما يبدو من أشد البرابرة الغزاة قساوة وتأثيرا فعالاً فيمن حولهم، فحيثما سادوا حلـت لغتهم محل اللغة الكلتية أو اللاتينية اللتين كان البريطانيون يستخدمون إحداهما – ولسنا ندري علـى وجـه التحقيق أيهما كانوا يستخدمون. ولم يكن هؤلاء الأنجلوسكسون تنصروا بعد.



(شكل ١٢١) خريطة أوربا حوالي سنة ٥٠٠م

أما معظم بلاد الغال (فرنسا) وهولندة وأرض الراين فكانت تحت حكم مملكة الفرنجة المسيحية المتوسطة القوة والأكثر تمدنًا. بيد أن وادي الزون كان تابعا لمملكة منفصلة هي مملكة البرجنديين. على حين كانت إسبانيا وشطر من جنوب فرنسا تحت حكم القوط الغربيين ولكن السويفي كانوا يملكون الركن الشمالي الغربي من شبه الجزيرة.

ولقد سبق أن كتبنا عن مملكة الوندال بإفريقية؛ فأما إيطاليا، وكانت لا تزال رومانية السكان والعادات، فإنها وقعت في قبضة القوط الشرقيين. لم يبق هناك إمبراطور بروما؛ بل كان يتولى الحكم هناك ثيودوريك الأول بوصفه أول ملوك القوط. وكان حكمه يمتد عبر جبال الألب إلى بانونيا وينحدر جنوبا في الأدرياتي إلى دالماتيا وبلاد الصرب.

على حين كان أباطرة القسطنطينية يحكمون إلى الشرق من مملكة القوط حكما ثابتًا مستقرا. وما برح البلغار حتى ذلك الوقت قبيلة مغولية من الرحل راكبة الخيول في منطقة الفولجا. أما الصربيون الآريون فقد انحدروا حديثًا نحو الجنوب إلى شواطئ البحر الأسود، إلى المواطن الأصلية للقوط الغربيين؛ ولم يكن المجريون ذوو الأرومة التركية الفنلندية، وصلوا بعد إلى أوروبا. وكان اللومبارد نازلين حتى ذاك الوقت في شمال الدانوب.

ويمتاز القرن السادس بدور من القوة تفيأته الإمبراطورية الشرقية أثناء حكم الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥). فاسترجعت الإمبراطورية مملكة الوندال عام ٥٣٤ م؛ وطردت القوط من إيطاليا ٥٥٣ م. وما أسرع ما انحدر اللومبارديون إلى إيطاليا على أثر موت جستنيان (٥٦٥)، فاستقروا في لومبارديا، على أنهم تركوا رافنا وروما وجنوب إيطاليا وشمال إفريقية تحت حكم الإمبراطورية الشرقية.

ذلك هو الوضع السياسي للعالم الذي تطورت فيه فكرة عالم المسيحية Christendom. والحق أن الحياة اليومية لذلك الزمان كانت تتقلب في مستوى خفيض جدا – لا جرم – من النواحي الجثمانية والذهنية والخلقية. وكثيرا ما يقال إن أوربا قد انحدرت إلى البربرية في القرن السادس والسابع، بيد أن هذا لا يعبر عن حقيقة الحال. والأصح كثيرا أن يقال إن مدنية الإمبراطورية الرومانية قد دخلت في دور انحلال خلقي متطرف. والبربرية نظام اجتماعي ذو طراز أولي، ولكنه منظم داخل نطاقه؛ بيد أن أوربا من دون تمزقها السياسي كانت في حالة فوضى اجتماعية. ولم تكن معنوياتها كمعنويات إحدى قرى المتوحشين (Kiaal) بجنوب إفريقيا بل معنويات حي فقير بإحدى المدن. ففي القرية المتوحشة، يعرف المتوحش أنه ينتمي إلى مجتمع، ويعيش ويتصرف وفقًا لهذا، فأما في حي الفقراء، فإن الفرد لا يعرف ولا يعترف بأي كائن أكبر منه ولا يتصرف مرتبطًا إلى ذلك الكائن.

ولم تستطع المسيحية إلا بغاية البطء والضعف أن تعيد ذلك الإحساس المفقود وأعني به الإحساس بالمجتمع وإن تعلم الناس أن يلتفوا حول فكرة "عالم المسيحية".

لقد أصبح البناء الاجتماعي والاقتصادي للإمبراطورية الرومانية حطاما وأشلاء. فإن حضارتها حضـارة ثراء وسلطان سياسي يقومان على ما ترسف فيه كتلة البشرية الكبرى من قيود واسترقاق. أجل إنها تجلت في مشهد من الفخامة الظاهرية والكماليات المترفة، ولكن كان يكمن وراء ذلك المظهر الخارجي النبيل كل ألوان القساوة والغباء والركود، فكان لا بد لها من أن تتحطم، وكان لا بد من إزالتها قبل أن يستطيع أن يخلفها مـا هو خير منها.

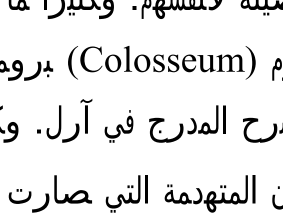
ولقد سبق أن استرعينا الأنظار إلى موتها الذهني. إذ إنها لم تنتج في ثلاثة قرون علما ولا أدبا لـه أيـة قيمة. والواقع أن الاستطلاعات المخلصة غير المغرضة والدوافع النقية الصافية لن تجد مجالاً يتـيح للعـالم فلسفة متزنة وعلما راقيا وفنًا منظما، إلا حيث يوجد رجال ليسوا من الثراء والقـوة بحيـث يغـرون علـى الإغراق في الملذات. وليسوا فقراء مكدودين بحيث لا يعنـون بشـيء وراء الحاجـة اليوميـة. علـى أن بلوتوقراطية (Plutocracy) روما: (حكومة الأثرياء المترفين) قد جعلت مثل هذا الشيء أمـرا مسـتحيلاً. فعندما لا يجد الرجال والنساء أن لهم حدا يلتزمونه ولا ضابطًا يكبحهم، فإن شواهد التاريخ تدل بأجلى بيـان أنهم جميعا بلا استثناء عرضة لأن يصبحوا وحوشًا عتاة في إمتاع النفس بالملذات؛ فإن أضناهم العسر وأذلهم الشقاء، لجئوا إلى الأحزان الفاجعة أو إلى الفتن الهوجاء أو فزعوا إلى الدين وما فيه من تقشف وتزمت.

على أنه يخيل إلي أننا ربما جانبنا الصدق حين نقول إن العالم أصبح شقيا تعسـا فـي هـذه "العصـور المظلمة"، التي وصلنا إليها الآن؛ ويكون أقرب إلى الصدق كثيرا أن نقول إن ذلك الخداع العنيـف السـوقي الخشن الذي ركبت عليه الإمبريالية الرومانية، ذلك العالم من السياسـيين والمغـامرين وأربـاب الأمـلاك والماليين، قد هوى في خضم البؤس الذي كانت أمواجه تتلاطم حولها من قبـل. ولا يخفـى أن معلوماتنـا التاريخية عن تلك الأزمان بتراء ناقصة إلى أبعد حد، فقلّ أن وجد مكان يستطيع فيه الناس أن يكتبوا، وقلمـا كان هناك تشجيع على الكتابة إطلاقًا؛ ولم يكن هناك ضمان يكفل لأي إنسان سلامة كتاباته أو يؤكد احتمـال قراءتها. بيد أننا نعرف عن ذلك العصر قدرا يتيح لنا أن نقول إنه لم يكن مجرد عصر لصوصية وحـروب، بل عصر مجاعة ووباء. إذ لم تظهر في العالم حتى ذلك الحين أية هيئة صحية ذات أثر فعـال، ولا بـد أن هجرات ذلك الزمان كانت تقضي على كل إجراء صحي يتخذ. فإن تخريب آتيلا لشمال إيطاليا لم يوقفـه إلا انتشار الحمى في ٤٥٢. كما حدث وباء عظيم من الطاعون الدملي قرب نهاية حكم جستنيان (٥٦٥)، كان له أثر كبير في إضعاف دفاع إيطاليا أمام اللومبارد. وفي ٥٤٣ مات عشـرة آلاف إنسـان فـي يـوم واحـد بالقسطنطينية (ويقول جيبون" إن هذا العدد كان يموت كل يوم"). وكانت مراجل الطاعون تغلي وتهـدر فـي روما عام ٥٩٠. وكان القرن السابع كذلك قرنًا منكوبا بالطاعون. ويسجل بيد [1] (Bede) الإنجليزي، وهـو أحد الكتاب القليلين في زمانه، أوبئة حدثت في إنجلترة في ٦٦٤، ٦٧٢، ٦٧٨، ٦٨٣، أي ما لا يقـل عـن أربعة في عشرين سنة! ويقرن جيبون الوباء الجستنياني بالمذنّب العظيم الذي ظهر عام ٥٣١، وبما دهى به

(1) بيد (ح ٦٧٣ – ٧٣٥) لاهوتي ومؤرخ إنجليزي، سمي بيد الوقور. كتب أعمـالاً علميـة ولاهوتيـة وتاريخيـة كثيـرة. (المترجم).

العالم أثناء حكم ذلك العاهل من الزلازل المتتابعة الخطيرة. فيقول "غودرت كثير من مدن الشرق خاوية على عروشها، وذبل المحصول والعنب على الأرض في كثير من أصقاع إيطاليا". وهو يدعي حدوث "نقص ظاهر في النوع الإنساني لم يعوض قط في بعض من أجمل أقطار الدنيا". وقد بدا للكثيرين في تلك الأيام السوداء أن كل العلوم وكل ما يجعل الحياة مستساغة مقبولة قد أوشك على الزوال.

ومن المحال علينا أن نعرف إلى أي حد كانت العامة أتعس حالاً في ظلال هذه القذارة وعدم الاطمئنان منها تحت نظام الإمبراطورية الطاحن. أجل إنه ربما اختلفت الظروف بين مكان آخر، فهنا حكم أشرار عنيفين وهناك حرية معتدلة، وقد تلقى مجاعة في هذه السنة ووفرة خيرات في التي تليها. فلئن كثر اللصوص، فإن جامعي الضرائب والدائنين قد اختفوا. وإن ملوكًا من أمثال ملوك الفرنجة والقوط لم يكونوا في الواقع إلا أطيافًا وحكاما لا سلطان لهم على معظم من يسمون برعاياهم. كانت حياة كل ناحية ترزح في مستوى خفيض، ليس به إلا القليل من التجارة والأسفار. وقد يسيطر بعض المقتدرين من الأشخاص على مساحات كبرت أو صغرت من الريف؛ مدعيا على قدر من الحق والعدالة يختلف زيادة ونقصانا، لقب لورد أو كونت أو دوق مستقي من تقاليد الإمبراطورية المتأخرة أو من الملك. ويقوم هؤلاء النبلاء المحليين بجمع فرق من الأتباع وبناء معاقل حصينة لأنفسهم. وكثيرا ما كانوا يتخذون لأنفسهم مباني قديمة يكيفونها وفق حاجتهم. مثال ذلك أن الكولوزيوم (Colosseum) بروما وهو المجتلد الذي طالما شهد حفلات المجالدين، حول إلى قلعة، وكذلك حول المسرح المدرج في آرل. وكذلك أيضا حولت مقبرة هادريان العظيمة بروما.



وكان يحدث في المدن والبلدان المتهدمة التي صارت عند ذاك غير صحية، أن هيئات صغيرة من مهرة الصناع كانت تتضافر وتخدم بصناعاتها حاجات القرى الزراعية المحيطة بها، مع وضع أنفسهم في حماية بعض النبلاء المجاورين.

١٠- خلاص العلوم على يد المسيحية

حملت هيئات الرهبنة: (الديرية) المسيحية التي أخذت تنشأ في العالم الغربي إبان القرنين السادس والسابع، نصيبا بالغ الأهمية في عملية إعادة التبلور الاجتماعي الذي حدث في هذين القرنين بعد ما جرى في الرابع والخامس من التحطم والانصهار.

كانت الأديرة موجودة في العالم قبل ظهور المسيحية. وفي الفترة التي ألم فيها الشقاء الاجتماعي باليهود قبل زمان يسوع الناصري، كانت طائفة من النساك الإستينيين [1] تعيش منعزلة في مجتمعات وقد وهبت نفسها لحياة تقشفية من الوحدة والطهر وإنكار الذات. كذلك أنشأت البوذية لنفسها مجتمعات من رجال اعتزلوا غمرة الجهود العامة والتجارة في العالم، ليعيشوا عيش التقشف والتأمل. والواقع أن قصة بوذا، كما سردناها لك، أبانت أن مثل هذه الفكرات لا بد أنها كانت منتشرة في الهند قبل أيامه بزمن بعيد، وأنه عاد فنبذها وراء ظهره آخر الأمر. ونشأت في زمن مبكر جدا من تاريخ المسيحية حركة مشابهة لهذه، تتنكب ما يغمر حياة الناس اليومية من منافسة وحمية وشدائد. وفي مصر على وجه الخصوص، خرجت حشود كبيرة من الرجال والنساء إلى الصحراء، وهناك عاشوا عيشة عزلة تامة قوامها الصلوات والتأملات، وظلوا يعيشون في فقر مدقع في الكهوف أو نحت الصخور على الصداقات التي تقذفها إليهم الصدفة من أولئك الذين يتأثرون بقداستهم. وربما لم يكن لمثل هذا النوع من حياة الأنفس كبير وزن لدى المؤرخ – فإنها لعمري أنفس منسحبة من التاريخ بحكم طبيعتها ذاتها – لولا ذلك الاتجاه الذي اتخذته للفور تلك النزعة الديرية (Monasticism) بين الأوربيين الأكثر نشاطًا والأميل إلى الناحية العملية.

ويعد القديس بندكت الذي عاش بين سنتي ٤٨٠، ٥٤٤ من أهم الشخصيات في قصة تطور الديرية في أوربا. ولد في مدينة اسبوليتو (Spoleto) بإيطاليا، وكان شابا كريم الأصل جم الكفاية. وقد ألقت عليه أحوال ذلك الزمان ظلالها، فمال إلى الحياة الدينية كما مال بوذا، وأطلق لتقشفاته العنان في مبدأ الأمر. فهناك على مبعدة خمسين ميلاً من روما تقع سوبياكو (Subiaco)، وعند نهاية خانق في نهر الأنيو (Anio) تحت أجمة من الأعشاب والشجيرات، كان يقوم قصر مهجور أقامه الإمبراطور نيرون، يطل على بحيرة صناعية صنعت في أيام الرخاء المنصرم ذاك بحجز مياه النهر. وهناك اتخذ بندكت – وكان أهم ما في حوزته قميص من الشعر – مقامه بكهف في صخرة عالية متجهة جنوبا تطل على النهر، وهي في مركز يصعب الوصول إليه، إلى حد أن أحد المعجبين به كان يضطر أن يدلي إليه طعامه بحبل وهناك أقام ثلاث سنوات ذاعت فيها شهرته: مثلما ذاعت شهرة بوذا في ظروف مشابهة قبل ذلك بألف سنة.

---

[1] الإسينيون: جماعة إخاء دينية بين اليهود الأقدمين كانت تعيش عيشة شظف انعزالية والملكية بينها شيوع. (المترجم).

وكما حدث في حالة بوذا، فإن قصة بندكت أضيف إليها بفضل تلاميذ له سخفاء بسيطي العقول، طائفة من سخيف الحكايات القائمة على المعجزات والكرامات. على أننا لا نلبث حتى نجده وقد انصرف عـن تعـذيب النفس، وأخذ يدير مجموعة من اثني عشر ديرا، كانت ملاذ عدد كبير من الناس. ويجاب الشباب إليه ليتعلموا على يديه العلم، وبذا تغير وجه حياته كلية.

وانتقل من سوبياكو جنوبا إلى مونتي كاسينو، وهو جبل في منتصف المسافة بين روما ونابلي، مـوحش جميل، يقوم في وسط دائرة كبيرة من المرتفعات الرائعة. ومن الشائق أن نلحظ أن القديس وجد هنا في القرن السادس الميلادي، معبدا لأبولو وأجمة [1] مقدسة، كما وجد أن المنطقة الريفية المجاورة لا تزال تتعبـد فـي ذلك المعبد. لذا لم يكن بد من أن يبدأ عمله، بالتبشير لدين المسيح، فاستطاع في شيء من العسـر أن يقنـع الوثنيين البسطاء أن يهدموا معبدهم وأن يقطعوا أجمتهم. وما لبثت المؤسسة المنشأة على مونتي كاسـينو أن بلغت حد الشهرة والقوة في حياة مؤسسها. وإنا لنستطيع أن نعرف شـيئًا مـن روح بنـدكت الحقيقيـة وإن اختلطت بمخترعات وترهات سخيفة صاغها خيال رهبان مولعين بالعجائب: من أبالسـة تنصـاع للرقـي، وتلاميذ يمشون على الماء وأطفال موتى يعودون إلى الحياة. غير أن الأقاصيص التي تمثلـه ينهـي علـى التطرف في قمع النفس وإذلالها، إنما هي أقاصيص لها مغزى ودلالة خاصة. فإنه أرسـل رسـالة لراهـب منعزل اخترع درجة جديدة من الورع بربط نفسه بسلسلة إلى صخرة في غار ضيق يثبط فيها من حماسـته ويدعوه فيها أن يخفف من غلوائه. قال بندكت: "كسر أغلالك، لأن خادم ا الحقيقي، لا يغل إلى الصـخور بالحديد، وإنما يربطه المسيح إلى الهدى والبر".

والميزة الثانية التي يمتاز بها بندكت بعد مقاومته لتعذيب النفس والعزلة، إصراره على ضرورة الجد فـي العمل، وتسطع في ثنايا الأساطير دلائل واضحة تشهد بالشغب الذي أحدثه تلاميذه ومريدوه النـبلاء؛ الـذين وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الكدح الشديد بدلاً من أن يعيشوا عيش التقشف والبطالة معتمدين علـى خدمـة إخوانهم من أبناء الطبقة الدنيا. والشيء الثالث العجيب حول بندكت هو نفوذه السياسي. فإنـه نصـب نفسـه لإصلاح ذات بين القوط والطليان، ومن المعروف أن توتيلا (Totila)، ملك إيطاليا القوطي، حضـر إليـه يطلب مشورته، وأنه تأثر به تأثرا عظيما. ولما ارتجع توتيلا نابلي من الإغريق، صان القوط النساء من كل إهانة وعاملوا حتى الجنود المأسورين بالإنسانية. وذلك بينما حدث عندما استولى بليسـاريوس قائـد جستنيان على نفس المكان قبل ذلك بعشر سنوات، أنه احتفل بنصره بإقامة مذبحة عامة.

والواقع أن هيئة الرهبنة التي أوجدها بندكت، كانت بداية عظيمة جدا في العالم الغربي، ومن بـين أتباعـه المبرزين البابا جريجوري الكبير (٥٤٠ – ٦٠٤)، وهو أول راهب أصبح بابا (٥٩٠)؛ وهو من أشد البابوات اقتدارا وهمة ونشاطًا؛ حيث أرسل بعثات تبشيرية تكللت جهودها بالتوفيق إلى من لم يعتنقوا الـدين المسـيحي وعلى الأخص إلى الأنجلوسكسون. وحكم في روما كأنه ملك مستقل، ينظم الجيوش ويعقد المعاهـدات. وإلـى نفوذه يرجع الفضل في فرض قواعد المذهب البندكتي وأصوله على كل الرهبنات اللاتينية تقريبا.

---

[1] الأجمة: الشجر الكثير الملتف. (المترجم)

ويرتبط كاسيو دورس (٤٩٠ – ٥٨٥) بهذين الاسمين ارتباطًا وثيقًا من حيث تطور الرهبنة (الديرية) من مجرد تعذيب النفس الأناني لدى النساك الأوائل، إلى القيام بدورها في خدمة الحضارة. وواضح أنه كان أسن بكثير من البابا جريجوري، ويصغر بندكت بعشر سنوات، وكان شأن هذين – ينتمي إلى أسـرة نبيلـة مـن البطارقة، أسرة سورية استقرت في إيطاليا. قضى مدة كبيرة من حياته موظفًا في خدمة ملوك القوط؛ ولمـا حدث بين سنتي ٥٤٥، ٥٥٣، أن مهد خلع هؤلاء الملوك والوباء العظيم، الطريق لحكم اللومبارد البربـري الجديد، راح يلتمس الملاذ في حياة الرهبانية، فأنشأ ديرا على أرض مزارعه الخاصة، وجعل الرهبان الـذين جمعهم يشتغلون على نفس النسق البندكتي تماما، وإن كنا لا ندري هل كان رهبانه يتبعون بالفعـل القواعـد والأصول البندكتية التي كانت تصاغ قرابة نفس ذلك الزمان في مونتي كاسينو. ولكن لا يتطرق الشك حـول تأثيره على تطور هذا النظام العظيم القائم على العمل والتعليم والدراسة. ومن الجلي أنه قد راعـه مـا ران على التعليم من انحلال عام واحتمال ضياع كل العلوم والأدب القديم من يد العالم. لذا وجه إخوانه منذ البداية إلى ضرورة حفظ هذه الأشياء وإعادتها إلى نصابها. فجمع المخطوطات القديمة وأمر بهـا فنسـخت. وقـام بصنع المزاول والساعات المائية وما شابهها من أجهزة: وهو قبس ضئيل أخير للعلم التجريبي خفق هنيهـة في تلك الظلمات المتكاثفة. وألف كتابا في تاريخ ملوك القوط؛ ومن أوضح الدلالات على شـعوره بحاجـة زمانه، إصداره سلسلة من الكتب المدرسية عن الفنون الحرة [1] وكتابا في الأجرومية أعني قواعـد اللغـة. والراجح أن سلطانه، يكاد يرجح سلطان القديس بندكت من حيث جعل الرهبانية أداة قويـة لإعـادة النظـام الاجتماعي في العالم الغربي إلى نصابه.

وكان انتشار أديرة النظام أو السلك البندكتي في القرنين السابع والثامن عظيما جدا، فإنا نجدها فـي كـل مكان مركزا للنور يعيد مستوى التهذيب إلى نصابه ويحافظ عليه ويرفع لواءه، ويقيم ضـربا مـن التعلـيم الأولي، وينشر فنونًا مفيدة ويكثر من عدد الكتب ويختزنها ويصونها، ويضع أمام أعين العالم صورة ومثـالاً لعمود فقري اجتماعي. ومضت قرون ثمانية لبث فيها نظام الأديرة الأوربية مكونًا من رقع وخيوط للاستنارة في عالم لولا الأديرة فيه لعمته الفوضى برمته. ومما يرتبط بأديرة البندكتيين ارتباطًا وثيقًا، تلـك المـدارس التي نمت للفور فأصبحت جامعات القرون الوسطى. وكانت مدارس العالم الروماني قد زالت زوالا تاما فـي طوفان الانهيار الاجتماعي العام. ولقد جاء أوان كان عدد قليل جدا من القسيسيين في بريطانيا وبلاد الغـال يستطيع أن يقرأ الأناجيل أو كتب الصلوات. فكأن التعليم لم يرجع إلى نصابه في العالم إلا تدريجيا. بيد أنـه عندما رد إلى نصابه، لم يعد بوصفه عملاً إجباريا يلزم بأدائه عبد عالم، بل بوصفه الخدمة الدينيـة لطبقـة خاصة من الرجال الذين حبسوا أنفسهم عليه.

---

(1) الفنون الحرة (Liberal Arts): هي فروع معينة من الفكر والعلوم الإنسانية تعد وسائل لا بد منها للتنمية الفكرية مثل النحو والمنطق والرياضيات. (المترجم)

وحدث في شرق الإمبراطورية كذلك أن تقطع حبل التعليم، بيد أن السبب هناك لـم يكـن الاضـطراب الاجتماعي قدر ما كان عدم التسامح الديني، كما أن الانقطاع لم يكن بأية حال تاما كما حدث فـي الغـرب. فأقفل جستنيان ما بأثينا من مدارس منكمشة ومنحلة ذهنيا وشرد رجالها (٥٢٩). بيد أنه فعل ذلك في معظـم الأمر لكي يقضي على كل منافس للمدرسة الجديدة التي كان يقيمها في القسطنطينية والتي كانت تحت الرقابة الإمبراطورية المباشرة أكثر من المدارس الأخرى.

ولما لم تكن للعلوم اللاتينية الجديدة في الجامعات الغربية الناشئة كتب دراسية ولا أدب خاص بها، فإنهـا اضطرت بالرغم من تحزبها اللاهوتي القوي لنقيض ذلك، أن تعتمد اعتمـادا كبيـرا علـى الأدب اللاتينـي (الكلاسيكي) القديم وعلى الترجمات اللاتينية للأدب الإغريقي. وبذلك اضطرت أن تحافظ على قدر من ذلـك الأدب الفاخر يعظم كثيرا ما كانت تود أن تحتفظ به.

١١- الفن البيزنطي

منذ أن نقلت حاضرة الإمبراطورية إلى الشرق أي إلى بيزنطة، يظهر في العالم طراز جديد مـن الفـن المعماري، وروح فنية جديدة، هو الطراز البيزنطي. وبلغ ذلك الفن درجة عالية مـن التطـور إبـان حكـم الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥) وسنحدثك عنه في الفصل التالي. ثم انحط ثانية وعاد فارتفع إلـى أوج جديد في القرن الحادي عشر. وهو لا يبرح إلى يومنا هذا تراثًا فنيا حيا في شرق أوربا. وهو يعبـر عمـا جاءت به المسيحية الرسمية الجديدة من قيود ودوافع. وقد أفرغت فيه علـى التقاليـد الكلاسـيكية السـمات الشرقية، وبخاصة بعض النزعات المصرية والفارسية. وتحل فيه الفخامة محل الصراحة والرشاقة.

ومن بين ما تختص به زخرفته من خصائص احتواؤها على قدر معين من الصلابة. وقد ذهب كل ما كان يحتويه التصوير والنحت الإغريقي والروماني من مرونة، وظهر في مكانها فسيفساء [1] (Mosaics) تحمل أشكالاً مسطحة سيمترية التصوير منتصبة في مواجهة تامة. ولا تكاد تجد البتة رسما جانبيـا (Profile) ولا أي أثر للتقصير [2]. وكأنما أصبح ذلك الجسم الطبيعي الذي كان يقدسه الإغريق، موضع الملاءمـة وشـيئًا يخشى شره. ومن ثم بلغ ذلك الفن وقارا عظيما رصينًا. فتبدو صـور الـرب الخـالق والعـذراء والطفـل والقديسين العظام، الضخمة المصنوعة من الفسيفساء، ممعنة في التفكير، وهي تطل علـى المشـاهدين مـن علياء القباب العظيمة التي هي موضوعة فيها. وتجلت نفس تلك الصلابة الوهاجة في التصوير وتحلية الكتب بالصور، وانحط فن النحت من الناحية الأخرى، واستبدلت الأشكال المجسدة (أي التماثيـل) بنوافـذ شـبكية Lattices زاهية الألوان ذات حليات محفورة. وكانت أشغال الذهب والفضة والميناء تعمل بإتقان لم يسبق له مثيل. وغالبا ما كانت مصنوعات النسيج المستجلبة من الشرق ذات رسوم فارسية لا لبس فيها. ولـم تلبـث التأثيرات الإسلامية حتى ظهرت على المسرح قاضية على كل شكل يمثّل الأجسام قضاء أتم وأكمل.

وكذلك أصبحت الموسيقى ضخمة ولها شأنها. وكانت موسيقى القرون المسيحية الأولى أقرب إلى التبتـل والحماسة منها إلى الإتقان والصقل، وهي تنهل من منابع "سامية" أكثر منها "هلّينية". فأما الموسيقى الدنيويـة فمحظورة حظرا تاما. فقد قال القديس جيروم: "إن الفتاة المسيحية يجب ألا تعرف ما هو اللير أو الناي". فأما ترتيل المزامير وعزفها على الآلات، فشيء نقله المسيحيون من الصلوات اليهودية، وقصر قصرا يتـراوح زيادة ونقصانًا على الجوقات (الكورس) المنظمة. وكان الترتيل التجـاوبي (Antiphonal) شـائعا. وكـان جماعة المصلين ينشدون التراتيل بطبيعة الحال في نغمة موسيقية موحدة الصوت والطبقة وذلك لأن التوزيع الغنائي (Part Singing) لم يكن قد اخترع بعد. وكان إنشاد التراتيل متنفسا عظيما ينفس عـن العواطـف المكبوتة. فظهر قدر وفير من التراتيل في اللغتين اليونانية واللاتينية. ويقال إن بعضها لا يـزال باقيـا فـي تراتيل موجودة إلى وقتنا هذا. وقد وضع القديس جريجوري (جريجوري الكبير)، ذلك المنظم العظيم للكنيسة، الذي لدينا عنه مزيد من القول نحدثك به في فصل تال، أسس موسيقى القداس الكنسي في القرن السادس.

---

(١) وهو ما يسمى بفصوص الذهب أو السليزلي. (المترجم).

(٢) التقصير (Foreshortening): تمثيل المنظور بحيث تقصر في الظاهر الخطوط الساقطة. (المترجم).

الفصل التاسع والعشرون

تاريخ آسيا أثناء

انحلال الإمبراطوريتين الغربية والبيزنطية

١- جستنيان الكبير.

٢- الإمبراطورية الساسانية في فارس.

٣- اضمحلال سوريا في عهد الساسانيين.

٤- أول رسالة من الإسلام.

٥- زرادشت وماني.

٦- الشعوب الهونية في آسيا الوسطى وبلاد الهند.

٧- أسرتا "هان وتانج" بالصين.

٨- أغلال الصين الذهنية.

٩- الفن الصيني القديم.

١٠- رحلات يوان تشوانج.

١- جستنيان الكبير[١]

ركزنا التفاتنا في الفصلين السابقين بصفة رئيسية على ما حدث في فترة قصيرة نسبيا قوامها أربعة قرون من انهيار النظام السياسي والاجتماعي في القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية العظيمة: إمبراطورية قيصر وتراجان، ولم يفتنا أن ننعم النظر في ذلك الانهيار والإفاضة في بلوغه الذروة. ولا مراء أن أي فرد ذكي الفؤاد عمومي الروح [٢]، يعيش في زمان القديس بندكت أوكاسيودورس وفي نفس ظروف حياتهما، -كان يخيل إليه أن الحضارة قد أخذ ضياؤها يخبو وآذنت شمسها بالمغيب. على أن النظرة الأرحب التي تتيحها لنا دراسة التاريخ العام، تطوع لنا أن نستعرض قرون الظلال هذه بوصفها دورا – ولعله كان دورا ضروريا – من أدوار تقدم الفكرات والمفاهيم الاجتماعية والسياسية في انطلاقها إلى الأمام. ولئن حدث أثناء ذلك الزمان، أن إحساسا قاتما بنكبة فادحة يجثم على صدر أوربا الغربية، فلا بد لنا من أن نتذكر في مقابل ذلك أن أجزاء عظيمة من العالم لم يلم بها أي تقهقر ولا انحطاط.

ويجنح الكتاب الأوربيون، بسبب انشغال بالهم الدائم بالدولة الرومانية الغربية وسيطرتها على أفكارهم، إلى الإسراف في الميل إلى التقليل من شأن تماسك الإمبراطورية الشرقية التي كان مركزها القسطنطينية. وغني عن البيان أن تلك الإمبراطورية كانت لها تقاليد أقدم بكثير من تقاليد روما. فلو أن القارئ نظر إلى الخريطة التي تبين مدى اتساعها في القرن السادس، ولو أنه تأمل أن لغتها الرسمية كانت أصبحت آنذاك يونانية، لأدرك أن ما نعالجه هنا، إنما هو فرع من الإمبراطورية الرومانية بالاسم فقط. إذ الواقع أنها هي الإمبراطورية الهلّينية التي طالما حلم بها "هيرودوت"، والتي أسسها الإسكندر الأكبر. حقًا إنها كانت تدعو نفسها "الرومانية" وتدعو سكانها "رومانا" [٣]، ولا تزال اللغة اليونانية العصرية تسمى إلى يومنا هذا بالرومية (Romaic). وحقًا أن قسطنطين الكبير كان ضئيل الحظ من اليونانية وأن لهجة جستنيان في نطقها كانت رديئة. على أن هذه الأمور السطحية المتعلقة بالاسم والشكل لا تستطيع أن تغير الواقع، وهو أن الإمبراطورية كانت في حقيقتها هلّينية، لها في زمن قسطنطين الكبير ماض من ستة قرون، وأنه على حين تقلصت الإمبراطورية الرومانية اللاتينية تقلصا كاملاً في مدى أربعة قرون، فإن هذه الإمبراطورية الرومانية الهلّينية قد صمدت أكثر من أحد عشر قرنًا من ٣١٢ عند ابتداء حكم قسطنطين الكبير إلى ١٤٥٢، عندما سقطت القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين.

---

(١) من شاء استزادة في تاريخ ذلك الإمبراطور فعليه أن يقرأ للمترجم كتاب "الحضارة البيزنطية" تأليف استيفن وانسيمان (مجموعة الألف كتاب، ومكتبة النهضة المصرية). (المترجم).

(٢) عمومي الروح Public spirited هو من يخدم الغير بدافع من حب المصلحة العامة وهو الغيري الروح كما أسلفنا في هامش سابق. (المترجم).

(٣) ويسميها العرب بدولة الروم. (المترجم)



(شكل ١٢٢) صورة بالفسيفساء لجستنيان وبلاطه

وعلى حين اضطررنا أن نحدثك عن حدوث ما يشبه الانهيار الاجتماعي الكامل في الغرب، فلم يحدث في الشرق انهيار مماثل لذاك. فازدهرت المدن والبلدان وتقدمت الزراعة في المناطق الريفيـة وتواصـل رواج التجارة. وظلت القسطنطينية قرونًا عديدة أعظم وأغنى مدينة في العالم. ولن نشغل أنفسنا هـا هنـا بأسـماء أباطرتها المتعاقبين وحماقاتهم وجرائمهم ومؤامراتهم. فإنهم شأن معظم ملوك الدول العظيمـة، لـم يكونـوا ليوجهوا إمبراطوريتهم، بل هي التي كانت تدفعهم دفعا. ولقد سبق أن عالجنا في شيء من الإسهاب موضوع قسطنطين الكبير (٣١٢ – ٣٣٧). وذكرنا ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ – ٣٩٥)، الذي وحـد الإمبراطوريـة لفترة يسيرة، وذكرنا جستنيان الأول (٥٢٧ – ٥٦٥). وسنذكر لك من فورنا شيئًا عن هرقل (٦١٠ – ٦٤١).

ولعل جستنيان كان كقسطنطين يحمل في عروقه دما سلافيا. كان رجلاً واسع الطموح ذا قدرة عظيمة على التنظيم، ومن حسن حظه أن تزوج امرأة ذات مقدرة معادلة لمقدرته إن لم تفقها، وهي الإمبراطورة ثيـودورا، التي كانت في صباها ممثلة ذات سمعة مغموزة. على أن محاولاته الطموح لاسترداد عظمـة الإمبراطوريـة القديمة، أثقلت فيما يرجح مواردها بالضرائب (1). ولقد أسلفنا إليك أنه استرد الولاية الإفريقيـة مـن الونـدال واستعاد معظم إيطاليا من القوط. كذلك استرد جنوب إسبانيا. وبنى الكنيسة العظيمة الجميلـة كنيسـة القديسـة صوفيا بالقسطنطينية، وأسس جامعة وجمع القوانين. بيد أننا يجب أن نضع إلى جوار هذا إقفاله مدارس أثينـا. ولكن اجتاح العالم في زمانه طاعون عظيم، وانهارت بموته تلك الإمبراطورية الموسعة المجـددة كمـا تنهـار مثانة نفخت بالهواء إذا وخزها دبوس. فذهب القسم الأكبر من فتوحه الإيطالية إلى أيدي اللومبارد، ونذكر هنـا أن إيطاليا تحولت في ذلك الزمان إلى صحراء أو ما يشبه الصحراء. ذلك أن مؤرخي اللومبـارديين يؤكـدون أنهم نزلوا في قطر خال من الناس. وانحدر الآفار والصقالبة (السلاف) يعيثون فسادا من أرض الـدانوب إلـى الأدرياتي، وأخذ أقوام من الصقالبة يستقرون فيما هو الآن صربيا وكرواتيا ودالماتيا، فأصبحوا يوغسلاف هـذا الزمان. وفضلاً عن ذلك فإن نزاعا عظيما مضنيا نشب بين الإمبراطورية وبين الساسانيين في فارس.

ولكن يجدر بنا قبل أن نقول شيئًا عن هذا الكفاح، الذي أوشك فيه الفـرس ثـلاث مـرات أن ينتزعـوا

(1) عن المزيد من تاريخ هذه الحقبة، انظر كتاب "ميلاد العصور الوسطى" تأليف موص وترجمة المترجم (الألف كتاب ومكتبة عالم الكتب). (المترجم).

القسطنطينية، والذي كان العامل الفاصل فيه هزيمة الفرس العظيمة قرب نينوى (٦٢٧)، يجدر بنا أن نلخص بغاية الإيجاز تاريخ بلاد الفرس من أيام البارثيين.

٢- الإمبراطورية الساسانية في فارس

سبق أن عقدنا موازنة بين القرون الأربعة الوجيزة التي عاشتها الإمبريالية الرومانية وبين الحيوية العنيدة لإمبريالية إقليم دجلة والفرات. وألقينا نظرة عجلى على الملكيتين البلخية الباكترية [1] والسلوقية المهلتين اللتين ازدهرتا مدة ثلاثة قرون في النصف الشرقي مما غزاه الإسكندر من بلاد. وأخبرناك كيف هبط البارثيون أرض الجزيرة في القرن الأخير ق. م. ووصفنا لك معركة كاراي (Carrhae) ونهاية كرسوس. ومنذ ذلك الحين فما بعده بقرنين ونصف استمرت أسرة الأرشكيين البارثية تحكم في الشرق بينما حكمت الدولة الرومانية في الغرب، على حين فصلت بينهما أرمينية وسوريا، وكانت الحدود تنتقل شرقًا أو غربًا تبعا لزيادة قوة أحد الطرفين على الآخر. ولحظنا أقصى امتداد بلغته الإمبراطورية الرومانية شرقًا في عهد تراجان (انظر الخريطة (١١٤) المرافقة للفصل ٢٧ القسم الأول ص ٦١١ ج ٢)، كذلك لاحظنا أن "الهندوإسكيذيين Indo-Scythians " تدفقوا قرابة ذلك الزمان إلى الهند (الفصل ٢٧ – القسم الخامس).

وشبت ثورة في ٢٢٦، وحلت محل الأسرة الأرشكية أسرة جديدة أقوى منها هي الساسانية، وهي أسرة فارسية قومية يرأسها أردشير الأول. وكانت إمبراطورية أردشير الأول ذات مشابهة عجيبة من جهة واحدة بإمبراطورية قسطنطين الكبير بعد ذلك بمائة سنة. ذلك بأن أردشير حاول أن يقوي أواصر تماسكها بأن اهتم بالوحدة الدينية وأصر عليها واتخذ من عقيدة زرادشت الفارسية القديمة ديانة رسمية للبلاد؛ وسنذكر المزيد عنها فيما بعد.

وتحولت هذه الإمبراطورية الساسانية الجديدة من فورها إلى العدوان، فاستولت على أنطاكية (Antioch) في حكم شابور الأول ابن أرشدير وخلفه. وقد ذكرنا من قبل كيف هزم الإمبراطور فاليريان (٢٦٠) وأخذ أسيرا. على أنه بينا كان شابور عائدا من حرب مظفرة في آسيا الصغرى، إذ انقض عليه أذينة وهزمه، وأذينة (Odenathus) هذا ملك عربي على مركز تجاري عظيم في الصحراء هو تدمر (Palmyra).

وقد ظلت تدمر زمانًا قصيرا في عهد أذينة، ثم في أيام أرملته الزباء (Zenobia)، دولة ضخمة تمتد كالإسفين بين الإمبراطوريتين. ثم سقطت في يد الإمبراطور أوريليان الذي حمل الزباء مكبلة بالأصفاد لتكون في روما آية فخار لنصره (٢٧٢).

ولسنا بمحاولين أن نقفو تقلبات الحظ بالساسانيين أثناء القرون الثلاثة التالية. ففي طوال ذلك الزمان أنهكت حروب فارس وإمبراطورية القسطنطينية بلاد آسيا الصغرى إنهاك الحمى. وانتشرت المسيحية انتشارا واسعا ولكنها كانت موضع الاضطهاد، إذ إنه بعد أن تنصرت روما لم يعد على الأرض من ملك يدعي الربوبية غير العاهل الفارسي، فرأى في المسيحية مجرد دعاية لمنافسه البيزنطي. وأصبحت القسطنطينية حامية المسيحيين، وأضحت فارس حامية الزرادشتيين، وبمقتضى معاهدة عقدت بين الطرفين ٤٢٢ قبلت إحدى الإمبراطوريتين أن تتسامح مع الزرادشتية على أن تتسامح الأخرى مع النصرانية. وفي ٤٨٣ انفصل

[1] بلخ (بقتر): وهي ما تسمى الآن باكتريا: كانت ملتقى الحضارة الهندية وغيرها. (المترجم)

نصارى الشرق عن الكنيسة الأرثوذكسية وكونوا الكنيسة النسطورية، التي نشرت – كما سبق أن ذكرنـا – مبشريها في كل أنحاء آسيا الوسطى والشرقية. ولما كان انفصال هذه الكنيسة عن أوربا قد حـرر الأسـاقفة النصارى في الشرق من سيطرة البطاركة البيزنطيين، وبذا أزال عن كاهل الكنيسة النسطورية ما كان يحوم حول ولائها السياسي من شبهات، فإنه أدى إلى تسامح تام مع المسيحية في بلاد فارس.

وابتدأ بحكم كسرى الأول (٥٣١ – ٥٧٩) الملقب أنوشروان آخر عهود القوة الساسانية. كـان معاصـرا لجستنيان وعديلا مكافئًا له. فأصلح نظام الضرائب وأعاد الزرادشتية السلفية الحقة، ومد سلطانه على جنوب بلاد العرب (اليمن)، التي أنقذها من حكم نصارى الحبشة، ودفع بتخومه الشمالية حتى التركستان الغربيـة، وخاض سلسلة من الحروب مع جستنيان. وبلغت شهرته بوصفه حاكما مستنيرا درجة رفيعة جعلت الفلاسفة الإغريق ينتقلون إلى بلاطه عندما أغلق جستنيان مدارس أثينا. إذ التمسوا فيه الملك الفيلسوف – ذلك السراب الذي أمعن كنفوشيوس وأفلاطون في البحث عنه في زمانيهما كما سبق أن ألمحنا. ولكن الفلاسفة وجدوا جو الزرادشتية السلفية أقل ملاءمة لأذواقهم من جو المسيحية السلفية. وفي ٥٤٩ ترفق كسرى بهم بأن أدخل في هدنة عقدها مع جستيان فقرة تبيح لهم العودة إلى بلاد الروم، وتستوثق أنهم لن يضارهم أحد بسبب فلسـفتهم الوثنية أو بسبب سلوكهم الذي تجلى فيه ميلهم حينًا ما إلى فارس.

وإنا لنسمع في أيام كسرى أنوشروان لأول مرة عن شعب هوني جديد في آسيا الوسطى، هم الأتراك الذين دخلوا فيما نعلم في محالفة معه أولاً ثم مع القسطنطينية.

وتقلبت الحظوظ ألوانًا على كسرى الثاني أبرويز (٥٩٠ – ٦٢٨) حفيد كسرى الأول. فإنه في بدايـة حكمـه أحرز انتصارات باهرة على إمبراطورية القسطنطينية. وقد وصلت جنوده إلى خلقدون ثلاث مرات (فـي ٦٠٨، ٦١٥، ٦٢٦) وهي المدينة المواجهة للقسطنطينية، واستولى على أنطاكية ودمشق والقدس (٦١٤). وحمـل مـن القدس صليبا، قيل إنه الصليب الحقيقي الذي صلب عليه يسوع، حمله إلى عاصمته المدائن (طيشفون). (ولكـن جزءا من هذا الصليب الحقيقي أو صليبا ما آخر حقيقيا انتقل قبل ذلك إلى روما. إذ أحضرته من القدس فيما يقال "الإمبراطورة هيلينا"، وهي أم قسطنطين التي جعلت مثلاً أعلى ورفعت إلى مصاف القديسات، وهي قصة أظهر نحوها جيبون الشيء القليل من الاحترام [1]). وفي ٦١٩ فتح كسرى الثاني مصر ذلك القطر الهين اللين. وأخيرا أوقف الإمبراطور هرقل (٦١٠)، هذه الحياة المليئة بالفتوح عند حدها، حيث شرع يسترجع قـوة القسـطنطينية العسكرية المحطمة. وظل ردحا من الزمن يتجنب الدخول في معركة كبيرة أثناء جمعه قواته. ثم تقدم إلى الميدان بكل جد في ٦٢٣. فلقي الفرس على يديه سلسلة من الهزائم كللت بمعركة نينوي (٦٢٧)، ولكن أحدا من الطرفين لم يبلغ من القوة مبلغًا يتيح له أن يهزم خصمه هزيمة ماحقة قاضية. فقلما أشرف الكفاح على نهايته، كان هنـاك جيش فارسي على ضفاف البسفور لم يهزم، وذلك رغم وجود قوات بيزنطية مظفرة في أرض الجزيرة.

وفي ٦٢٨ خلع ابن كسرى الثاني أباه وقتله. وتم صلح غير حاسم بين الإمبراطوريتين المنهكتـي القـوى بعد ذلك بعام أو ما يقاربه، وبه رجعت لكل من الطرفين حدوده القديمة؛ وأعيد الصليب الحقيقي إلى هرقـل، فأرجعه إلى أورشليم محاطًا بجو من الفخامة والحفاوة.

([1]) اضمحلال الإمبراطوريـة الرومانيـة وسـقوطها The Decline & Fall of the Roman Empire الفصـل الثالـث والعشرون.

٣- اضمحلال سوريا في عهد الساسانيين

على هذه الشاكلة، نقدم إليك إيجاز أهم الأحداث في تاريخ الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية على السواء. بيد أن الشيء الذي يهمنا ويلذ لنا ويعسر مع ذلك تسجيله هو تلك التغيرات التي توالت على حياة السكان عامة في هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين أثناء ذلك الزمان. ولا يجد كاتب هذه السطور شيئًا مقطوعًا بصحته إلا النزر اليسير في حديث تلك الأوبئة العظيمة التي نعلم أنها اجتاحت العالم في القرنين الثاني والسادس من هذه الحقبة. ومن المحقق أن تلك الأوبئة أفنت السكان، والراجح أنها أفسدت النظام الاجتماعي في تلك المناطق على نفس النحو الذي نعرف أنها أحدثته في الإمبراطوريتين الرومانية والصينية.

وقد دبج المرحوم السير مارك سايكس (الذي جاءت وفاته في غير الأوان في باريس أثناء وباء الأنفلونزا سنة ١٩١٩، خسارة لا تعوض على بريطانيا العظمى) في كتابه "آخر ميراث الخلفاء" "The caliph's last Heritage، استعراضا مشرقًا للحياة العامة وأحداث آسيا الغربية أثناء الفترة التي نحن بصددها. قال متحدثًا عن القرون الأولى التي افتتحت بها الحقبة الحالية، "أصبح توجيه الإدارة العسكرية والمالية في الإمبراطورية منعزلاً في أذهان الناس عن الناحية العملية للحكم انعزالاً تاما؛ وبالرغم من قيام أبشع أنواع استبداد البلهاء والسكيرين والمعتوهين والطغاة والمجانين والمتوحشين والنساء الخليعات، الذين كانوا يتولون زمام الحكم من وقت إلى آخر، فإن أرض الجزيرة وبابل وسوريا كانت تحوي عددا هائلاً من السكان، وبها قنوات وسدود ضخمة تحظى بالصيانة المستمرة، كذلك ازدهرت التجارة والعمارة، بالرغم من زحف الجيوش المعادية اللانهائي ذهابا وجيئة وبالرغم من التغيير المستمر في جنسية الحاكم. وكانت مصلحة كل فلاح ممركزة في المدينة التي يتبعها؛ كما أن اهتمام كل مواطن كان موجها إلى تقدم مدينته ورغدها؛ كما أن دخول جيش معاد ربما كان أمرا ينظر إليه في بعض الأحايين بعين الرضا والارتياح، إذا كان نصره مضمونًا وكان تسديده لما يتعاقد عليه محققًا.

"ولا بد أن غارات أهل الشمال [1] كانت من الناحية الأخرى مثار الذعر والهلع، إذ كان لابد للقرويين حينذاك أن يعتصموا خلف أسوار المدن، ومن هناك كانوا يستطيعون أن يبصروا الدخان الذي يدل على ما ينزله الرحل بممتلكاتهم من تدمير وإتلاف. وما دامت القنوات لم تمسسها يد المدمرين (والواقع أنها بنيت في متانة وحيطة تضمنان سلامتها)، لم يكن هناك ضرر يستعصي على الإصلاح.

على أن حالة الحياة في أرمينية وبلاد بنطُس كانت مخالفة لهذه تمام المخالفة، إذ كانت تلك البلاد مناطق جبلية تعمرها قبائل شرسة على رأسها نبلاء أقوياء من الوطنيين، تحت ملوك بيدهم مقاليد الحكم، على حين كان المزارع المسالم في الوديان والسهول يقدم الموارد الاقتصادية الضرورية... وكانت كيليكيا وكابادوكيا خاضعتين تمام الخضوع لسلطان الروم، وقد احتوتا على مدن عديدة غنية راقية الحضارة، فضلاً عن امتلاكهما لبحرية تجارية ضخمة. وإذا نحن انتقلنا من كيليكيا إلى الدردنيل، ألفينا ساحل البحر المتوسط

([1]) أي الطورانيين من التركستان أو الآثار من القوقاز. (المؤلف)

مزدحما بالمدن الثرية والمستعمرات اليونانية، وهي المخالطة تماما فكرا ولغة، مع تجلي روح الرغبة في الاستقلال والنزعات المحلية، تلك الروح التي تبدو قطعة من طبيعة الخُلق اليوناني. وكانت المنطقة اليونانية تمتد من كاريا إلى البسفور، وتمضي بحذاء الساحل حتى سينوب على البحر الأسود، حيث تأخذ في الانتهاء تدريجيا.



(شكل ١٢٣) خريطة الإمبراطورية الشرقية وإمبراطورية الساسنيين

"وتجزأت سوريا إلى أجزاء عجيبة تشبه ستارا متعدد الرقاع من الإمارات والمدن الملكية؛ تبدأ في الشمال بدولتي كوماجين والرها (Edessa) [1] شبه الهمجيتين. وإلى الجنوب من هاتين كانت بامبيكي (مبوج) (Bambyce) بمعابدها الفخمة وحكامها الكهنة. وإلى ناحية الساحل كان يتجمع عدد كثيف من السكان حول المدن المستقلة: أنطاكية وأباميا وحمص (Emesa)؛ على حين كانت هناك في البرية مدينة بالميرا (تدمر) السامية التجارية العظيمة، التي أخذت ترقى مدارج الشهرة والعظمة بوصفها أرض التبادل التجاري المحايدة بين بارثيا وروما. وإنا لنجد بين جبال لبنان ولبنان الخلفية مدينة بعلبك (هليوبوليس) وهي في أوج مجدها، ولا تزال بقاياها المحطمة تأخذ حتى الآن بمجامع إعجابنا... فلو عرجنا نحو الجليل وجدنا المدن العجيبة جِرش (Gerasa) وفلادلفيا (عمان) وهما متصلتان بطرق صلبة من الحجر ومزودتان بسقايات مائية [2] هائلة. ولا تزال سوريا غنية بخرائب ذلك العصر وبقاياه إلى حد لا يصعب علينا معه أن نرسم لأنفسنا عن حضارتها صورة حية. ذلك أن فنون الإغريق التي أدخلت إلى البلاد من أجل بعيد، قد تطورت إلى درجة من الفخامة قاربت حد الابتذال السوقي. فإن جزالة الحليات والإسراف في النفقة والمباهاة بالثراء لتدل جميعا على أن أذواق الساميين الشهويين ذوي الروح الفنية كانت آنذاك على ما هي عليه الآن. ولقد وقفت يوما في

---

(١) ومكانها الآن مدينة أورفه بتركيا. (المترجم)

(٢) السقايات المائية (Aqueducts) هي قنوات مبنية فوق عقود عالية لنقل الماء داخل المدن وهي شبيهة بمجرى العيون الموجود بمنطقة فم الخليج بالقاهرة. (المترجم)

أبهاء الأعمدة بتدمر وتغديت يوما آخر في فندق سيسل، ولولا أن الثاني مبني من الحديد الملطخ بالخشب والجص الزائف والمموه بالذهب الزائف والقطيفة الزائفة والحجر الزائف، لتوهمت أن تأثير هذا هو نفس تأثير ذاك. أما سوريا فكان بها جموع وفيرة من الأرقاء تكفي لإقامة مبان حقيقية، غير أن الروح الفنية بها بلغت من الوضاعة دركًا يماثل ما تخرجه الآلات. فأما في غير المدن، فلا بد أن سكان القرى كانوا يتخذون مساكنهم بطريقة تداني ما يفعلونه الآن حيث يبنون جدرانها من الطين والحجر العاري. على حين أنه في المراعي البعيدة في الخارج، كان البدو يرعون قطعانهم بملء حريتهم تحت حكم ملوك النبط [1] (Nabatean) من بني جلدتهم، أو يقومون بوظيفة الحراسة والوساطة في القوافل التجارية العظيمة.

"ومن وراء الرعاة وأرضهم تمتد الفاوات اللافحة، وتقوم بدور التخوم والحصون المنيعة التي تدفع الشر عن الإمبراطورية الباثية خلف نهر الفرات حيث تقف مدن عظيمة من أمثال طيشفون (المدائن) وسلوقيا وهاترا ونصيبين وحوران ومئات أخرى من المدن، نسي الناس منها حتى مجرد أسمائها. كانت هذه المدن العظيمة تعيش على ما تغله أرض الجزيرة من وفرة هائلة من الحبوب. وكانت تروى آنذاك بالقنوات التي توارت أسماء منشئيها – حتى في تلك الأيام – في غيابات الماضي السحيق. وكانت بابل ونينوي قد درستا من الوجود. على حين أخلى خلفاء فارس ومقدونيا مكانهم لبارثيا. بيد أن الناس والزراعة كانوا كما هم لم يتغير فيهم شيء عما كان عليه الحال عندما أخضع البلاد قورش الفاتح لأول مرة. وكانت لغة كثير من المدن الإغريقية، حتى لربما انتقد مواطنو سلوقيا المثقفون فلسفات أثينا ومآسيها (تراجيدياتها). على أن الملايين من السكان الزراع كانوا لا يعرفون عن هذه الأمور فيما يحتمل أكثر مما يعرفه كثير من فلاحي مقاطعة إسكس اليوم عما يجري في العاصمة البريطانية".



(شكل ١٢٤) خريطة المدن في آسيا الصغري وسوريا وبلاد بين النهرين

(في القرن الأول المسيحي)

([1]) النبط، شعب عربي كان يسكن القسم الشمالي من بلاد العرب في موقع الدولة الأردنية الآن. (المترجم)

وعلى القارئ أن يقارن هذا كله بالأحوال السارية في نهاية القرن السابع.

"وكانت سوريا عند ذاك أرضا فقيرة منكوبة. ولا بد أن مدنها العظيمة، وإن كانت لا تزال آهلة بالسكان، قد تكاثرت فيها الخرائب التي لم تكن الموارد المالية العامة كافية لإزالتها. ولم تكن دمشق وأورشليم نفساهما أفاقتا مما أصابهما من ويلات الحضارات الطويلة الفظيعة. وانحطت عمان وجرش إلى مصاف القرى التعسة تحت سلطة البدو وسيادتهم. ولعل حوران كانت لا تزال على شيء من دلائل الرخاء الذي اشتهرت به أيـام تراجان. بيد أن مباني ذلك الزمان التعسة وكتاباته الخشنة التي تعوزها البراعة تشير جميعا إلى اضـمحلال محزن مؤلم، وهناك في وسط رمال الصحراء، كانت تدمر تقف خاوية موحشة اللهم إلا من حامية تقيم فـي قلعتها. فأما عن الشواطئ وفي لبنان فكان هناك لقديم التجارة والأعمال والثروة ظل لا يزال مشاهدا، فأما في الشمال فلا بد أن الخراب والدمار والإفقار والوحشة كانت الحالة التي تعم أراضيها التي ظلت يغيـر عليهـا المغيرون بانتظام لا يفتر طوال مائة سنة، كما تملكها عدو لها مدة خمسة عشر عاما. ولا بد أن قد انحطـت الزراعة وقلّ السكان قلة ملموسة بسبب تعاقب الطاعون والمحن وصبهما العذاب عليها ألوانًا.

"وهوت كبادوكيا إلى درك الهمجية على درجات غير محسوسة. وسويت بسطح الأرض الكنائس العظيمة (البازيليت) والمدن الكبيرة التي لم يستطع الريفيون البسطاء أن يصلحوها ولا أن يعيدوها إلى سابق عهـدها. وطفقت الجيوش الفارسية تذرع شبه جزيرة الأناضول طولاً وعرضا وتهلك الحرث والنسـل، علـى حـين تعرضت المدن العظيمة للسلب والنهب".

٤- أول رسالة من الإسلام

حدث عندما كان هرقل مشغولاً بإعادة النظام في سوريا هذه المقفرة المنكوبة بعد وفـاة كسـرى الثـاني أبرويز وقبل عقد الصلح النهائي مع فارس، أن أحضرت إليه رسالة غريبة. وكان حاملها قد دفعها إلى مخفر إمبراطوري أمامي في البرية الممتدة إلى الجنوب من دمشق. وكانت الرسالة بالعربية، وهي اللغـة السـامية غير المعروفة، لغة الشعوب "المترحلة في الصحراء الجنوبية. ولعل الإمبراطور لم يصل إلى علمه إلا تأويل لها – أضاف إليه الترجمان فيما نعتقد بعض ملحوظات تنم عن الاحتقار والاستهزاء.

كانت تحديا غريبا بليغًا من شخص يدعو نفسه باسم "محمد نبي ا ". وكان محمد (عليه الصلاة والسـلام) على ما يظهر، يدعو هرقل أن يعترف بالإله الواحد الحق وأن يقوم على خدمته وعبادته. ولم يكن في الوثيقة بعد هذا أي شيء آخر محدد.

وليس هناك سجل أثبت فيه تسلم هذه الرسالة، ويغلب علـى الظـن أنهـا ذهبـت دون رد والـراجح أن الإمبراطور هز كتفيه، في شيء من التفكه [1] بهذه الحادثة.

بيد أن من في المدائن كانوا يعرفون عن محمد قدرا أكبر. إذ قالوا عنه – إفكًا وبهتانًا – إنه نبـي مقلـق كذاب [كذا!!؟..]، حرض اليمن، وهي الولاية الغنية في جنوب بلاد العرب، على الثورة على "ملك الملـوك" الفارسي. وكان الملك قباذ مثقل العاتق بالأعمال. فقد خلع أباه كسرى الثاني أبرويز وقتله، وأخذ يحـاول أن يعيد تنظيم القوات العسكرية الفارسية. وإليه كذلك جاءت رسالة تطابق تلك المرسلة إلى هرقل. فأغضبه ذلك الأمر. فمزق الرسالة وألقى بها في وجه حاملها – وأمره بالانصراف.

ولما أن نبئ النبي (ﷺ) بذلك، وهو في بلدته النائية الصغيرة المتواضعة "المدينة"، غضب غضبا شـديدا وصاح قائلاً: "اللهم مزق ملكه شر ممزق" (٦٢٨ م).

---

(1) ذكر ابن هشام في سيرته أن النبي صلى ا عليه وسلم بعث دحية بن خليفة الكلبي ومعه كتاب إلى هرقل. وأضـاف ابـن سعد في الطبقات الكبرى قال: وبعث رسول ا ﷺ دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتابـا وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر، دفعه عظيم بصرى إليه وهو يومئذ بحمص، وقيصر يومئذ ماش في نذر كان عليه إن ظهرت الروم على فارس أن يمشي حافيا من قسطنطينية إلى إيلياء (القدس)، فقرأ الكتاب وأذن لعظمـاء الروم في دسكرة له بحمص. فقال: "يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت لكم ملككم وتتبعون ما قال عيسى بن مريم؟" قالت الروم : "وما ذاك أيها الملك؟" قال "تتبعون هذا النبي العربي" قال: فحاصوا حيصة حمر الوحش، وتناجزوا ورفعوا الصليب، فلما رأى هرقل ذلك منهم يئس من إسلامهم وخافهم على نفسه وملكه، فسكنهم ثم قال: "إنما قلت لكم مـا قلت أختبركم لأنظر كيف صلابتكم في دينكم، فقد رأيت منكم الذي أحب، فسجدوا له". جزء ٢ ص ٢٣ – ٢٤ (المترجم).

٥- زرادشت وماني

على أنه يجدر بنا قبل أن نواصل الحديث في نشأة الإسلام في العالم، أن نستكمل بحثنا في حال آسيا عند فجر القرن السابع. ويجب علينا أن نقول كلمة أو ما إليها عن التطور الديني في المجتمع الفارسي أثناء العهد الساساني.

تغلبت الزرادشتية منذ أيام قورش فما بعدها على آلهة نينوي وبابل الأقدمين. وكان زرواستر Zeroaster (وهو الهجاء الإغريقي لكلمة زاراثوستر Zarathustra [1] الإيرانية) آريا مثل بوذا. ولسنا ندري شيئًا عـن العصر الذي عاش فيه، ويرجعه بعض الثقات إلى سنة ١٠٠٠ ق. م، ويجعله آخـرون معاصـرا لبـوذا أو كنفوشيوس. ولا يزيد على علمنا هذا، علمنا بمحل ميلاده أو جنسيته بالدقة. فأما تعاليمه فمحفوظة لنـا فـي الزند أفيستا (Zend Avesta). ولكن نظرا لأنها لم تعد تلعب دورا كبيرا في شئون العالم، فليس في طوقنـا أن نعالجها هنا في أي تفصيل. وصفوة القول إن التعارض بين رب للخير وهو أهورا مزدا (هرمزد): إلـه النور والصدق والصراحة والشمس، وبين رب شرير هو أهريمان: رب الخفاء والمكر والسياسـة والظلمـة والليل، هو محور ديانته. ونجدها في التاريخ محوطة آنفًا بنظام طقوسي وكهنوتي، وليس لها أصنام ولكن لها كهنة ومعابد وهياكل، تتقد عليها نار مقدسة وتقام عليها الطقوس القربانية. ومن بين خصائصـها المميـزة، حظرها دفن الموتى أو إحراقهم. والفرسيس (Parsees) الهنود، وهم آخر من بقي من الزرادشتيين إلى يومنا هذا، لا يزالون يلقون موتاهم داخل أبراج معينة مفتوحة، هي "أبراج الصمت والخشوع" التي تنتابها العقبان.

وكانت هذه الديانة هي الديانة الرسمية للدولة إبان حكم بني ساسان من أردشـير فمـن بعـده (٢٢٧ م)، ورئيسها هو ثاني رجل في الدولة بعد الملك، وطبقًا لأدق مقتضيات العرف القديم، كان الاعتقـاد السـائد أن الملك قدسي أو شبه قدسي وله علاقة مودة صميمة خاصة مع هرمزد.

بيد أن ما كان يجري في العالم من اختمار ديني لم يترك للزرادشتية السيادة المطلقة على الإمبراطوريـة الفارسية بغير منازع فلم يقتصر الأمر على توغل النصرانية شرقًا، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك، بل نشـأت طوائف جديدة في فارس حاملة فكرات ذلك الزمان المستحدثة. ولقد سبق أن ذكرنا فرعا أو نوعا مبكرا مـن الزرادشتية هو المثرائية. وهي عقيدة انتشرت في أوربا في القرن الأول ق. م بعد حملات بومبي الكبير فـي الشرق. فمال إليها الجنود والعامة ميلا هائلاً، وظلت حتى عهد قسطنطين الكبير منافسة خطيرة للنصـرانية. ومثرا هو إله النور "الذي يصدر" عن أهورا مزدا (هرمزد) ويولد ميلادا إعجازيا بنفس الطريقة التي يصدر بها الأقنوم الثالث في الثالوث المسيحي عن الأول. ولسنا بحاجة إلى مزيد القول عن هذا الفرع مـن الجـذع الزرادشتي. على أنه نشأت أثناء القرن الثالث (م) ديانة أخرى هي المانويـة، وهـي تسـتحق الآن بعـض الالتفات.

([1]) زرادشت بالعربية. (المترجم).

ولد ماني مؤسس المانوية في عائلة كريمة بمدينة إكباتانا العاصمة الميدية القديمة (٢١٦ م). وتلقى تعليمه في طيشفون. وكان أبوه ناسكا ينتمي إلى إحدى الطوائف الدينية، فتربى في جو مـن البحـث والدراسـات الدينية. وانتهى به الأمر إلى الاقتناع بأنه أصبح صاحب النور الكامل، الذي هو القوة المحركة لكل صـاحب رسالة دينية. ودفعته الظروف إلى إعلان مبادئه. إذ إنه شرع يبشر بتعاليمه عند تولي شـابور الأول ثـاني ملوك بني ساسان في ٢٤٢ م.

ومما يتسق وخصائص تفكير الناس في تلك الأيام، أن تحتوي تعاليمه على ضرب مـن مـزج الأديـان والآلهة (الثيوكرازيا). فأعلن أنه لا يأتي بأي شيء جديد. ذلك بأن كبار مؤسسي الأديان من قبله كانوا جميعا على صواب: فإن موسى وزرادشت وبوذا ويسوع المسيح – كانوا جميعا أنبياء صادقين، بيد أنه وكل إليه أن يوضح تعاليمهم الناقصة المضطربة ويتوجها. وقد قام بهذا بروح زرادشت وأسلوبه. وهو يفسر ما في الحياة من اضطراب وتناقض بأنه صراع بين النور والظلمة. وأهورا مزدا (هرمزد) عنده هو الإله وأهريمان هـو الشيطان. ولكن كيف خلق الإنسان؟ وكيف سقط من النور إلى الظلمة؟ وكيف يحرر من أغلاله وينقـذ مـن الظلام؟ ثم ما هو الدور الذي يقوم به يسوع في هذا الخليط العجيب من الـديانات؟ هـذه أمـور مـا نحـن بمستطيعين أن نفسرها هنا وإن رغبنا. فإن اهتمامنا بالموضوع تاريخي بحت وما هو باللاهوتي.

ولعل أهم ما يثير الاهتمام من الناحية التاريخية أن ماني لم يكتف بالطواف في إيـران مبشـرا بأفكـاره الجديدة هذه التي بدت له مقنعة تمام الإقناع، بل دخل التركستان وهبط الهند وعبر الممرات إلى الصين. ولا شك أن حرية التنقل هذه يجب أن تكون موضع الملاحظة. وهي شائقة تثير الاهتمام كذلك، لأنها تعرض على أنظارنا أن التركستان لم يعد قطر مترحلين خطرين، بل إقليما تزدهر فيه المدن وينال فيه الرجال من التعليم ووقت الفراغ ما يتيح لهم البحث في المسائل اللاهوتية.

وقد انتشرت فكرات ماني شرقًا وغربا في سرعة عظيمة، وكانت دوحة مثمرة ظلت تمد العالم المسـيحي بأسره بالزندقات (الهرطقات) طوال ما يقارب الألف سنة.

وعاد ماني إلى طيشفون في زمان يقارب ٢٧٠ م وانضم إليه أنصار كثيرون. فتمخض هذا عن احتكاكـه بالدين الرسمي وبرجال الدين. وفي ٢٧٧ م أمر به الملك الحاكم فصلب، وأمر بحبسه لسبب مجهول فسـلخ. ومن ثم أخذوا يصبون على أتباعه أعنف الاضطهاد. ومع ذلك فإن المانوية صمدت في فارس بضعة قـرون مع المسيحية النسطورية والزرادشتية السلفية أعني "المزدكية Mazdaism".

٦- الشعوب الهونية
في آسيا الوسطى وبلاد الهند

الآن ينجلي لنا إلى حد ما أنه في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، لم تكن فارس وحدها، بل الأقـاليم التي تعرف الآن بالتركستان وأفغانستان، - على درجة من المدنية تتجاوز كثيرا" في تقدمها مرتبة الفرنسيين والإنجليز في ذلك الزمان، وقد رفعت غشاوة الغموض عن تاريخ هذه الأقاليم في عشرين السـنة الأخيـرة، واكتشف "أدب" [١] ضخم جدا، لم يقتصر تدوينه على لغات من المجموعة التركية وحسب، بل تجاوزها إلـى اللغة الصغدية [٢] (Sogdian) وإلى لغة آرية أخرى. وترجع هذه المخطوطات الباقية إلى اليوم إلى القـرن السابع وما يتلوه من قرون. والأبجدية فيها مقتبسة من الآرامية، وقد أدخلها المبشرون المانويون. وإن كثيـرا من المخطوطات المكتشفة ليجلّي علينا من آيات الجمال ما يضارع خير ما أنتجه الرهبان البنـدكتيون. وقـد وجد بعض الرق [٣] (Parchement) مشدودا في النوافذ مكان الزجاج. وفي هذه المخطوطـات ترجمـات لأجزاء من الأسفار المقدسة المسيحية والمسطرات البوذية، وجدت مختلطة بمقدار كبيـر جـدا مـن الأدب المانوي. وما برح الكثير من تلك المواد في انتظار اليد التي تتولاها بالفحص الدقيق.

ويصرح السير دنيسون روس بأن هذا الإقليم الآسيوي الأوسط، كان لا يزال إلى حد كبيـر آريـا لغـة وثقافة، وكان فنه لا يزال في جل أمره هندي الأرومة أو فارسي الأصول. وتدل كل الـدلائل علـى صـحة الرأي القائل بأن هذه القرون التي هي في أوربا قرون كوارث وتأخر، كانت بالمقارنة عصر تقدم في آسـيا الوسطى فما وليها شرقًا حتى بلاد الصين. ولسوف نحصل يوما على تاريخ متصل الحلقات يسجل الأحـداث التي حدثت في ذلك الإقليم أثناء القرون الحالكة التي عمت فيها الفوضى أوربا – إذ حظيت حضـارة ذلـك الإقليم إبان زمان كان المناخ فيه موائما، بدور رقي غير عادي. وفي برلين الآن مجموعـة مـن الرسـوم الجدارية المنقولة من التركستان في تلك المدة، وكأنما هي تكهن خارق للمعتاد لما ظهر (بعـد ذلـك بسـتة قرون) بفرنسا وألمانيا في القرن الثالث عشر من ثياب ومعدات. فإن الأشكال والرمـوز المألوفـة للملـوك والملكات والغلمان في ورق اللعب مثلاً، ترى بنصها في هذه الصور الزاهية. فقد كانت هناك حياة تبلغ فـي جذالتها وامتيازها مبلغ حياة القرون الوسطى الأوربية في أزهى أحوالها وهـي تشـابهها مشـابهة عجيبـة. ويختلط الشقر والسمر في هذه المناظر، ويكثر الأصهبون [٤] وهم في العادة نتيجة للتخليطات العنصرية.

---

(١) يعني المؤلف بلفظه "أدب" المعنى العام للكلمة الذي يدل على جميع ما سطر في اللغة من كتابات ومؤلفات. (المترجم).

(٢) الصغدية نسبة إلى صغديانا وهي ولاية من ولايات دولة الفرس القديمة تقابل اليوم مناطق سمرقند وبخارى. (المترجم).

(٣) الرق (بفتح الراء) جلد رقيق يكتب فيه. (المترجم).

(٤) الأصهب هو الأحمر الشعر. (المترجم)

وكانت الشعوب الهونية التي صارت تسمى آنذاك تتارا وأتراكًا تقوم في شمال بحر قزوين بحركة انتقـال مستمرة نحو الغرب تواصلت حتى القرن السادس، ولكن يجدر بنا أن نعدها فيضا للفائض من القوم لا هجرة لشعوب بأكملها. وكان العالم من الدانوب إلى الحدود الصينية لا يزال في معظم شأنه عالم ترحل وبداوة تنمو به بلدان ومدن على طرق التجارة الرئيسية. ولسنا في حاجة إلى تفصيل القول هاهنا عن الاصطدام المستمر بين الشعوب التركية بالتركستان الغربية وبين الفرس إلى الجنوب منهم، وهو النزاع الأبدي بين الطوراني (1) والإيراني. ولسنا نسمع شيئًا عن أي زحف عظيم للفرس نحو الشمال، ولكن كانت هناك غارات نحو الجنوب عظيمة خليقة بالتذكر قام بها كل من الطورانيين إلى الشرق من بحر قزوين والآلانيين إلى الغرب منه قبل أن تبدأ مجموعة الحركات الكبيرة في القرنين الثالث والرابع نحو الغرب، وهي التي حملت الآلانيين والهون إلى صميم قلب أوربا. وانتقل المترحلون إلى شرق فارس كما اتجهوا جنوبا مخترقين أفغانستان إلى الهند، وذلـك فضلاً عن هذه الحركة المتجهة نحو الشمال الغربي. فكأن هذه الأنهار الجياشة بالمترحلين كانت تفيض على كل من جانبي فارس. ولقد سبق أن ذكرنا قبيلة "يويه تشي" الذين انحدروا آخر الأمر إلـى الهنـد بوصـفهم الهندوإسكيذيين في القرن الثاني. على أن قسما متأخرا من هؤلاء اليويه تشي ظل مقيما على بداوتـه بآسـيا الوسطى، وتكاثر عددا في سهوب التركستان، وهم يعرفون باسم الإفثاليين أو الهون البيض. فبعد أن أقـاموا ثلاثة قرون وهم مصدر إزعاج وخطر على الفرس، أخذوا يغيرون آخر الأمر على أرض الهنـد فـي أثـر أقاربهم حوالي ٤٧٠، وكان هذا بعد موت أتيلا بحوالي ربع قرن على أنهم لم يهاجروا إلى بلاد الهنـد، بـل ظلوا ينتهبون في البلاد ذهابا وغدوا، ثم يعودون بأسلابهم إلى موطنهم الأصلي، مثلما فعل الهون فيما بعد إذ استقروا في سهل الدانوب العظيم وأخذوا ثمة يغيرون على كل أوربا.

وتاريخ الهند أثناء هذه القرون السبعة التي نستعرضها الآن، يتعاقب عليه على الدوام هذان الغزوان: غزو اليويه تشي أي الهندوإسكيذيين الذين أزالوا كما قلنا آخر آثار الحكم الهلّيني، ثم غزو الإفثاليين. وقـد دفعـت الطائفة الأولى من هؤلاء، أي الهندوإسكيذيين أمامها، موجة من السكان المطرودين من أوطانهم هم السـاكا (Sakas)، وبذا تكون الهند قد لقيت في النهاية ثلاث موجات من إغارات البرابـرة حـدثت قرابـة ١٠٠ م وقرابة ١٢٠ م وقرابة ٤٧٠ م. غير أن الثانية من هذه الغزوات، هي الوحيدة التي غـدت فتحـا مسـتديما واستقرارا مقيما. واتخذ الهنود الإسكيذيون مركزهم الرئيسي على الحدود الشمالية الغربية حيث أقاموا أسـرة مالكة، هي أسرة كوشان (Kushan) وهي التي حكمت معظم شمال الهند حتى بنارس شرقًا.

وأهم هؤلاء الملوك الكوشانيين هو كانيشكا (Kanishka) (وتاريخه مجهول)، وهو الذي ضم إلى شـمال الهند كلا من قشغر ويرقند وخوتان. وكان – مثله مثل أسوكا (أو أشوكا) – عاملا قويا علـى رفـع شـأن البوذية، ولا بد أن هذه الفتوح التي تكونت منها هذه الإمبراطورية العظيمة على الحدود الشـمالية الغربيـة، أقامت بين الهند والصين والتبت علاقات وثيقة مستمرة.

---

(1) أطلق الإيرانيون ثم العرب ذلك الاسم على سكان التركستان وآسيا الوسطى ولغاتهم. (المترجم).

ولن نهتم ها هنا بذكر ما ألم بعد ذلك بالقوة المسيطرة على الهند من انقسام واتحاد وتحالف، لاستعصـائها على البحث ها هنا في هذا الحيز الضيق بين أيدينا. فكانت الهند في بعض الأحيان مجموعة كبيرة من الدول كرقعة الشطرنج؛ وربما تغلبت إمبراطورية كإمبراطورية الجوبتا (Gupta) على مساحات عظيمـة منهـا. وازدهرت إمبراطورية الجوبتا طوال القرون الرابع والخامس والسادس. وفي ظل رعايتها قامت الهندوكيـة العصرية، وظهرت فترة من النشاط الأدبي العظيم. على أن هذه الأمور لم تغير إلا قليلاً طريقة الحياة العادية لدى الشعوب الهندية. وصمدت البرهمانية في وجه البوذية وازدهرت الديانتان جنبا إلى جنب. وكانت كتلـة السكان الكبرى تعيش كما تعيش الآن إلى حد كبير جدا؛ فتلبس الثياب وتزرع الأرض وتبني بيوتها على نفس الشاكلة الحالية.

وغارات الإفثاليين جديرة بالذكر، لا بسبب تولد عنها من آثار مستديمة بل بسبب ما ارتكبه الغـزاة مـن الفظائع. فقد كان هؤلاء الإفثاليون أقرب الناس شبها بهون أتيلا في بربريتهم؛ كانت الغارة كل همهـم، فلـم ينتجوا أسرة ملكية كأسرة كوشان؛ واحتفظ رؤساؤهم بمركز قيادتهم العليا في التركستان القريبة. وقد سـمى ميهيراجولا (Mihiragula) أعظم زعمائهم كفاية باسم أتيلا بلاد الهند: ويروى أن إحدى تسلياته المحبوبـة كانت لعبة غالية كبيرة النفقة، هي دحرجة الفيلة في الهاويات للتفرج على آلامها. وأثار ما ارتكبه من فظائع أمراء الهند التابعين له فثاروا عليه وخلعوه (٥٢٨). على أن القضاء النهائي على غارات الإفثاليين على الهند لم يأت من جانب الهنود، بل جاء نتيجة لتدمير المركز الرئيسي للإفثاليين على نهـر سـرداريا أو سـيحون (Oxus) (٥٦٥) على يد قوة الأتراك النامية، إذ هاجموهم متحالفين مع الفرس. وما لبث الإفثاليون بعد هـذه الهزيمة أن انحلوا انحلالاً سريعا تاما وانصهروا في السكان المحيطين بهم، مثلما فعل الهون الأوربيون بعـد وفاة أتيلا قبل ذلك بمائة سنة. ذلك أن البدو المترحلين الذين ليس لـديهم أرض مـراع مركزيـة لا بـد أن يتفرقوا، إذ ليس أمامهم غير التشتت من سبيل. ويقال إن بعض عشـائر الراجبـوت (Rajput) الرئيسـية الموجودة إلى يومنا هذا في راجبوتانا في شمال الهند، تنحدر من هؤلاء الهون البيض.

وإنا لمضطرون أن نمسك آسفين تماما عن الإدلاء بأي بيان عن تطور الفروسـية فـي هـذه الولايـات الراجبوتية الصغيرة، وهي عجيبة المماثلة لتطور الفروسية المعاصرة لها في أوربا.

ثم إننا لا نستطيع أيضا أن نتتبع ولو في معالم إجمالية تطور الفن الهندي بين أيـام الإسـكندر ومجـيء الإسلام، إذ لم يقم أي دارس بدراسة تلك الحقبة ولم يمهد لنا السبيل في هذا الصـدد. ولا يخفـى أن التـأثير الهليني في الفن الهندي والعمارة الهندية عميق، والراجح أن الفنانين وعلى الخصوص المصورين منهم كانوا لا ينفكون يغدون ويروحون بين فارس وآسيا الوسطى والهند. وذلك أن الفن البوذي تتجلى فيه روح هلّينيـة قوية. ولما حدث في القرن الثاني وما يتلوه من قرون ميلادية، أن انتشرت البوذية في الصين كما سـبق أن ذكرنا، حملت معها شيئًا من رشاقة الفن الهلّيني وطابعه وأدخلته على الأشكال الصينية الممثلة لبوذا وعلـى الفن الديني الصيني عامة. ولكن للهند مناخًا قتالاً يقضي على كل عمل فني قديم مهجور. فإن أسرات مالكـة من التي كاد النسيان يعفى عليها تماما، كانت تعيش بالهند عيشًا جميلاً مترفًا، ولكنها لم تخلف من ورائها إلا القليل مما أوتيت من ألوان الجمال.



(شكل ١٢٥) عملة إفثالية

وهناك أثر فاتن أخاذ تبقى عن هذا الزمان، وهو يرى في كهوف أجانتا (Ajanta) المنقوشة جدرانها التي أخذت صورها تذوى وتتعسر رؤيتها. ومن حسن الحظ أن قد أخذت لها صور يمكن الاطلاع عليها بواسطة الجمعية الهندية. وتوجد أجانتا في حيدر آباد في ممر هام بجبال فندهيا، وقد كان هناك بين القـرنين الثـاني والسابع الميلاديين دير بوذي به كثير من الأبهاء والدهاليز المفرغة في الصخر، وفي هذه الفترة وفي القرنين الخامس والسادس بوجه خاص زينت هذه الكهوف بالنقوش على حساب ملوك ورجال أثرياء متنوعين، زينها عدد من الفنانين المهرة الموهوبين. وإنا لننظر إلى هذه البقايا في أيامنا هذه ذاهلين، فإنها بلغت من الفصاحة في الترجمة عن ثراء وذكاء وشهوية الحياة في البلاط كل مبلغ، فلولا هذه الصور لزالت هذه الأمـور مـن ذاكرة الناس تمام الزوال. ولا تزال موضوعات تلك الصور في كثير من الحالات موضع نظر وأخـذ ورد. فإن بعضها مناظر تمثل حياة بوذا وأساطير تدور حوله؛ وبعضها تبـدو خاصـة بـالرب إنـدرا (Indra)، وبعضها لا يزيد عن صفحة من حياة البلاط اليومية. وهناك منظر يظن أنه يمثل استقبال بعثة سياسية موفدة من كسرى الثاني أبرويز. وقد زار هذه الكهوف والنقوش في أيام محمد ﷺ يوان تشوانج، وهو رحلة صيني سنحدثك عنه بالكثير من القول عما قليل.

٧- أسرتا هان وتانج بالصين

هذه القرون السبعة التي شهدت بداية ونهاية الأباطرة في روما، ورأت حياة أوربا الغربية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية، تتحطم ثم يعاد سبكها، - شهدت كذلك تغيرات عميقة الأثر جدا في العالم الصيني. ويتسع بين المؤرخين الصينيين واليابانيين والأوربيين فرض مفاده أن عهدي أسرة هان التي نجد الصين تحت حكمها في بداية هذه المدة وأسرة تانج التي بها انتهت، يعتبران من عهود الرفعة المتماثلة، وأنهما كانتا تدبران أمور إمبراطورية متشابهة أو تكاد، وأن قرون الانقسام الأربعة التي مرت بين نهاية أسرة هان (٢٢٠) وبداية أسرة تانج (٦١٨)، كانت قرون اضطراب لا قرون انتقال ضروري. ويخال بعض الناس أن انقسامات الصين إن هي إلا انقسامات سياسية ومحلية. إذ ينخدعون لأن الصين كانت في نهاية هذه القرون الأربعة كما كانت في مستهلها، تشغل نفس المركز في آسيا، وأنها ظلت طوال تلك القرون نفس الصين المعروفة، إذ لم تبرح صاحبة ثقافة مشتركة وكتابة مشتركة ومجموعة مشتركة من الفكرات – وهم في ذلك يتجاهلون عمليتي الهدم والبناء الجوهريتين اللتين ظلتا تجريان، كما تفوتهم أوجه الشبه الكثيرة بين ما مر على الصين وأوروبا من أحداث.

حقًا إن الانهيار الاجتماعي لم يبلغ أبدا في العالم الصيني مبلغه الكامل في العالم الأوربي. فقد بقيت هناك طوال المدة بأجمعها مساحات مترامية كان من الميسور فيها أن يتواصل التحسين والإتقان في كل فنون الحياة. فلم يحدث بها تقوض تام في النظافة والزخرفة والإنتاج الفني والأدبي كالذي علينا أن نسجله في الغرب. وليس هناك مثيل لما حدث في أوربا من صدوف عن التماس الرشاقة والمتعة. فإنا نلحظ مثلاً أن "الشاي" ظهر في العالم، وفشا استعماله في كل أرجاء الصين. وبدأت الصين تحتسي الشاي في القرن السادس الميلادي. وظهر بين الشعراء الصينيين من يكتبون كتابات بهيجة عن تأثيرات الفنجان الأول والفنجان الثاني والفنجان الثالث، وهكذا، واستمرت الصين تنتج تصويرا جميلاً بعد سقوط أسرة هان بزمن بعيد. ففي القرن الثاني والثالث والرابع، نقشت مناظر طبيعية [1] برية من أروع ما أبدعته يد الإنسان على مر الدهور. واطرد ظهور العدد الموفور من إنتاج الزهريات والنحائت الجميلة. ولم ينقطع إنشاء المباني الرشيقة وأعمال الزخرفة. وابتدأت الطباعة عن كتل من الخشب في نفس زمان احتساء الشاي، وظهر مع بدايات القرن السابع انتعاش عجيب في الشعر.

---

(١) المنظر الطبيعي البري Landscape: منظر أرضي كمنظر قرية أو غابة وقد يكون فيها أشخاص أو حيوانات لا تشغل جزءا مهما من الصورة. (المترجم).

وهناك فروق بأعيانها بين الإمبراطوريات العظيمة في الشرق والغرب ساعدت كلها على ترسيخ قدم الأولى وتثبيت أركانها. فلم يكن للصين عملة عامة. ولذا فإن ما كان للعالم الغربي من نظام للدفع نقدا وائتمانًا [1]، وهو النظام الذي يجمع بين الكفاية والخطر في وقت واحد، لم يكن مما ابتليت به الصين في حياتها الاقتصادية. وليس معنى ذلك أن فكرة النقد كانت مجهولة. فقد كانت الولايات المختلفة تستعمل في صفقاتها الصغيرة "نقدا" مثقوبا من الزنك والنحاس، فأما في الكبرى فلم يكن هناك من شيء سوى سبائك مدموغة من الفضة. وإذن فهذه الإمبراطورية العظيمة كانت لا تزال تقوم بغالب أعمالها التجارية على أساس من المقايضة يشبه ذلك الذي كان منتشرا في بابل أيام التجار الآراميين [2]. وقد استمرت على هذا الحال حتى فجر القرن العشرين.

ولقد رأينا كيف قُضي على النظام الاجتماعي والاقتصادي في الجمهورية الرومانية بسبب سيولة الملكية، تلك السيولة الشديدة التي أوجدتها النقود. فأصبحت النقود شيئًا مجردا قائما بذاته، وانقطعت صلتها بالقيم الحقيقية التي كان مفروضا أنها تمثلها. فوقع الأفراد والمجتمعات في الدين وقوعا مخالفًا لكل معقول، ووقع العالم تحت سيطرة طبقة من الأثرياء كانوا هم الدائنين، وهم رجال كانوا لا يتداولون بينهم أية ثروة حقيقية، بل كان في طوقهم أن يطالبوا بالنقود ويسحبوها. فأما الصين فلم يحدث مثل ذلك التطور المالي. بل ظلت الثروة في الصين حقيقية ومرئية ملموسة. ومن ثم لم تكن بالصين حاجة إلى أي قانون ليسيني (Licinian) ولا إلى تيبريوس جراكوس يدافع عن حقوق المدينين [3]. ففكرة الملكية في الصين لم تتجاوز كثيرا حدود الأشياء الملموسة. فلم يكن بها "عمال" أرقاء ولا جماعات مستعبدة في الخدمة. وإن كان هناك بنات إماء يقمن بالأعمال المنزلية ونساء يبعن ويشترين ببيع الرقيق، بيد أن هذا لم يكن إلا توسعة طفيفة لما عليه النساء من مألوف الذل المنزلي. وكان شاغل الأرض والمستفيد منها هو في معظم الحالات المالك الفعلي لها أو يكاد، ولا يدفع إلا ضريبة الأراضي. وكان هناك قدر معين من نظام ملكية الأراضي ذات الرقاع الصغيرة، على أنه لم توجد بالبلاد مزارع واسعة. وكان من لا أرض له من الرجال يعمل أجيرا مقابل أجر يدفع في غالب الأمر عينًا – شأن ما كان يحدث في بابل القديمة.

وكانت هذه الأشياء من عوامل الاستقرار كما أن شكل الصين الجغرافي كان من عوامل الوحدة؛ ومع ذلك فإن قوة أسرة هان اضمحلت، وربما يكون الترف عامل وهنها، وعندما حدث آخر الأمر في نهاية القرن الثاني الميلادي أن دكت ذلك النظام الكارثة العالمية كارثة الوباء العظيم، وهو نفس الوباء الذي بدأ في الإمبراطورية الرومانية قرنًا من الارتباك والاضطراب، انهارت أسرة هان انهيار شجرة نخرة خاوية هبت عليها ريح عاصفة. وتبدى في الشرق والغرب على السواء نفس الاتجاه إلى الانقسام إلى عدد من الولايات المتناحرة ونفس إغارات الحكام البرابرة.

([1]) نظام الدفع نقدا وائتمانًا Cash & Credit System (المترجم)

([2]) الآراميون: قبائل رحل بشبه جزيرة العرب. رحلت إلى وادي الفرات في ١٥٠٠ ق. م. واقتبسوا حضارة الأموريين والكنعانيين ونشروها في سوريا. (المترجم)

([3]) انظر المجلد الثاني من المعالم ص ٥٦٨ ط ٣. (المترجم).

ويعزو المستر فو كثيرا من خور الصين السياسي في تلك المدة إلى انتشار النزعات الأبيقورية التي نشأت – فيما يرى – عن المذهب الفردي المتشكك الذي أنشأه لاوتزي ويعرف دور الانقسام هذا باسم "عهد الممالك الثلاث". وشهد القرن الرابع أسرة مالكة من الهون متمدنة نوعا ما، وقد فرضوا أنفسهم حكاما على مقاطعة شن سي (Shen-Si). ولم تشمل هذه المملكة الهونية شمال الصين فحسب، بل مساحات عظيمة من سيبيريا؛ وتمثلت أسرتها المدنية الصينية، وحمل نفوذها تجارة الصين ومعرفتها وثقافتها قُدما حتى الدائرة القطبية. ويوازن المستر فو بين هذه المملكة السيبيرية وبين إمبراطورية شرلمان في أوربا التي سنصفها لك من فورنا. فمعناها عنده أن البربري أصبح ذا طابع "صيني" مثلما أن شرلمان البربري أصبح رومانيا.

ونشأت عن امتزاج هؤلاء السيبيريين والعناصر الصينية الشمالية من الأهالي، أسرة سوي (Suy) التي فتحت الجنوب. وتؤذن أسرة سوي هذه ببداية عصر نهضة ببلاد الصين. فألحقت جزائر لوتشو (Lu-chu) بالصين أيام أحد ملوك سوي، ومرت البلاد بدور من النشاط الأدبي العظيم. ويحدثوننا بأن عدد مجلدات المكتبة الإمبراطورية في ذلك الزمان زيد إلى ٥٤ ألف مجلد. وشهد فجر القرن السابع استهلال عهد أسرة تانج (Tang) العظيمة التي قدر لها أن تدوم ثلاثة قرون.

ويصر المستر فو على أن نهضة الصين التي ابتدأت بأسرة سوي وبلغت ذروتها أيام تانج كانت ميلادا حقيقيا جديدا للبلاد. وهو يكتب قائلاً: "لقد ظهرت روح جديدة، وهي تدمغ مدنية تانج بخصائص تميزها تماما عن كل ما عداها. إذ إن عوامل رئيسية أربعة قد جمعت ثم صهرت بعضها في بعض، وهي: (١) الثقافة الصينية المتحررة [1]، (٢) المذهب الصيني الكلاسيكي العتيق Classicism، (٣) البوذية الهندية، ثم (٤) شجاعة أهل الشمال.

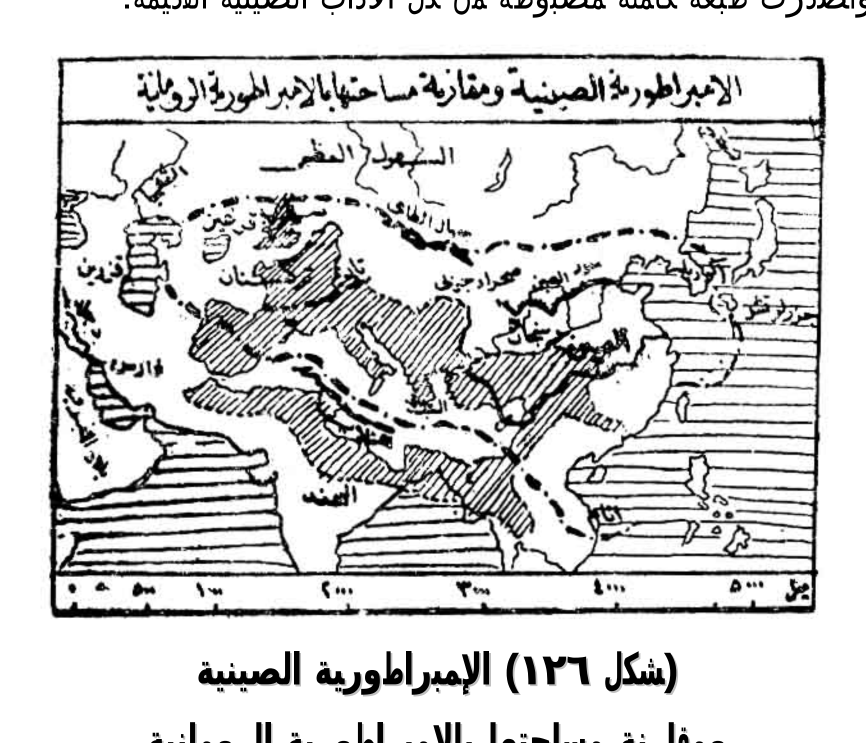
"لقد ولدت صين جديدة، فكان نظام المقاطعات والإدارة المركزية والتنظيم العسكري عند أسرة تانج مختلفًا تمام الاختلاف عما كان عليه الحال عند أسلافها. وتأثرت الفنون أيما تأثر وانتعشت كثيرا بفضل مؤثرات هندية وأخرى من آسيا الوسطى. ولم يكن الأدب مجرد استمرار للقديم؛ بل كان إنتاجا جديدا. وكانت مدارس البوذية الدينية والفلسفية مظاهر جديدة، وكان العصر عصر تغيرات جوهرية.

"وربما لذ لنا أن نقارن تكوين الصين هذا، بما آل إليه أمر الإمبراطورية الرومانية في أخريات أيامها. فكما كان العالم الروماني مقسما إلى نصفين غربي وشرقي، كذلك كان العالم الصيني مقسما إلى شمالي وجنوبي. وقد قام البرابرة في حالة الصين وحالة روما بإغارات متماثلة. وأسسوا سيادات أو دولا من نوع واحد. وضارعت إمبراطورية شرلمان إمبراطورية الأسرة السيبيرية (واي Wei) التالية؛ ويقابل استرجاع الإمبراطورية الغربية المؤقت على يد جستنيان، استرجاع الشمال مؤقتًا على يد ليويو (Liu-yu). ويضاهي الفرع البيزنطي الأسرات الجنوبية. على أن العالمين تفارقا من هذه النقطة. فاستعادت الصين وحدتها؛ على حين لا يزال باقيا على أوربا أن تحذو حذوها".

---

(1) Liberal Culture وفي ذلك الضرب المستنير المهذب من الثقافة الخليق بالسادة المهذبين والجنتلمانية. (المترجم).

وكانت ممتلكات الإمبراطور تاي تسنج (Tai-Tsung) (٦٢٧) – وهو ثاني ملك في أسرة تانج – تمتد جنوبا إلى أنام (Annam) وغربا حتى بحر قزوين. وكانت حدوده الجنوبية في هذا الاتجاه تساير حدود فارس. فأما حدوده الشمالية فامتدت بمحاذاة جبال آلتاي من سهوب القرغيز في شمال صحراء جوبي. بيد أنها لم تشمل كوريا التي غزاها ابنه وضمها إلى ممتلكاته. وقد استطاعت أسرة تانج هذه أن تنشر الحضارة بين سكان الجنوب أجمعين وأدمجتهم في الجنس الصيني، وكما أن صينيي الشمال يسمون أنفسهم "رجال هان"، يسمي صينيو الجنوب أنفسهم "رجال تانج Tang". وتم تنسيق القوانين وجمعها في مدونات، ونقح نظام الامتحان الأدبي، وأصدرت طبعة كاملة مضبوطة من كل الآداب الصينية القديمة.



(شكل ١٢٦) الإمبراطورية الصينية

ومقارنة مساحتها بالإمبراطورية الرومانية

ووفدت على بلاط الإمبراطور تاي تسنج بعثة سياسية من بيزنطة، وأهم من ذلك، أن قد أتت من فارس جماعة من المبشرين النسطوريين (٦٣٥) فاستقبلهم تاي تسنج باحترام عظيم. واستمع منهم إلى أهم مواد عقيدتهم، وأمر بترجمة الكتب المقدسة المسيحية إلى الصينية ليفحصها فيما بعد.

وما لبث في ٦٣٨ أن أعلن أنه وجد الديانة الجديدة مرضية تماما، وأنه يجوز التبشير بها في الإمبراطورية. كذلك سمح ببناء كنيسة وتأسيس دير. ويوجد في سيان فو (Sianfu) اليوم حجر منحوت يدعونه الأثر النسطوري يرجع تاريخه إلى ٧٨١م، وقد سجلت عليه هذه الوقائع باللغة الصينية.

كذلك حضرت إلى بلاط تاي تسنج بعثة أدعى إلى العجب عام ٦٢٨ م قبل مجيء النساطرة بسبعة أعوام. وكانت تلك البعثة جماعة من العرب انحدروا من ينبع ميناء المدينة ببلاد العرب إلى كنتون بحرا فـي فلـك تجاري. (ومن الشائق أن نلحظ لهذه المناسبة وجود أمثال تلك السفن التي كانت تعمل في التجارة بين الغرب والشرق في ذلك الزمان). أرسل هؤلاء العرب محمد (ﷺ) الذي سبق لنا ذكره والذي نعت نفسه "نبـي ا ". والرسالة التي أحضروها إلى تاي تسنج هي فيما يرجح نفس الدعوة التي أرسلت في السنة نفسها إلى هرقـل الإمبراطور البيزنطي وإلى قباذ في طيشفون [1].

على أن ملك الصين لم يهمل الرسالة كما فعل هرقل، ولا أهان الرسول كما فعل قباذ قاتل أبيه، بل أحسن استقبالهم وترجم عن لذة عظيمة في آرائهم اللاهوتية، وساعدهم فيما يقال على بناء مسجد من أجـل التجـار العرب في كنتون – وهو مسجد باق إلى اليوم وهو من أقدم مساجد الدنيا.

([1]) هي مدائن كسرى: عاصمة الساسانيين وتقع . ج. ق بغداد. (المترجم).

٨- أغلال الصين الذهنية

كان تحضر [1] الصين وثقافتها وقوتها في ظل حكم ملوك تانج الأوائل نقيضا ناصعا واضحا للانحلال والفوضى والانقسامات في العالم الغربي، وهي حال قد تثير على الفور طائفة من أمتع الأسئلة في تاريخ المدنية. فلماذا لم تحتفظ الصين بتلك الزعامة التي فازت بها بفضل عودتها السريعة إلى الوحدة والنظام؟ فلماذا لا تتسلط إلى اليوم على العالم ثقافيا وسياسيا؟

لقد ظلت زمانًا طويلاً وهي على التحقيق السباقة المتقدمة. وما نستطيع أن نقول مع الثقة والاطمئنان إن العالم الغربي قد شرع يسبق الصين من جديد، إلا بعد ألف سنة، وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر وعند اكتشاف أمريكا وانتشار الكتب المطبوعة والتعليم في الغرب وبزوغ فجر الاكتشاف العلمي العصري. ففي عهد أسرة تانج، وهو أعظم عهودها، وفي ظل أسرة صنج (٩٦٠ – ١٢٧٩) الفنية النزعة وإن كانت على شيء من التدهور، ثم كذلك إبان حكم آل منج المثقفين (١٣٦٨ – ١٦٤٤)، تتجلى الصين للعالم في مشهد من الرفاعية والسعادة والنشاط الفني المتقدم أشواطًا بعيدة على أي دولة معاصرة. فإذا راعينا أنها أحرزت ذاك القدر الكبير تساءلنا لماذا لم تحرز المزيد؟ كانت السفن الصينية تمخر البحار، وكانت هناك تجارة عظيمة وراء البحار أثناء ذلك الزمان [2]، فلماذا لم يكتشف الصينيون قط أمريكا أو أستراليا؟

وهناك رسوم للبوشمن قديمة نقشت على الصخور، ربما دلت على أن سفنًا صينية متفرقة قد وصلت إلى جنوب إفريقية في تاريخ ما غير معلوم، كما يقال إن هناك آثارا تدل على نزول زوار صينيين في بلاد المكسيك، فلئن صح هذا، فإن واحدا من هذين الاكتشافين العرضيين لا يبدو أنه أُتْبِع بغيره مثلما لم يتابع أحد طواف القرطاجيين حول إفريقية أو مثلما لم تتبع زيارات أهل الشمال (North men) لأمريكا بزيارات أخرى. ويقول المستر فوجان: إن هناك أيضا رسوما صينية محفورة في الصخور في نيوزيلندة ونيوكاليدونيا. على أن توفر العبقرية الفردية والإقدام غير المتواصل، لا يكفي لتوطيد اكتشاف من الاكتشافات في يد أحد المجتمعات ولا يضمن أن يؤتي ثماره ويصبح معرفة وطيدة قابلة للاستعمال. ولا بد أن يكون المجتمع نفسه مستعدا لتقبله والإفادة منه.

---

(1) يقصد الكاتب بالتحضر أو الحضرية دماثة الأخلاق وحسن الآداب والتهذيب وهي صفات أهل الحضر. (المترجم)

(2) من المشكوك فيه أن يكون الصينيون عرفوا البوصلة البحرية. ويستخلص هيرت في كتابه "تاريخ الصين القديم"، ص ١٢٦ فما بعدها، بعد فحص دقيق لكل العصور والأزمنة، أنه ولو أن من المحتمل أن يكون شيء كالبوصلة عرف في الأزمنة السحيقة، فإن العلم به احتواه النسيان لمدة كبيرة بعد ذلك، حتى ظهر مرة أخرى في العصور الوسطى كآلة بأيدي اللحادين (وهم الذين يوكل بهم اختيار أفضل المواقع للقبور إلخ). وأول ذكر واضح لاستعمالها كمرشد للبحارة ورد في كتاب في القرن الثاني عشر" يشير إلى استخدامها في سفن أجنبية بين الصين وسومطرة. ويميل هيرت إلى الاعتقاد بأن الرواد العرب يحتمل أن رأوها في أيدي لحادين صينيين ثم طبقوا استعمالها على الملاحة، حتى إنهم استطاعوا بعد ذلك إعادتها إلى الصين في صورة البوصلة البحرية. (المؤلف).

ومن المحقق أنه ظهر بالصين من ضروب المشاهدات العلمية والمهارة والاختراع – وإن كانت فردية منعزلة متفرقة – ما لا يقل عما في أي جزء من أجزاء العالم. وعرف الصينيون البارود في القرن السادس. واستعملوا التسخين بالفحم الحجري والغاز استعمالاً محليا قبل أن تستخدم هذه الأشياء في أوربا بقرون. فأما إقامتهم للكباري وهندستهم المائية فمدهشة جديرة بالإعجاب؛ وإن معرفتهم بالمواد كما تتبدى في الآنية المطلية بالميناء واللاكيه [1] لعظيمة جدا. فلماذا لم ينشئوا قط طريقة التسجيل والتعاون في البحث، تلك الطريقة التي وهبت العلم الحديث للعالم؟ ولماذا، بالرغم من مرانهم العام على السلوك الحسن وضبط النفس لم يتسرب التعليم الذهني إلى كتلة السكان العامة ولم يتخللها؟ ولماذا كانت جماهير الصين اليوم، كما كانوا على الدوام أميين بالرغم من المستوى الرفيع للذكاء الطبيعي الاستثنائي المنتشر بينهم؟

من المألوف أن تقابل مثل تلك الأسئلة بإجابات غالبا ما تكون جوفاء. فيقال لنا إن الصيني أشد المخلوقات البشرية محافظة، وإن عقله – على نقيض الأجناس الأوروبية – ملفوت نحو الماضي، وإنه العبد الخاضع بإرادته لآداب اللياقة والتقاليد إلى درجة لا يكاد يتصورها العقل الغربي. وهو يمثل كأنما له عقلية مميزة إلى حد يجعل الإنسان يتوقع غالبا أن يجد في تركيب المخ فارقًا يفسر ذلك الاختلاف. والقائلون بهذه الآراء يقتبسون التماس كنفوشيوس لحكمة القدماء لدعم ذلك الزعم.

على أننا لو فحصنا هذا التعميم (الحكم العام) فحصا أدق وأضبط لتبدد في الهواء هباء منثورا. فإن قوة الابتكار والمبادرة الذهنية الفائقة والإقدام العقلي المتحرر والميل إلى التجريب، تلك المزايا التي نعتقد أنها قوام خصائص الذهن الغربي، لا تتجلى في تاريخ هذا الذهن إلا في أثناء أدوار معينة وتحت ظروف استثنائية. وفيما عدا ذلك، لا يتجلى العالم الغربي إلا مضارعا للصين في التزام التقاليد والمحافظة على كل قديم. ومن الناحية الأخرى، فإن العقل الصيني كان إذا حفزه حافز يبدي قدرة على الاختراع والابتداع وتعددا في المزايا كالأوربي سواء بسواء، كما أن الذهن الياباني المجانس له يكاد يفوقه في هذا. فإذا اتخذت من الإغريق مثالاً، وجدت أقصى ما بلغوه من قوة ذهنية واقعا في المدة بين القرن السادس ق. م. وبين اضمحلال متحف الإسكندرية أثناء حكم البطالمة المتأخرين في القرن الثاني ق. م. ولا شك أنه كان هناك إغريق قبل ذلك الزمان وإغريق بعده، بيد أن تاريخ ألف سنة من سني الإمبراطورية البيزنطية أظهر أن العالم الهلّيني راكد الذهن كالصين سواء بسواء. ثم إننا قد سبق أن وجهنا النظر إلى عقم الذهن الإيطالي نسبيا أثناء العهد الروماني، وإلى وفرة خصبة منذ "نهضة إحياء العلوم". وكذلك الذهن الإنجليزي، فقد مر به دور من التوقد في القرنين السابع والثامن، ثم لم يسطع بعد ذلك حتى القرن الخامس عشر. كذلك ذهن العرب كما سنخبرك من فورنا، قد تألق تألق النجم طوال ستة أجيال بعد ظهور الإسلام، ولم يحرز قبلها ولا بعدها أي شيء ذي بال. ومن الناحية الأخرى كان هناك على الدوام قدر عظيم من المقدرة على الاختراع مبعثر في الصين، وآية ذلك ما يشهد به تقدم الفن الصيني من ظهور حركات جديدة وابتكارات قوية. وإنا لنبالغ في مدى احترام الصينيين لآبائهم؛ فقد كان قتل الآباء على يد أبنائهم جريمة أكثر شيوعا بين أباطرة الصينيين، لدى حكام فارس أنفسهم. وفضلاً عن ذلك فالتاريخ يسجل أنه قد حدثت بالصين حركات تحريرية كثيرة، وكفاحات عديدة ضد "الأساليب العتيقة".

---

[1] اللاكيه Lacquer دهان محلول اللاك وهو مادة راتنجية (قلفونية) يفرزها نبات الكوكوس لاكا Coccus Lacce الذي ينتج صباغًا أحمر زاهيا. (المترجم).

سبق أن أوضحنا أن أدوار التقدم الذهني الحقيقي في أي مجتمع من المجتمعات تبدو مرتبطة بوجود طبقة من الرجال بعيدة عن الغرض غير متحيزة العقول، بلغت من الحرية مبلغًا يجعلهم لا يكدحون ولا يحملون هما يستنفد القوى من أجل حاجاتهم الدنيوية، ولم يبصل في ثرائها وسعة سلطانها إلى حد يغريهم بالإسراف في الشهوات أو المظاهر أو القساوات. ويجب أن يتوافر لهم شعور بالطمأنينة، لا غرور بالتفوق. وأسلفنا كذلك أن هذه الطبقة يجب أن تتهيأ لها القدرة على الكلام بحرية وأن تتواصل بسهولة. ويجب ألا تراقب لمظنة الزندقة أو تضطهد لأية آراء قد تعبر عنها. ولا مراء أن مثل هذه الحالة السعيدة كانت تغمر بلاد الإغريق في أحسن أيامها. والواقع أن طبقة من القوم الأذكياء المهذبين الأحرار تتبدى على صفحات التاريخ حيثما ظهرت فلسفة جريئة مدونة أو تقدمات علمية فعالة.

ولا بد أن الصين كانت تضم في أيام تانج وصنج ومنج كثرة من القوم المنعمين من نفس الطبقة التي كان منها معظم شبان "أكاديمية" أثينا أو أذكياء إيطاليا النابهين في عصر النهضة أو أعضاء الجمعية الملكية اللندنية، وهي الجمعية التي كانت بمثابة الأم من العلم الحديث؛ ومع ذلك فإن الصين لم تنتج في عصور الفرص التي أتيحت لها شيئًا يماثل تلك البدايات العظيمة للحقائق المسجلة المحللة.

فإذا نبذنا الفكرة القائلة بأن هناك بعض الفوارق العنصرية العميقة بين الصين وبين الغرب، تلك الفوارق التي تجعل الصينيين محافظين بطبيعتهم، وتجعل الغرب تقدميا بطبعه، وجب علينا إذن أن نبحث عن السبب الفعال لهذا الفارق في روح التقدم ملتمسين إياه في نواحي أخرى. ويميل كثير من الناس أن يبحثوا في اتجاه آخر عن السبب الفعال في تأخر الصين ذلك التأخر العظيم بالرغم مما لها من ميزات أصيلة أثناء القرون الأربعة أو الخمسة الأخيرة – وهم يرون أن تكبيل الذهن الصيني في كتابة وفي صيغ للفكر بلغت من الإحكام التفصيلي والصعوبة حدا جعل طاقة البلاد العقلية مستنفدة استنفادا عظيما في تحصيلها هو مرد ذلك كله. وعندي أن هذا الرأي جدير بالفحص والنظر.

وقد سبق أن أعطيناك بيانًا عن خاصيات الكتابة الصينية واللغة الصينية. والكتابة اليابانية مشتقة من الصينية كما هو معلوم، وتتكون من مجموعة من الصيغ أسرع تدوينًا. والعدد الكبير من هذه الصيغ "كتابة تصويرية رمزية" [1] منقولة عن الصينية وتستخدم بالضبط بنفس الطريقة التي تستخدم بها الكتابة التصويرية الرمزية الصينية، على أن هناك كذلك عددا من العلامات يستعمل للتعبير عن المقاطع؛ ولليابانيين مجموعة من الأحرف تمثل المقاطع على طريقة مجموعة الأحرف السومرية الممثلة للمقاطع والتي سبق أن وصفناها. ولكن الكتابة اليابانية تظل بعد ذلك طريقة سمجة كالخط المسماري سواء بسواء، وإن لم تصل بسماجتها وتعقيدها إلى درجة الصينية؛ وقد قامت ببلاد اليابان حركة تطالب باستخدام أبجدية غربية. على أن كوريا تقدمت إلى الأمام خطوة من زمان بعيد، ونحتت أبجدية حقيقية من المصادر الصينية نفسها.

---

(1) "كتابة تصويرية رمزية Ideograms" أي رموز كتابية هي كما أسلفنا جـ ١ ط ٣ من المعالم ص ١٩٤ صورة أو رمز تستعمل في نظام الكتابة.

وفيما عدا هذه الحالات وحدها فإن جميع طرق الكتابة المستعملة الآن في العالم، تقوم على أبجديات البحر المتوسط، وهي أسهل حفظًا وإتقانًا من الصينية بشكل لا يسمح بأية موازنة. ومعنى هذا أنه بينمـا الشـعوب الأخرى لا تتعلم لتدوين اللغة المألوفة لديها إلا مجرد طريقة سهلة ومستقيمة نسبيا، فإن الصـيني ملـزم أن يتمكن من أحشاد عظيمة من رموز الكلمات وجماعات الكلمات المركبة. فليس عليه أن يتعلم العلامات وكفى، بل التجميع المقرر لتلك العلامات أيضا، حتى يتاح له إظهار المعاني المختلفة. فيجب والحالة هذه أن يجعـل نفسه ملما بعدد من المؤلفات القديمة التي تتخذ مثالاً يحتذى. وبناء على هذا، فبينما أنت واجد فـي الصـين أعدادا عظيمة من الناس يعرفون معنى حروف معينة مألوفة كثيرة الظهور، فلن تجد إلا القليلين ممن تتسـع معارفهم لإدراك معنى فقرة في إحدى الصحف، وأقل من هؤلاء من يستطيعون أن يقرءوا ما قد يرمي إليـه الكاتب من مرام دقيقة أو خفية أو أية ظلال ممتازة للمعاني. وهذا يصدق أيضا على اليابان وإن يكن بدرجة أقل. ولا مراء أن القراء الأوربيين وبخاصة أصحاب تلك اللغات التي لا تلتزم نظاما بعينه والغنية بالألفـاظ مثل الإنجليزية والروسية، يختلفون اختلافًا عظيما فيما بينهم بالنسبة إلى عدد الكتب التي يسـتطيعون فهمهـا ومدى فهمهم لها؛ فإن قوتهم في اللغة تختلف باختلاف محصولهم من المفردات؛ بيد أن ما يقابل ذلـك مـن مستوى الفهم عند الصينيين، يستدعي تحصيله بذلاً من الجهد والوقت أعظم كثيـرا. فـإن تعلـيم الموظـف (الماندرين Mandrin) في الصين إنما هو في معظم شأنه تعلم للقراءة.

وربما كان ما يترتب على ذلك من انشغال بال الطبقات المتعلمة أثناء سني قابليتهـا للـتعلم والاسـتيعاب وإكبابها على الآداب القديمة الصينية يجعلها متحيزة لهذه العلوم التقليدية التي أنفقت فيها مثل هذا القدر الكبير من الزمان والطاقة. وقل من الرجال الذين كدحوا في عقولهم بعلم من العلوم، من يطرّح برضاه ذلك العلـم جانبا، مفضلاً عليه شيئًا آخر جديدا غير مألوف. وغني عن البيان أن هذا الميل شيء لا ينفرد بـه الشـرق دون الغرب، وهو يبدو ظاهرا ملموسا عند كبار علماء الجامعات البريطانية والأمريكية مثلما يتجلى لدى أي ماندرين صيني. وإن البريطانيين في الزمن الحاضر، ليرفضون أن يتزحزحوا خطوة عن طريقتهم الهمجيـة في الهجاء والإملاء، بالرغم من المزايا العظيمة الواضحة التي ستعود على التعليم الشعبي والدعاية القوميـة من الانتقال إلى الأبجدية الصوتية [1] والهجاء الصوتي. ولا بد أن خصائص الكتابة الصينية والنظام التعليمي المترتب على تلك الكتابة قد قاما عصرا بعد عصر بعملية غربلة قوية تظاهر العقول المفرغة فـي قوالـب جامدة كما تظاهر عقلية الحذلقة العملية الجوفاء وتنصرها على الطراز الجامح الخلاق، وتستبعد هذا الأخيـر من مراكز النفوذ والسلطان. وعندي أن هذا التفسير مستساغ ومقبول إلى حد كبير.

([1]) الطريقة الصوتية Phonetie في الكتابة الإفرنجية طريقة لا تتمسك بالإملاء التقليدي المعروف للكلمات وإنما تمثل الكلمات أو تصور أصواتها بعلامات وحروف مميزة. (المترجم)

ومع ذلك فإن نظام الامتحان القديم لم يتوطد بكامل شدته إلا إبان أسرة منج الحديثة نسبيا. وكانت أسـرة منج (١٣٦٨ – ١٦٤٤) أسرة وطنية النزعة محافظة على القديم، استردت الصين بعد حكم المغول. ويقـول المستر ل. ي. تشن L. y. Chen: إن أول أباطرة أسرة منج قال عندما أعاد تنظيم الامتحان على أسس أشد تدقيقًا: "لسوف يجلب هذا إلى مصيدتي كل من في العالم من ذوي العقول". وقـد سـجنت "الآداب القديمـة الخمسة والكتب الأربعة" عقل الصين في محبسها. فعندما يحل الزمن الذي ينتهي فيه أي رجـل مـن شـق طريقه فيها كدحا وكدا يكون تقدير القيم لديه، قد بلغ من الصلابة واستعصاء العلاج مبلغه عند علماء الآداب الكلاسيكية القديمة بأكسفورد.

ولقد جرت محاولات عديدة لتبسيط الكتابة الصينية ولاقتباس طريقة أبجدية. ففي أيـام البوذيـة الأولـى بالصين، عندما ترجم قدر عظيم من المؤلفات عن السنسكريتية: أوشكت المؤثرات الهندية على بلـوغ تلـك الغاية. وقد اخترعت في الواقع أبجديتان صينيتان، وحظيت كل منهما بشيء يسير مـن الاسـتعمال. ولكـن الشيء الذي حال دون تعميم استعمال هاتين الأبجديتين، والذي لا يزال حتى اليوم يقف في سبيل أية "طريقة صوتية" للكتابة الصينية، هو أنه على حين ترى الكتابة الأدبية وأسلوب العبارة الفصحى واحدا لا يتغير مـن أقصى الصين إلى أقصاها. فإن لغة العامة المتداولة تختلف في كل من طريقة نطقها وصيغها الاصـطلاحية المألوفة اختلافًا يبلغ من الاتساع حدا يجعل الرجل من أبناء إحدى الولايات لا يفهم لغة مواطن له من أبنـاء ولاية أخرى. وهناك على ذلك "لغة صينية فصحى" وهي عبارات اصطلاحية تكاد تكون مستظهرة عن الكتب ينطق بها المتعلمون ويفهمونها على وجه العموم، وتتعلق آمال الكثيرين من المصلحين التربويين بالصين في الوقت الحاضر على احتمال استخدام طريقة أبجدية للكتابة في هذه الصينية الفصحى. وقد صـيغت أبجديـة صينية، وهي تعلم في المدارس العامة، وتنتشر بها الصحف والنشرات. وقضي على نظام الامتحان الجامـد الذي قتل كل ابتكار فكري خلاق.

كذلك أحدثوا تبسيطًا جسيما يتمثل في إدخال صيغ الحديث الاصطلاحية المنطوقة إلى الصينية المكتوبـة. وهذا من شأنه أن يتجه بها إلى اليسر والوضوح. فإن مثل هذه الصينية وإن كتبت بالحروف القديمـة أسـهل قراءة وكتابة، وهي مكيفة لحاجات التعبير الأدبي العصري تكييفًا أوفق كثيرا من الصينية الكلاسيكية القديمة.

على أنه ربما كانت هناك كذلك أسباب أخرى حالت دون تقدم الصين إلى مركز زعامة الإنسانية المحقق. فإن ما نالته الصين في الماضي من النجاح والرخاء القديم والقناعة العامة، لا بد وأنها عملت عملهـا بتلـك البلاد لتبرير كل ما فطر عليه جنسنا البشري من طمأنينة نفسية وروح محافظة طبيعيين. فلو نظرنـا إلـى المسألة من الناحية البيولوجية، فما من حيوان بمحتاج إلى التغير، ما حسنت أحواله حسنًا يكفل له البقاء فـي وقته الراهن. ولا يزال الإنسان في هذا الأمر حيوانًا. وقد ظلت الصين ما يربو على الألفي سنة حتى القـرن التاسع عشر، دون أن يخامرها أو يداخل تاريخها إلا أقل إحساس بأي شكوك خطيرة حـول تفـوق مـدنيتها بوجه عام على مدنيات العالم كله، ولم يكن هناك تبعا لذلك أي سبب ظاهر يحدو بالصيني إلـى إحـداث أي تغيير. فقد أنتجت الصين فيضا وفيرا من الفن الجميل وبعض الشعر الممتع وطباخة مدهشة وآلاف الملايـين

من الكائنات البشرية الذكية اللطيفة جيلاً بعد جيل. وكانت ولا تزال بلاد ملكيات صغيرة؛ وكل الأيدي فيهـا مطلوبة، ويمكن استخدامها جميعا في أعمال زراعية عتيقة تعود إلى عهد الأجداد. هذا إلى أن هنـاك منافـذ أمام القوى الجانحة إلى الاتساع. إذ لا يزال في الشمال والغرب متسع عظيم للإقامة والاستيطان وإذن فـإن شيئًا ذا بال لم يحدث، فلم يقم توتر داخلي حاد يشتت شمل العشيرة العائلية الصينية القائمة على نظام الأبوة. وهي العائلة التي تُزوج أبناءها في سن مبكر وتحتفظ بهم في المنزل قبـل أن يحصـلوا علـى الاسـتقلال الاقتصادي. هكذا سارت الصين في طريقها عصرا بعد عصر، ولا تزال تسير دون أن يداخلها أي شيء من ذلك التبرم العام ولا تلك العبودية ولا المذلة ولا التعس العام التي كانت تحف بحكم الأغنياء الإمبراطوريـة الرومانية، حتى أدت في النهاية إلى انهيارها. أجل كان هناك والحق يقال فقر كثير واستياء كبير. بيد أنه لـم يكن فقرا جماعيا لقوم مطرودين من أملاكهم، ولم يكن استياء شعبيا لا مناص منه. فبعد كل شدة وبعـد كـل كارثة، تبرأ نفوس السكان، وتلتئم الجراح. ولقد عمر النظام الصيني ألف سنة، لاح فيها ممتنعـا علـى كـل انحلال وإن مرت عليه أيام كان فيها يتأوه ويترنح. أجل حدثت تغييرات في الأسرات المالكة وثورات وأدوار فوضى ومجاعات وأوبئة؛ كما حدث غزوان عظيمان نصبا أسرتين أجنبيتين على عرش" ابن السماء"؛ ولكن لم تحدث تلك الصدمات التي توجد انقلابا ثوريا في نظام الحياة اليومية. وقد يأتي الأباطرة والأسرات المالكة ويذهبون؛ فأما الماندرين والامتحانات والآداب القديمة والتقاليد والحياة العادية فقد ظلت على ما هـي عليـه. فالمدنية الصينية وإن ظلت منذ أسرة تانج فما بعدها، تنتشر في بطء واستمرار في أنـام وكمبوديـا وسـيام والتبت إلى نيبال وكوريا ومنغوليا ومنشوريا، لا تنطوي على شيء نستطيع تسجيله لها عـدا ذلـك التقـدم الجغرافي. وكان صينيو القرن السابع الميلادي شعبا ممدنًا يعادل في كل من حضارته ونواحيها الجوهرية ما كانوا عليه بعد ذلك بألف سنة.

٩- الفن الصيني القديم

ربما جاز لنا هنا أن ندلي بكلمة حول فن الصين وعمارتها في عهد أسرتي هان وتانج وما جاء بينهما من أسرات أخرى. والصينيون، لأسباب لا نستطيع البتة أن نحللها، فضلوا على الدوام استعمال الخشب والطوب على استعمال الحجر في المباني. ومع ذلك فإن أحجار البناء الجيدة موفورة ببلاد الصين. ولا يكاد التـاريخ يسجل لنا فيما قبل القرن الحادي عشر الميلادي أي خرائب وأطلال ولا أية مبان اللهم إلا السـور العظـيم. على أن الصور والسجلات تشهد بوجود تراث طويل الأمد يرجع إلى عهد أسرة "تسي إن" أو أبكر منها.

وأقدم أشكال المباني تشتق اشتقاقًا مباشرا من الخيمة المغولية. وأهم مظاهرها هو السقف العظيم الذي قـد يكون ثنائيا أو ثلاثيا وبه أشغال خشبية محفورة ومطلية باللاك (الجملكّة). وربما كان السـقف نفسـه مغطـى بقراميد صقلية ألوانها زاهية، والمباني على العموم ذات طابق واحد وتنتشر انتشارا أفقيا. وهنـاك ظـاهرة كثيرة الحدوث في التصميم الصيني هي الممرات التكريمية ذات العقود. وتكثر القناطر الحجريـة، والكثيـر منها على درجة عالية من الرونق. والباجودا [١] المشيرة إلى السماء طراز ثالث للبناء، وهذه ومعها الشرفات والدرابزينات تكمل الصورة العامة للمباني الصينية. تلك هي الصورة الممثلة للفن المعماري في الصين فـي أوائل الحقبة المسيحية، وهي لا تزال على هذا الحال إلى يومنا هذا. ويقال إن الباجودا – وربما كـان ذلـك غير صحيح ترجع إلى بدايات هندية بوذية، وأنها المعادل الصيني "للإستوبا" التذكارية الهندية.

ولهذا الاستخفاف بالمواد الطويلة الأجل القوية الاحتمال أثره في معرفتنا بفن التشكيل الصيني قبل أسـرة هان. ويكاد البرونز أن يكون هو الاستثناء الوحيد. فإنا نعرف بوجود زلع [٢] وتماثيل من البرونز ترجع إلى أسرة تشو (Chow) بل إلى أسرة شانج. وهي من جمال الشكل ومهارة الصنع إلى حد أنها تدل على وجـود عالم بأكمله يعاصرها من المنتجات المماثلة التي لم يبق منها اليوم شيء. ولسنا نصل إلا في عصـر أسـرة هان وبعد بداية الحقبة المسيحية، إلى دور من أدوار الحياة الصينية ترك آثارا كثيرة في أية مادة أخرى عـدا هذه.

ويحدثنا أهل الذكر أن "التصوير" كان فن الصين الأساسي، وكانت تصنع من أشغال بالغة الجمال والرونق في عهد أسرة هان. وينوه التاريخ باسم كوكاي تشيه (Ku-kai-chih) (القرن الرابع المـيلادي) بأنـه مـن أعظم أساتذة المرقاش [٣] الصينيين. ولا تزال بعض أعماله باقية، ويتجلى فيها من النضج والأستاذية ما يشهد بوجود مدرسة راسخة القدم في الفن فعلاً. والتصوير الصيني يعمل دائما أبدا بالألوان المائية. وإنا لنجد بدلاً

---

(١) الباجودا أو الإستوبا: نصب بوذي على صورة أكمة ذات قبة. (المترجم).

(٢) الزلعة وعاء معروف، وهو الجرة الكبيرة. (المترجم)

(٣) المرقاش هو ريشة المصور. (المترجم).

من التصاوير الجصية الجدارية (الفرسكوهات) [1] الكبيرة صورا رقشت على الحرير والورق، وهي تختلف عن المنتجات الغربية فيما تظهر من كراهية إيجابية لتمثيل مظهر البروز (Relief). فهي مسطحة [2] هوائية رقيقة، كما أنها تعالج المناظر الطبيعية البرية أكثر مما تعالج التمثيل الدقيق المجسم البشري. وعصر أسـرة تانج يعده كثير من النقاد العصر الذهبي لفن التصوير الصيني.

فأما فن النحت الصيني فإنه لم يواكب بأية حال فن التصوير الصيني ولا يكاد يكون له شأن يـذكر إلـى جوار الإنتاج الأوربي، على أن الخزف الصيني من الناحية الأخرى فائق في امتيـازه. فقـد جـرت عـادة الصينيين أن يعرضوا خزفهم لنار حرارتها أشد كثيرا مما جرت به العادة في العالم الغربي، وأنتجـوا عنـد نهاية حكم أسرة تانج خزف البورسلان [3] وما لا نظير له من أنواع التزجيج [4] واتصف خزف أسرة هـان بالفعل ببالغ الصلابة والإبداع. وتوجد الآن في المنازل والمجموعات الأوربية أعداد وفيرة من تماثيل خزفية مزججة تمثل الخدم والخيل والجمال وما إليها، وكلها ترجع إلى زمن أسرة تانج. وقد استخرجت كلهـا مـن القبور، وكان الأصل في وضعها في هذه القبور أن تحل محل العبدان والحيوان التي كانت تسفك دماؤها في ماض أكثر همجية. واستمرت مذابح القبور هذه التي يقصد بها تزويد الرئيس المغـولي الراحـل بالخدمـة والدواب في أرض الظلال: (القبور والموت)، استمرت في الصين حتى القرن السابع أو السادس ق. م. ثـم استبدلت بها التماثيل. على أن الهون في أيام أتيلا ما برحوا يراعون العادة القديمة، عادة الذبح الحقيقي. على أنها كانت بادت في مصر قبل أيام أقدم الأسرات الأولى وحلت محلها هناك الصور والتماثيل الجنائزية.

---

(1) التصوير الجصي أو الفرسكو Frescoe ضرب من الصور وطريقة للتصوير الثابت على بياض الجدران الطري كثيرا ما تخلط فيه الألوان بزلال البيض. (المترجم)

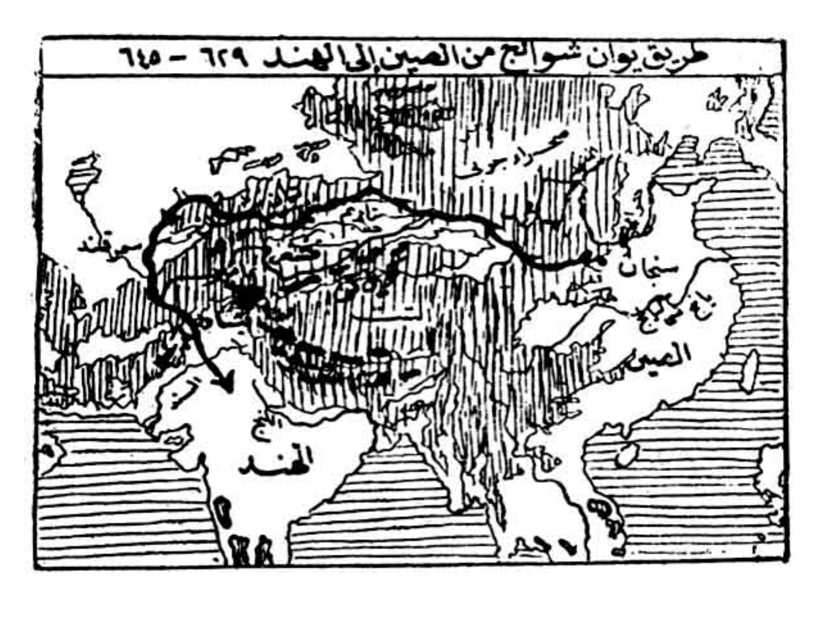
(2) الصورة المسطحة: هي التي ليس فيها ما يوحي بالعمق والمسافة. (المترجم)

(3) خزف البورسلان Porcelain : صنف من الصيني أبيض ورقيق وشبه شفاف كان يصنع أولاً بالصين. (المترجم).

(4) التزجيج: وضع غشاوة شبه زجاجية على سطح الخزف. (المترجم)

١٠- رحلات يوآن تشوانج

في عام ٦٢٩، وهي السنة التالية لوصول مبعوثي محمد (ﷺ) إلى كنتون وبعد هبوط المبشرين الذين بعث بهم البابا جريجوري إلى إنجلترة بنيف وثلاثين سنة، قام عالم بوذي متبتل يدعى يوآن شـوانج أو (هيـوين تسيانج) كما يفضل بعض الثقات أن يكتبوا اسمه – برحلة عظيمة إلى الهند من سيان فو أي (سيجنان) وهـي عاصمة تاي تسنج. غاب عن بلاده في هذه الرحلة ستة عشر عاما، وعاد (٦٤٥) وكتب عن رحلاتـه بيانًـا يعتز به الصينيون كقطعة من الآداب الكلاسيكية القديمة. وإن فيما مر به مـن تجربـة لنقطـة أو نقطتـين جديرتين بالملاحظة ها هنا، لأنهما تساهمان بقسط في استعراضنا العام لحالة العـالم فـي القـرن السـابع الميلادي[1].



شكل (١٢٧) خريطة تبين طريق يوان شوانج
من الصين إلى الهند ٦٢٩ – ٦٤٥

كان يوآن تشوانج نظيرا لهيرودوت في غرامه بالعجائب وسرعة تصديقه إياها، وإن أعوزه مـا للكاتـب الثاني من الحاسة التاريخية الممتازة؛ فلم يكن ليطيق أن يمر بنصب أو خرابة دون أن يعلم عنه قصـة مـا خرافية. وربما تكون نظرة أهل الصين إلى كرامة الأدب، هي التي منعته من إحاطتنا بتفاصيل كثيـرة عـن كيفية تنقله، ومن كان برفقته، وكيف كان يقيم، أو ماذا كان يأكل، وكيف كان يدفع نفقاته – وهي تفاصيل لها قيمتها البالغة لدى المؤرخ؛ ومع ذلك، فإنه ينفحنا مجموعة من ومضات براقة عن الصين وآسـيا الوسـطى والهند في المدة التي نحن بصدد بحثها.

([1]) عن وصف جغرافي تفصيل لتلك المناطق انظر الطبعة الثالثة المجلد الثاني من "المعالم" ص ٦٤٦ (المترجم)

كانت رحلته رحلة هائلة. ذهب فيها وعاد منها بطريق هضبة البامير. فذهب بـالطريق الشـمالي عـابرا صحراء جوبي، مسايرا المنحدرات الجنوبية لجبال تيان شان، مطوقًا حافة بحيرة إسيك كـول (Issik-kul) العظيمة العميقة الزرقاء، وبذا وصل إلى طشقند وسمرقند، ثم سار يترسم إلى حد ما خُطى الإسكندر الأكبـر متجها جنوبا نحو ممر خيبر وبيشاوار. ثم عاد بالطريق الجنوبي مخترقًا" البامير من أفغانستان إلى قشـغر، وبذا يكون قد سار على امتداد خط التراجع الذي اتبعته قبيلة "يويه تشي" في اتجاه مضاد قبـل ذلـك بسـبعة قرون، ومر بطريق يرقند على امتداد منحدرات الكوين لن، حتى عاد إلـى طريقـه القـديم قـرب النهايـة الصحراوية للسور العظيم. وكان سلوك كل من هذين الطريقين يتضمن تسلقًا شاقًا لجبال وعرة. وليس مـن المستطاع اقتفاء أثره أثناء رحلاته ببلاد الهند؛ فإنه ظل هناك أربعة عشر عاما، اخترق أثناءهـا كـل شـبه الجزيرة من نيبال إلى سيلان.

وكان هناك في ذلك الزمان مرسوم إمبراطوري يحرم السفر إلى الخارج، حتى لقد انطلق يوآن تشـوانج من سيان في خفيه كأنما هو مجرم هارب. وتعقبته السلطات لمنعه من تنفيذ مشروعه. وإن القارئ ليجد فـي كتابه "الحياة"، كيف أنه اشترى من رجل أشيب اللحية حصانًا هزيلاً أحمر اللون يعـرف طـرق الصـحراء ومسالكها، وكيف تفادى مخفرا على الحدود بمساعدة "شخص أجنبي"، صنع له على النهر جسرا من الحسـك أدنى من ذلك الموضع، وكيف أنه عبر الصحراء مسترشدا بعظام الموتى من الرجال والماشية، وكيـف رأى سرابا، وكيف نجا بأعجوبة مرتين من السهام عندما كان يتزود بالماء بالقرب من أبراج الخفارة في الطريـق الصحراوي. وحدث ذات مرة أنه ضل الطريق في صحراء جوبي، وظل أربع ليال وخمسة أيـام ولا مـاء معه؛ وتجمد اثنى عشر نفرا من رفاقه وماتوا بردا وهو فوق الجبال بين أحضان الجليد. كل هذا الذي روينـا موجود في كتاب "الحياة"؛ إذ إنه لا يقول عن ذلك غير القليل في بيانه الشخصي عن أسفاره.

وهو يعرض علينا الترك – وهم التطور الجديد لمجتمع الهون، وقد ملكوا لا مـا هـو الآن التركسـتان فحسب، بل كل ما يقوم على امتداد الطريق الشمالي بأكمله. وهو يذكر أسماء مدن جمة ويشير إلى الزراعـة واتساع رقعتها. ويولم له الولائم حكام عديدون، وهم إما من حلفاء الصين أو من أتباعها إلى حد ما، كما يولم له آخرون من بينهم خان الترك وهو شخص فاخر في ثياب خضراء من الأطلس، وقد عقص شعره الطويـل بالحرير.

"وكانت هذه الخيمة العظيمة الموشاة بالذهب تشع فخامة وضاءة تخلب الأبصار؛ وقـد جلـس الـوزراء الحاضرون والقائمون بالخدمة على بسط في صفوف طويلة على كلا الجانبين، وكلهم مرتد ثيابا فاخرة مـن وشي الديباج، على حين كانت بقية الحاشية صاحبة النوبة تقف من ورائهم. ولقد رأيت أنه وإن كان واليا من ولاة مناطق التخوم، فلقد أحاطه مع ذلك جو من السمو والظرف. خرج الخان من خيمته زهاء ثلاثين خطوة ليستقبل يوآن تشوانج الذي دخل الخيمة بعد تحية كريمة.. وبعد فترة وجيزة، أدخل على الخان رسـل مـن الصين ومن كاو تشانج فقدموا رسائلهم وأوراق اعتمادهم، فقرأها الخان وسر منها كثيـرا، وأمـر فـأجلس الرسل؛ ثم أمر لنفسه ولهم بالنبيذ والموسيقى وبشراب العنب للحاج. وعند ذلك تبادل القوم الأنخاب، وكـان

لملء كئوس النبيذ وارتشاف ما فيها وسوسة وحفيف، بينما ارتفعت أنغام الموسيقى عن آلاتها المتنوعة، ومع أن الألحان كانت أنغام الأجانب الشعبية الشائعة، فإنها أدخلت السرور علـى المشـاعر وأنعشـت الملكـات الذهنية. وبعد قليل قدمت إلى الآخرين أكوام من شواء لحم البقر والضأن، وقدم للحاج الطعام المباح من أمثال الكعك واللبن والفواكه المسكرة والشهد والعنب. وبعد انتهاء الوليمة، قدم شراب العنب مرة ثانية، ودعا الخان يوآن تشوانج أن ينتهز المناسبة فينفح المجتمعين بعض علمه، وعند ذلك بسط الحاج لهم مبـادئ "الفضـائل العشر" والرفق بالحيوان وكمالات البارامينا (Paramitas) [1] وفك الرقاب. فانحنى الخان رافعا يديه وأمـن مسرورا مغتبطًا وتقبل التعاليم".

وبيان يوآن تشوانج عن سمرقند يصورها مدينة كبيرة ذات رغد ورخاء، "إنها مستودع تجـاري عظـيم، والمنطقة المحيطة بها عظيمة الخصوبة ملتفة الأشجار كثيرة الأزهار ومنتجة لكثير من الخيول الصـافنات. وأهلها صناع مهرة ذوو رشاقة ونشاط". ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة، أنه لم يكن هناك في ذلـك الزمـان شيء يمكن تسميته مدنية في إنجلترة الأنجلوسكسون.

ومع ذلك فكلما اقتربت روايته مما مر به في الهند من خبرات، تغلبت نزعة الحاج النقي العالم في شخص يوآن تشوانج على نزعة الرحالة، وعند ذاك يصبح الكتاب مزدحما بأقاصيص فظيعة تـروي معجـزات لا سبيل إلى تصديقها. ومع ذلك فإنا نحصل على انطباعة عن المساكن والثياب وما إليها، وكلها وثيقة الشبه بما في الهند اليوم. وإن ما كان بالهند آنذاك ولا يزال بها إلى اليوم، من شدة تنوع الأشكال والهيئـات المختلفـة للجماهير، لهو نقيض صريح للصين بما يعم جميع جماهيرها من الثياب الزرقاء. ووجود الكتابـة والقـراءة بالهند أيام بوذا من الأمور المشكوك فيها؛ فأما آنذاك فقد صارت الكتابة والقراءة من المهارات الشائعة تماما. ويقدم إلينا يوآن تشوانج بيانًا ممتعا عن جامعة بوذية عظيمة في نالاندا، كشفت أخيرا خرائبها ورفعت عنهـا الأتربة. ويبدو أن نالاندا وتاكسيلا كانتا مركزين تعليميين كبيرين في زمان يرجع في قدمه إلى عهـد فـتح المدارس الفلسفية في أثينا. كذلك زار كهوف أجانتا التي مر الحديث عنها. وقد وجد يـوآن تشـوانج نظـام الطوائف كامل الاستقرار هناك بالرغم من كل ما بذله ضده بوذا، ووجد نجم البراهمة في تألق وصـعود لا ريب فيه. وهو يذكر الطوائف الأربعة الرئيسية التي ذكرنا[2]. بيد أن بيانه عن وظائفها وأعمالها يختلف نوعا ما. فهو يقول إن السودرا (Sudras) هم حراث الأرض. ويقول الكتاب الهنود إن عملهم كان خدمة الطوائف الثلاثة "المولودة مرتين" الأعلى منهم.

---

(1) كمالات البارامينا: هي فضائل الكمال المطلق مثل، العفاف والإحسان والصبر والحكمة، التي ينبغي أن يمارسها كـل مـن تتوق نفسه إلى سلوك سبيل النبوة البوذية. (المترجم)

(2) انظر المعالم ج ١ ص ٢٣٤ ط ٣. (المترجم).

ولكن كما سبق أن ألمحنا فإن بيان يوآن تشوانج عن واقع الأحوال الهندية يغمره مـا كدسـه فيـه مـن الأساطير والمختلقات الورعة. فمن أجل هذه دون غيرها جاء، وبهذه كان يفرح ويغتبط. فأما ما عـدا ذلـك فواجب قد ألقي على عاتقه رغما عنه كما سنرى. فإن عقيدة بوذا التي ظلت إلى أيام أسوكا، بل حتـى فـي زمن متأخر يصل إلى عهد كانيشكا (Kanishka)، خالصة نقية إلى حد يجعل منها إلهاما نبيلاً، تتبـدى لنـا آنذاك تائهة في بيداء من الهراء غير المعقول، حيث تحولت إلى فلسفة تؤمن بوجود سلسلة لا نهاية لها مـن البوذوات وإلى أقاصيص كرامات وأعاجيب شبيهة بتمثيليات عيد الميلاد الإيمائيـة (Pantomime)، وإلـى إناث يحملن حملا إعجازيا ويلدن فيلة ذوات ستة أنياب، وإلى أمراء محسنين يقدمون أنفسهم طعاما لنمـرات جائعات، ومعابد مشيدة على قلامة ظفر مقدسة وما إلى ذلك من أشياء. ولسنا بقادرين أن ندلي بمثـل هاتـه الأقاصيص هنا، فإن كان القارئ ميالاً إلى مثل هذا النوع من الأشياء، وجب عليه أن يرجع إلى مطبوعـات الجمعية الملكية الآسيوية أو الجمعية الهندية، حيث يجد طوفانًا من مثل هذا الهذيان. وذلك بينما البرهمانية قد أخذت تكسب الأنصار وتفوز بالتفوق من جديد في كل مكان في منافستها لهذه البوذية التي تقوضـت فكريـا واختنقت تحت زخارفها المذهبة، كما لحظ ذلك يوآن تشوانج آسفًا.

وإلى جوار هذه الشواهد الدالة على وجود اضمحلال فكري كبير في الهند، يجوز لنا أن نلحظ أيضا تكرار الحديث عن المدن الخربة المهجورة في بيانات يوآن تشوانج. فإن شطرا كبيرا من البلاد لم يبرح يكابد مـن غارات الإفثاليين وسلبهم والفوضى المترتبة عليها. فإنا نجد مثل هذه الفقرة مرارا وتكرارا: "لقد ذهب شمالاً بشرق مخترقًا غابة عظيمة، وكان الطريق ممرا ضيقًا خطرا يكثر به الجـاموس البـري والفيلـة البريـة، ويتربص فيه اللصوص والقناصة على الدوام لقتل المسافرين، حتى إذا خرج من الغابة وصـل إلـى إقلـيم كوشيه ناكالو (كوزينا جارا). وكانت أسوار المدينة حطاما خربة، بينما البلدان والقرى قد هجرهـا أهلوهـا. وكانت أسس مباني المدينة القديمة المبنية من الطوب، (أعني المدينة التي كانت القصبة) تمتد في دائرة يزيـد محيطها على عشرة من الأميال الصينية (لي [1] Li). فأما عدد السكان فقد تضاءل إلى أقصى حـد، حتـى أصبح داخل المدينة خرابا موحشًا". ومع ذلك، فلم يكن هذا الخراب عاما بأية حال. إذ لا يقل عن ذلك كثيـرا ما يذكره الكاتب من المدن المزدحمة والقرى الآهلة والمزارع الناشطة.

ويتحدث كتاب "الحياة" عما لقيه الكاتب من مشاق في طريق عودته؛ إذ وقع في أيدي اللصوص؛ وغـرق الفيل الضخم الذي كان يحمل غالب متاعه؛ ولقي صعوبة كبيرة في الحصول على دابة جديدة. ولكن لا سبيل هنا إلى معالجة هذه المغامرات.

([1]) لي Li: هو ميل صيني يساوي على الأرجح أكثر من ثلث ميل إنجليزي. (المترجم).

والظاهر أن عودة يوآن تشوانج إلى سيان فو عاصمة الصين كانت نصرا مبينًا. فلا شك أن بشراء يسعون بين يديه كانوا يبلغون الناس بمقدمه. وأعلنت بالبلاد عطلة عامة؛ وازدانت الطرقات بالأعلام الزاهية وملئت أرجاؤها سرورا بأنغام الموسيقى. وحف به الناس أثناء دخوله إلى المدينة في موكب فخم حافل. واحتاج حمل مغانم رحلاته إلى عشرين حصانًا؛ ذلك أنه أحضر معه مئات من الكتب البوذيـة المكتوبـة بالسنسـكريتية، والمصنوعة من خوص النخل ولحاء البتولا المطبق طبقات بعضها فوق بعض؛ وحمل معه تماثيل جمة لبوذا ما بين كبيرة وصغيرة، وما بين ذهبية وفضية وبلورية أو من خشب الصندوق؛ وكانت معه صور مقدسـة، وما لا يقل عن مائة وخمسين أثرا حقيقيا مشهودا بصحة نسبته إلى بوذا. وقُدم يوآن تشـوانج للإمبراطـور، فعامله معاملة صديق شخصي، وأخذه إلى القصر يسأله يوما بعد يوم عن عجائب تلك الأراضي الغريبة التي قضى فيها مثل ذلك الزمن الطويل. ولكن بينا الإمبراطور يسأل عن الهند، كان الحاج ميالاً ألا يتكلم إلا عـن البوذية.

ويحتوي ما يتلو ذلك من تاريخ يوآن تشوانج على حادثتين تلقيان الضياء على النشاط الفكري لهذا العاهل العظيم تاي تُسنج، الذي كان فيما يرجح مسلما بقدر ما كان مسيحيا أو بوذيا [1]. والعيب في كل المتخصصين في الدين معرفتهم بأكثر مما يلزم من شئون ديانتهم الخاصة، ومن أوجه اختلافها عن الديانات الأخرى؛ ولعل مزية – أو عيب – أولئك الساسة الخلاقين من أمثال تاي تسنج أو قسطنطين الكبير، أنهم لا يعرفون من تلك الأمور إلا القليل نسبيا. وواضح أن الخير الجوهري الكمين في هذه الديانات جمعاء كان يبدو لعين تاي تسنج خيرا جوهريا واحدا لا يختلف في إحداها عنه في الأخرى. لذا كان من الطبيعي أن يقترح على يوآن تشوانج أن ينبذ الحياة الدينية، وأن يلتحق بوزارة الخارجية، وهو اقتراح لم يقبله يوآن تشوانج لحظة واحـدة. وعنـد ذلك أصر الإمبراطور أن يحصل على بيان مكتوب عن أسفاره، وبذا حصل على هذا الأثر الأدبـي النفـيس الذي نكتنزه معتزين به. وأخيرا اقترح تاي تسنج على البوذي المتشبع تماما بمبدئـه أن يسـتخدم معرفتـه بالسنسكريتية في ترجمة مؤلفات المعلم الصيني العظيم لاو تزي (Lao-Tse) لينتفع بها القراء الهنود.

ولا مراء أن الإمبراطور رأى في ذلك ردا عادلاً للجميل وخدمة نافعة للخيـر الجـوهري الكـامن وراء الديانات جميعا. ذلك أنه كان يرى بوجه الإجمال أن لاو تزي لا يقل عن بوذا إن لم يكن خيرا منه. وإذن فلو أن عمله (مؤلفه) وضع تحت بصر البراهمة لتلقوه بالترحاب. وبنفس هذا الروح بـذل قسـطنطين الكبيـر قصاراه ليحمل آريوس وإثناسيوس على تسوية أمورهما وديا. وطبيعي جدا أن مقترحه هذا قد رفضه يـوآن تشوانج. فإنه اعتكف في أحد الأديرة، وقضى بقية حياته مترجما بأسلوب صيني رشيق كل ما وسعه جهـده من الأدب البوذي الذي أحضره معه [2].

---

(1) يشيد الكتاب البوذيون بذكر تاي تسنج لاستقباله يوآن تشوانج (٦٤٥). بيد أن مؤرخي المسلمين فعلوا مثل ذلك بسبب مسجد كنتون، وكذلك فعل الكتاب المسيحيون من أجل ما لقيه المبعوثون النساطرة (٦٣١) ومن هنا جاء اسـتنتاج المؤلـف بمـا اجتمع في عقل هذا الإمبراطور من احترام لهذه الأديان الثلاثة. (المترجم).

(2) عن الدين والفلسفة والتاريخ ببلاد الصين والهند وغيرهما من أقطار الغرب والشرق، انظر للمتـرجم: "التـاريخ وكيـف يفسرونه" : تأليف البان ورجري [نشرته الهيئة العامة للتأليف والنشر بماسبيرو]. (المترجم).

الفصل الثلاثون

محمد (ﷺ) والإسلام

١- بلاد العرب قبل محمد (ﷺ)

٢- حياة محمد (ﷺ) حتى الهجرة.

٣- محمد (ﷺ) يصبح نبيًا منافحًا.

٤- تعاليم الإسلام.

٥- الخليفتان أبو بكر وعمر.

٦- أيام عظمة بني أمية.

٧- انحلال قوة الإسلام في ظل العباسيين.

٨- الثقافة العربية.

٩- الفن العربي.



١- بلاد العرب قبل محمد (ﷺ)

سبق أن وصفنا كيف حدث في ٦٢٨ م أنه أَم مجالس بلاط هرقل وقباذ وتاي تُسنج رسل من العرب، أرسلهم شخص معين هو محمد، "رسول ا "، المقيم في بلدة "المدينة" التجارية الصغيرة ببلاد العرب. وسنخبرك الآن من كان ذلك النبي الذي نشأ بين بدو الصحراء العربية وتجارها.

فمنذ أزمان سحيقة كانت بلاد العرب، عدا شريط اليمن الخصيب الممتد في الجنوب الغربي، أرض بدو رحل، وهي المنبت الرئيسي للشعوب السامية. فمن بلاد العرب وفي أزمان متنوعة اندفعت أفواج من هؤلاء البدو نحو الشمال والشرق والغرب إلى بلاد المدنيات القديمة بمصر وساحل البحر المتوسط وأرض الجزيرة بالعراق. وقد لاحظنا في هذا الكتاب كيف عمرت السومريين بعض تلك الموجات السامية وتغلبت عليهم، وكيف مكن الفينيقيون والكنعانيون الساميون لأنفسهم على امتداد شواطئ البحر المتوسط الشرقية، وكيف اتخذت الشعوب السامية حياة الاستقرار في بلاد بابل وآشور، وكيف غزا الهكسوس مصر، وكيف استقر الآراميون تماما في سوريا متخذين من دمشق عاصمة لهم، وكيف فتح العبرانيون "أرض الميعاد" فتحا جزئيا. وقد انتقل الكلدانيون في تاريخ مجهول من بلاد العرب الشرقية، واستقروا في الأراضي الجنوبية السومرية القديمة. وكان كل غزو يدخل في التاريخ هذا القسم من الشعوب السامية ثم ذاك. بيد أن كل واحدة من هذه الجماعات كانت لا تفتأ تترك نواة قبلية من خلفها تزود الغزوات التالية في المستقبل بالرجال.

وتاريخ الإمبراطوريات الأعلى تنظيما في عهد الحصان والحديد: إمبراطوريات الطرق والكتابة، يظهر لنا بلاد العرب متمددة كالإسفين بين مصر وفلسطين وبلاد الفرات والدجلة، كما يصورها خزانًا للقبائل المترحلة التي تغير وتتجر وتتقاضى الجزية من أجل حصانة القوافل وحمايتها. أجل إنها تعرضت في بعض أيامها للخضوع لسلطان خارجي ضعيف مؤقت. وإن كلا من مصر وفارس ومقدونيا وروما وسوريا والقسطنطينية ثم فارس من جديد لتدعي على التعاقب شيئًا من السيادة غير الحقيقية على بلاد العرب، وتعلن عليها ضربا لا أساس له من الحماية. وكانت هناك في عهد الإمبراطور تراجان ولاية رومانية تسمى "بلاد العرب"، وكانت تتضمن إقليم حوران الذي كان خصبا آنذاك وتمتد حتى البتراء (Petra). وكان يحدث بين الآونة والأخرى أن يرتفع أحد مشايخ العرب ومدينته التجارية إلى مرتبة مؤقتة من الرفعة كذلك كان حال أذينة (أوديناثوس البالميري) صاحب تدمر الذي ذكرنا من قبل سيرة حياته القصيرة. وكانت بعلبك كذلك مدينة صحراوية أخرى بلغت رفعة مؤقتة ولا تزال خرائبها تدهش السائح.

وبعد تدمير تدمر أخذت السجلات الرومانية والفارسية تسمى عرب الصحراء باسم (Saracens): أعني المشارقة.

وفي أيام كسرى الثاني الملقب بأبرويز، ادعت فارس نوعا معينًا من السيادة على بلاد العرب؛ وبعثت إلى بلاد اليمن بالموظفين وجباة الضرائب. وقبل ذلك الزمان ظلت اليمن بضع سنين تحت حكم النصارى الأحباش، وظلت قبل ذلك سبعة قرون وهي تحت حكم أمراء من بني جلدتها، يعتنقون الدين اليهودي، وهو أمر خليق بالملاحظة.

ولم تكن هناك حتى مستهل القرن السابع الميلادي أية أمارات على وجود أية قوة غير مألوفـة أو طاقـة خطرة في الصحراوات العربية. إذ كانت حياة البلاد تسير على ما كانت عليه منذ أجيـال طويلـة. فحيثمـا وجدت رقعة خصبة، أعني حيثما كانت هناك عين أو بئر، كان يعيش سكان زراعيون قليلو العدد في مـدن مسورة، محاذَرة من البدو الذين يتجولون مع أغنامهم وماشيتهم وخيولهم في الصحراء. وكان المدن الرئيسية تنشأ على امتداد طرق القوافل المهمة وتبلغ من الرخاء مرتبة ثانوية، وكانت في طليعتها المدينـة (:يثـرب) ومكة. وفي بداية القرن السابع كانت يثرب بلدا يحتوي على ما يقارب ١٥ ألف نسمة لا يتجاوزونها أما مكة فكان بها، فيما يحتمل عشرون أو خمسة وعشرون ألفًا. وكانت يثرب بلدا أفضل نسبيا من حيث المياه، بهـا أحراش نخيل كثيرة؛ وكان سكانها من اليمانية، أي من أهالي الأرض الخصيبة في الجنوب، أما مكة فمدينـة من طراز آخر قائمة حول ينبوع ماء ذي طعم مرير ويسكنها بدو حديثو الاستقرار.

ولم تكن مكة مجرد مركز تجاري ولا كان ذلك أول وأهم صفاتها، بل كانت بمثابة حج للناس. فكان بـين قبائل العرب من زمان بعيد نوع من الحلف يتمركز في مكة وبعض أماكن مقدسة أخرى؛ وكانت هناك أشهر حرم (هدنة) تقف فيها الحروب وتمتنع الثارات، وعادات مرعية من حماية الحجيج وإكـرامهم. وقـد نمـا بالإضافة إلى هذا عنصر أوليمبي [1] في هذه الاجتماعات. إذ كان العرب قد أخذوا يكتشفون في لغتهم مجالي الروعة والجمال، فكانوا يلقون القصائد الحماسية وأغاني الغزل. وكان مشايخ القبائل يجلسون وعلى رأسـهم "أمير الشعراء" للحكم بين الشعراء ومنح الجوائز؛ وكانت الأغاني الفائزة بالجوائز تغنى في كل بلاد العرب.

وكانت الكعبة بيت مكة المقدس سحيقة القدم آنذاك. وهي معبد مربع صغير من الأحجار السوداء، حجـر الزاوية فيه من الأحجار النيزكية. وكان هذا الحجر النيزكي يعد ربا، وفي حمايته كل الآلهة القبلية الصـغيرة ببلاد العرب. وكان سكان مكة الدائمون قبيلة من البدو؛ استولوا على هذا المعبد وأقاموا أنفسهم سـدنة لـه. فيأتيهم في الأشهر الحرم أفواج عظيمة من الناس يسيرون حول الكعبة وفق طقوس دينية معينـة، فينحنـون ويقبلون الحجر، ويشتغلون كذلك بالتجارة وإلقاء المقطوعات الشعرية. وكان المكيون يجنون أكبر الفوائد من هؤلاء الزوار.

---

[1] نسبة إلى منطقة أوليمبيا اليونانية القديمة التي كانت تقام فيها المهرجانات. (المترجم)



(شكل ١٢٨) خريطة بلاد العرب والبلاد المتاخمة لها

ولشد ما يذكرنا هذا بحالة بلاد الإغريق الدينية والسياسية قبل ذلك بأربعة عشر قرنًا. بيد أن وثنية هؤلاء العرب الأشد بدائية أخذت تتعرض للهجمات من جهات عدة. فأدخل العرب في دين اليهودية أفواجا أثناء عهد المكابيين [1] والهيروديين ببلاد اليهودية (Judea)؛ وكانت اليمن، كما سبق أن ذكرنا، قد وقعت على التعاقب في حكم اليهود (أعني العرب المعتنقين لليهودية)، فالمسيحيين فالزرادشتيين. وواضح أنه لا مفر من حـدوث الكثير من المناقشة الدينية أثناء انعقاد أسواق الحج في مكة وما شابهها من مراكز. وطبيعي جـدا أن تكـون مكة هي معقل نحلة الوثنية القديمة التي وهبتها أهميتها ورخائها، فأما المدينة فهي من الناحية الأخـرى ذات ميول يهودية، وتقع بالقرب منها مستقرات لليهود. فلم يكن بد إذن من أن تكون مكة والمدينة في حالة منافسة وتنازع.

([1]) المكابيون: أسرة يهودية ظهرت في القرنين ٢، ١ ق.م. وأسرة هيرود، حكمت في فلسطين في زمن المسيح عليه السـلام. (المترجم)

٢- حياة محمد (ﷺ) حتى الهجرة

كان مولد محمد مؤسس الإسلام بمكة قرابة ٥٧٠ م. ولد في فقر بالغ، وكان ضئيل الحظ من العلم، ولو قيس حتى بمعايير الصحراء لكان أميا غير متعلم، ومن المشكوك فيه أنه تعلم الكتابة إطلاقًا [١]. وظل بضع سنوات يشتغل بالرعي؛ ثم دخل بعدئذ في خدمة سيدة معينة اسمها خديجة، وهي أرملة تاجر موسر. ولعله كان يعنى [٢] بإبلها أو يساعد في أعمالها التجارية. ويقال إنه سافر مع القوافل إلى اليمن [٣] وإلى سوريا. والظاهر أنه لم يكن تاجرا عظيم النفع لها في تجارتها، ولكنه أوتي من الحظ نصيبا موفورا، فأعجبت به السيدة فتزوجته، فتضايقت [٤] من ذلك عائلتها تضايقًا كبيرا. ولم يكن عند ذاك قد تجاوز الخامسة والعشرين. وليس من المحقق أن زوجته كانت أسن منه بكثير، وإن أجمع التواتر على أنها كانت في الأربعين. والراجح أنه لم يقم بأية رحلات طويلة بعد الزواج. وولد له أطفال عديدون، كان اسم أحدهم عبد مناف [٥] – أي خادم الرب المكي "مناف"، وهذا يدل على أن محمدا لم يكن قد توصل في ذلك الوقت إلى أية اكتشافات دينية [٦].

ثم ظل حتى بلغ الأربعين من عمره يعيش في مكة عيشًا عاديا كبعل لزوجة ثرية وربما كان هناك أساس للظن بأنه أصبح شريكًا في بعض الأعمال المرتبطة بالإنتاج الزراعي. فلو أن إنسانًا زار مكة سنة ٦٠٠ م لرأى فيه فيما يرجح شخصا أشبه بالمترفين، شخصا حييا وسيم الطلعة، متنقلاً بين المجالس، منصتًا للحديث، وشاعرا غير مجيد [٧]، ورجلاً ذا مرتبة ثانوية على وجه العموم.

---

(١) علام الشك وأميته (عليه الصلاة والسلام) مقطوع بها بنص القرآن في مواضع متعددة منه. (المترجم).

(٢) المجمع عليه في الكتب الإسلامية أنه (عليه الصلاة والسلام) أشرف على تجارة لها إلى الشام مقابل أجر معلوم. (المترجم)

(٣) لم يثبت أنه عليه الصلاة والسلام سافر إلى اليمن لا للتجارة ولا لأي غرض آخر. والثابت المعروف من كتب السيرة أنه لم يسافر إلى الشام إلا مرتين، مرة وهو حدث في حوالي الثانية عشرة من عمره في صحبة عمه أبي طالب وأخرى حينما كان في حوالي الخامسة والعشرين نائبا عن السيدة خديجة (رضي ا عنها) في تجارتها. (المترجم).

(٤) قال الدكتور هيكل في كتابه "حياة محمد" ص ٨٤ ما نصه "فلم تبطئ خديجة أن حددت الساعة التي يحضر فيها مع أعمامه ليجدوا أهلها عندها فيتم الزواج – وزوجها عمها عمر بن أشد إذ كان خويلد قد مات قبل حرب الفجار – مما يكذب ما يروى من أنه كان حاضرا ولم يكن راضيا عن هذا الزواج". (المترجم)

(٥) الثابت قطعا أنه لم يولد له عليه الصلاة والسلام ولد بهذا الاسم. والثابت أن نفسه الشريفة كانت تنفر منذ صباه من كل أصنام العرب. ولعل الكاتب قد اختلط عليه الأمر فجعل من عبد مناف الجد الثالث للنبي عليه الصلاة والسلام اسما لأحد أبنائه. (المترجم).

(٦) وهل قال أحد بأن محمدا عليه الصلاة والسلام قد جاء بجديد من ناحية العقيدة والدين قبل الأربعين عندما جاءه الروح الأمين وهو يتحدث في غار حراء؟ وهل لا يعتبر نفور محمد ﷺ الطبيعي من الأصنام وكل ما يمت إليها بصلة من طقوس وقرابين وتعظيم إلخ من أمارات السمو الروحي الذي عرف به بين قومه من طريق تمسكه بكامل الصفات والأخلاق حتى لقبوه بالأمين، والذي حفزه إلى التفكير والتأمل والتحنث بحثًا عن الحق الذي هداه في النهاية إلى نهجه القويم حتى هبط عليه الروح الأمين بالرسالة والقرآن الكريم. (المترجم)

(٧) معاذ ا أن يتصف النبي بقوله الشعر؛ وا نزهه عن الشعر في كتابه الكريم ولم ترو كتب السيرة الشريفة قط أنه عليه السلام قال شعرا في صباه. (المترجم).

وليس في وسعنا أن نتحدث عن حياته الخاصة إلا على سبيل الظن والتخمين. وقد اعتقد بعض متوقـدي الخيال من الكتاب أنه كانت تلم به أدوار صراع روحي عظيم، وأنه كان يخرج إلى الصحراء في آلام مبرحة من الشك والرغبة القدسية. "ففي هدأة الصحراء ليلاً، وفي قيظ ظهيرة الصحراء نهارا، عزف النبي نفسه كما يفعل الناس جميعا وأحس الوحدة والانفراد وإن لم يستوحش، ذلك أن الصحراء ، وفي الصحراء لا يستطيع إنسان أن يجحده" [١]. وربما كان الحال كذلك حقًا، ولكن لم يقم أي دليل [٢] على حدوث مثل تلك الـرحلات الصحراوية. ومع ذلك فإنه كان ولا مراء يفكر تفكيرا عميقًا فيما حوله من أشياء. ويحتمل أنه رأى كنـائس مسيحية في سوريا [٣]؛ ويكاد يكون محققًا أنه كان يعرف الكثير عن اليهود وديـانتهم، وأنـه اسـتمع إلـى سخريتهم من ذلك الحجر الأسود في الكعبة الذي كانت له السيادة على الأرباب القبلية الثلاثمائة ببلاد العرب. ورأى جماهير الحجيج ولحظ أمارات الختل وعدم الإخلاص والخرافات المتجلية في وثنية البلدة فضاق بذلك ذرعا. وربما كان اليهود قد هدوه إلى الاعتقاد في الرب الواحد الحق، دون أن يدرك ما حدث له[٤].

أخيرا لم يستطع أن يكتم هذه المشاعر في نفسه زمنًا أطول. فلما بلغ الأربعين شرع يتكلم عن حقيقة الإله إلى زوجته أول الأمر كما هو واضح وإلى نفر قليل من أصدقائه المخلصين. وجاء بآيات معينة، أعلن أنها قد أوحيت إليه عن طريق ملك من السماء. وكانت تحتوي على الجزم بوحدة الرب وبعض أحكام عامة معقولـة عن البر والتقوى. كذلك أصر على وجود حياة في الدار الآخرة، وعذاب جهنم للمستهين والشـرير، وجعـل الفردوس نُزلا للمؤمنين بالإله الواحد. وفي ما عدا دعواه أنه نبي جديد، لا يبدو أن قد كان في هذه المبـادئ شيء بارز الجدة في ذلك الزمان، بيد أن هذه التعاليم كانت في عرف مكة دعوة إلى الشغب والفتنـة، وهـي التي كانت تعتمد في بعض معايشها على نحلتها المتعددة الآلهة، والتي كانت لذلك مستمسكة بالأصـنام يـوم كان سائر العالم قد أخذ ينبذها. وقد قال محمد ﷺ - كما قال ماني – بأن الأنبياء من قبله وبخاصة عيسـى وإبراهيم كانوا معلمين قدسيين، ولكنه يكمل تعاليمهم ويختمها. وهو لم يذكر البوذية بأي حال، وربما كان ذلك لأنه لم يسمع قط باسم بوذا. فإن بلاد العرب الصحراوية كانت غارقة في الركـود والتـأخر مـن الناحيـة اللاهوتية.

---

(١) السير مارك سايكس.

(٢) المتواتر المجمع عليه أن ذلك حدث منه عليه السلام وإلا فأين حديث غار حراء؟ (المترجم).

(٣) إطلاق القول بأنه عليه الصلاة والسلام زار سوريا لا يقوم عليه دليل إذ إنه لم يتعد في زيارتيه للشام مدينة بصرى محـط قوافل المكيين وهي في أقصى الجنوب الشرقي لفلسطين الحالية. (المترجم).

(٤) لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام قبل الرسالة بحاجة إلى تعرف الإله الواحد الحق من اليهود فإن العرب فـي جـاهليتهم الوثنية كانوا يعرفون ا الخالق وإنما كانوا يتخذون من الأوثان والأصنام في بداية أمرهم بها شفعاء في تقـربهم إلـى ا زلفى. فلما تقادم عليهم العهد سجدوا لها من دون ا مع ذكرهم لاسمه ومعرفتهم له وذلك ظاهر في أشعارهم وخطبهم في الجاهلية. (المترجم)

وظلت الديانة الجديدة بضع سنين وهي سر تحتفظ به جماعة صغيرة من البسطاء، هم: خديجة زوجة النبي، وعلي ابنه المتبنى، وزيد وهو عبد، وأبو بكر وهو صديق معجب به. وظلت بضع سنين نحلة مغمورة في بيوت قليلة بمكة، كانت مجرد عبسة وزمجرة خافتة في وجه عبادة الأوثان، بلغ من خمول شأنها وضآلة أمرها أن زعماء البلدة لم يعيروها أدنى اهتمام. ثم أخذت تقوى ويصلب عودها. وأخذ محمد يجهر بالدعوة أكثر ويعلم الناس مبدأ الإيمان بالحياة الآخرة، ويتوعد عبدة الأوثان والكفرة بنار جهنم. ويبدو أن دعوته كان لها أثر عظيم. فبدا للكثيرين أنه إنما يهدف إلى إقامة نوع من الدكتاتورية في مكة وإلى اجتذاب كثير من البسطاء والمتذمرين إلى جانبه. وبذلت قريش محاولة لتثبيط الحركة الجديدة والقضاء عليها.

ومكة كما هو معلوم مثابة للحج وحرم آمن؛ ولا يجوز سفك أي دم داخل أسوارها؛ ومع ذلك فإن القوم نغصوا عيش أتباع المعلم الجديد تنغيصا شديدا إذ استعملوا معهم أساليب المقاطعة والمصادرة. فاضطر بعضهم إلى اللجوء إلى الحبشة المسيحية. على أن النبي نفسه لم يمس بسوء – لما له من عزوة قوية تحميه، بينما لم يشأ خصومه أن يفتحوا على أنفسهم باب الثأر الدموي. وليس في إمكاننا تتبع تأرجحات الكفاح في هذا المقام. بيد أن من الضروري أن نذكر حادثة واحدة محيرة في حياة النبي الجديد، يقول عنها السير مارك سايكس "إنها تثبت أنه كان عربيا صميما" فإنه بعد كل إصراره على وحدانية الله، عاد فداخله التردد. فجاء ساحة الكعبة وأعلن [1] أن أرباب مكة وربباتها، قد تكون قبل كل شيء حقيقية، وقد تكون ضربا من القديسين الذين لهم قوة الشفاعة.

---

(1) هذه فرية الغرانيق، وإن تعدد الصورة المروية للآيات المزعومة من "تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى" أو "وإن شفاعتهن لترتجى" إلخ لمما يجعل تصديق الرواية مستحيلاً ناهيك عن أنه لا يعقل أن يمتدح القرآن أصنام قريش في بعض آيات ثم يعقب ذلك مباشرة بالاستنكار في نفس الصورة كما هو ظاهر من قوله تعالى: **أَفَرَأَيتُم اللاتَ والعُزى * ومنَاةَ الثالِثَةَ الأُخْرى * أَلَكُم الذكَر وله الأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسمةٌ ضِيزى * إِن هِي إِلا أَسماء سميتُموها أَنْتُم وآباؤُكُم ما أَنْزلَ الله بِها مِن سلْطَانٍ** ، إلخ؛ فإذا وضعنا **أَفَرَأَيتُم اللاتَ والعزى * ومنَاةَ الثالِثَةَ الأُخْرى** تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى... (ثم أردفناها بقوله تعالى) ......، **أَلَكُم الذكَر وله الأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا** إلخ لكان المدح والذم لشيء واحد متتابعين، فليس من المعقول إذن أن يكون ذلك صدر عن محمد الذي لم يرو عنه أحد أقوالاً أو يسند إليه أفعالاً متناقضة متضاربة طوال حياته.

ولعل عدم ذكر ابن هشام شيئًا عن هذه القصة يشير إلى شيء هام وهو أنه يحتمل كثيرا أن هذه القصة وأمثالها من الإسرائيليات لم تكن قد وضعت وشاعت في أيامه وبذلك تكون هذه القصة وضعية في تاريخ متأخر حشرت حشرا في التفسير وغيره أنها تعليل لنزول آيات أخرى من غير تمحيص أو تحليل. (المترجم).

قويل تراجعه بالحمية والحماسة من قريش، ولكنه لم يكد يتم قوله حتى أخذه الندم [كذا!...]، وذلـك يـدل على أن الخوف من ا – كان لا جرم – يملأ جوانب قلبه، فما بدر منه في حق الأمانة أكبر دليل على أمانته ونزاهته [١]. ومن ثم بذل كل ما وسعه لإصلاح ما فرط منه [كذا!...]. فقال إن الشيطان تلبس لسانه [٢]، ثـم أخذ يسب عبادة الأصنام بقوة وعزم مجدين. وبذلك تجدد الكفاح ضد الآلهة العتيقة بعد فترة سـلام وجيـزة، متأججا على صورة أشد وأعنف، دون أي أمل آخر في الصلح.

وانقضت فترة من الزمن كانت لقريش وأنصارها فيها اليد العليا. فوجد محمد نفسه بعد عشر سنوات مـن الرسالة رجلاً قد بلغ الخمسين من العمر، وأخفق إخفاقًا تاما في مكة. وكانت زوجته الأولى خديجة قد ماتت، وكان كثيرون من كبار أنصاره ماتوا أيضا قبل ذلك بقليل. فخرج يلتمس الجوار في بلدة الطـائف القريبـة، ولكن للطائف ردته بالأحجار والسباب. حتى إذا أظلمت الدنيا في وجهه كأحلك ما تكون، انفتحت أمامه أبواب الحظ. إذ وجد أنه كان موضع تقدير وإعجاب في مكان لم يكن له بحسبان. ذلك بأن يثرب (المدينـة) كانـت تمزقها الانقسامات الداخلية شر ممزق، وكان كثير من أهلها، اجتذبتهم تعاليم محمد أثناء موسم الحـج إلـى مكة. ولعل اليهود الكثيري العدد في المدينة زعزعوا في قلوب الناس مكانة عبادة الأصنام العتيقة. فأرسـلت إليه الدعوة للحضور ليحكم المدينة باسم ربه [٣].

على أنه لم يذهب من فوره بل راح يتفاوض سنتين، ويرسل الصحابة ليعلموا الناس في المدينة ويحطموا ما بها من الأوثان. ثم أخذ يرسل أتباعه من مكة إلى المدينة لكي يكونوا في انتظاره عند وصوله؛ ذلك أنه لم يشأ أن يسلم نفسه لأنصار مجهولين في مدينة غريبة. واستمر خروج المؤمنين هذا، حتى لم يبق إلا هو وأبو بكر[٤].

وبالرغم من أنه كان مفروضا أن مكة حرم آمن، فإنه أوشك أن يقتل هناك. وواضح أن كبار أهل مكة كانوا على علم بما كان يجري في المدينة، فأدركوا ما يحدق بهم من خطر لو تهيأ لذلك النبـي الخـارج علـيهم أن يسيطر على بلد في طريق قوافلهم الرئيسي إلى سوريا. فلا بد إذن للعرف أن ينثني أمام الضـرورة القـاهرة؛ فأجمعوا أمرهم على أن محمدا (ﷺ) يجب أن يموت، سواء أترتب على ذلك ثأر أم لم يترتب. فدبروا أن يقتلوه في فراشه، ولكي يشتركوا جميعا في إثم خرق قواعد الحرم الآمن المقررة، ندبوا جماعة منهم لتنفيذ ذلك يمثـل أفرادها كل عشيرة في البلدة ما خلا بني هاشم عشيرة محمد. غير أن محمدا كان دبر هجرته من قبـل؛ فلمـا اقتحموا عليه حجرته في سدفة الليل، وجدوا عليا ابنه المتبنى، نائما أو متناوما في فراشه.

---

(١) وكيف يزل وهو المعصوم من الخطأ والواعي لقوله تعالى: **ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثـم لقطعنا منه الوتين** وهو بعد ذلك يبلغ القرآن الذي أخذ ا على نفسه حفظه **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحـافظون** من كل دعاية وكل سوء. (المترجم).

(٢) الواقعة وكل ما تفرع منها محض اختلاق ولم يأت بها إلا مؤرخ واحد هو اليعقوبي. (المترجم).

(٣) ليس في شروط بيعة العقبة ما يؤيد الزعم بدعوته للحكم. (المترجم).

(٤) الصحيح أنه بقي بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام عدد من المؤمنين والمؤمنات، ما لبثوا أن نزحوا إلى المدينة بعد الهجرة. (المترجم)

وكانت الهجرة مليئة بالمخاطر؛ إذ كانت المطاردة شديدة سريعة. وأخذ المدربون من قصاصي الأثر في الصحراء يقصون مواطئ الجمال في شمال مكة؛ على أن محمدا وأبا بكر انطلقا جنوبا إلى بعض الكهوف حيث كانت الإبل والمؤن مخبأة [1]؛ ومن ثم قاما بدورة عظيمة إلى المدينة. حيث وصل النبي ومعه زميله الصديق؛ واستقبلا بحماسة كبيرة في ٢٠ سبتمبر ٦٢٢ م. وكان في ذلك خاتمة ابتلائه وبداية صولته وسلطانه.

(1) ما للمؤلف يتغاضى عما لابس الهجرة من آيات بينات أسهب فيها كتاب السيرة ولم يشذوا في تفاصيلها؟ أين نشاط المكيين في تعقب الفارين، وأين قصة الغار وبقائهما به أياما ثلاثة، وأين ذكر وقوف جماعة من المطاردين بباب الغار وارتدادهم عنه بفضل من ا الذي يتحدث عنه القرآن **إِلا تَنصروه فَقَد نَصره ا ُ إِذْ أَخْرجه الَذِين كَفَروا ثَانِي اثْنَين إِذْ هما فِي الْغَارِ إِذْ يقُولُ لِصاحِبِهِ لاَ تَحزن إِن ا َ معنَا** وأين حديث سراقة الذي جد في طلبه هو وأبي بكر وما كان من غوص قوائم فرسه في الرمل وارتمائه من فوقها وطلبه الأمان من فريستيه المرموقتين لما وضع لرأسيهما من مكافأة مجزية، على أن يتكفل برد الطلب؟ ولكن ليس ينتظر منه – وهو غير المؤمن – أن يورد ما يثبت لمحمد عليه الصلاة والسلام الرسالة والنبوة؟ (المترجم).

٣- محمد (ﷺ) يصبح نبيًا منافحًا[١]

لقد ظلت شخصية نبي الإسلام حتى الهجرة، أي حتى أتم الحادية والخمسين من عمره، موضـوع الحـدس والتخمين والتجاذب والتنازع بين أهل الرأي. فبات من بعدها يسطع عليه ضياء التاريخ. وإنا لنستبين فيه رجلاً أوتي قوة تصورية هائلة، وإن كانت عرجونية على طريقة العرب، ولها أغاب مزايا البدوي ونقائصه[٢].

وكان ابتداء حكمه "بدويا محضا". فإن حكم الإله الواحد إله الأرض طرا – حسب تفسـير محمـد – بـدأ بسلسلة من السرايا على قوافل [٣] مكة، دامت أكثر من عام كامل دون أن تلقى واحدة منها أي توفيـق. ثـم حدث حادث جلل، هو نقض الهدنة العتيقة المسنونة، هدنة الحلف العربي في شهر رجب الحرام. فإن جماعة من المسلمين في موسم السلم الأصيل هذا، هاجموا غدرا قافلة صغيرة وقتلوا رجلاً. وكان ذلك هـو النجـاح الوحيد الذي أصابوه، وقد أتوه بأمر النبي[٤].

ثم نشبت فور ذلك معركة. فإن قوة مكونة من سبعمائة رجل خرجت من مكة لتستقبل في الطريق قافلـة أخرى وتوصلها إليها، فالتقوا بفئة مغيرة كبيرة عدتها ثلاثمائة. وحدث بين الطرفين قتال، هو معركـة بـدر التي انهزم فيها المكيون وخسروا خمسين أو ستين من القتلى وما يعادلهم من الجرحى. وعـاد محمـد إلـى المدينة منتصرا وقد ألهمه الله هذا النجاح، أن يأمر بقتل عدد من خصومه اليهود في المدينة الذين كانوا قابلوا أقواله النبوية باستخفاف غير محمود.

---

(١) عن غزوات الرسول وسراياه انظر كتاب "المغازي" للواقدي طبع جامعة أكسفورد وكلمة Fighting التي استعملها المؤلف لا تعني بالضرورة دائما كلمة "مقاتل" وقد اخترنا منافحا لأنه أكثر الألفاظ انطباقًا على حالة النبي ﷺ وأصحابه وأنصـاره في المدينة، إذ كانوا يذودون عن حقوقهم المسلوبة التي أنكرها عليهم المكيون، فقد أخرجوهم من ديارهم عنوة واسـتباحوا دماءهم وما كان لهم من مال وعتاد، وما كان النبي صلى الله عليه وسلم ومن ورائه المهاجرون ليعبئـوا بحطـام الـدنيا ومتاعها، لكنهم والأنصار معهم في صعيد واحد، ما كانوا لتهدأ لهم ثائرة حتى ينتزعوا من المكيين بالسـلم أو بـالحرب، بالمفاوضة والإقناع أو بالتهديد والبطش، حقوقهم المقررة كسائر الناس في حرية الرأي وحرية العقيدة وحرية العودة إلـى الوطن. (المترجم).

(٢) حاشا أن تكون للنبي نقائص. فلئن كان البدوي إنسانًا عاديا، فإن النبي هو رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى. (المترجم).

(٣) أنكر بعض المتعصبين من كتاب أوروبا هذه السرايا وسموها "غارات، وهي هي صفة المصادرة بعينها التي أقرها "القانون الدولي" وعمل بها قادة الجيوش في جميع العصور ورأينا تطبيقها في الحرب الحاضرة والحرب الماضية – عبقرية محمـد للأستاذ العقاد ص ٦٤. (المترجم).

(٤) ينقل المؤلف ها هنا بعض أقاويل المستشرقين في سرية عبد الله بن جحش التي قال فيها الأستاذ العقاد ما نصه "فهي سرية استطلاع لم تؤمر بقتال ولم يؤذن لها فيه... وقفل عبد الله بن جحش ومن معه إلى المدينة وقد حجزوا للنبي عليه السـلام الخمس من غنيمتهم، فأباه عليه السلام وقال لهم: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام. وعنفهم إخوانهم لمخالفة النبي وساءت لقياهم بين أهل المدينة". ص ٧٨ عبقرية محمد. وظاهر من هذا أن هذه الفعلة لم تكن بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم. وتجمع كتب السيرة كلها على أن السرايا لم يكن القصد الأول والأخير منها غير دفع مكة إلى التسليم للمسـلمين بالمدينـة بحقوقهم التي ذكرناها آنفًا. (المترجم).

على أن مكة صممت على الانتقام لبدر، وأنزلت بأتباع النبي في معركة "أحد" بالقرب من المدينة، هزيمة غير حاسمة. وقد وقع النبي وكاد يقتل، وهرب كثيرون من أتباعه. ومع ذلك فإن المكيين لم ينتفعوا من ميزة غلبتهم بدخول المدينة [١].

ثم تركزت كل طاقات النبي ردحا من الزمان في استثارة أتباعه الذين كانت عزائمهم على ما يبدو قد أصابها الكثير من الفتور ويسجل القرآن الكريم المحنة التي كانت تمر بها المشاعر في تلك الأيام. يقول السير مارك سايكس: "وسور القرآن التي ترجع إلى هذه الفترة، تبز نظيراتها كلها تقريبا في جلالها وروعتها ويقينها الرائع"، وإني لأقدم للقارئ هنا مثالاً يحكم عليه من تلك الآيات الجليلة نقلته عن الترجمة الصحيحة الحديثة التي قام بها مولانا محمد علي [٢] : **يا أيها الذين آمنوا إن تُطِيعوا الذِين كفَروا يردوكُم على أعقابِكُم فتَنْقلِبوا خَاسِرِين * بل ا مولاكُم وهو خَير الناصِرِين * سنُلقِي فِي قُلُوبِ الذِين كفَروا الرعب بِما أَشْركُوا بِا ما لم ينَزلْ بِهِ سلْطَانًا ومأْواهم النار وبِئْس مثْوى الظالِمِين * ولقَد صدقكُم ا وعده إِذْ تَحسونَهم بِإِذْنِهِ حتى إِذَا فَشِلْتُم وتَنَازعتُم فِي الأمر وعصيتُم من بعدِ ما أَراكُم ما تُحِبون مِنْكُم من يرِيد الدنْيا ومِنْكُم من يرِيد الآَخِرةَ ثُم صرفَكُم عنْهم لِيبتَلِيكُم ولقَد عفَا عنْكُم وا ذُو فَضلٍ على الْمؤْمِنِين * إِذْ تُصعِدون ولا تَلْوون على أَحدٍ والرسولُ يدعوكُم فِي أُخْراكُم فَأَثَابكُم غَما بِغَم لكَيلا تَحزنُوا على ما فَاتَكُم ولا ما أَصابكُم وا خَبِير بِما تَعملُون * ثُم أَنْزلَ عليكُم من بعدِ الغَم أَمنَةً نعاسًا يغْشَى طَائِفَةً منكُم وطَائِفَةٌ قَد أَهمتْهم أَنْفُسهم يظُنون بِا غَير الحق ظَن الجاهِلِيةِ يقُولُون هل لنَا مِن الأمر مِن شَيءٍ قُلْ إِن الأمر كُله يخْفُون فِي أَنْفُسِهم ما لا يبدون لك يقُولُون لو كَان لنَا مِن الأمر شَيء ما قُتِلنَا هاهنَا قُل لو كُنْتُم فِي بيوتِكُم لبرز الذِين كُتِب عليهم القَتْلُ إِلى مضاجِعِهم وليبتَلِي ا ما فِي صدورِكُم وليمحص ما فِي قُلُوبِكُم وا علِيم بِذَاتِ الصدور * إِن الذِين تَولوا مِنْكُم يوم التَقَى الجمعان إِنما استَزلهم الشيطَان بِبعض ما كَسبوا ولقَد عفَا ا عنْهم إِن ا غَفُور حلِيم.** (آل عمران).

([١]) ما الذي يدل عليه انتصار موتور ثم تقاعسه عن أن يتابع المهزوم حتى يقضي عليه قضاء مبرما لا تقوم له بعده قائمة؟ ألم يكن المسلمون شوكة في ظهر المكيين وهذا النصر فرصة ذهبية للخلاص منهم نهائيا؟ لا نحسب القارئ، وقد أغضى المؤلف عن هذه المسائل، إلا مدركًا لما بين السطور من أن المكيين قد تكلفوا في هذا النصر خسارة جسيمة أجبرتهم على الرضاء من الغنيمة بالإياب. وجدير بنا أن نقرر هنا أن المعركة في بدايتها وعندما حمي وطيسها كانت تتطور لمصلحة المسلمين وكانت الأحوال كلها توحي بأن المسلمين لا بد منتصرون، لولا أن الرماة بالنبل، وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد أوقفهم على ربوة خلف المسلمين لحماية ظهورهم وأوصاهم ألا يغادروا مكانهم حتى ولو رأوا أن المسلمين يقتلون قتلاً، نسوا وصيته عليه الصلاة والسلام حينما أبصروا المكيين يتزحزحون إلى الوراء تحت ضغط المسلمين فظنوا أن الهزيمة قد حلت بهم وأنه أولى بهم أن ينزلوا إلى الميدان إلى جنب إخوانهم، وعندها فطن خالد بن الوليد – وكان لا يزال على الوثنية وعلى رأس فرسان مكة – إلى أهمية الربوة فاستدار بفرسانه وفاجأ المسلمين برجاله من الخلف، وكذلك وقع المسلمون بين نارين، ومع ذلك فلم يهنوا ولم يضعفوا بل قاتلوا قتالاً مجيدا وأنزلوا بأعدائهم خسارة أعجزتهم كلية عن السير في الشوط إلى نهايته. وهكذا يكون هذا النصر أشبه شيء بالهزيمة إذ لم يقض منه المكيون وطرا، ولم يشف لهم غلة، اللهم إلا قتل نفر من المسلمين وترهم في بدر في كثير من أقيالهم. (المترجم)

([٢]) وهي التي أصدرتها المجلة الإسلامية.

واستمرت المناجزات سجالاً غير فاصلة بضع سنين، وأخيرا بذلت مكة آخر جهودها لكي تخمد إلى الأبد قوة المدينة النامية. فجمعت قوة مختلطة لا تقل عن عشرة آلاف مقاتل – وهي قوة هائلـة بالنسـبة للزمـان والإقليم. وكانت بطبيعة الحال قوة غير نظامية تماما من المشاة والفرسان والجمالة، ولم تكـن مسـتعدة لأي شيء عدا مناوشات الصحراء العادية. وكان كل ما لديها من سلاح هو القسي والحراب والسيوف. فلمـا أن وصلت آخر الأمر وقد أثارت غمامات هائلة من النقع وأصبحت بمرأى من أكواخ المدينة وبيوتها، فبدلاً من أن تجد قوة أصغر منها ومن نفس صنفها مستعدة للنزال كما كان منتظرا، وجدت ظاهرة جديدة أفسدت عليها خططها وحيرتها: هي خندق وسور. ذلك أن محمدا احتمى وراء خندق أنشأه حول المدينة بمشورة فارسـي أسلم [1]!.

فبدا ذلك الخندق لعين الخليط البدوي أشد الأشياء مخالفة لأصول النزال الشـريف والـروح الرياضـية القويمة. فداروا حول المكان راكبين. وأخذوا يتصايحون معبرين للمحصورين عن رأيهم فـي الأمـر كلـه. وأطلقوا بضع سهام، ثم خيموا آخر الأمر لبحث هذه الإساءة الفاحشة. غير أنهم لم يصلوا في شأنها إلى قرار حاسم. فإن محمدا لا يريد أن يبرز إليهم؛ وأخذت الأمطار تهطل، وابتلّت خيام الأحـلاف وأصـبح الطهـي عسيرا، ودب دبيب الخلاف بينهم في الرأي وأخذ صبرهم ينفد، ثم ذوى ذلك الحشد العرمرم مرة ثانية متفرقًا شراذم وثللا، دون أن يتلاحم مع المسلمين في معركة (٦٢٧). فتفرقت الجماعات شـمالاً وشـرقًا وغربـا وجنوبا، وأصبحت ظللا من القتام وزال كل خطر لها. وكان بالقرب من المدينة قلعة لليهـود، كـان محمـد مغضبا من قبل عليهم، لما أبدوه من عدم احترام لعقيدته [2]. وكانوا أظهروا ميلاً إلى الانضمام إلى من خيل إليهم أنهم أصحاب الكفة الراجحة المحتملون في هذا الصراع النهائي، هنالك أطبق محمد عليهم، وذبح كـل الرجال وكانوا تسعمائة، وسبى النساء والأطفال. ويحتمل أن يكون الكثيرون من أحلافهم قبل ذلك بقليل، من بين المساومين على مشتري هؤلاء السبايا والعبيد. ولم يحدث قط بعد ذلك الإخفاق العجيب أن انبعثت مكـة بتحد فعال لمحمد، وأخذ كبار رجالها ينضمون إليه واحدا بعد الآخر.

---

(1) عن وصف إعداد ذلك الخندق وكيف شارك الرسول عليه السلام في حفره بنفسه انظر كتاب "المغازي" للواقدي طبع جامعة أكسفورد ص ٤٤٢ – ٤٤٥. (المترجم)

(2) الواقع أنه كان بين الرسول عليه السلام وبين قريظة عهد نقضه أولئك عندما أحاطت الأحزاب بالمدينـة إذ تراسـلوا مـع قريش وأخذوا يلقون الرعب في المدينة وأعدوا جيوشهم للانقضاض على جيوش المسلمين من الخلف. حيـاة محمـد ص ٣٠١ طبعة أولى. سيرة ابن هشام جـ٣ ص ٢٢٩ – ٢٧٤، وفيها ذكر للعهد بين النبي صلى ا عليه وسلم وبنى قريظـة ونقضهم لعهدهم الذي عاهدوا عليه وانحيازهم إلى الأحزاب وتهديدهم مؤخرة المسلمين بفتح ثغرة في تحصيناتهم للأحزاب ليثبوا منها على المسلمين وكل ذلك خيانة عظمى، ومع أن النبي صلى ا عليه وسلم قد بعث إليهم يذكرهم بالعهد ويطالـب إليهم التقيد به فقد أجابوا رسله بخلع النقاب والتنكر للمسلمين وسب الرسول علنا وإصـرارهم علـى مـؤازرة الأحـزاب أحلافهم الجدد ضد المسلمين، فهل يرجى من أحد بعد هذا كله أن ينسى هذه الفعلة الشنيعة وألا يعاقـب عليهـا بمثلهـا؟. (المترجم).

ولسنا بحاجة إلى تتبع دورات الهدنة والمعاهدة التي انتهت آخر الأمر بمد سلطان النبي إلى مكة. وكانت خلاصة الاتفاق أن يتجه المؤمنون نحو مكة عندما يصلون، بدل أن يولوا وجوههم شطر بيت المقدس، كما كانوا يفعلون حتى ذلك الحين، وأن تكون مكة مركز الحج للدين الجديد. وما دام رجال مكة قد ضمنوا استمرار تدفق الحجيج إلى بلادهم، فالظاهر أنهم لم يكن يعنيهم كثيرا، هل يجتمع الناس باسم إله واحد أم آلهة كثيرة. وأخذ اليأس من تحويل أي عدد كبير من المسيحيين واليهود إلى الإسلام يدب إلى محمد دبيبا متزايدا، فأنشأ يكف عن التشديد على فكرته القائلة بأن كل هذه العقائد إنما تعبد في الحقيقة ربا واحدا. "فا " قد أخذ يصبح شيئًا ربه الخاص به، وخاصة وقد أصبح الآن بهذه المعاهدة مقيدا بحجر الكعبة النيزكي، كما أخذ يبعد قليلا؟ عن أن يكون ربا وأبا للبشرية جمعاء [1]. وكان النبي أظهر بالفعل ميلاً إلى أن يعقد مع مكة صفقة، وها قد تمت الصفقة آخر الأمر. وكانت السيادة على مكة تستحق بذل هذا التساهل [2]. ولسنا بحاجة إلى الكلام عن الغدوات والروحات وعن نزاع أخير حدث بين الطرفين. وصفوة القول إن محمدا دخل مكة في ٦٢٩ سيدا مطاعا وحطم صنم مناف – وهو الرب الذي سمي ابنه يوما ما باسمه – فهوى تحت قدميه وهو يدخل الكعبة [3].

([1]) إن هذا الذي نقله المؤلف هو رأي المستشرقين، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يحد قط عن نصوص التنزيل التي تنص جميعها على الاعتراف بالأنبياء جميعا وأن ا رب العالمين كافة. وكيف يسوغ لمحمد صلى ا عليه وسلم أن يختص نفسه با ربا من دون الناس، وهو الذي يخفض جناحه للمسيحيين واليهود على السواء. ويستثنيهم من وصمة الكفر ويدعوهم أهل الكتاب أي (التنزيل من عند ا). وما ذلك إلا لأنهم يقرون بالعبودية كالمسلمين سواء بسواء. وإن يكن المؤلف يقصد قوله تعالى **لَقَدْ كَفَرَ الذِين قَالُوا إِن ا َ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ** فذلك هو ما يتفق تماما مع وحدانية ا المجردة التي ظل يدعو إليها طوال رسالته والتي خاطب بها القرآن المسيحيين واليهود في مجتمع المدينة في قوله تعالى : **قُلْ يا أَهلَ الْكِتَابِ تَعالَوا إِلى كَلِمةٍ سواءٍ بينَنَا وبينَكُم أَلا نَعبد إِلا ا َ ولا نُشْرِك بِهِ شَيئًا ولاَ يتخِذَ بعضنَا بعضًا أَرباباً من دون ا ِ فَإِن تَولوا فَقُولُوا اشْهدوا بِأَنا مسلِمون .** (المترجم).

([2]) نسجل على المؤلف هنا هذا الاعتراف الصريح إذ إن ذلك يبين بجلاء ما كان النبي عليه أفضل الصلاة والسلام يحرص عليه جد الحرص من حقن الدماء وغلبة العقل والحكمة فتثوب مكة إلى رشدها وتخلي بين المسلمين وبين حقوقهم المشروعة المباحة لغيرهم من حرية الرأي والعبادة دون عنت ولا إعنات. فلما وجد عليه الصلاة والسلام أن مكة قد أصمت آذانها وأعماها الكبر وصدها عن السبيل القويم وتمادت في طغيانها حتى حاولت قتله فلما فاتها ذلك أهدرت دمه، هجر موطنه وهاجر إلى المدينة، وفيها حاول بكل ما أوتي من قوة أن يظهر لمكة أن المسلمين قوة تستطيع التنكيل بها وبمصالحها المادية عساها تفيق من غفلتها وتتصالح مع المسلمين وتكف عن أذاهم وتتركهم وشأنهم يدعون إلى دينهم ويزاولون عبادة ا وحده على طريقتهم المثلى، ولكنها أبت إلا الاسترسال في غيها والمبالغة في كيدها وتأليب العرب لنصرتها ولم يسع النبي صلى ا عليه وسلم مع هذا إلا أن يرد القوة بالقوة وما زال يفعل حتى كسرت شوكة مكة وتقوضت دعائم شركها وبان ضعفها فخفض لها جناح رحمته وبسط لها يد السلم التي انقبضت عنها من قبل يدها حمية واستكبارا. ولعل القارئ إذا رجع إلى صلح الحديبية وما تم فيه واجد فيما ظهر به النبي عليه الصلاة والسلام من روح الإنسانية الكاملة ما يؤكد له إفاضة ما أوجزناه هنا. (المترجم).

([3]) ليس بين أبناء النبي كما أسلفنا من يسمي بعبد مناف قط ولا ندري من أين جاء المستشرقون الذين نقل عنهم المؤلف بهذه الفكرة. (راجع مقدمة أسد الغابة في أخبار الصحابة وسيرة النبي وذكر أولاده وأزواجه). (المترجم).

ومن ثم أخذ سلطانه يمتد، وحدثت معارك وخدع ومذابح؛ بيد أن الغلبة كانت له على الجملة، حتى دانـت له في النهاية بلاد العرب قاطبة؛ حتى إذا تمت له السيادة على كل بلاد العرب في ٦٣٢، انتقل إلى الرفيـق الأعلى وهو في الثانية والستين.

وليس في سيرته أثناء السنوات الإحدى عشرة التي ختمت بها حياته بعد الهجرة غير القليل ممـا يفـرق سلوكه العام عن سلوك أي شخص يجمع شتات الشعوب في كنف حكم ملكي موحد. والفـارق الوحيـد هـو استعماله الدين الذي جاء به، مادة يشد بها أجزاء مملكته بعضها إلى بعض. كـان يسـتخدم الدبلـوماسية ويدارى تارة ويقسو ويشتد أخرى، أو يتساهل ويلـين، حسـبما تقتضـي المناسـبة والظـرف [1]، كـأي ملك [2] عربي قد يوجد في مكانه؛ وكانت ملكيته تضم بصورة فريدة قدرا طفيفًا من الروحانية [3]. كذلك لـم تكن حياته المنزلية إبان فترة سلطانه وقدرته على التصرف، خير أنواع الحياة ولا أسعدها. وهو يبدو حتـى

([1]) ما كانت المداراة ولا القسوة من صفاته البتة صلوات ا عليه، وإن المؤلف ليناقض نفسه في فصل تال حين يـذكر قـدرة الرسول عليه الصلاة والسلام على اجتذاب صداقة الأصدقاء والاحتفاظ بهم، وهذا لعمري أمر لا يتأتى إلا لمن كـان حقًـا على خلق عظيم أبعد ما يكون من المداراة والقسوة، ولسنا نجد أبلغ في الرد على هذا القول من قول العلـي الكـريم فـي مخاطبة نبيه الأمين:

فَبِما رحمةٍ من ا ـ لِنتَ لهم ولو كُنتَ فَظا غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضوا مِن حولِكَ ، وقوله تعالى وهو أصدق القائلين: **وإنك لعلى خُلُقٍ عظِيمٍ** . (المترجم).

([2]) ليس أدل على خطأ هذه الفكرة من قصة الأعرابي الذي قال للنبي "أنت سيدنا" فأجابه عليه السلام "السيد ا تبارك وتعالى". (المترجم)

([3]) هذه تهمة يحب المبشرون أن يلصقوها بالإسلام مكابرة منهم وتعصبا وقد دحضها الأستاذ الإمام محمد عبده، فليرجع القارئ إلى ما كتبه فيها رحمه ا ، ويتزود به. وأية روحانية أكبر من أخذ الناس جميعهم، غنيهم وفقيـرهم، قـويهم وضـعيفهم، أميرهم وحقيرهم بما شرعه القرآن الكريم من إقامة الصلاة والصوم وإيتاء الزكاة والجهاد في سبيل ا ونعني بذلك جهـاد النفس الأمارة بالسوء بالإضافة إلى جهاد الكفار أعداء ا ، وتطهير النفس من أدران الفساد المادي وحملهم حملاً على نبـذ الرذائل والتحلي بالفضائل وبخاصة الصدق والحلم والعلم والتواضع والرحمة والإخاء في ا والمساواة المطلقة والصـبر وإنكار الذات ونبذ المادة وما تغري به، إلا بما يقوم بالأود ويقضي ضرورات الحياة، والإيمان با إيمانًا صادقًا صـادرا من أعماق قلب عامر بحبه عالم بأنه معه في السر والعلن **يعلم خَائِنَةَ الأعين وما تُخْفِي الصدور** ، **وابتَغِ فِيما آتَـاك ا ُ الدار الآخِرةَ ولا تَنس نَصِيبكَ مِن الدنْيا وأَحسِن كما أَحسن ا ُ إِليك ولا تَبـغِ الفَسـاد فِـي الأرضِ إِن ا َ لا يحِـب المفْسِدِين** كما أن رسول ا عليه الصلاة والسلام ظل طوال حياته لا يبني لحظة ولا يترك فرصة إلا ويذكر الناس فيها با والآخرة والحساب والثواب والعقاب ويضرب لهم الأمثال بنفسه قولاً وعملا فهو الصادق الأمين البر الرحيم الصـابر المتوكل الخافض جناحه للمؤمنين، المؤثر على نفسه، الكاظم الغيظ، الواثق بربه، العامل بوحيه وأوامره. وقصارى القـول إنه كان الإنسانية الكاملة حية ناطقة وقد لخصها ا تعالى في قوله **وإنك لعلى خُلُقٍ عظِيمٍ** . ومن ثم حضـه تعـالى الناس على اقتفاء أثره وترسم خطاه: لَقَد كان لَكُم فِي رسول ا ـ أُسوةٌ حسنَةٌ ولعمر الحق إن ذلك كله لقليل من كثيـر مما كان عليه الرسول صلوات ا عليه وما كان عليه أصحابه الأقمار النيرة من قوة روحية لا تغالب، بما استحقوا به أن يحظوا بملكوت السموات الذي لا نجد له في الإنجيل والتوراة مؤهلات روحية أبلغ وأسمى وأبعد أثرا مما جاء بـه عليـه الصلاة والسلام وأخذ به نفسه وأهله وأصحابه ومن دخل في دينه دون تفريق أو تمييز. (المترجم).

وفاة خديجة، يوم كان في الخمسين، الزوج المخاص لامرأة واحدة – ولكنه عاد عند ذلك – كما يفعل الكثيرون من الرجال عندما تعلو بهم السن [1] – فأظهر بالنساء اهتماما قويا.

فتزوج زوجتين بعد وفاة خديجة، كانت إحداهما الصغيرة عائشة، التي أصبحت وظلت شريكته الأثيرة صاحبة السلطان الأكبر عليه. ثم أضاف إلى أهل بيته عددا من نساء أخريات، ما بين زوجات وإماء. وأدى هذا إلى كثير من المتاعب والاضطراب، وبالرغم من نزول آيات كثيرة حول هذا الموضوع، فإن هذه التعقيدات لا تزال تستلزم من المؤمنين الكثير من التفسير والنقاش.

وقد كان هناك مثلاً قصة حول السيدة عائشة؛ فإنها خُلّفت في ظرف ما على حين تابع الهودج والجمل السير بينما كانت تبحث عن عقدها بين الشجيرات؛ وذا صار لزاما أن ينزل الله الآيات القوية ويدمغ المتقولين بالإفك[2]. ثم نزلت الآيات أيضا فيما غاب على بيت النساء هذا من تلهف على "الحياة الدنيا وزينتها" وعلى "التمتع بالرفاهية". ثم هبت عاصفة جدل قوية لأن النبي زوج في البداية ابنة عمته زينب بنت جحش من ابنه المتبنى زيد، **فلما قضى زيد منها وطرًا** أخذها النبي وتزوجها – ولكن الأمر كما يوضحه التنزيل، إنما كان فقط بقصد إظهار الفرق بين الابن المتبنى والابن الحقيقي. **...زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرًا وكان أمر الله مفعولاً** ومع ذلك فمن المحقق أن آية بسيطة في القرآن [3] كانت تُغني عن هذه المظاهرة العملية الشديدة. وحدث بالإضافة إلى هذا تمرد في الحريم بسبب

---

(1) "ولو كانت لذات الحس هي التي سيطرت على زواج النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاة خديجة لكان الأحجى بإرضاء هذه الشهوات أن يجمع النبي إليه تسعا من الفتيات الأبكار اللاتي اشتهرن بفتنة الجمال في مكة والمدينة والجزيرة العربية، فيسرعن إليه راضيات فخورات، وأولياء أمورهن أرضى منهن وأفخر بهذه المصاهرة التي لا تعلوها مصاهرة. لكنه لم يتزوج بكرا قط غير عائشة رضي الله عنها، ولم يكن زواجه بها مقصودا في بداية الأمر حتى رغبته فيه خولة بنت حكيم التي عرضت عليه الزواج بعد وفاة خديجة.

أما سائر زوجاته عليه الصلاة والسلام فما من واحدة منهن – رضي الله عنهن – إلا كان لزواجه بها سبب من المصلحة العامة أو من المروءة والنخوة دون ما يهذر به المرجفون من لذات الحس المزعومة" (عبقرية محمد للعقاد، ص ٢٠٠ – ٢٠٢).

(2) يقول السير وليم موير تعليقًا على هذا الحادث ما ترجمته: "إن حياة عائشة قبل هذا الحادث وبعده تدعونا إلى القطع ببراءتها وعدم التردد في دحض أية شبهة أثيرت حولها". "حياة محمد". على أننا لا نجد ردا أبلغ ولا أقطع للشك بيقين من قوله تعالى: **إن الذين جاءوا بالإفك عصبةٌ منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئٍ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم * لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا وقالوا هذا إفك مبين * لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون * ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم * إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم * يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدًا إن كنتم مؤمنين * ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم * إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشةُ في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون** (سورة النور) (المترجم).

(3) لم يكن الرسول كما تصور المبشرون "رجلاً يأخذ بعقله الهوى... فلم يعرف عنه. في حياة خديجة ولم يعرف عنه قبل زواجه منها أنه كان ممن تغريهم مفاتن النساء في وقت لم يكن فيه على النساء حجاب. (حياة محمد) للدكتور هيكل.

المحبة الزائدة التي أظهرها النبي لجارية مصرية، ولدت له غلاما [١] – وهو غلام كان يحنو عليـه حنـوا شديدا، ذلك أن لم يعش له واحد من أبناء خديجة. وكل هذه المتاعب المنزلية تمتزج أعظم امتزاج بتصـورنا لشخصية النبي. وكانت – صفية – إحدى زوجاته يهودية [٢]، تزوجها ليلة المعركة التي قبض فيهـا علـى زوجها وقتل. إذ استعرض السبايا في آخر النهار، فراقت نظره وحملت إلى خيمته.

هذه وقائع بارزة في هذه الإحدى عشرة سنة من حياة محمد.

هذا وليس عدلاً أن نتخذ الغلو لنا رائدا، فمن الناحية الأخرى هل تراك علمت قط بأن رجلاً علـى غيـر كريم السجايا مستطيع أن يتخذ له صديقًا؟ ذلك أن من عرفوا محمدا أكثر من غيرهم كانوا أشد الناس إيمانًـا به. وقد آمنت به خديجة طوال حياتها – على أنها ربما كانت زوجة محبة. وأبو بكر شاهد أفضل، وهو لـم يتردد قط في إخلاصه. كان أبو بكر يؤمن بالنبي، ومن العسير على أي إنسان يقرأ تاريخ تلك الأيام ألا يؤمن بأبي بكر. وكذلك علي، فإنه خاطر بحياته من أجل النبي في أحلك أيامه. لم يكن محمد دجالاً بأية حال، وإن كان اعتداده بنفسه يدعوه في بعض الأحيان أن يتصرف كأنما كان ا رهن إشارته؛ وكأنما أفكاره بالضرورة أفكار ا [٣].

ويقول الأستاذ العقاد ما نصه: وكانت للنبي زوجة أخرى وسمت بالوضاءة والفتاء وهي زينب بنت جحش ابنـة عمتـه عليـه السلام التي زوجها زيدا بن حارثة بأمره وعلى غير رضا منها، لأنها أنفت – وهي ما هي في الحسب والقرابة من رسول ا – أن يتزوجها غلام عتيق. هذه أيضا لم يكن "للذات الحس" المزعومة سلطان في بناء النبي بها بعد تطليق زيد إياهـا وتعذر التوفيق بينهما، ولو كان للذات الحس سلطان في هذا الزواج لكان أيسر شيء على النبي أن يتزوجهـا ابتـداء ولا يروضها على قول زيد وهي تأباه. فقد كانت ابنة عمته يراها من طفولتها ولا يفاجئه من حسنها شيء كـان يجهلـه يـوم عرض عليها زيدا وشدد عليها في قبوله. فلما تجافى الزوجان وتكررت شكوى زيد من إعراضها عنـه وترفعهـا عليـه وغلاظها بالقول له كان زواج النبي بها "حلا لمشكلة" بيتية بين ربيب في منزلة الابن وابنة عمة أطاعته في زواج لم يقرن بالتوفيق. (عبقرية محمد ص ٢٠١) للعقاد.

(١) انظر للرد على ذلك في حياة محمد ص ٤١٦، ٤١٧ للدكتور محمد حسين هيكل.

(٢) "وكان إعزاز من ذلوا بعد عزة سنة النبي عليه السلام في معاملة جميع الناس ولا سيما النساء اللاتي تنكسر قلـوبهن فـي الذل بعد فقد الحماة والأقرباء، ولهذا خير صفية الإسرائيلية سيدة بني قريظة بين أن يلحقها بأهلها أو أن يعتقها ويتزوج بها فاختارت الزواج منه عليه السلام" عبقرية محمد ص ٢٠٤. فكأنه عليه السلام لم يتصرف إزاءها تصرفًا يتنافى مع ما فطر عليه من خلق كريم وذوق سليم ورحمة بالضعفاء. (المترجم)

(٣) المفروض أن المؤلف لا يؤمن برسول ا صلى ا عليه وسلم وقد رأينا أن نترك هذا القول وغيره ليطلع عليه المسلمون ويتجهوا إلى دحضه والرد عليه بما يعرفون عن نفس الرسول صلى ا عليه وسلم من روحانية وقدسية وتواضع ورحمة إلى غير ذلك مما جمعـه ا جلت صفاته في نعته نبيه العظيم بأنه لا ينطق عن الهوى، ولو رجعت إلى تاريخ الرسول بأكمله لرأيت أن المؤلـف قـد تنكـب طريق الحق والإنصاف إذ لم تكن للنبي عليه الصلاة والسلام صفة واحدة مما تفضل بها المؤلف عليه، بل الأمر على النقيض من ذلك إذ كان النبي صلوات ا عليه الفضائل الكونية كلها في صورة حية كما أن القرآن الكريم الذي أنزل عليه قد نهى جزما وصراحة عن الرذائل كلها ومن بينها تلك التي عددها المؤلف ولا يمكن لعقل بشر أن يتصور خروج محمد عليه الصلاة والسلام على ذرة مما نزل به القرآن خاصة وهو القائل **"أدبني ربي فأحسن تأديبي"**. فضلاً عن أن أحدا من الرواة لم يرو البتة أنه عليه السلام ند يوما عما أدبه به ربه، ولا أن أحدا من صحابته أخذ عليه يوما شيئًا من هذا الذي ينتقده المؤلف، فكأن كل أعماله صلوات ا عليه كانت مما يقبلـه الذوق السليم في عصره. (المترجم).



ولئن كانت رغبته في صفية يوم مقتل زوجها تدهش عقولنا العصرية، فإن حبه لإبراهيم الصـغير ابـن مارية المصرية وحزنه المفرط عندما توفي الطفل، ليحله مكانة الزمالة مع كل أولئك الذين خبـروا عاطفـة الحب ولوعة الحرمان.

وهو حين سوى التراب فوق القبر الصغير بيديه قال "**إنها لا تضر ولا تنفع، ولكنها تقر عين الحي، وإن العبد إذا عمل عملاً أحب ا أن يتقنه**".

٤- تعاليم الإسلام

على أن سمات محمد الشخصية [1] شيء، وصفة الإسلام – تلك الديانة التي أسس – شيء آخر. لم يناصب محمد يسوعا أو ماني أي عداء. ولكن الإسلام هو الذي ناهض مسيحية القرن السابع الفاسدة، وتقاليد المجوس الزرادشتية المنحلة، وهي الأمور التي يعنى بها المؤرخ أعظم ما يعنى، وسواء أكان الأمر بفضل النبي (صلى ا عليه وسلم)، أم بسبب صدف وملابسات معينة لنشأة الإسلام وصفات بعينها في الصحراء التي منها نشأ، فلا مجال هناك لإنكار أن الإسلام يمتاز بكثير من الصفات الممتازة النبيلة.

وقد حج محمد حجة الوداع من المدينة إلى مكة قبل وفاته بعام في آخر السنة العاشرة للهجرة. وعند ذاك ألقى على شعبه موعظة عظيمة، ينقلها إلينا التواتر كما يلي. وبدهي أن هناك خلافًا حول الألفاظ.. ولكن ليس ثمة نزاع في أن عالم الإسلام، وهو عالم به مع ذلك ثلاثمائة مليون نفس، يتقبلها حتى اليوم قاعدة لحياته ويعمل بها إلى حد كبير. وسيلحظ القارئ أن أول فقرة في الخطبة تجرف أمامها كل ما بين المسلمين من نهب وسلب ومن ثارات ودماء. وتجعل الفقرة الأخيرة منها، الزنجي المؤمن عدلا للخليفة. وربما لم تكن تلك الكلمة رفيعةً [2] رفعة بعض أقوال يسوع الناصري، بيد أنها أسست في العالم تقاليد عظيمة، للتعامل العادل الكريم، وإنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة، كما أنها إنسانية السمة ممكنة التنفيذ. وقد أنشأت مجتمعا أكثر تحررا من أي مجتمع آخر سبقه، مما عمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي. قال:-

"أيها الناس: اسمعوا قولي؛ فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا. أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، كحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلّغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون، قضى ا أنه لا ربا، وإن ربًا العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس [من] أن يعبد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنه إن يطلع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم. أيها الناس إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا، يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا، ليواطئوا عدة ما حرم ا ، فيحلوا ما حرم ا ويحرموا ما أحل ا . وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق ا السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند ا اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم – ثلاثة متوالية، ورجب مفرد الذي بين

([1]) أسلفنا الرد على مزاعم المؤلف والمستشرقين فيما يتعلق بشخص الرسول عليه السلام وما نرى داعيا إلى تأكيد أن الرسول هو روح الإسلام وقائده وهاديه فجميع أعماله هي السنة وجميع تصرفاته هي الأسوة وجميع أقواله هي الأحاديث النبوية الشريفة ولا يمكن عقلاً الفصل بين نبي رسول وبين رسالته النبوية. (المترجم)

([2]) للقارئ أن يحكم بعد أن يقرأ الخطبة، على روعة ألفاظها وعباراتها وما اشتملت عليه من جوامع الأخلاق ونبيل الأفكار ورفيع المبادئ. (المترجم).

جمادي وشعبان. أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقًا ولهن عليكم حقًا، لكـم علـيهن ألا يـوطئن فراشكم أحدًا تكرهونه وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن ا قد أذن لكم أن تهجـروهن فـي المضاجع، وتضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسـوتهن بـالمعروف، واستوصـوا بالنساء خيرًا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانـة ا ؛ واسـتحللتم فروجهن بكلمات ا . فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلّغت؛ وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم بـه فلـن تضلوا به أبدًا، أمرًا بينًا: كتاب ا وسنة نبيه. أيها الناس: اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفـس منـه، فـلا تظلمـن أنفسكم. اللهم هل بلّغت؟".

فهذا الإلحاح على تبادل الرفق والرعاية بين الناس في الحياة اليومية إنما هو واحد من فضـائل الإسـلام الكبرى، بيد أنه ليس الفضيلة الوحيدة فيه، ويعادل هذا في الأهمية التوحيد الذي لا هوادة فيه، والذي يتجـرد من كل ما جاء به اليهود من استئثار با ، وهو توحيد يدعمه القرآن الكريم. وكان الإسلام منذ البداية قاطعـا مانعا إلى حد بعيد لكل الإضافات والتفصيلات اللاهوتية التي أربكت المسيحية وفرقت كلمتها وغطت بالدخان على روح يسوع. وكان مصدر قوته الثالث تحديده الدقيق لطرائق الصلاة والعبادة، وبيانـه الصـريح عـن المغزى العرفي المحدود للأهمية المنوطة بمكة. وأقفل دون المؤمنين باب كل قربان، ولم يترك سـم خِيـاط مفتوحا ينفذ منه كاهن القربان في الغفران القديم ويعود بذلك إلى مسرح العقيدة الجديدة. لم تكن مجرد عقيدة جديدة ولا ديانة نبوية خالصة، كما كانت عقيدة يسوع أيام يسوع. أو ديانة جوتاما في أيـام حيـاة جوتامـا، ولكنها وضعت بحيث تظل على حالها دون تغيير. ولا يزال للإسلام حتى يومنا هذا فقهاء معلمون ووعـاظ. ولكن ليس له كهنة ولا قساوسة.

كان دينًا مليئًا بروح الرفق والسماحة والأخوة؛ وكان عقيدة سهلة يسيرة الفهم؛ كان دين فطـرة تحـوي مـا للصحراء من عواطف الفروسية؛ وكان يتوجه بمناشدته المباشرة إلى أشيع الفطر الغالبة على تكـوين الرجـال العاديين. وقد ناصبته اليهودية عداء مريرا، وهي التي اتخذت من الرب كنزا عنصريا تكتنزه لجنسها. كما تألبت عليه المسيحية وهي التي كانت تتكلم وتبشر آنذاك وبلا نهاية بالتثاليث وقوانين الإيمان والهرطقات التي لم يكن أي رجل عادي ليستطيع أن يميز فيها الرأس من الذنب؛ كما حاربته المزدكية نحلة المجوس الزرادشتيين الذين أوحوا بصلب ماني. ولم تكن كتلة الناس الذين جاءتهم دعوة الإسلام وتحديه يهتمون إلا بشيء واحد هو أن ذلك الـرب (ا) الذي كان يبشر به الرسول، كان بشهادة الضمير المنطوية عليه قلوبهم، رب بر وهدى وتقوى، وأن القبول الشريف لمبادئه وطريقته يفتح الباب على مصراعيه – في عالم طافح بالتقلقل والخيانة والانقسامات التي لا تسامح فيها – على أخوة عظيمة متزايدة بين رجال جديرين بالثقة في هذه الدنيا، وعلى فردوس لا يأخذ الناس فيه أنفسهم بالسرمدي المتواصل مع التسبيح والعبادة، على حين يكون فيه القديسون والقسوس والملوك المعمدون لا يزالـون يحظون بالدرجات العلا، وإنما تقوم فيه الزمالة المتكافئة والملذات البسيطة اليسيرة الفهم من أمثال تلك التي تتلهف عليها نفوسهم. وقد أوصل محمد (ﷺ) هذه المبادئ الجذابة إلى سويداء قلوب البشرية، دون أن يلجـأ إلـى أيـة رمزية مبهمة ودون أي تعتيم للهياكل ولا ترتيل للقسوس.

٥- الخليفتان أبو بكر وعمر

إن روح الإسلام الحقة لم تتجسد في محمد (ﷺ) فقط، وإنما في صديقه الحميم ونصيره أبي بكر. ولا يقوم أدنى شك في أنه إن كان محمد هو العقل المفكر والخيال الخصب للإسلام البدائي، فقد كان أبو بكر ضميره وإرادته. ففي كل أيام حياتهما معا كان محمد هو الذي يقول الشيء، فيؤمن به أبو بكر أوثق الإيمان. فإذا داخل محمدا شيء من التردد [1] سارع أبو بكر إلى مساندته. كان أبو بكر رجلاً عامر النفس باليقين، خلوها من الشكوك، وكانت معتقداته تقطع قطعا حاسما وتتمخض كسكين شاحذة – عن أفعال جازمة. وما يخالجنا إلا شديد التأكد في أن أبا بكر ما كان ليداري أو يصانع حيال أرباب مكة الأصاغر ولا كان بحاجة إلى الوحي ليفسر للناس تصرفاته في حياته الخاصة [2]. فلما أن مرض النبي بالحمى في السنة الحادية عشرة للهجرة (٦٣٢) وانتقل إلى الرفيق الأعلى، كان أبو بكر هو الذي أعقبه خليفة له وإماما للناس، وكانت ثقة أبي بكر التي لا تتزعزع في ا وبره وهداه. هي التي منعت الشقاق بين مكة والمدينة؛ وهي التي أخمدت فتنة واسعة النطاق أثارها الأعراب البدو على ضريبة الزكاة المجبية للصالح العام، وهي المسماة "حرب الردة"؛ وهي التي دعته أن ينفذ إلى سوريا حملة غزو كان النبي الراحل أعدها. ثم أنشأ أبو بكر، بذلك الإيمان الراسخ الذي يزحزح الجبال وتلك البساطة النقية والعقل الراجح، ينصب نفسه لتنظيم إخضاع العالم بأسره لحكم ا وإرادته – بجيوش صغيرة يتألف كل منها من ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ عربي – أخذًا بتلك الرسائل التي بعث بها النبي (ﷺ) من المدينة في (٦٢٨) لكل ملوك العالم.

وأوشكت المحاولة أن تؤتي ثمارها. ولو قيض للإسلام عشرون رجلاً من طينة أبي بكر وممن يصغرونه سنًا فواصلوا عمله لنجح على التحقيق في بلوغ تلك الغاية. وما قارب الإسلام هذا النجاح وأوشك أن يبلغه إلا لأن بلاد العرب كانت آنذاك مركزا للإيمان والعزيمة، ولأنه لم يكن هناك في أي مكان آخر في العالم حتى حدود الصين، اللهم إلا في سهوب الروسيا أو التركستان، مجتمع آخر من رجال أحرار الأرواح لهم أي قوة من إيمان بحكامهم وزعمائهم. ذلك أن عظيم الإمبراطورية البيزنطية هرقل قاهر كسرى الثاني (أبرويز)، قد انحدر عن أوج مجده ونالته علة الاستسقاء، وأنهكت الحرب الفارسية الطويلة إمبراطوريته. وكانت فارس متردية في الحضيض الأوهد من دركات انحطاط الملكية. فإن قباذ الثاني قاتل أبيه لقي حتفه بعد حكم دام أشهرا قليلة، وحدثت سلسلة من المؤامرات على العرش ومن أحداث الاغتيال المثيرة للمشاعر فملأت حياة القصر نشاطًا، ولكنها أضعفت قوة البلاد.

---

(1) سبق أن رددنا على المؤلف في مثل هذه النقاط فلا داعي للتكرار والعصمة للأنبياء في أداء الرسالة مكفولة بجميع النصوص المنزلة. (المترجم).

(2) كل هذه أمور سبق الرد عليها فليرجع إليها القارئ.

ثم إننا لا ندري ما دخل هذا كله بالرسول عليه السلام أو بالعقيدة التي جاء بها الرسول ما دامت العقيدة لم تتأثر أولاً وأخيرا بأي شيء مما يأخذه المؤلف ويدعيه المستشرقون وأعداء النبي والإسلام في قديم الزمان وحاضره. إن محمدا هو رسول الإسلام وفكره ومتلقي وحيه وصاحب سنته، ولا يمكن أن تنفصل الفروع الأصول. (المترجم).

ولم تنته الحرب بين فارس والإمبراطورية البيزنطية بصفة رسمية إلا قرابة بداية حكم أبي بكـر. وكـان كلا الطرفين يستخدم الجنود المرتزقة العرب أوسع استخدام؛ وانتشرت في أرجاء سوريا عـدد مـن المـدن والمستقرات للعرب المتنصرين ممن يدينون للقسطنطينية بولاء ليس له من أساس؛ وكانت منـاطق التخـوم الفارسية الممتدة بين أرض الجزيرة والصحراء تحت نفوذ أمير عربي تابع للفرس، مقر إمارته الحيرة. وكان سلطان العرب قويا في مدن من أمثال دمشق، حيث كان السادة من مسيحي العرب يقرءون وينشدون أحـدث ما ينتجه المتبارون من الشعراء في الصحراء من القصيد. وبهذا كانت في متناول الإسلام مقادير وفيرة مـن المواد اليسيرة التمثل مهيأة لتقبل دعوته.

والحملات العسكرية التي بدأت عند ذاك من ألمع ما خلّد تاريخ العالم. فقد أصبحت بـلاد العـرب علـى الفجاءة بستانًا مونقًا من رجال ممتازين ويبرز اسم خالد بينهم أزكى نجم وأسطعه فـي نخبـة مـن القـواد المسلمين المقتدرين الأتقياء. فحيثما حل قائدا لجيش كان النصر حليفه، ولما أن دفعت الغيرة الخليفة عمر بن الخطاب إلى خلعه – ظلما منه لا يغتفر – لم يحدث أية ضجة، بل راح يخدم الله في سرور وإخلاص تحـت إمرة الذين كان كبيرا عليهم [1]. ولسنا بمستطيعين أن نتتبع قصة هذه الحروب ها هنا؛ وبحسبنا أن نقـول إن الجيوش العربية وجهت ضرباتها في نفس الوقت إلى سوريا البيزنطية ومدينة الحيرة على التخوم الفارسـية، وكانوا في كل مكان يخيرون الناس بين أمور ثلاثة: فإما أن تدفع الجزية، وإما أن تؤمن بالله الحق وتنضـم إلينا، وإما أن تقتل. فالتقوا بجيوش كثيرة، جيوش كبيرة ومنظمة ولكنها جيوش جوفاء لا روح فيها فهزموها. ولم يحدث في أي مكان أن قوبلوا بشيء اسمه المقاومة الشعبية. فإن سكان أراضي الري والزراعة الآهلة في أرض الجزيرة بالعراق، لم يكن ليعنيهم قلامة ظفر أيدفعون الضرائب إلـى بيزنطـة أو برسـيبوليس [2] أو المدينة؛ فإن فاضل الناس بين البلاط الفارسي وبين العرب، كان العرب، أعني عرب السنين العظيمة، أنظف الطرفين وأطهرهما بشكل ظاهر؛ وكانوا أوسع رحمة وأكثر عدلاً. وانضم العرب المسيحيون دون تردد إلى الغزاة كذلك انضم إليهم كثير من اليهود. وكما كان الحال في الغرب كان كذلك في الشرق، إذ كـان الغـزو يتحول إلى ثورة اجتماعية. ولكنها كانت ها هنا ثورة دينية أيضا لها حيوية ذهنية جديدة متميزة.

---

(1) يقول شورتز في تاريخ العالم (هلموت) إن حياة ذلك البطل الخاصة كانت تنطوي على وصمة. فإنه ارتكب الفسـق وهـي خطيئة خطيرة في مجتمع يبيح تعدد الزوجات. (المؤلف)

ولكن المعلوم أن هذه الحادثة التي يعدها ولز فسقًا قد عرضت على أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو من نعلم في ورعـه وتقواه فلم يرها كذلك وأقر خالدا على تصرفه. وفضلاً عن هذا لم يكن ما حدث من عمر رضي الله عنه عـن غيـرة ولا ظلم؛ ذكر ابن الأثير أن عمرا رضي الله عنه استدعى خالدا إلى المدينة بعد العزل، فلما وصلها وفد على عمر شكاه، وقال قد شكوتك إلى المسلمين، فبالله إنك في أمري لغير مجمل، فقال له عمر "من أين هذا الثراء؟ قال من الأفضال والسهمان ما زاد على ستين ألفًا فلك، فقوم عمر ماله فزاد عشرين ألفًا فجعلها في بيت المال، ثم قال: "يا خالد؛ والله إنك علـي لكـريم وإنك إلي لحبيب" وكتب إلى الأمصار: "إني لم أعزل خالدا عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فخموه وفتنوا به، فخفـت أن يتواكلوا إليه، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وألا يكون بمعرض فتنة" وعوضه عما أخذ منه.

تاريخ الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٦٤ (الطبعة الأولى بالمطبعة الأهلية المصرية سنة ١٣٠١ هـ). (المترجم)

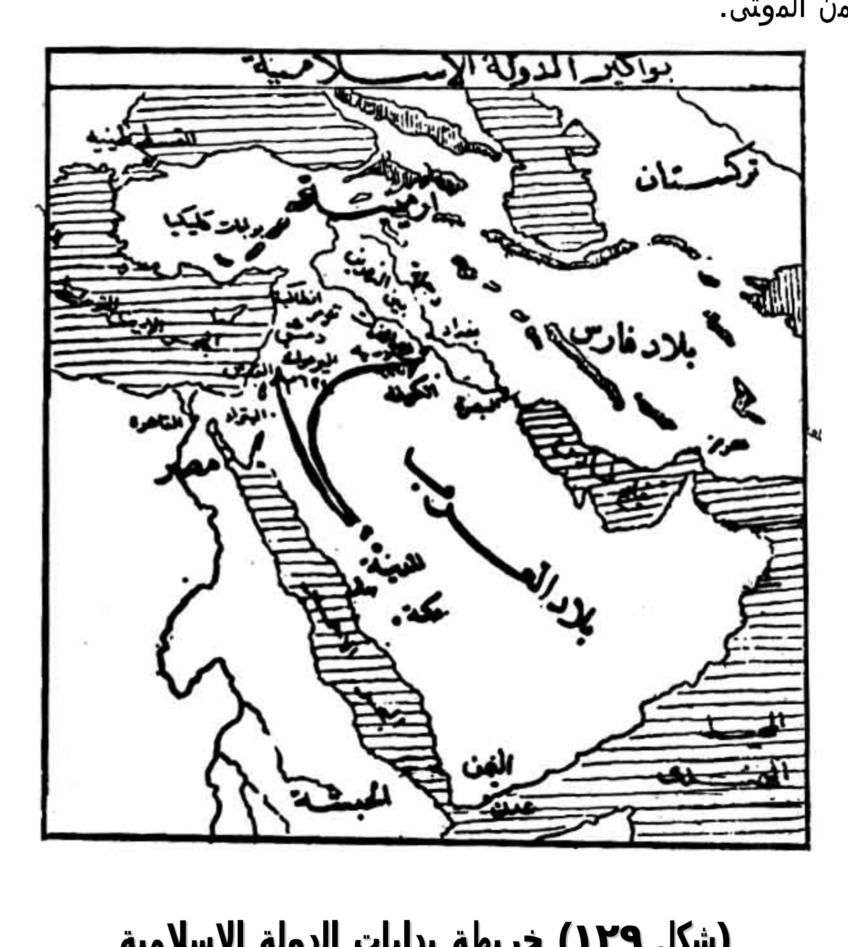
(2) مدينة فارسية قديمة تقع على بعد أربعين ميلاً إلى الشمال الشرقي من مدينة شيراز الحالية، غير بعيد مـن مجـرى نهـر البلوار واسمها عند المؤرخين العرب اصطخر. (المترجم)

وكان خالد هو الذي قاد المعركة الحاسمة (٦٣٦) ضد جيش هرقل على ضفاف اليرموك، وهو أحد روافد الأردن. إذ كانت الكتائب – شأنها على الدوام – خلوا من القدر الكافي من الفرسان الصالحين؛ فكأن طيـف كراسوس الشيخ على سبع قرون وهو يتردد على بلاد الشرق عبثًا دون أن يتعظ بمصـرعه أحـد؛ فكانـت الجيوش الإمبراطورية تعتمد في أعمال الخيالة على الجنود العربية المسيحية الحليفة، وانحاز هـؤلاء إلـى المسلمين عندما التقى الجيشان. وأقام الجيش البيزنطي موكبا عظيما من القساوسة والرايات المقدسة والصور والآثار القدسية، وساعدهم فوق ذلك الرهبان بتراتيلهم. ولكن الآثار لم يكن لها أي سحر، كما أن الاعتقاد في الترتيل كان ضئيلاً فأما في الجانب العربي، فإن الأمراء والشيوخ استحثوا الجيوش بخطبهم وانطلقت أصوات النساء في المؤخرة بالزغاريد تشجيعا لرجالهن حسب العادة العربية القديمة. وكانت صفوف المسلمين مليئـة بالمؤمنين الذين كان يتلألأ أمام نواظرهم أمران: النصر أو الفردوس. ولم يعد في نتيجة المعركة أدنى ريـب بعد انحياز الراكبة غير النظامية. وانقلبت محاولة العدو للتراجع إلى تشتيت شمله تشتيتًا لم يلبـث أن تحـول إلى مذبحة. وكان الجيش البيزنطي يحارب وظهره إلى النهر، الذي أصبح للوقت مليئًا بأشلاء قتلاه.

ومن بعدها أخذ هرقل يتخلى عن سوريا شيئًا فشيئًا لأعدائه الجدد، بعد إذ لم يمض على استرداده لها مـن يد الفرس إلا زمن قصير. وسرعان ما سقطت دمشق، وبعد ذلك بسنة دخل المسلمون أنطاكية. ثم اضـطروا أن يتخلوا عنها مرة أخرى بعض الزمان نتيجة لجهد آخر بذلته القسطنطينية لاستردادها، على أنهم ما لبثـوا أن عادوا فدخلوها تحت قيادة خالد ماكثين بها إلى آخر الدهر.

وفي نفس الوقت حدث في الجبهة الشرقية، بعد أن أصاب العرب نجاحا ابتدائيا سريعا استولوا بـه علـى الحيرة، أن اشتدت مقاومة الفرس. وكان النزاع على العرش قد انتهى آخر الأمر بتولية ملك ملـوك جديـد، واكتشاف قائد ذي مقدرة هو رستم. فالتحم بالعرب قرب القادسية (٦٣٧). وكان جيشه جحفلاً مخلّطًا كالـذي اقتاده دارا إلى تراقيا أو الذي هزمه الإسكندر في إسوس. كان خليطًا من المجندين، وكان لديه ثلاثة وثلاثون فيلا حربيا، وجلس على عرش ذهبي من فوق منصة مرتفعة خلف الصفوف الفارسية وهو يلاحظ المعركـة ويشرف عليها، وهذا العرش يذكر القارئ بهيرودوت والهلس بونت وسلاميس قبل ذلك بما يزيد عن الألـف سنة. واستمرت المعركة ثلاثة أيام. وكان العرب في كل يوم يهجمون، فيصمد الجيش العظيم الفارسـي فـي مكانه، حتى يسدل الليل ستاره آمرا بالهدنة، وتلقّى العرب في اليوم الثالث أمدادا، وحاول الفرس قرابة المساء أن يصلوا بالحرب إلى نهاية حاسمة، بأن قاموا بهجوم بالفيلة. ولقد جرفت تلك الوحوش الهائلة في مبدأ الأمر كل شيء أمامها؛ ثم جرح أحدها جروحا أليمة، فجن جنونه وأخذ يندفع هنا وهناك بـين الجيشـين، وانتقـل الذعر منه إلى الفيلة الأخرى؛ واستمر الجيشان مصعوقين فترة من الزمان في أصيل شمس الغروب، وهمـا يلاحظان الجهود الجنونية التي تبذلها هذه الوحوش الشهباء الصارخة كي تهرب من جموع الرجال المسلحين المعذبة لها والتي أحاطت بها من كل جانب. وقد حدث بمحض الصدفة أن الفيلة خاضت في الجيش الفارسي آخر الأمر ولم تخض صفوف العرب، وإن كان العرب هم الذين قيض لهم أن يهجموا هجمـة فعالـة فـي الصميم على أثر الفوضى التي وقعت في صفوف أعدائهم. وبعد الغسق أطبقت ظلمة الليل، ولكن الجيوش لم تتباعد هذه المرة. وظل العرب الليل كله يكيلون الضربات لأعدائهم باسم ا ، ويضـغطون علـى الفـرس

المحطمين المتقهقرين وبزغ الفجر وفلول جيش رستم تفر مبتعدة عما يملأ ميدان القتال من الفوضى وبقايـا المعركة المتناثرة. وكانت تلك الفلول تمضي في طريق مملوء بالأسلحة المتناثرة والأدوات الحربية، وكثيـر من دواب ومعدات الحمل والموتى والذين في النزع. فأما المنصة والعرش الذهبي فقد تكسرا، وكان رسـتم صريعا بين كومة من الموتى.



(شكل ١٢٩) خريطة بدايات الدولة الإسلامية

وكان أبو بكر قد مات من قبل في ٦٣٤، فتولى الخلافة من بعده عمر وكان حمى للنبي [1]. وقد أنجـزت أعظم فتوح المسلمين في عهد عمر (٦٣٤ – ٦٤٤). فطردت الإمبراطورية البيزنطية من سوريا طردا تاما. على أن زحف المسلمين أوقف عند جبال طوروس. واجتيحت أرمينية وفتحت كل أرض الجزيرة، كما فتحت فارس وراء النهرين. وانتقلت مصر انتقالا يكاد يكون سلبيا من يد الروم إلى العـرب [2]، وبـذلك اسـتطاع الجنس السامي في بضع سنين، باسم ا ورسوله، أن يسترد تقريبا كل الأقاليم التي خسرها للفرس الآريـين

([1]) ورد في الأصل Brother- in -Law أي عديل النبي أو شقيق زوجته وهذا خطأ والصحيح هو ما أثبت هنا، حيث تزوج النبي ﷺ حفصة بنت عمر. (المترجم).

([2]) إن فتح العرب لمصر عزل الحبشة عن سائر العالم المسيحي، ثم يظل العالم بعد ذلك ألف عام دون أن يسمع شيئًا عن هذه البلاد النائية التي بقيت على المسيحية. وفي منتصف القرن الخامس عشر ظهرت في روما فجأة بعثة حبشية تستعلم عـن بعض نقط معينة تتعلق بالعقيدة المسيحية. وكانت تشيع في العالم المسيحي أسطورة عن بلاد مسيحية عظيمة فـي الشـرق هي بلاد بريسترجون أي القديس يوحنا. والظاهر أنها قامت على قصص محرفة عن الحبشة ومختلطة بأقاصيص أخـرى عن زعماء من المغول تنصروا على أيدي النساطرة. (المؤلف).

قبل ذلك بألف سنة. وسقطت بيت المقدس في وقت مبكر، إذ عقدت معاهدة دون أن تحتمل الحصار، وبـذلك حدث أن "الصليب الحق" الذي حمله الفرس قبل ذلك باثنتي عشرة سنة، ثم أعاده هرقل بمشقة كبيـرة انتقـل مرة ثانية من دائرة حكم دولة النصارى. على أنه ظل باقيا في أيد مسيحية؛ ونصت المعاهدة نفسها أن يـنعم النصارى بالتسامح في مقابل دفع الجزية على الرءوس فقط؛ وتركت الكنائس بأسـرها والآثـار والـذخائر المقدسة بأجمعها في حوزتهم.

واشترطت بيت المقدس مقابل تسليمها شرطًا عجيبا. فإن المدينة أبت أن تسلم إلا للخليفة عمر نفسه. وكان الخليفة حتى ذلك الحين مقيما في المدينة ينظم الجيوش ويدبر شئون القتال عامة. فحضر إلى بيـت المقـدس (٦٣٨)، على أن طريقة حضوره والحالة التي وجدها عند مجيئه تبين مبلغ السرعة التي أوهن النجـاح بهـا بساطة البداية الإسلامية الأولى وقوتها. جاء في رحلة طويلة أمدها ستمائة ميل ومعه تابع واحد ليس غيـر؛ وكان راكبا جملاً، وكانت عدته في السفر كيسا صغيرا من شعير وآخر من تمر وقربة ماء وجفنة من خشب. واستقبله قواده الكبار خارج المدينة، وهم يرتدون أثوابا فاخرة من الحرير ويمتطون صهوات جياد مزركشـة السروج والأعِنّة. وتملك الغضب الشديد الرجل الشيخ لهذا المنظر الغريب. فانزلق من رحله، وجمع بيديـه الثرى والأحجار، ثم لطخ هؤلاء السادة المتأنقين وهو يصيح بهم سبابا. فلماذا كانت هذه الإهانة؟ وما معنـى هذا التأنق؟ وأين المقاتلون الأشداء؟ وأين رجال الصحراء الخشنون؟ إنه ليأبى علـى هـؤلاء "الطـواويس" المتأنقين المعجبين بأنفسهم أن يسيروا في معيته. فواصل المسير مع تابعه، وسار الأمراء المتأنقون من خلفه عن بعد، خارج مجال قذفه إياهم بالأحجار. التقى منفردا ببطريرك بيت المقدس، وهو الذي تملك المدينة فيما يظهر من حكامها البيزنطيين. وأخذ يتعامل والبطريرك على ما يرام فطافا معا بالأمـاكن المقدسـة، وأنشـأ عمر، وقد هدأت ثائرته بعض الشيء، يوجه النكات الساخرة الماكرة إلى أتباعه ذوي الثياب الفاخرة.

ومما له دلالته كذلك على نزعة ذلك الخليفة رسالة عمر إلى أحد عماله – وكـان ابتنـى لنفسـه قصـرا بالكوفة – يأمره فيها أن يهدمه ثانية.

كتب إليه يقول: "بلغني أنك شئت أن تحاكي إيوان كسرى [1]، وأنك شئت أن تحيط نفسك بالأبواب التـي كانت له، أفترغب كذلك أن يكون لك ما كان لكسرى من حراس وحجاب؟ أم تريد أن تباعـد بينـك وبـين المؤمنين وتجعل بين مجلسك وبين الفقراء حجابا؟ أم تريد أن تخالف سنة "النبي"، وتصير إلى ما كان عليـه ملوك الأعاجم من الأبهة والفخامة، فتردى في نار جهنم كما تردوا؟" [2].

(١) بمدينة طيشفون.

(٢) نقلاً عن : Schurtz in Helmolt's History of the World.

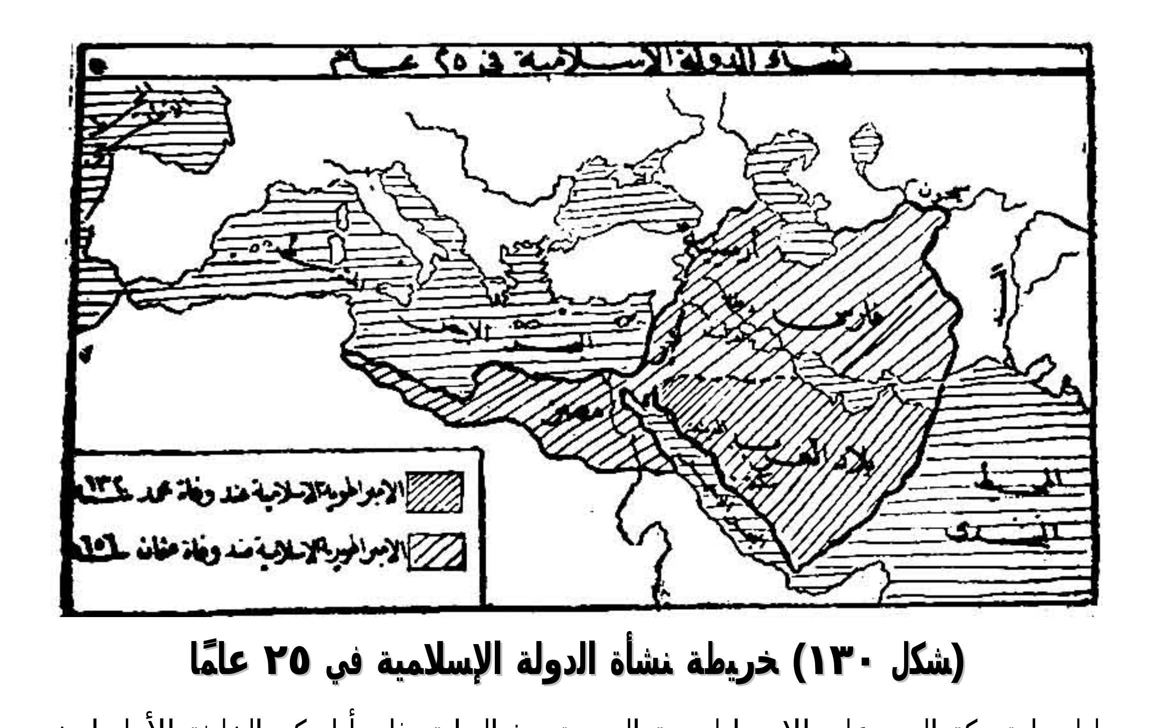
٦- أيام عظمة بني أمية

كان أبو بكر وعمر بن الخطاب [١] أعظم شخصيتين في تاريخ الإسلام. لا يتسع المجال هنا لوصف الحروب التي تم بها في خمس وعشرين ومائة من السنين أن نشر الإسلام لواءه من نهر السند إلى المحيط الأطلسي وإسبانيا، ومن قشْغَر على حدود الصين إلى مصر العليا. وبحسبك خريطتين لتبيان المدى الذي دفع به الباعث القوي للعقيدة الجديدة الفكرة العربية والقرآن العربي قبل أن استطاعت النزعة الدنيوية أي روح التجارة والنهب القديمة وبريق الرداء الحريري، أن تستعيد كامل سلطانها القاتل لذكاء العرب وإرادتهم. وسيلحظ القارئ كيف سار المد العربي العظيم في آثار خطى يوآن تشوانج، وكيف تم في سهولة بإفريقية أن فتوح الوندال السهلة قد كُررت في الاتجاه المضاد أعني من الجنوب إلى الشمال، وإذا خامرت القارئ أية أوهام مضللة في أن حضارة من الحضارات الممتازة سواء أكانت فارسية أم رومانية أم هلّينية أم مصرية، غمرها هذا الفيضان الجديد، فإنه كلما سارع إلى نبذ مثل هاته الفكرات من عقله كان ذلك خيرا له. فإن الإسلام ساد لأنه كان خير نظام اجتماعي وسياسي استطاعت تلك الأيام تقديمه. لقد ساد لأنه كان يجد في كل مكان شعوبا تباد حسها سياسيا، تُسلب وتُظلم وتُخَوف ولا تُعلم ولا تُنظم، كما وجد حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها وبين شعوبها بأية حال. كان أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية كان لها نشاط فعلي في العالم حتى ذلك اليوم، وكان يهب الجمهرة الغفيرة من البشرية عامة نظاما أفضل من أي نظام آخر سبقه. وكان النظام الرأسمالي الاسترقاقي في الإمبراطورية الرومانية، والأدب والثقافة والتقاليد الاجتماعية في أوربا، قد انحلت انحلالا تاما وانهارت قبل أن ينشأ الإسلام. ولم يحدث أن دب دبيب الانحلال في الإسلام أيضا، إلا عندما ضاعت ثقة البشرية في إخلاص ممثليه.

ولقد تبددت معظم طاقته في غزو بلاد فارس والتركستان وتمثلهما. وكانت أقوى طعناته هي الموجهة من فارس نحو الشمال والمنطلقة إلى الغرب عبر مصر. ولو أنه ركز قوته الأولى على الإمبراطورية البيزنطية، فلا شك في أنه كان مستطيعا انتزاع القسطنطينية حوالي القرن الثامن والوصول إلى قلب أوربا بنفس السهولة التي وصل بها إلى هضبة البامير. حقًا إن الخليفة معاوية حاصر تلك العاصمة سبع سنوات (٦٧٢ – ٦٧٨)، وكذلك فعل سليمان (٧١٧، ٧١٨)؛ بيد أن الضغط لم يدعم ولم يتواصل، وظلت الإمبراطورية البيزنطية ثلاثة أو أربعة قرون بعد ذلك حصنًا متداعيا يدفع الشرق عن أوربا. ولا جدال أن الإسلام كان يستطيع على التحقيق أن يجد في المنتصرين حديثًا أو الباقين على الوثنية من آفار وبلغاريين وصربيين وصقالبة وسكسون – رجالاً مستعدين للانضواء تحت رايته استعداد أتراك آسيا الوسطى. ومع أنه بدلاً من الاستمساك بالاستيلاء على القسطنطينية، دار إلى أوربا أولاً بطريق إفريقية وإسبانيا الملتوي البعيد، فإنه لم يصادف إلا في فرنسا في نهاية خط مواصلات هائل البعد عن بلاد العرب قوة كافية البأس لإيقاف تقدمه.

---

(١) درج كتاب الغرب على تسمية هذا الخليفة باسم عمر الأول، وتسمية عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي باسم عمر الثاني (المترجم).



(شكل ١٣٠) خريطة نشأة الدولة الإسلامية في ٢٥ عامًا

وقد تسلط سادة مكة البدو على الإمبراطورية الجديدة منذ البداية. فإن أبا بكر الخليفة الأول انتخـب فـي المدينة للخلافة بطريقة شكلية غاب فيها الصياح، وهكذا كان شأن عمر بن الخطاب وعثمان الخليفة الثالـث، على أن ثلاثتهم كانوا مكيين من أسر عريقة. ولم يكونوا من رجال المدينة. ومع أن أبا بكر وعمر كان رجلي بساطة وتقشف مطلق واستقامة، فقد كان عثمان أدنى منهما مرتبة، وهو رجل من طراز أصـحاب الثيـاب الحريرية. فلم يكن الغزو لديه من أجل ا بل من أجل بلاد العرب، وبخاصة من أجل مكة بـبلاد العـرب، وبالأخص لنفسه هو وللمكيين ولعشيرته الأقربين بني أمية. كان رجلاً ذا مكانة شريفة، نصب نفسه لخدمـة وطنه وبلادته وقومه. ولم يسلم مبكرا كما فعل سلفاه الأولون[1]. وانضم إلى النبي لأسباب سياسية في عمليـة أخذ وعطاء عادلة [كذا!...] وبتوليته يكف الخليفة عن أن يكون رجلاً عجيبا له شخصـية مدهشـة متوقـدة، ويصبح ملكًا شرقيا، ككثير من الملوك الشرقيين من قبل ومن بعد، ملكًا لا بأس به إذ قيس بالمعايير الشرقية حتى ذلك الحين، ولكنه لا يزيد على ذلك شيئًا.

وإن حكم عثمان ومقتله ليبرزان بوضوح عواقب ما حدث في عهد النبي[2]، بمقدار ما شهدت حيـاة أبـي بكر وعمر بما انطوت عليه تعاليمه من جذوة قدسية. إذ كان محمد (صـلى ا عليـه وسـلم) يلجـأ إلـى الدبلوماسية في أوقات كان أبو بكر يجنح فيها إلى الصلابة، وكان العنصر الجديد من الجشع الأرسـتقراطي الذي ظهر بتولية عثمان أحد ثمرات تلك التصرفات الدبلوماسية. وكانت عواقب ذلك الحريم، حـريم النبـي المتجمع من غير تمحيص، والمنازعات والغيرات العائلية التي استكنّت خلف أمور المسـلمين أثنـاء حكـم

---

(1) الصحيح أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال وأن عثمان أسلم قبل عمر وثلاثتهم من السابقين الأولين إلى الإسلام، وكلهـم من المهاجرين المخلصين وللرسول ولم يكن لأحدهم بغية خاصة من وراء إسلامه فقد ضحى كل منهم في سبيل الإسلام بـالنفس والنفـيس وتحمـل آلام التعـذيب والتشـريد والفقـر والمهانـة مـن أجـل عقيدتـه ودينـه. وعـن عثمان بن عفان وفضله على الإسلام والثورة التي أدت إلى مقتله، انظر الموسوعة العربية الميسرة. (المترجم).

(2) أسلفنا عليك القول في تفنيد تلك المزاعم بما فيه الكفاية. (المترجم)

الخليفتين الأولين، قد أخذت تتسلل إلى ضوء النهار. فإن عليا وهو ابن عم النبي وابنه المتبنى[1] وزوج ابنته فاطمة، كان يعد نفسه صاحب الحق في الخلافة دون سواه. وكانت ادعاءاته تيارا خفيا يترقرق معبـرا عـن امتعاض المدينة، وعشائر مكة المنافسة لارتفاع شأن بني أمية. ولكن عائشة زوجة النبي الحظية، كانت تغار على الدوام من فاطمة وتعادي عليا. فانحازت إلى عثمان... وبذلك تنهار بداية قصة الإسلام البديعة فجأة في حمأة هذا النزاع والمناوشة بين الوراث والأرامل[2].

وفي ٦٥٦ رجم جماعة من الرعاع عثمان – وهو شيخ في الثمانين – بالأحجار في شوارع المدينـة ثـم طاردوه إلى منزله وقتلوه. وأصبح علي آخر الأمر خليفة لكي يقتل بدوره هو أيضا (٦٦١). وفـي إحـدى معارك هاته الحرب الأهلية ميزت عائشة نفسها وقد أصبحت سيدة عجوزا شجاعة حادة الطبع، بأن قادت [3] ضد علي معركة وهي في هودج على جمل. فأسرت وأحسنت معاملتها.

---

(1) لم يتبن النبي صلى ا عليه وسلم عليا وإنما هو قد ضمه إليه؛ وهو ابن عمه أبي طالب، في أيام اشتدت فيها الأزمة علـى الناس وفعل مثل ذلك العباس بجعفر بن أبي طالب تخفيفًا عن أبي طالب لكثرة عياله حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه ولم يزل علي مع رسول ا صلى ا عليه وسلم حتى بعثه ا نبيا فاتبعه وآمن به وصدقه. (المترجم).

(2) إن كان هذا القول من جانب المؤلف هو بسبب تأخر علي كرم ا وجهه عن بيعة أبي بكر بما عده الشيعة سندا لأحقيته في الخلافة دون أبي بكر وعمر وعثمان؛ فإننا نبادر إلى القول بأن عليا إنما تأخر عن بيعة أبي بكر لا لأنه يرى أحقيته فـي الخلافة، وإلا لظل طوال حياته دون مبايعة، وإنما كان ذلك منه لأنه استنكر أنه يبرم الأمر من دونه ومن دون بني هاشـم فلما تبين له إجماع المسلمين دخل في الجماعة وبايع. فأما أمهات المؤمنين فما أبعد هذا القول فيهن عن الصحة؛ فإن النبي صلى ا عليه وسلم لم يعقد على واحدة من زوجاته إلا لسبب هام وذلك ظاهر من كتب السيرة والتفسير، فبعضهن كـان زواجه منها بسبب التشريع كما حدث في حالة زينب بنت جحش مثلاً، وبعضهن كان زواجه منها للتآلف وإحكام الـروابط كما حدث في حالة حفصة. وبعضهن للوفاء لهن بما يكفيهن شر العيلة مثل أم حبيبة مثلاً إلخ. فإن أردت الاستزادة فعليـك بكتب السيرة ففيها تفصيل ذلك بما يشهد أن النبي صلى ا عليه وسلم لم يكن يتزوج دون غرض تقتضيه الرسالة السمحة أو تمحيص، وإنما كان له من زواجه من كل واحدة من زوجاته رضي ا عنهن غرض يهدف إليه، ويضاف إلى ذلك أن واحدة من أمهات المؤمنين لم تتدخل في شئون الدولة إطلاقًا لا في حياة النبي صلى ا عليه وسلم ولا بعـده. ومـا كـان خروج عائشة رضي ا عنها مع الزبير وطلحة عن كراهية لعلي كرم ا وجهه ولكن لأن الزبير وطلحة أوهماها أن عليا لم يكترث لدم عثمان المطلول فخرجت معهما. حتى إذا مرت بالحوأب واشتد نباح كلابها سأل سائل عن اسم المكان فلمـا ذكر على مسمع منها وتذكرت قول رسول ا صلى ا عليه وسلم "أيتكن تنبحها كلاب الحوأب إلخ" صـرخت وأبركـت الجمل وهمت بالرجوع وظلت مكانها حتى تصايح الناس بإشراف علي كرم ا وجهه على اللحاق بهم فسارت معهم إلـى البصرة وهذا الخروج من جانب عائشة رضي ا عنها لم يكن منها إلا حفاظًا على الـدم المطلـول ومطالبـة بمعاقبـة المجرمين وإن كانت قد خدعت بهذا الأمر وعميت عليها الأغراض الحقيقية للذين حفزوها على الخروج معهم. والواقع أن مرد الفتنة الكبرى كلها هو شيخوخة عثمان وتسلط بني أمية في إقامة على شئون المسلمين تسلطًا أسخط النـاس (انظـر الموسوعة العربية الميسرة). (المترجم).

(3) هي لم تقد المعركة وإنما كان هودجها في وسطها لأن أنصار طلحة والزبير أبوا إلا الالتفاف حول الهودج بزعم الدفاع عنه (المترجم).

وبينما كانت جيوش الإسلام تتقدم منصورة في غزوها المظفر للعالم، أصابها هـذا الـداء، داء الحـرب الأهلية بضربة على أم رأسها. ماذا كانت قيمة "حكم ا   في العالم" لدى عائشة، ما دامت تستطيع أن تقضـي على فاطمة الممقوتة؟ وماذا كان يجني الأمويون وأتباع علي على السواء من وحدة البشرية، وقد قام بيـنهم مثل ذلك الثأر العظيم الحار الذي يتلهون به ويتسلون والذي الخلافة هدفه وغنيمته في النهاية؟[1] لقد انقسـم العالم الإسلامي شطرين، قسمته الضغائن والجشع والسخافة الحزبية لحفنة من رجال ونساء في المدينـة. ولا يزال هذا الشقاق قائما إلى اليوم. فإن هناك حتى يومنا هذا قسما رئيسيا من المسلمين هم الشيعة ممن يدينون بفكرة حق علي الوراثي في الخلافة "كمادة رئيسية في عقيدتهم"! وهم منتشرون في فارس والهند.

ولكن شطرا آخر يعادل هؤلاء في الأهمية هم "السنيون"، الذي لا يسع المراقب المحايد إلا أن يوافقهم على آرائهم، ينكرون هذه الإضافة العجيبة إلى عقيدة محمد البسيطة. ونحن – على قدر ما نستطيع أن نستنتج على بعد الزمان بيننا وبينهم – نرى أن عليا كان فردا عاديا جدا.

ومراقبة هذا الصدع يتمشى في بداية الإسلام البديع الرائعة، أشبه الأشياء بملاحظة حالة مريض يتطـرق إلى عقله الضعف. وإنا لنحيل القارئ إلى "الأدب" [٢] الكثير المدون في هذا الموضوع إذا هو شاء أن يعلـم كيف أن الحسن بن علي سممته زوجته، وكيف قُتل أخوه الحسين. ولسنا نتجاوز أن نذكر اسميهما فـي هـذا المكان، لأنهما لا يبرحان يمدان قسما كبيرا من البشرية بمجال مفعم بالعواطف التشيعية والامتعاض المتبادل. وهما أعظم الشهداء مكانة لدى الشيعة. وقد أحرقت الكعبة البيت العتيق بمكة بين غدو المصـادمات الناشـبة بين مختلف الأطراف ورواحها، وطبيعي أن تبتدئ لشأنها في أثر ذلك منازعات لا نهائية بين المسلمين. فهل يجب أن يعاد بناؤها في نفس هيئتها القديمة بالضبط أو على مقياس أكبر كثيرا؟

لقد رأينا مرة أخرى في هذا القسم وسابقه، كيف أن الكفاح الحتمي لهذا الدافع الجديد، الذي هـو أحـدث الدوافع وآخرها، والذي يدعو إلى الوحدة في الشئون العالمية، والذي يكافح ما ركب في البشرية من نزعـات دنيوية؛ ورأينا كذلك كيف أن دار النبي بما سادها من تقلقل وتعقيد كانت منذ البداية أشبه الأشياء بتركة مثقلة بالأعباء في العقيدة الجديدة[٣]. ولكن لما كان هذا التاريخ ينحدر بعد ذلك إلى الجرائم العادية والمؤامرات التي تحدث في أية أسرة مالكة شرقية، فإن دارس التاريخ سيدرك نقطة جوهرية ثالثـة فـي إصـلاحات محمـد

([١]) يبلغ من شدة إعجاب المؤلف ببداية الإسلام واندفاعاته الأولى وهي معجبة فعلاً، أن يتسخط هذا السخط البالغ على الخلافات التي نشبت بين كبار القادة. ولكن المؤلف يغلو ويقسو وينسب الأشياء إلى غير أسبابها الحقيقية كاعتقاده الخاطئ في غيـرة عائشة من فاطمة. (المترجم).

([٢]) يقصد المؤلف بالأدب الكتب والمؤلفات التي ظهرت حول ذلك الموضوع، فالأدب هنا مستخدمة بمعناهـا العـام الواسـع. (المترجم).

([٣]) وما دخل دار النبي بإدارة دفة سياسة الدولة بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى؟ الحق أننا لا نجد مبررا لهذا الإقحام الغريـب. وكل ما في الأمر أن بني أمية انتهزوا فرصة ضعف عثمان وقرابتهم منه فوطدوا مركزهم في الدولة. وكانوا قوما تجـارا دنيويين، ذوي نزعة جاهلية ولم يجدوا تلقاءهم سوى علي بن أبي طالب وهو رجل زاهد لم يؤت قـدرتهم علـى الختـل والخداع. (المترجم)

العالمية. فإنه كان عربيا أميا، غير ملم بالتاريخ، ولا بكل تجارب روما وبلاد الإغريق السياسية، ويكاد يكون غير ملم كذلك بتاريخ بلاد اليهودية الحقيقي [1]؛ فترك أتباعه من غير خطة لحكومة مستقرة تنظم إرادة المؤمنين العامة وتركزها [2]، وخلّفهم من غير صورة فعالة للتعبير عن الروح الديمقراطية الحقة التي هي الطابع الغالب على تعاليم الإسلام الجوهرية (مع استعمالنا للكلمة بمعناها العصري). وكان حكمه حكما فرديا مطلقًا، ومن ثم ظل الإسلام حكومة فردية مطلقة. وبذا لا يعد الإسلام من الناحية السياسية تقدما بل تراجعا [3] عن الحريات التقليدية وقوانين الصحراء العرفية. وكان نقض هدنة الحج [4] الذي أدى إلى معركة بدر أبشع وصمة للإسلام الناشئ. وا هو المدبر الأعلى للإسلام نظريا، ولكن سيده الفعلي كان على الدوام أي رجل يبلغ من القوة ومن موت الضمير ما يجعله يسلب الخلافة ويستمسك بها. وإذ إن رجلاً كهذا يصبح عرضة لشبوب الثورات عليه والإقدام على اغتياله، فإن قانون الإسلام النهائي كان إرادة ذلك الرجل.

وقد ارتفع شأو أسرة بني أمية زمانًا بعد موت علي وظلت قرنًا من الزمان تقريبا تعطي الإسلام حكامه وولاته.

([1]) هذه الأمية وعدم الإلمام بخبرات روما والإغريق السياسية وبتاريخ أرض اليهودية الحقيقي هي البرهان الأول على صحة النبوة وقد أشار القرآن إلى ذلك في مواضع متعددة منها على سبيل المثال: **وما كُنتَ تَتْلُو مِن قَبلِهِ مِن كِتَابٍ ولا تَخُطُّه بِيمِينِكَ إذًا لارتَابَ الْمبطِلُون** (سورة العنكبوت).

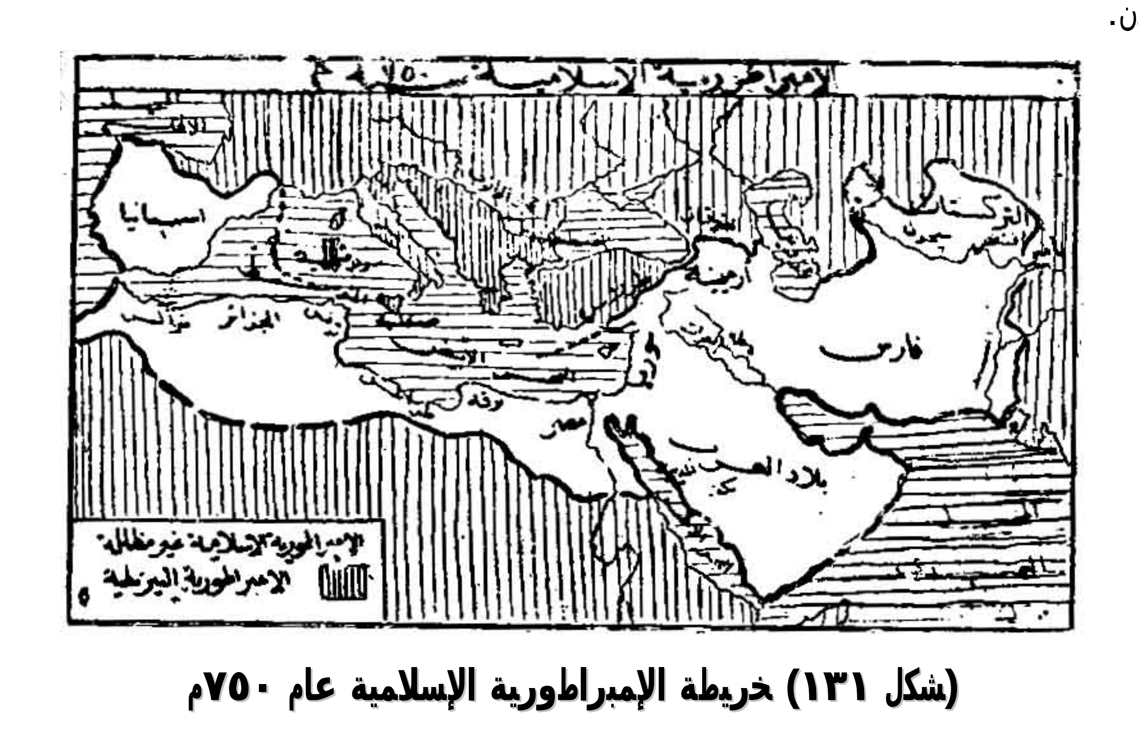
وكَذَلِكَ أَوحينَا إليكَ روحًا من أَمرِنَا ما كُنتَ تَدري ما الكِتَاب ولا الإيمان ولكِن جعلنَاه نُورًا نهدِي بِهِ من نشاء مِن عِبادِنَا وإنكَ لتَهدِي إلى صِراطٍ مستَقِيمٍ (سورة الشورى). (المترجم).

([2]) لعل المؤلف يشير بهذه العبارة إلى أن النبي لم يستخلف أحدا من بعده، وفاته أن الشورى من النقاط الأساسية في حكم الإسلام بنص القرآن. وذلك ما تم في انتخاب الخلفاء الأربعة الأوائل. (المترجم).

([3]) إن كان الانصراف عما كانت عليه الجاهلية من إباحية وتفلت وخروج عن السمة الإنسانية ومنافاة لروح كل قانون وخلق وعدم وجود حكومة موحدة ولا نظام معمول به، يعد في نظر المؤلف تراجعا فأنعم به من تراجع. (المترجم).

([4]) يشير المؤلف هنا إلى سرية عبد ا بن جحش ويتخذ عنها مغمزا على الإسلام؛ ونسي أن النبي صلى ا عليه وسلم لم يرسل عبد ا بن جحش وأصحابه لغزو أو شيء من أعمال القتال. وإنما أرسله للاستطلاع فقط؛ وذلك ظاهر تماما من كتابه ﷺ لعبد ا ، كما أن المؤلف أغفل غضب النبي من القوم عند عودتهم بقوله؛ "**ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام**" ووقف العير والأميرين وأبي أن يأخذ من ذلك شيئًا، وكذلك سقط في أيدي القوم وظنوا أنهم هلكوا واشتد تعيف المسلمين لهم حتى أنزل ا تبارك وتعالى **يسأَلونَكَ عن الشهرِ الحرامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِير وصد عن سبِيلِ ا وكُفْر بِهِ والمسجِدِ الحرامِ وإخْراج أَهلِهِ مِنْه أَكْبر عِنْد ا والفِتْنَةُ أَكْبر مِن القَتْل** (سورة البقرة) وفي هذا أبلغ رد على المؤلف الذي يتخذ من هذه السيرة وسيلة لأخذ المآخذ على الإسلام في بدايته متناسيا صد الكفار المسلمين عن سبيل ا ، وعن المسجد الحرام، وإخراج المسلمين منه وهم أهله، وفتنتهم للمسلمين مع أن كل واحدة من هذه أشد من القتل وأنكى من القتال وتستدعيهما. هذا، وزيادة في الإيضاح نقول إن سرية عبد ا بن جحش لا علاقة لها بغزوة بدر الكبرى لأن المسلمين هم الذين خرجوا لاعتراض عير قريش القادمة من الشام فخرج جيش قريش لحماية عيرهم. ولكن العير حين أفلتت من المسلمين عز على كفار قريش وأقيالها أن يرجعوا فاستعمل بعضهم دم الحضرمي (الذي قتل في سرية عبد ا بن جحش) وسيلة للتحريض على من قال منهم بالعودة دون قتال، وبذلك كانت قريش البادئة فجعله ا نكالاً عليها ونصر المسلمين نصرا مبينًا. (المترجم).

ويبلغ من انشغال مؤرخي العرب بالمنازعات على العرش وبجرائم ذلك العصر أن أصبح من العسير علينا أن نتتبع التاريخ الخارجي لتلك الفترة. ومهما يكن الحال فإنا نجد سفنًا إسلامية تمخر البحار وتهزم الأسطول البيزنطي في قتال بحري عظيم بإزاء ساحل ليكيا (Lycia) (وهي إقليم جبلي ج.غ. آسيا الصغرى) (٦٥٥ م)، ولكن كيف احتاز المسلمون هذا الأسطول المظفر في هذا الوقت المبكر من تاريخهم؟ ذلك أمر لسنا نعرفه بوضوح. والراجح أنه كان في معظمه مصريا. ولا شك أن الإسلام ظل بضع سنين متحكما في شرق البحر المتوسط، وفي ٦٦٩ ثم في ٦٧٤ قام معاوية (٦٦١ – ٦٨٠) أول خليفة أموي عظيم بهجومين بحريين على القسطنطينية. وكان لزاما أن يكون الهجومان بحريين لأن الإسلام، طالما كان تحكم الحكم العربي، لم يتغلب قط على حاجز جبال طوروس [1]. وفي نفس المدة ظل المسلمون يدفعون كذلك بغزواتهم أبعد فأبعد في صميم آسيا الوسطى. وعلى حين كان الإسلام آخذًا في الاضمحلال فعلاً في منطقته المركزية، كان لا يفتأ مع ذلك يضم إليه حشودا عظيمة من الأتباع الجدد ويوقظ روحا جديدة بين الشعوب التركية التي كانت حتى ذلك الزمان منقسمة على نفسها هائمة لا وجهة لها في الحياة. ولم تعد المدينة بعد مركزا صالحا لمغامرات الإسلام الهائلة في آسيا وإفريقيا والبحر المتوسط، وبذا أصبحت دمشق العاصمة الطبيعية للخلفاء الأمويين.



(شكل ١٣١) خريطة الإمبراطورية الإسلامية عام ٧٥٠م

(1) وفي عهد معاوية أيضا استولى العرب على معظم جزر شرق البحر المتوسط مثل رودس وإقريطش وإرواد وقبرص بقيادة مقدم الجند جنادة بن أمية وعبد ا بن أبي السرح وغيرهما من أمراء البحر المظفين. (المترجم).

ومن أعظم هؤلاء – يوم تبددت إلى حين سحب المؤامرات على العرش – عبـد الملـك (٦٨٥ – ٧٠٥) والوليد الأول (٧٠٥ – ٧١٤) اللذان ارتفع شأو الأسرة الأموية في عهديهما إلى ذروة المجد والعظمة. فانتقل الحد الغربي إلى جبال البرانس، على حين كانت ممتلكات الخليفة في الشرق تتاخم حـدود الصـين. وأنفـذ الخليفة سليمان بن الوليد [1] (٧١٥) سلسلة ثانية من هجمات المسلمين على القسطنطينية، كان أبـوه [2] قـد وضع خططها وأعد العدة لها. وكان الهجوم بحرا شأن ما حدث أيام الخليفة معاوية قبل ذلك بنصف قرن من الزمان – وذلك لأن آسيا الصغرى كما أشرنا من تونا لم تكن غزيت بعد. وقد أخذت السفن بصفة رئيسية من مصر. وأبدى الإمبراطور ليو الإيسوري [3] – وهو مغتصب للعرش – في الدفاع مهارة وعنـادا خـارقين للمعتاد فخرج من داخل أسوار المدينة خروجا مباغتًا رائعا تمكن به من إحراق معظم سفن المسلمين، وقطع خط الرجعة على الجيوش التي كانوا أنزلوها على الناحية الآسيوية من البسفور، وبعد حملة دامت سنتين في أوربا (٦١٧ – ٧١٧) دحر المسلمون. ثم جاء شتاء لا نظير له في القساوة فأكمل هزيمتهم.

ومن هذه الآونة فصاعدا يبدأ مجد السلالة الأموية في الأفول. لقد تبـدد عنـد ذاك الـدافع الأول الهائـل للإسلام. فلم يحدث بعد ذلك أي توسع فضلاً عن ظهور اضمحلال بين في الحماسة الدينية. وكان الإسلام قد ضم إليه الملايين، ولكن هضمه لهؤلاء الملايين كان هضما ناقصا وسيئًا. فإن إمبراطوريـة خلفـاء محمـد الهائلة الجديدة هذه ابتلعت المدن والشعوب والطوائف والأجناس بأكملها والوثنيين العرب واليهود والمسيحيين والمانوية والزرادشتيين والوثنيين الطورانيين. وحتى ذلك الحين، كان من الخصائص المشتركة بين جميـع عظماء أصحاب الرسالات الدينية، الداعين إلى توحيد العالم، الوقوع في خطأ شائع، هو قبولهم المثل العليـا الأخلاقية والدينية التي مال الناس إليها قبل زمانهم كما لو كانت مثلاً عليا عمومية. فكانت دعوة محمد مـثلاً متجهة إلى الفروسية التقليدية، وإلى ما وقر في نفوس أذكياء العرب في زمانه من إحساسات بالوحدة الربانية. وكانت هذه الأمور كامنة في طوية مكة والمدينة وضميرهما. فكان كل ما فعله أن أخرجها من مستقرها [4].

---

(1) سليمان هو ابن عبد الملك وهو أخو الوليد وليس ابنه. (المترجم)

(2) ظاهر أن المقصود بأبيه هنا الوليد بن عبد الملك وهو أخوه كما نوهنا قبلا. (المترجم)

(3) انظر كتاب "الحضارة البيزنطية" تأليف رانسيمان (ص ٣٩ – ٤٥) وقد عربه المترجم لإدارة الترجمة والألف كتاب (مكتبة النهضة المصرية).

والإمبراطور لاوون (ليو الإيسوري) (٦٨٠ – ٧٤٠) جندي اغتصب العرش في ٧١٧، ونجح في الدفاع عن القسطنطينية على العرب. (المترجم).

(4) لو صح هذا الزعم لكان لزاما أن تسير دعوة محمد صلى ا عليه وسلم في يسر وسهولة، مع أن الواقع أنها لقيت في مكة، مهدها، معارضة قوية وعداوة مرة أليمة وأذى شديدا من المكيين للمسلمين ومعهم النبي صـلى ا عليـه وسـلم، ولبـث المسلمون يتجرعون كئوس العذاب ألوانًا ولم يسلم من ذلك أحد منهم، كما تعاقد المكيون على مقاطعة الهاشميين وحرمانهم اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا من كل ما هو مقرر لغيرهم، لقاء نصرتهم لمحمد عليه الصلاة والسلام وعـدم تسـليمه لهـم ليقتلوه ويستريحوا مما كاله لأصنامهم من السب ولتسفيهه أحلامهم ونيله من عقولهم ومداركهم، بل إنهم عقدوا الخناصـر بعد أن أعيتهم فيه الحيلة، على قتله وتفريق دمه في القبائل إعناتًا لبني هاشم وإعجازا لهم عن إشهار السيف للثأر. وعندئذ

فلما انتشرت التعاليم الجديدة وتكيفت في قالبها الخاص، اضطرت أن تعمل على أسس ظلت على الـدوام أبعد ما تكون عن المجانسة لطبيعتها، والتزمت أن تنمو في تربة أخرجتها عن صورتها السوية وحولتها عن طريقها القويم. وكان مرجعها الوحيد هو القرآن. وهذا الكتاب كان يبدو للعقول التي لم تتذوق نغمات اللغـة العربية، أعني كما يبدو لكثير من العقول الأوربية اليوم خليطًا من البلاغة الرائعة المعنى الممتـازة الـروح التي يمازجها – ولنقلها صراحة – قعقعة غامضة لا كيف لها [1]. وقد غاب مغزاه الحق عن عدد لا يحصى من المسلمين الجدد غيابا تاما. ذلك عندنا هو مرد ما أظهرته العناصر الفارسية والهندية من المسـلمين مـن استعداد للانضمام إلى صفوف الشيعة بسبب نقطة خلاف كانوا عن الأقل يستطيعون إدراكها والإحساس بها. وإلى نفس المحاولة للتوفيق بين ذلك الشيء الجديد وبين التراث القديم. يرجع ذلك الغلو الفقهي الذي سرعان ما نهض يتساءل: أكان القرآن – ولم يبرح منذ الأزل – قديما قِدم ا [2]؟ وإنا لتأخذنا الدهشة حيال خـروج هذه الفكرة عن كل معقول إذا نحن لم نتبين فيها على الفور محاولة حسنة القصد لمسيحي من رجـال العـام أسلم، وأراد أن يسبغ صبغة إسلامية على اعتقاده القديم بأنه: "في البدء كانت الكلمة، والكلمة عند ا ، وكانت الكلمة ا [3]".

ولم يحدث قبل ذلك أن واحدا من عظماء أصحاب الرسالات الدينية الداعين إلى وحدة العالم قد أظهر يوما أدنى فهم للواجب التعليمي العظيم، واجب الشرح الواضح المنوع فضلاً عن التنظيم الفكري الـذي تنطـوي عليه مقدماتها وقضاياها الأولية: بل تراهم جميعا يكررون نفس القصة، قصة الانتشار السريع الذي نشـبهه بقليل من الماء صب فوق مسطح عظيم، مصحوبة بكل ما يعقب ذلك من سطحية وفساد.

ولا ينقضي طويل زمن حتى نسمع الأقاصيص عن خليفة أموي هو الوليد الثاني (٧٤٣ – ٧٤٤)، الـذي هزأ بالقرآن وأكل الخنزير وشرب الخمر ولم يقم الصلاة. وربما كانت هذه القصص صحيحة أو ربما كانـت تشاع لأسباب سياسية. ومهما تكن الحال فقد نشأت في مكة والمدينة حركة تطهرية رجعية تقاوم اسـتخفاف دمشق وترفها. وثمة عائلة عربية أخرى عظيمة هي عائلة العباس (العباسيين) ظلت تدبر الخطط زمنًا طويلاً للاستيلاء على صولجان الحكم، فأنشأت تستغل التذمر العام، والنزاع بين بني أمية وبني العباس أقـدم مـن الإسلام. وكان متصل الحلقات قبل ميلاد محمد. وحمل هؤلاء العباسيون لواء "شهداء" الشيعة: علـي وابنيـه

هاجر النبي صلى ا عليه وسلم من مكة إلى يثرب وتفتحت بذلك الآفاق للدعوة الحرة وجعل الدين ينتشر بالطرق الطبيعية التي كان أهمها وأنجعها الإقناع بالحجة الدافعة والمنطق السليم المعجز. (المترجم).

(1) هذا رأي لا نستغربه على رجل انعدم إلمامه باللغة العربية أصلاً، ناهيك بتذوق أدبها وبلاغتها تلك المؤهلات التي احتازها الوليد بن المغيرة أحد أقيال مكة زمن النبي صلى ا عليه وسلم، والتي تؤهله أن يتذوق ما في القرآن من فصاحة وبلاغة ومعاني فذة. إذ يصف ما سمع من محمد عليه الصلاة والسلام من القرآن "وا إن لقوله الذي يقولـه لحـلاوة وإن عليـه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه، ومغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم مـا تحتـه" البدايـة والنهايـة ج ٣ ص ٦١. (المترجم)

(2) سير مارك سايكس.

(3) إنجيل يوحنا، الإصحاح الأول: آية ١.

الحسن والحسين، وأقاموا الدليل على أنهم والشيعة سواء [1]. وكان علم بني أمية أبيض؛ فاتخذ العباسيون علما أسود حدادا على الحسن والحسين، وأسود لأن السواد أشد تأثيرا في النفوس من أي لون آخر. وفضلاً عن ذلك أعلن العباسيون أن كل خليفة بعد علي مغتصب. وفي ٧٤٩ قاموا بثورة محكمة التدبير، وطاردوا آخر خليفة أموي وقتلوه بمصر. وكان أبو العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين، فبدأ حكمه بأن جمع في سجن واحد كل ذكر حي من سلالة أمية استطاع أن يضع يده عليه، وأمر بهم جميعا فذبحوا. وقد جمعت أجسامهم فيما يقال، ومد من فوقها بساط من أدم (جلد) وعلى هذه المنضدة الفظيعة الكئيبة، جلس أبو العباس ومستشاروه يطعمون [2]. زد على ذلك أن قبور خلفاء بني أمية نبشت وأحرقت عظامهم وذريت بين مهب الرياح الأربعة. وهكذا انتقموا آخر الأمر لما حل بعلي من مظالم، وزالت أسرة أمية من التاريخ.

ومن الأمور الشائقة الجديرة بالملاحظة، أن ثورة مناصرة للأمويين قامت بخراسان وكان إمبراطور الصين يشد أزرها.

([1]) ليست الشيعة عليا وابنيه الحسن والحسين، وإنما هي حركة ينتصر أهلها لعلي وابنيه وأبنائهم على أنهم أصحاب الحق الأول في الخلافة أي أنهم كانوا يناصرون مبدأ الوراثة وهذا هو المبدأ الذي أكد العباسيون أنه يرجح حقهم في الخلافة على حق الأمويين لأنهم أبناء عم النبي. وهنا بالذات يضع المؤلف يده، دون أن يدرك، على أساس الصدع الذي ظهر في الإسلام بسبب شيخوخة الخليفة عثمان، وهو الشقاق القديم في الجاهلية بين الهاشميين والأمويين. (المترجم).

([2]) ليس هذا عمل أبي العباس وإنما هو عمل عمه عبد ا وقائد جيشه وواليه على الشام. (المترجم)

٧- انحلال قوة الإسلام في ظل العباسيين

على أن ذرية علي لم يقدر لها أن تسهم في هذا النصر طويلاً. فإن العباسيين كانوا مغامرين وحكاما مـن طراز أقدم من الإسلام. فلما قضوا من قصة علي وطرهم المنشود، كان ثاني إجراء قام به الخليفة الجديد أن يتصيد الأحياء من عترة علي وفاطمة ويذبحهم.

وواضح أن التقاليد القديمة في فارس الساسانية وفي فارس قبل الإغريق كانت في طريق عودتهـا إلـى العالم. وبارتقاء العباسيين عرش الخلافة أفلتت السيادة البحرية من قبضة الخليفة وذهبت معها شمال إفريقيـة وإسبانيا التي نشأت فيها دول إسلامية مستقلة، وكانت إسبانيا من نصيب رجل من بني أمية أفلت من الموت.

وانتقل محور الأهمية في الإسلام عبر الصحراء من دمشق إلى أرض الجزيرة. وشيد المنصـور الـذي تولى الخلافة بعد أبي العباس عاصمة جديدة لنفسه في بغداد بـالقرب مـن خرائـب المـدائن (طيشـفون) (Ctesiphon) العاصمة الساسانية القديمة. وأصبح الأتراك والفرس أمراء مع العرب سواء بسواء، وأعيـد تنظيم الجيش على النظم الساسانية. ولم يعد للمدينة ومكة آنئذ من أهمية قـط إلا كمركـزين للحـج يـولي المؤمنون وجوههم شطرهما في الصلاة[1]. على أن العربية استمرت في انتشارها وحلت محل اللغة الرومية وأصبحت لغة المتعلمين في كل أرجاء العالم الإسلامي لأنها كانت لغة ممتازة ولأنها كانت لغة القرآن.

ولن ندلي إليك إلا النزر اليسير عن ملوك العباسيين بعد أبي العباس. وكانت تنشب سنة بعد سنة في آسيا الصغرى حرب مناوشات سريعة رجراجة، لم تفز فيها بيزنطة ولا بغداد بـأي كسـب دائـم، وإن وصـل المسلمون في غزوهم مرة أو مرتين إلى البسفور. وظهر نبي كذاب هو المقنع، ادعى الألوهية واستمر مـدة قصيرة الأمد، ولكنه أتعب الدولة وشغلها. ودبرت مؤامرات وشبت ثورات ترقد اليوم فـي أسـفار التـاريخ هزيلة باهتة كما ترقد الزهرات الميتة بين دفتي سفر قديم. وثمة خليفة عباسي آخر لا مندوحة لنا مـن ذكـر اسمه، وذلك لما يدور حوله من الأساطير وما له من أهمية حقيقية سواء بسواء، ذلك هـو هـارون الرشـيد (٧٨٦ – ٨٠٩). لم يكن فحسب خليفة لإمبراطورية ظاهرها الرخاء في عالم الحقيقة، بل كان كـذلك خليفـة إمبراطورية خالدة لا تغرب لها شمس في عالم القصة السرمدي، فهو هارون الرشيد في "ألف ليلة وليلة".

---

(1) حج المسلمين هو للبيت الحرام، وللحج مناسك مثل عرفة والصفا والمروة وغيرها وكلها بجوار مكة، كما أن قبلة المسلمين للصلاة هي المسجد الحرام بمكة؛ وللمدينة حرمتها الخاصة في نظر المسلمين؛ فهي في نظرهم فقط مهجر رسول ا صلى ا عليه وسلم ومثواه الأخير بعد الوفاة، ومن ثم كانت زيارتهم لها قبل الحج أو بعده واجبة للتزود عن قرب بزيارة قبـر صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام. (المترجم).

ويدبج السير مارك سايكس في وصف إمبراطوريته الواقعية بيانا نقتبس منه فقرات معينة [1]، كتب يقـول: "كان البلاط الإمبراطوري مهذبا مترفا غنيا غنى لا حد له؛ وكانت العاصمة بغداد، مدينة تجارية هائلـة تحـيط بقلعة ضخمة هي مقر الحكم والإدارة، كان فيها لكل مصلحة من مصالح الدولة ديوان عام منظم علـى قواعـد صحيحة ومرتب ترتيبا تاما؛ وفيها كثرت المدارس والكليات؛ وإليها تقاطر الفلاسفة والطلاب والعلماء والشعراء والفقهاء من كل أنحاء العالم الممدن.. وكانت العواصم الإقليمية مزدانة بالمباني العمومية الضخمة؛ وتتصل فيما بينها بخدمة سريعة فعالة من بريد وقوافل؛ وكانت التخوم منيعة وفيها الحاميات الكافية، وكان الجيش مخلصـا للخليفة وفيا ذا اقتدار وشجاعة؛ وكان الحكام والوزراء شرفاء رحماء. وكانت الإمبراطورية تمتد بقوة متعادلـة وهيمنة سليمة من بوابة قيليقية [2] إلى عدن، ومن مصر إلى آسيا الوسطى. وكان المسيحيون والوثنيون واليهود والمسلمون على السواء يعملون في خدمة الحكومة. وكأنما اختفى المغتصبون للعـروش والقـواد المتمـردون والأنبياء الكذبة من الديار الإسلامية اختفاء تاما. وحلت حركة التبادل والثراء محل الثورة والمجاعة... وكانـت الأوبئة والأمراض تواجه بالمستشفيات الإمبراطورية وأطباء الحكومة.. فأما في أعمال الحكومة، فإن طرائـق الإدارة العربية الفجيجة الارتجالية أخلت مكانها لنظام معقد من الدواوين نقل عن الروم منه جزء، ولكنـه أخـذ في الغالب من النظام الحكومي الفارسي. فكان البريد والمال وديوان الخاتم وأراضي التـاج ومرافـق العدالـة والشئون العسكرية تدار كل منها من دواوين منفصلة على أيدي وزراء وموظفين، وكان جـيش مـن الكتبـة والناسخين والمنشئين والمحاسبين المحتشدين في هذه الإدارات يجمعون كل قوة للحكومة في أيديهم هم رويـدا رويدا، وذلك بإبعادهم أمير المؤمنين عن أي اتصال مباشر برعاياه. كان القصر الإمبراطوري ومن بـه مـن حاشية، مؤسسين بالمثل على سوابق وتقاليد رومية وفارسية. وكان الخصيان ودور الحريم المنعزلة والمفروض عليها الحجاب الشديد والحراس والجواسيس والوسطاء والمضحكون والشعراء والأقزام يتزاحمون حول شخص أمير المؤمنين، كل في مكانته يحاول أن يحظى بالعطف الملكي ويشغل العقل الملكي بطريقة غير مباشرة عـن شئون العمل والدولة. وفي نفس الوقت كانت تجارة الشرق تصب الذهب في بغداد صبا، وتضيف إلـى سـيل النقود الهائل المأخوذ من فيء الأسلاب والغنائم المرسل إلى العاصمة من لدن قواد القوات المغيـرة المظفـرة، التي كانت تسلب آسيا الصغرى والهند والتركستان. وثمة معين آخر للثراء كان يبدو كالفيض الذي لا نهاية له، وهو المماليك والأتراك والنقود المعدنية البيزنطية، وكان يزيد دخل العراق ثراء، كما كان – بالإضـافة إلـى حركة التبادل التجاري الضخمة التي كانت بغداد مركزا لها، يخلق طبقة كبيرة قوية من ذوي اليسار: تتألف من أبناء القواد والموظفين وأرباب الأملاك وأحظياء الملك والتجار ومن إليهم، ممن شجعوا الفنون والأدب والفلسفة والشعر بالقدر الذي تحملهم عليه أمزجتهم، بأنين القصور لأنفسهم، متنافسين فيما بيـنهم فـي بـذخ تـرفهم، محرضين الشعراء على مديحهم والإشادة بذكرهم متلهين بالفلسفة، معضدين مدارس للفكـر متنوعـة، بـاذلين الصدقات وسالكين في الحقيقة نفس الطريق الذي يسلكه الأثرياء في كل العصور.

---

(1) كتاب آخر تراث الخلفاء The Caliph's Last Heritage

(2) بوابة من قيليقية (جوليك بوغاز) ممر ضيق يخترق سلسلة جبال طوروس بآسيا الصغرى، والطريق الرئيسي منه يمتد من الغرب، في منحدر طويل وعر يبدأ من الهضبة الوسطى، إلى وادي أطنة (أدنة) وطرسوس. واتساع الطريق عند البوابـة نفسها ٢٥ قدما. (المترجم).

"ولقد قلت إن الإمبراطورية العباسية في أيام هارون الرشيد كانت ضعيفة واهنة إلى درجـة مـا ولعـل القارئ يعد هذا فكرة حمقاء عندما يضع في اعتباره أني وصفت الإمبراطوريـة بالنظـام، والإدارة بالدقـة والاستقرار، والجيش بالاقتدار، والثروة بالوفرة. ويرجع ذهابي لهذا الرأي إلى أن الإمبراطوريـة العباسـية قطعت صلتها بكل شيء أصيل وحيوي في الإسلام، وأنها أقيمت بكليتها على تجميع أشلاء الإمبراطوريـات التي حطمها الإسلام من قبل. ولم يكن في الإمبراطورية شيء يستثير في قادة الشعب أسمى الغرائـز؛ إذ إن الجهاد، أو الحرب المقدسة، قد انحط وتحول إلى استيلاء منظم على الغنائم. وبات الخليفة إمبراطورا أو ملكًا للملوك مترفًا فاخرا. على حين انتقلت الإدارة من النظام "الأبوي" إلى نظام مركزي بيروقراطـي. وأخـذت الطبقات الكبيرة الغنى تفقد كل إيمان بديانة الدولة. بينما أخذ التأمل والنظر الفلسفي والمعيشة الراقية يحـلان محل العقيدة القرآنية السلفية والبساطة العربية. وقد أهمل كل من الخليفة ومستشاريه إهمـالاً تامـا صـرامة الإسلام وبساطته، وهما الرابطة الوحيدة التي كان في وسعها أن تربط بين أجـزاء الإمبراطوريـة. وكـان هارون الرشيد نفسه من معاقري النبيذ [١] وكان قصره مزينا بصور وتماثيل للطير [٢] والحيوان والإنسان.

وإنا لنتوقف هنيهة ذاهلين أمام عظمة الممتلكات العباسية؛ ثم لا نلبث أن ندرك فجأة أنهـا لا تزيـد عـن غلالة براقة تستر رفات المدنيات الغابرة ورمادها".

مات هارون الرشيد سنة ٨٠٩. وما إن مات حتى هوت إمبراطوريته العظيمة في حمأة الحـرب الأهليـة والاضطرابات. والحادثة الكبرى التالية ذات الأهمية البارزة في هذا الجزء من العالم، تأتي بعد ذلك بمـائتي سنة عندما انثال الترك من التركستان جنوبا بقيادة رؤساء آل سلجوق العظام، ولم يقهروا فحسب إمبراطورية بغداد، بل آسيا الصغرى كذلك. ونظرا لانحدارهم من الشمال الشرقي، فإنهم استطاعوا أن يتجنبـوا الحـاجز العظيم وهو جبال طوروس، التي ظلت حتى ذاك الحين تصد المسلمين. وكانوا لا يزالون الكثير من شـأنهم نفس أولئك الذين أعطانا عنهم يوآن تشوانج لمحة سريعة قبل ذلك بأربعمائة سنة، ولكـنهم كـانوا الآن قـد أسلموا، وكانوا مسلمين من الطراز البدائي، أي رجالاً ممن كان أبو بكر يرحب باعتناقهم الإسلام. فأحـدثوا في قوة الإسلام انتعاشًا عظيما، وأداروا أذهان العالم الإسلامي من جديد صوب الجهاد (الحرب الدينية) ضـد المسيحية. ذلك أنه حدث ضرب من الهدنة بين هاتين الديانتين العظيمتين بعـد انقطـاع التقـدم الإسـلامي واضمحلال شأن الأمويين. أما تلك الحروب التي دامت بين المسيحية والإسلام فكانت بالأحرى مناوشات في منطقة التخوم أكثر منها حربا متصلة الحلقات. ولم تصبح كفاحا مريرا تعصبيا من جديد إلا في القرن الحادي عشر.

---

(١) ذكروا أن هارون الرشيد كان يحضر مجالس الشراب وأنه كان يشرب ولكنهم اختلفوا في نوع شرابه من حيث الاختمـار والتأثير على العقل فجعلوه النبيذ غير المحرم عند أبي حنيفة والظاهر أن هارون الرشيد كـان ممعـودا وكـان الشـراب ضروريا له لتيسير الهضم وبهذا لا يكون معاقرا للنبيذ المحرم. (المترجم).

(٢) انظر "حضارة الإسلام" لجرونيباوم وترجمة المترجم، (الألف كتاب ومكتبة مصر بالفجالة ص ٤٤ – ٤٥) في اقتباس عـن البغدادي في وصف الشجرة الذهبية وطيورها المعدنية المغردة وأروقة قصر الخلافة وفخامته. (المترجم).

٨- الثقافة العربية

على أنا قبل أن ننتقل فنحدثك عن الأتراك والصليبيين، وعن الحروب العظيمة التي ابتدأت بين المسـيحية والإسلام، والتي خلفت من ورائها حالة جنونية شديدة من عدم التسامح بين هذين النظامين العظيمين دامـت حتى العصر الحاضر، نرى من الضروري أن نوجه مزيدا من عنايتنا للحياة الفكريـة فـي العـالم النـاطق بالعربية الذي كان آخذًا عند ذاك في الانتشار انتشارا يزداد سعة أكثر فأكثر فوق الأقاليم التي تسلطت عليهـا الثقافة الهلّينية يوما ما. فقد كان الذهن العربي، قبل محمد(ﷺ) ببضعة أجيال متقدا بنار تسري تحت الرمـاد، فكان ينتج الشعر والشيء الكثير من الجدل الديني. وما لبث ذلك العقل – بتأثير ما أحرز من النجاح القـومي والعنصري – حتى تأجج في تألق لا يفوقه إلا ما كان للإغريق في أزهى عصورهم. فأحيا من جديد بحـث الإنسان وراء العلم. فلئن كان الإغريقي أبا للطريقة العلمية، فلقد كان العربي أبا روحيا لها وشريكًا لـه فـي أبوتها. فمن العرب، وليس عن طريق اللاتين، تلقى العالم العصري تلك المنحة من النور والقوة.

على أنا عندما نكتب كلمة العرب هاهنا، يجب أن نكتبها في قدر معين من التحفظ فـإن ثقافـة الإسـلام العربية تتصل بالعربي القح بصلة تشابه إلى حد ما صلة الثقافة الهلّينستية [١] بعد أيام الإسكندر بـالإغريقي الأوربي الأصلي. إذ لم تعد تلك الثقافة نقية من الناحية العنصرية. بل ضمت بين دفتيها مجموعة من الثقافات السابقة عليها، هي ثقافة فارس في عهد الأسرة الأرشكية [٢] والثقافة القبطية لمصر المهلنة. إذ لم تلبث فارس ومصر أن تعلمتا الحديث بالعربية في سرعة عظيمة على أنهما ظلتا في جوهرهما فارس ومصر.

وكانت فتوح العرب الأولى قد أتاحت للثقافة العربية صلة وثيقة بالتقاليد الأدبية الإغريقية. حقًا إن ذلك لم يحدث في الإغريقية الأصلية ولكن عن طريق الترجمات السريانية المنقولة عن الكتاب الإغريق. ويلـوح أن المسيحيين النساطرة، وهم المسيحيون المقيمون إلى الشرق من الأرثوذكسية" كانوا أكثر ذكاء وأنشط ذهنًا من علماء اللاهوت في بيزنطة، كما كانوا من حيث مستوى التعليم العام أعلى كثيرا من مسيحيي الغرب الناطقين باللاتينية. وحظوا بالتسامح في الأيام الأخيرة للدولة الساسانية، كذلك تسامح معهم الإسلام حتى يوم ارتفـاع شأن الترك في القرن الحادي عشر. كانوا العمود الفقري لثقافة العالم الفارسي. وكانوا احتفظوا بكثير من علم الطب الهلينستي، بل لعلهم أضافوا إليه أشياء. ففي عصر بني أمية كانت غالبية الأطباء في دولة الخلافة من النساطرة، ولا مراء أن الكثيرين من علماء النساطرة اعتنقوا الإسلام دون أن يلم بهم أي ندم خطيـر أو أي تغير عظيم في مرتزقهم أو أفكارهم. ومن فضلهم على العلم احتفاظهم بالكثير من مؤلفات أرسطو في كل من

---

(١) يفرق المؤرخون بين الثقافة الهلينية وهي الإغريقية بصفة عامة شاملة والثقافة الهلينستية أي اليونانية بعد عصر الإسـكندر انظر للمترجم كتاب "الحضارة الهلينستية" (تارن) مكتبة الأنجلو والألف كتاب. (المترجم).

(٢) الأرشكيون Arsacide: هم أسرة حكمت إحدى دول الطوائف بعد الإسكندر الأكبر أو هي الأسرة الغالبة علـى أمـر دول الطوائف جميعها ومنها أردوان الأصغر الذي نازعه السيادة أردشير بن بابك وقتله وتلقب بشاهنشاه، وأردشير هـذا هـو مؤسس الدولة الساسانية في فارس. (المترجم)

الإغريقية والترجمات السريانية. وكانت لديهم مؤلفات كثيرة في الرياضيات. ولا شك أن عتادهم مـن العلـم يجعل ما لدى كل من القديس بندكت أو كاسيودوراس من موارد معاصرة، يبدو في حالـة إعـواز تسـتحق الرثاء. وإلى هؤلاء المعلمين النسطوريين وفد من الصحراء العقل العربي الغفل متوقدا مستطلعا، فاسـتوعب كثيرا ورفع قيمة ما تعلم بزيادته قدرا وتحسينه نوعا. تعلم كثيرا واستوعب كثيرا. ومن قبل ذلك كانت فارس قرونًا عدة ميدانًا لنشاط لاهوتي وفكري عميق دقيق. فعندئذ تدثر هذا النشاط بدثار الأساليب العربية وأصـبح سبيلاً للزندقة والانقسام في الديانة الإسلامية. وكان الانقسام الشيعي فارسيا في جوهره.

على أن الفرس ومعهم العلم الهليني لم يكونوا المعلمين الوحيدين الذين أتيحوا للعرب، فقد كان ذوو قرباهم اليهود منتشرين في كل مدن الشرق الغنية ومعهم أدبهم وتقاليدهم الخاصة المميزة لهم. وأثر العقـل العربـي والعقل اليهودي كل منهما في صاحبه تأثيرا عاد بالمنفعة المشتركة عليهما جميعا. فاستفاد العربي من ذلـك علما وأفاد اليهودي من ذلك مزيدا من الشحذ الفكري. ولم يحدث قط أن كان اليهود متحذلقين في أمر لغتهم. فلقد ذكرنا من قبل أنهم كانوا قبل ظهور العرب بألف سنة، يتكلمون الإغريقية في الإسكندرية المهلنة وها هم الآن في كافة أنحاء هذا العالم الإسلامي الجديد يتكلمون العربية ويكتبونها. فكتبت في العربية طائفة من أعظم الآداب: (المؤلفات) اليهودية، منها على سبيل المثال، كتابات ابـن ميمـون (Maimonides) الدينيـة [1]. والواقع أن من العسير أن نقول، في حالة هذه الثقافة العربية، متى ينتهي المؤثر اليهودي ويبدأ العربي، فـإن عواملها اليهودية بلغت من الجوهرية والأهمية حدا كبيرا.

وفضلاً عن ذلك، فثم مصدر ثالث للإلهام، هو، بلاد الهند – وقد تجلى على الأخص في علم الرياضيات، ويعسر علينا في الوقت الحاضر أن نقدره حق قدره. وليس هناك إلا القليل من الشك في أن الـذهن العربـي إبان فترة روعته كان على اتصال وثيق فعال بالأدب السنسكريتي وبعلم الفوزيقي "الهندي الفارسـي" Indo-Persian.

وقد تجلت نواحي النشاط الذهنية التي يمتاز بها العقل العربي منذ أيام بني أمية وإن لـم تظهـر بأحسـن مظاهرها إلا في عهد العباسيين. والتاريخ هو بداية ولباب كل فلسفة سليمة وكل أدب عظيم، وكان أول مـن برز من الكتاب العرب الممتازين هم المؤرخون وكتاب التراجم والشعراء شبه المؤرخين. وتبع ذلك ظهـور رواية المغامرة العاطفية (الرومانس) والقصة القصيرة عندما نشأ جمهور من القراء يريد أن يتسلى. حتى إذا كفت القراءة عن أن تكون امتيازا خاصا، وأصبحت ضرورية لكل رجال الأعمال ولكل شاب مهـذب، نشـأ التطور المنظم لنظام تعليمي وأدب تعليمي. وعند حلول القرنين التاسع والعاشر لم يكن لدى المسلمين مؤلفات في قواعد اللغة (أجروميات) فحسب بل معاجم عظيمة وكتلة ضخمة من الدراسات في فقه اللغة.

---

[1] هو أبو عمران موسى بن ميمون (١١٢٣٥ – ١٢٠٤) فيلسوف وطبيب يهودي ومصنف قوانين. ولد بقرطبة، وأنتج فلسفة دينية لها وزنها وعمل طبيبا لصلاح الدين وأولاده بمصر، وله مؤلفات منها "مشنة التوارة" و "دليل الحائرين" (المترجم).

وقد سبق العالم الإسلامي الغرب بقرن أو ما يقاربه، إذ نمت به مجموعة من الجامعات العظيمة في عدد من المراكز في البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة وفي قرطبة، تطورت عما كان في مبدأ الأمر مدارس دينية تعتمد على المساجد. فأضاء نور هاته الجامعات خارج العالم الإسلامي إلى مسافات بعيدة، واجتذب إليها الطلاب من الشرق والغرب. وكانت قرطبة بصفة خاصة تحتوي أعدادا كبيرة من الطلاب المسيحيين، وكان تأثير الفلسفة العربية الوافدة عن طريق إسبانيا على جامعات باريس وأكسفورد وشمال إيطاليا وعلى الفكر الأوربي الغربي عامة، - جسيما جدا ولا جرم. ويبرز اسم ابن رشد القرطبي (١١٢٦ – ١١٩٨) ممثلاً لأقصى ما بلغه تأثير الفلسفة العربية من سلطان على الفكر الأوربي. وهو الذي طور تعاليم أرسطو على أسس فصلت الصدق الديني عن الصدق العلمي فصلاً تاما، وبذا مهد الطريق لتحرير البحث العلمي من المذهب الاعتقادي (Dogmatism) اللاهوتي الذي كان يقيده في ظلال كل من المسيحية والإسلام. وهناك اسم عظيم آخر هو ابن سينا أمير الأطباء (٩٨٠ – ١٠٣٧) الذي ولد في الطرف الآخر من العالم العربي ببخارى، وتنقل في خراسان [1]... وازدهرت صناعة نسخ الكتب في الإسكندرية ودمشق والقاهرة وبغداد، وقرابة سنة ٩٧٠ كانت هناك سبع وعشرون مدرسة مجانية في قرطبة لتعليم الفقراء.

ويقول تاتشر وشويل [2]: "شاد العرب ما شادوه في الرياضيات على الأسس التي أقامها الرياضيون الإغريق. وأصل ما يسمى بالأعداد العربية يغشاه الإبهام. وقد حدث في عهد ثيودوريك الأعظم أن استعمل بويثيوس (Boëthius) علامات معينة، كانت من ناحية جزئية شبيهة جدا بالأرقام التسعة التي نستعملها الآن". وكذلك استخدم أحد تلاميذ جربرت علامات كانت أشد شبها بأرقامنا؛ على أنه يقال إن الصفر ظل مجهولاً حتى القرن الثاني عشر، عندما اخترعه رياضي عربي اسمه محمد بن موسى [3]، الذي كان كذلك أول من استعمل العلامات العشرية، وأعطى الأرقام القيمة الوضعية في خاناتها. على أن هذا ينازع فيه الكثيرون من الهنود الذين يدعون لأنفسهم الصفر والطريقة العشرية بوصف كونهما مساهمة فعالة وفضلاً للهند على الثقافة.

"ولم يضف العرب إلى ما ابتكره إقليدس في الهندسة إلا الشيء القليل، ولكن الجبر يكاد يكون من خلقهم؛ وكذلك أدخلوا تحسينات على حساب المثلثات الدائري مخترعين جيب الزاوية (Sine) وظل الزاوية (tangent) وظل تمام الزاوية (Contangent)، واخترعوا في "علم الفوزيقي" البندول وكتبوا في علم البصريات (Optics) بعض الكتب. وتقدموا بعلم الفلك. فبنوا مراصد عديدة وركبوا كثيرا من الآلات الفلكية لا تزال تستعمل حتى اليوم. وحسبوا زاوية سمت الشمس (Ecliptic) والموضع الدقيق لنقطتي الاعتدالين. وكانت معرفتهم بالفلك جسيمة ولا مراء.

---

(1) خراسان : هي منطقة شمال شرق إيران المتاخمة لبلاد التركستان. (المترجم).

(2) في كتابهما: "A General History of Europe"

(3) هو عبد ا محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٨٥٠) رياضي وفلكي وجغرافي، عربي عاصر المأمون (المترجم)

"وتقدموا في الطب أشواطًا بعيدة على الإغريق. ودرسوا علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) وعلم تدبير الصحة، ويكاد علم الأقراباذين [1] (المادة الطبية Medical material) لديهم أن يكون هو نفس ما لدينا اليوم. ولا يبرح كثير من طرق العلاج عندهم مستعملا بين ظهرانينا إلى اليوم. وكان جراحوهم يفهمون استعمال التخدير، ويقومون بطائفة من أصعب العمليات المعروفة. وفي نفس الوقت الذي كانت فيه الكنيسة تحرم ممارسة الطب انتظارا منها لإتمام الشفاء على يد المناسك الدينية التي يقوم بها القساوسة، كان لدى العرب علم طبي حق.

"وابتدءوا في الكيمياء بداية حسنة. واكتشفوا كثيرا من المواد الجديدة، من أمثال البوتاس ونترات الفضة والسليماني وحمض النتريك والكبريتيك. وكلمة "الكحول" عربية؛ وإن كانت المادة معروفة باسم "أرواح الخمر" عند بليني (١٠٠ م). فأما في الصناعة فإنهم بزوا العالم في تنوع الصنف وجمال التصميم وإتقان الصنعة. كانوا يشتغلون في جميع أنواع المعادن: الذهب منها والفضة والنحاس والبرنز والحديد والصلب. ولم يفقهم أحد أبد الدهر في صناعة المنسوجات. وصنعوا زجاجا وخزفًا من أرق الأنواع وأشدها امتيازا. وعرفوا أسرار الصباغة، وصنعوا الورق. وكانت لديهم طرائق عديدة لتهيئة الجلود، وكانت مصنوعاتهم الجلدية شهيرة في كافة أرجاء أوربا. وأنتجوا الأصباغ والعطور والأشربة. وصنعوا السكر من القصب، وأوجدوا أصنافًا كثيرة ممتازة من الخمور. ومارسوا الزراعة بطريقة علمية، وكانت لديهم طرائق جيدة للري. وعرفوا قيمة المخصبات، وكيفوا محصولاتهم حسب نوع التربة. وتفوقوا في فلاحة البساتين وعرفوا كيف يطعمون النباتات وكيف ينتجون أضربا جديدة من الفواكه والأزهار. وأدخلوا إلى الغرب أشجارا كثيرة ونباتات متعددة اجتلبوها من الشرق، وكتبوا رسائل علمية في الزراعة".

وثمة عنصر في هذا البيان يجب أن يبرز هنا بسبب أهميته في حياة البشرية الفكرية، وهو صناعة الورق. ويلوح أن العرب تعلموا تلك الصناعة من الصينيين بطريق آسيا الوسطى؛ وأخذها الأوربيون عن العرب. وكان لزاما حتى ذلك الزمان أن تكتب الكتب على الرق [2] أو البردي، حتى إذا فتح العرب مصر، انقطع عن أوربا مورد البردي. وما كان فن الطباعة بكبير الغناء، ولا كانت الصحف والتعليم الشعبي العام بوساطة الكتب من الأمور الممكنة، حتى أصبح الورق وفيرا. وربما كان هذا عاملاً أعظم أثرا في تأخر أوربا النسبي أثناء العصور المظلمة، مما يبدو أن المؤرخين يميلون إلى الاعتراف به...

---

(1) الأقرباذين: فرع الطب الذي يبحث في مصادر الأدوية وطبيعتها وخصائصها وتحضيرها. (المترجم).

(2) الرق بفتح الراء جلد رقيق يكتب فيه – المعجم الوسيط . (المترجم)

وتواصلت حلقات هذه الحياة العقلية في العالم الإسلامي على الرغم مما شمله من فوضى سياسية ذريعة. ولم يحاول العرب من البداية إلى النهاية أن يعالجوا المشكلة التي لا تزال تنتظر الحل، ألا وهي مسألة الدولة المستقرة التقدمية؛ فقد كان نظام الحكم عندهم في كل مكان مطلقًا وعرضة للهزات والتغيرات والمؤامرات والقتل، وهي أمور كانت على الدوام ولا تزال من خصائص الملكيات الشديدة التطرف. ولكن روح الإسلام ظلت بضع قرون تحتفظ للناس عامة بقدر من الاستقامة وضبط النفس من وراء آثام القصور والمعسكرات ومنافساتها، وكانت الإمبراطورية البيزنطية أعجز من أن تحطم هذه المدنية، كما أن الخطر التركي في الشمال الشرقي لم يفتأ يشتد قوة ولكن في بطء كبير. واستمرت حياة الإسلام الذهنية نابضة بالحياة حتى أطبق الترك عليها. ولعلها كانت تمني نفسها في طويتها بأنها قادرة على البقاء بالرغم مما كان يتبدى في توجيهها السياسي من آيات العنف والمخالفة لكل معقول. وقد كان هذا، حتى ذلك الحين، هو الخاصة المميزة للعلم والأدب في كافة الأقطار. إذ كان الرجل ذو العقلية والفكر المثقف نافرا من الاصطدام برجل العنف والقوة. وكان على الجملة رجلاً ممن حذقوا خدمة البلاط والمداورة مع مقتضيات الزمان. ومن المحتمل أنه لم يكن قط تام الثقة بنفسه وإلى ذلك الحين، لم يكن لأهل الحكمة والمعرفة شجاعة المتعصب الديني (الفنطيق) وثقته بنفسه. ولكن لا يكاد يساورنا أدنى شك في أنهم قد تجمعت لديهم عقائد ثابتة، واستجمعوا الثقة في أنفسهم أثناء القرون القليلة الأخيرة، فاهتدوا في بطء إلى سبيلهم إلى القوة والسلطان بفضل تطور التعليم الشعبي العام والأدب الرائج بين الناس عامة، وها هم اليوم أشد ميلاً إلى التحدث عن الأشياء بصراحة ووضوح، وإلى المطالبة لأنفسهم بحق التسلط على تنظيم الشئون البشرية أكثر مما سبق لهم من قبل في أي عصر من عصور تاريخ العالم.

الفن العربي

ترتبط الفتوح الإسلامية بطرز جديدة في العمارة، وهي تسمى بأسماء متنوعة هي: المشرقية أو الإسلامية والمحمدية والعربية. على أن العربي الحق فيما يقول "جايت Gayet" لم يك قط فنانًا. وإنما شيد العربي المساجد والقصور والقبور والمدن، لأنه اضطر أن يبتنيها بحكم الحاجة. على أنه وجد عماله ومهندسيه ومعماريه بين المصريين والسوريين والفرس الذين أخضعهم. فلم يكن الفن العربي في فارس إلا مجرد استمرار للفن الفارسي، ولكن حدث في مصر وسوريا تكييف حقيقي يساير الظروف الجديدة، وظهور طراز جديد وخصيصة جديدة في المباني والزخرفة. كان هذا هو الفن "العربي" بأدق معانيه. وإلى الغرب في شمال إفريقيا وإسبانيا نشأ تنويع خاص جديد يتميز بعقد الأشكال البيزنطية باستبدال العقد المستدير بالعقد المدبب؛ وكانتا تقدمتا على الفن البيزنطي كثيرا بإهمال الأشكال المصنوعة نماذج مجسمة ذلك بأنهم كانوا يغفلون الروح الواقعية الهلينية ويستبدلون بها التنزيين الزخرفي بالرسوم والنقوش. وكان المزاج العربي المفطور على التأمل والنشوة ميالاً بكليته إلى تقوية هذه العملية. "ولا يرجع ذلك – كما يقول جايت – إلى الرغبة في إطاعة ناموس ديني – لأن هناك كثيرا من التصاوير العربية المبكرة التي تمثل الأشكال الحية – بل إلى غريزة فطرية ركبت فيهم". والعربي يبدي في شئون الحياة العادية، وبصرف النظر عن أية ثقافة، كراهية شديدة لتعرية جسده أو النظر إلى جسد عار. وحدث تدريجيا في ثنايا تطور الفن العربي أن انتقلت الزخرفة من صور الحيوان والنبات المتواضع عليها إلى المتشابكات الهندسية المسماة "بالنسق الزخرفي العربي Arabesque " وتصبح السقوف والأقبية مغشاة بطبقة مشكلة لا يبرح تشكيلها يزداد عمقًا، فيتكاثر التلبيس بالأستار المثقّبة، بل إن الشكل الخارجي نفسه يصير مجسما متعدد السطوح، وتغدو الأقبية مغطاة بجمانات (Studs) مستديرة ومتعددة الأضلاع (Polygonal) تتدلى آخر الأمر تدلي المعلقات الكلسية [1]. ويتمخض هذا الخفض والرفع والبروز والتوهد عن جمال جديد سحري شبيه بجمال البلورات والتموجات المائية والإيقاعات الساحرة الغامضة لغير الأحياء من الأشياء، ولكنه جمال يضاد على خط مستقيم تلك الحريات المطلقة والسوقيات الفخمة والحيوية المتدفقة للفن الهليني.

وتقترن هذه التطورات البنائية بخصائصها العربية في أذهاننا بالمئذنة والقبة البصيلية واستعمال جميل للقراميد المزججة التي غالبا ما تكون جزلة الحليات. وثمة توسع هائل في استعمال الزخرفة المكونة من آيات وفقرات قرآنية بالخط العربي الانسيابي الجميل.

---

(1) المعلقات الكلسية: (Stalactites) : تكوينات كلسية مدببة تنشأ في الكهوف الطبيعية عن رشح المياه الجيرية وتبدو متدلية كالثريات والشموع من سقوف الكهوف. (المترجم)

الفصل الحادي والثلاثون

عالم المسيحية والحروب الصليبية

١- العالم الغربي في أشد دركات تدهوره.

٢- نظام الإقطاع.

٣- مملكة الميروفنجيين الفرنجية.

٤- تنصير البرابرة الغربيين.

٥- شرلمان يصبح إمبراطورًا على الغرب.

٦- شخصية شرلمان.

٧- الفن والعمارة الرومانسكميان.

٨- الفرنسيون والألمان يتم انفصالهم.

٩- النورمانديون والعرب والمجريون والأتراك السلجوقيون.

١٠- كيف استغاثت القسطنطينية بروما.

١١- الحروب الصليبية.

١٢- الحروب الصليبية اختبار للمسيحية.

١٣- الإمبراطور فردريك الثاني.

١٤- معايب البابوية وتحديداتها.

١٥- قائمة بأسماء البابوات العظام.

١٦- العمارة والفن القوطيان.

١٧- موسيقى العصور الوسطى.

العالم الغربي في أشد دركات تدهوره

علينا الآن أن نحول التفاتنا مرة ثانية من هذه النهضة الفكرية التي قامت في مهد المدنيات القديمة إلى شئون العالم الغربي.

ولقد وصفنا لك الانهيار التام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي ألم بالنظام الإمبراطوري الروماني في الغرب، وبينا الارتباك والظلمة اللذين أعقبا ذلك إبان القرنين الخامس والسادس، وكفاح رجال من أمثال كاسيودوراس في سبيل حفظ شعلة العلوم الإنسانية متقدة وسط هذه الارتباكات العاصفة. وتمر فترة من الزمان يكون من البلادة أن يكتب المرء عما قام فيها من الدول والحكام إذ لا دول هناك ولا حكام. وكل ما في الأمر أن بعض المغامرين الصغار أو الكبار كانوا يستولون على قلعة أو ناحية من الريف ويحكمون منطقة غير ثابتة الحدود حكما غير مستقر. فكانت الجزر البريطانية مثلاً. مقسمة بين حشد كبير من الحكام؛ وكان هناك زعماء كلتيون عديدون في أيرلندة واسكتلندة وويلز وكورنوال، يتقاتلون ويتغلبون أحدهم على الآخر أو يخضعون بعضهم لبعض. وكان الغزاة الإنجليز مقسمين أيضا إلى عدد من الممالك غير المستقرة، وهي كنت ووسكس وساسكس وإسكس ومرسيا ونورثمبريا وأنجليا الشرقية، وهي دول لا تنقطع الحرب بينها أبدا.

وكذلك كان شأن معظم أقطار العالم الغربي فأنت واجد هنا أسقفًا يتولى الملك، كما كان جريجوري الكبير في روما. وواجد ها هنا مدينة أو مجموعة من المدن تحت حكم دوق أو أمير لهذه أو لتلك. وكنت تجد بين الخرائب الهائلة بمدينة روما، أسرات نصف مستقلة من مغامرين شبه نبلاء، كل يزود عن حياضه ومعه أتباعه. وكان للبابا نوع من السيادة العامة هناك، ولكن كان ينافسه في تلك السيادة ويرجحه تماما في بعض الأحيان شخص يطلق على نفسه "دوق روما". وقد حول المجتلد [1] العظيم في الكولوزيوم إلى حصن يملكه فرد، وكذلك حول قبر الإمبراطور هادريان الهائل المستدير؛ وكان المغامرون الذين استولوا على تلك المعاقل يقطعون هم وأنصارهم الطريق بعضهم على بعض، ويتقاتلون ويتناوشون في الشوارع الخربة للمدينة التي كانت يوما ما حاضرة الإمبراطورية. وكان قبر هادريان يعرف بعد أيام جريجوري الكبير باسم قلعة سانت أنجيلو أي حصن الملاك المقدس، لأنه عندما كان البابا جريجوري يعبر الجسر من فوق التيبر في طريقه إلى كنيسة القديس بطرس ليصلي طالبا رفع الوباء العظيم الذي كان يعيث في المدينة دمارا، أطافت به رؤيا ملك عظيم واقف فوق كتلة الضريح الدكناء وهو يغمد سيفًا، وعند ذلك عرف أن دعواته ستستجاب. وقد لعبت قلعة سانت أنجيلو هذه دورا عظيما للغاية في الشئون الرومانية أثناء هذا العصر المضطرب.

---

(1) المجتلد (Arena) هو كما سبق أن ذكرنا الجزء المتوسط من مدرجات الألعاب العنيفة، وهو مفروش بالرمل للمصارعات. انظر المجلد الثاني ص ٥٦٣ [ط٣]. (المترجم)

وكانت إسبانيا على نفس التمزق السياسي الشديد الذي كانت عليه إيطاليا وفرنسا وبريطانيا، وكان النـزاع القديم بين القرطاجي والروماني لا يزال مستمرا في إسبانيا متمثلاً في العداء المرير بين أخلاقهم وورثتهم من يهود ومسيحيين، حتى إنه لما جرفت قوة الخليفة ما أمامها على امتداد الساحل الإفريقي الشمالي إلى مضـيق جبل طارق، وجدت في يهود إسبانيا أعوانًا متأهبين لمعاونتها في غزوها لأوربا. فإن جيشًا عظيما من العرب والبربر (وهم الشعوب الحامية المترحلة في الصحراء الإفريقية والأراضي الجبلية الداخلية الـذين اعتنقـوا الإسلام)، قد عبر البحر وهزم القوط الغربيين في معركة عظيمة (٧١١). وأصبحت البلاد بأجمعها في قبضة أيديهم في بضع سنين [١].

وما حلت (٧٢٠) حتى كان الإسلام قد بلغ جبال البرانس، واندفع من حول نهايتها الشرقية إلـى فرنسـا؛ وانقضت فترة من الزمان لاح للناس أثناءها أن الدين الجديد موشك أن يخضع بلاد الغـال (فرنسـا) بـنفس السهولة التي أخضع بها شبه الجزيرة الإسبانية. على أنه ما لبث أن اصطدم من فوره بشـيء صـلب، هـو مملكة جديدة للفرنجة، أخذت أجزاؤها تتماسك طوال قرنين تقريبا في أرض الراين وشمال فرنسا[٢].

ولدينا الشيء الكثير نقوله الآن عن هذه المملكة الفرنجية، المبشرة بظهور فرنسا وألمانيا، والتـي كانـت الحصن الغربي لأوربا ضد دين محمد، كما كانت الإمبراطورية البيزنطية خلف جبـال طـوروس حصـنها الشرقي؛ على أنا نرى لزاما علينا أولاً أن نقدم إليك بيانًا عن النظام الجديد لتلك التجمعات الاجتماعية التـي نشأت منها تلك المملكة.

---

(١) صحيح أن اليهود في إسبانيا كانوا يسامون سوء الخسف ويعاملون معاملة سيئة أيام القوط الغربيين بإسبانيا. ولكنه صـحيح كذلك أن لذريق ملك إسبانيا عند الفتح العربي لها كان مغتصبا للعرش وكان أولاد غيطشة وكثير من أمراء القوط ثـائرين عليه نفسيا متحفزين للإيقاع به. ومع ذلك فهذه عوامل نتلمسها لهزيمة القوط في شريش ويمكن أن يكون منها قوة جـيش الخليفة المعنوية ومهارة قواده العسكرية واستماتة الجيش والقواد في نصرة الدولة والدين. (المترجم).

(٢) يشير المؤلف هنا إلى موقعة تور أو بلاط الشهداء التي مني فيها جيش العرب بالهزيمة أمام جيش شارل مارتل وهو فـي إشارته يعزو الهزيمة إلى قوة الفرنجة وصلابتها بدرجة تحطمت على صخرتها قوة الغافق وجيشه، ولكنه من العدل أيضا أن نجلو أن جيش المسلمين كان قد توغل إلى مسافة بعيدة داخل حدود بلاد غالة وطالت خطوط تموينه ومدده وقلت عدتـه وعدده بسبب الحاميات التي اضطر إلى تركها خلفه كما أن كثرة يعتد بها من رجال الجيش كانوا أثقلتهم الغنـائم وأهمهـم أمرها حتى شغلهم عن لقاء عدوهم بنفس القوة والحماسة التي كانت لهم في المشاهد والملاحم السابقة فكان ما كـان مـن هزيمة وهي أمور أشار إليها المؤلف في فصل سابق. (المترجم).

٢- نظام الإقطاع

من الضروري أن يكون لدى القارئ فكرة محددة عن أحوال أوربا الغربية في القرن الثامن. فإنها لم تكن على همجية بربرية. أجل كانت أوربا الشرقية لا تزال متبربرة ومتوحشة؛ ولم تتقدم الأمور هناك إلا قليلاً عن حالها التي وصفها جيبون في بيانه عن بعثة بريكوس إلى أتيلا (راجع الفصل ٢٧ قسم ٦ ص ٦٦٠). على أن أوربا الغربية لم تكن إلا حضارة محطمة، لا قانون فيها ولا إدارة، وطرقها تالفة وتعليمها غير منظم، ومع ذلك فكان بها أناس كثيرون لهم فكرات وعادات وتقاليد ممدنة.

كان الزمان زمان فوضى ولصوصية وجرائم تذهب دون عقاب وأمن منعدم على وجه العموم. ومن الشائق الممتع أن نتتبع ذلك التفتت والعراك الشامل الصاخب ونتبين كيف تمخض عن ظهور بواكير نظام جديد. فلو أن انهيارا حدث في عصرنا هذا لتم على الراجح تكوين جمعيات للإدارة والمراقبة المحلية، تتحد فيما بينها وتقيم إدارة بوليسية وحكما ديمقراطيا بدائيا خشنًا. ولكن أفكار الناس في عهد حطام الإمبراطورية الغربية المنهارة إبان القرون السادس والسابع والثامن، كانت أكثر اتجاها صوب الزعماء والقادة منها إلى الجمعيات واللجان، وكانت المراكز التي تبلورت حولها شئون الناس هي أحد رؤساء البرابرة هنا أو أسقفًا قويا هناك أو مدعيا لوظيفة رومانية قديمة، وهنا تجد مالك أرض قديم طال اعتراف الناس به، أي رجلاً من أسرة عريقة، وتعثر هناك على قوى مغتصب للسلطان، وهي حال لم تدع لرجل بمفرده مجالاً للاطمئنان والأمن.

لذلك اضطر الرجال أن يربطوا أنفسهم بغيرهم، مفضلين في ذلك من كان أقوى منهم من الرجال. وكان الرجل الفرد يختار أقوى وأنشط رجل في إقليمه ويصبح رجله وتابعه. وكان الرجل الحر أو المالك الصغير لقطعة أرض صغيرة يربط نفسه بسيد أقوى منه. وكانت حماية ذلك السيد (أو خطر عداوته) تزداد جسامة كلما تكاثر المنضوون تحت جناحه. وبذلك استمرت بسرعة شديدة عملية تبلور سياسي، في خضم الارتباك وانعدام القانون الذي هوت إليه الإمبراطورية الغربية. وهذه الارتباطات والمخالفات الطبيعية تماما بين الحامي والأتباع سرعان ما تدرجت في النمو فأصبحت نظاما هو "نظام الإقطاع"، والذي لا تزال آثاره باقية في التركيب الاجتماعي لكل مجتمع أوربي غرب الروسيا. وكان يختلف اختلافًا بينا في مظاهره الخارجية.

ولم تلبث هذه العملية أن اتخذت لنفسها صورا فنية وأصولاً وقوانين خاصة بها. فكانت في قطر كبلاد الغال متقدمة تقدما حسنًا أيام القلاقل وانعدام الأمان السابقة لانقضاض قبائل البرابرة على الإمبراطورية الغربية" ولما أن هبط الفرنجة بلاد الغال جلبوا معهم نظاما سبق أن لحظناه لدى المقدونيين، وكان على الراجح واسع الانتشار إلى حد كبير بين الشعوب النوردية الشمالية، وهو اجتماع هيئة من شبان الأسر العريقة حول الزعيم أو حول الملك المحارب، وهم رفقاؤه أو لداته وبطانته من النبلاء (COIMITATUS) (الكونتات) أو قواده. فكان من الطبيعي في حالة الشعوب الغازية أن تتخذ علاقات السيد الضعيف بالسيد القوي شكل العلاقة بين الكونت ومليكه، وأن يوزع الرئيس الفاتح على رفاقه المزارع والممتلكات المستولى

عليها والمصادرة. وتسربت من الإمبراطورية المنحلة إلى نظام الإقطاع فكرة التجمع بغية الحماية المتبادلة للناس والممتلكات؛ وجاءت من الجانب "التيوتوني" فكرات جمعيات الفرسان، والإخلاص والخدمة الشخصية. وكانت الأولى هي الناحية الاقتصادية للنظام، على حين كانت الثانية ناحية الفروسية فيه.

والمماثلة بين التجمع في الإقطاع وبين عملية التبلور مماثلة وثيقة جدا. وبينا المؤرخ يراقب أثناء القرنين الرابع والخامس مراجل الارتباك ودواماته تدور وتهدر في أوربا الغربية، فإنه يبدأ في ملاحظة ظهور هذه التكوينات الهرمية المكونة من رؤساء وأتباع، وأتباع أتباع، وهي تتدافع إحداها مع الأخرى أو تتفرع أو تنحل من جديد أو تلتحم. وإنا لنستعمل مصطلح "نظام الإقطاع" من أجل اليسر والسهولة، ولكن في شيء من عدم الدقة إذا كانت لفظة نظام تحمل إليك معنى "الترتيب والنظامية". فنظام الإقطاع في أزهر عصوره أبعد ما يكون عن فكرة الترتيب والنظامية. إذ لم يكن الأمر فيه إلا فوضى واضطرابا نظم على أخشن وجه، وكان التغاير والاختلاف العظيم بين أشكاله منتشرا في كل مكان. ومن ثم فلن يدهشنا وجود تباين في الوقائع والعرف والعادات المقررة بين إقطاعية وأخرى. وقد وصل نظام الإقطاع الأنجلو نورماندي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر على شدة ما أوتي من اتساع الرقعة إلى اكتمال منطقي واتساق في الممارسة والعرف كان منقطع النظير في صميم العصر الإقطاعي نفسه.

(شكل ١٣٢) خريطة أوربا حوالي عام ٥٠٠م

"والأصل في العلاقة الإقطاعية الصحيحة هو الإقطاعية (Fief) التي كانت في العادة أرضا، ولكنها ربما كانت أي شيء مرغوب فيه كالوظائف، أو الدخل نقدا كان أم عينًا، أو حق جمع مكس أو (فرضة مالية)، أو إدارة طاحون. وكان الرجل يصبح في مقابل الإقطاعية تابعا [1] (vassal) لمولاه؛ فكان يجثو أمامه، ويعده – ويداه بين يديه – بالولاء والخدمة... وكان الإخلاص في تنفيذ كل الواجبات التي اضطلع بها التابع في عهد

([1]) ويسمى أيضا بالمقطع [بضم الميم وفتح الطاء] أو القَصل (Vassal) (المترجم).

الولاء قوام حقه في التمتع بإقطاعته: فإذا أديت الواجبات، احتفظ هو وورثته من بعده بالإقطاعة ملكًا حـلالا لهم من الناحية العملية وبالنسبة إلى كل من دونهم من المستأجرين كأنهم هم المـلاك. وفـي حفلـة الـولاء والتخويل التي هي الركن الأساسي في عقد الإقطاع، كانت الالتزامات التي يضطلع بها الطرفان، غير محددة في العادة تحديدا دقيقًا. وكان العرف المحلي هو الذي يحددها. وكانت خدمات التابع تختلف اختلافًا بينًا فـي كثير من دقائق التفاصيل بين أجزاء عالم الإقطاع المختلفة. على أننا نستطيع أن نقول مع هذا بأنها تنقسم إلى طبقتين، عامة وخاصة. فأما العامة منها فتضم كل ما تشمله فكرة الولاء: من المحافظة على مصالح السـيد، وكتمان أسراره، وإفشاء خطط أعدائه، وحماية عائلته وهكذا، والخدمات الخاصة يمكن أن تصاغ في عبارات أشد تحديدا، ويحددها عادة تعريفات مضبوطة يقررها العرف أحيانًا والوثائق المكتوبة في بعـض الأحيـان الأخرى. وكانت أبرز نواحيها هي الخدمة العسكرية، التي كانت تتضمن الخروج إلى الميدان عند النفير بقوة معينة من الجند، غالبا ما تكون مسلحة بأسلحة من نوع محدد. وتبقى فيه زمنًا معلوما. وكانت كثيرا ما تشمل كذلك واجب حراسة قلعة السيد، ووضع حصن التابع (المقطع) تحت تصرف السيد وفق خططه فـي الـدفاع عن إقطاعه (Fief)... وإذا نظرنا إلى نظام الإقطاع من الناحية النظرية، ألفيناه يملأ أوربا بشبكة من هـذه الإقطاعات التي تتدرج إحداها فوق الأخرى في مراتب مدرجة بادئة من أقلها شأنًا في القـاع، وهـي أجـر الفارس، حتى الملك في القمة، وهو مالك الأرض الأعلى، أو هو الذي وهبه ا المملكة..." [1].

على أن هذه هي النظرية التي فرضت على الحقائق المقررة. ولكن الحقيقة الواقعية في نظـام الإقطـاع كانت تقوم فيما هو عليه من تعاون اختياري.

"وقد قيل: إن الدولة الإقطاعية دولة اغتصب فيها القانون الخاص مكان القانون العام". ولكن أليس الأصح أن يقال: إن القانون العام قد فشل وتوارى وإن القانون الخاص جاء ليسد الفراغ الحاصل؟ لقد صار الواجـب العام إلزاما خصوصيا.

---

(1) الموسوعة البريطانية – الطبعة الثانية عشرة – مادة "الإقطاع للأستاذ ج. ب. آدامز.

٣- مملكة الميروفنجيين الفرنجية

سبق أن ذكرنا من قبل ممالك متنوعة للقبائل البربرية الذين أقاموا لأنفسهم بين أنقاض الإمبراطورية سيادة هزيلة تتفاوت في رثاثتها فوق هذه المنطقة أو تلك، وهي ممالك السويفي والقوط الغربيين بإسـبانيا ومملكـة القوط الشرقيين بإيطاليا ومملكة اللومبارد الإيطالية التي عقبت القوط بعد أن طردهم جستنيان وبعد أن عـاث الوباء العظيم في إيطاليا تدميرا.



(شكل ١٣٣) خريطة حدود ممتلكات الفرنجة في عهد شارل مارتل

وكانت مملكة الفرنجة دولة بربرية أخرى نشأت في أول الأمر فيما هو الآن بلجيكا، ثم امتدت جنوبا حتى اللوار، بيد أنها أظهرت من القوة والتماسك ما يفوق كثيرا ما كان لدى الأخريات. وكانـت أول دولـة حقـة تخرج من غمرة الدمار العام. ولم تلبث حتى أصبحت آخر الأمر حقيقة سياسية قوية متسعة الرقعة. ومنهـا نبعت دولتان عظيمتان في أوربا العصرية، هما فرنسا والإمبراطورية الألمانية. وكان مؤسسها هو كلـوفيس (Clovis) (٤٨١ – ٥١٤) الذي بدأ أمره ملكًا صغيرا في بلجيكا وانتهى وحـدوده الجنوبيـة تكـاد تتـاخم البرانس. وقد قسم مملكته بين أبنائه الأربعة. على أن الفرنجة احتفظوا بعرف من الوحدة بالرغم مـن هـذا التقسيم، وثارت بين الإخوة حينًا من الدهر حروب تستهدف الانفراد بالسيادة فوحدتهم أكثر مما فرقت بيـنهم. على أنه نشأ بعد ذلك تصدع أشد خطورة بسبب اصطباغ الفرنجة الغربيين بالصبغة اللاتينية، وبعد أن احتلوا بلاد الغال الرومانية الصبغة، وتعلموا اللاتينية الشوهاء المحرفة، لغة السكان المقهورين، على حـين احـتفظ

فرنجة إقليم الراين بلغتهم الألمانية الدنيا [١]. وتتولد عن الاختلافات اللغوية عند وجود مستوى خفيض للمدنية، توترات سياسة قوية للغاية. وأقام العالم الفرنجي مائة وخمسين سنة وهو منشق شطرين، هما نوستريا (Neustria)، وهي نواة فرنسا وتتكلم لغة مصطبغة باللاتينية أصبحت آخر الأمر اللغة الفرنسية التي نعرف الآن، وأوستراسيا وهي أرض الراين التي ظلت ألمانية. وكان الفرنجة يختلفون عن السوابيين وسكان جنوب ألمانيا، ويقاربون الأنجلوسكسون كثيرا لأنهم كانوا يتكلمون لهجة ألمانية دنيا لا لهجة ألمانية عليا. وكانت لغتهم تشبه اللغة الألمانية [٢] الدنيا (Plattdeutsch) والأنجلوسكسونية، وهي الأم المباشرة للهولندية والفلمنكية. والواقع أنه حيثما لم يصطبغ الفرنجة بالصبغة اللاتينية كانوا يتحولون إلى فلمنك ويصبحون هولنديي جنوب هولندة (فأما هولندة الشمالية فلا تزال فرزية Friesisch أي أنجلوسكسونية). "والفرنسية" التي كان يتكلمها الفرنجة والبرجنديون ذوو الصبغة اللاتينية في القرن السابع إلى العاشر، كانت عجيبة الشبه بلغة سويسرا الرومانشية (Rumansch)، استنتاجا منا من البقايا الباقية في الوثائق القديمة [٣].

ولسنا بمحدثيك ها هنا عن انحلال الأسرة الميروفنجية التي أسسها كلوفيس، ولا كيف حدث في أوستراسيا أن موظفًا بعينه في البلاط، هو محافظ القصر (Mayor of the Palace)، أصبح بالتدريج ملكًا فعليا، واتخذ من الملك الحقيقي ألعوبة طيعة. ثم أصبح منصب محافظ القصر وراثيا أيضا في القرن السابع، وفي (٦٨٧) كان من يدعى ببين الهرستالي محافظ القصر في أوستراسيا قد غزا نوستريا ووحد كل الفرنجة تحت لوائه. وأعقبه في (٧٢١) ابنه شارل مارتل، الذي لم يكن يحمل كذلك إلا لقب محافظ القصر. (فأما سادته الملوك الميروفنجيون التافهون المساكين، فلا يعنينا أمرهم هنا في قليل ولا كثير) وشارل مارتل [٤] هذا هو الذي أوقف المسلمين العرب. وكانوا قد وصلوا إلى "تور" عندما التقى بهم، وهزمهم هزيمة كاملة في معركة عظيمة بين ذلك المكان وبين بواتييه (٧٣٢) وفلّ من عزيمتهم. ومن ثم ظلت جبال البرانس أقصى حد لهم. فلم يتقدموا بعد ذلك في أوربا الغربية.

وقسم شارل مارتل دولته بين ولديه، ولكن أحدهما اعتزل الملك وترهب. تاركًا أخاه ببين حاكما وحيدا على الدولة. وببين هذا هو الذي قضى نهائيا على أحفاد كلوفيس. إذ أرسل إلى البابا يسأله من هو ملك الفرنجة الحق، صاحب القوة والسلطان أو صاحب التاج؟ وكان البابا في حاجة إلى ناصر بعينه، فقضى لصالح محافظ القصر. وبذلك انتخب ببين ملكًا في جمع نبلاء الفرنجة في العاصمة الميروفنجية، سواسون (Soissons) ثم مسح بالزيت المقدس وتوج. وكان ذلك في (٧٥١). وقد قوى ابنه شارلمان من أواصر التماسك بين البلاد الفرنجية والألمانية التي وحدها ببين. وظلت الدولة موحدة متماسكة إلى عهد حفيده لويس (٨٤٠)، ثم انفصلت فرنسا وألمانيا إحداهما عن الأخرى من جديد – مما أنزل بالإنسانية أبلغ الضرر ولم يكن ما فصل بين هذين الشعبين الفرنجيين فارقًا في الجنس ولا المزاج، بل فارقًا في اللغة والتقاليد.

---

(١) الألمانية الدنيا (Low German) واسمها الألماني (Plattdeutsch): هي لغة سكان المنخفضات بشمال ألمانيا. والألمانية العليا هي لغة سكان المرتفعات الجنوبية بها. (المترجم).

(٢) الألمانية الدنيا (Low German) واسمها الألماني (Plattdeutsch): هي لغة سكان المنخفضات بشمال ألمانيا. والألمانية العليا هي لغة سكان المرتفعات الجنوبية بها. (المترجم).

(٣) الرومانشية هي اللغة التي يتكلمها الناس ببعض المناطق الشرقية لسويسرا. (المترجم).

(٤) عن هذا الموضوع بالتفصيل انظر للمترجم "ميلاد العصور الوسطى" تأليف موص (الألف كتاب، ومكتبة عالم الكتب).



(شكل ١٣٤) خريطة إنجلترة عام ٦٤٠ م

ولا يزال ذلك الانفصال القديم بين نوستريا وأوستراسيا يثمر ثمارا مريرة إلى يومنا هذا. ففي ١٩١٦ كان لهيب ذلك النزاع التليد بين نوستريا وأوستراسيا قد تأجج من جديد حربا ضروسا. وفي أغسطس مـن تلـك السنة، زار كاتب هذه السطور مدينة سواسون، وعبر الكوبرى الخشبي المؤقت الذي بناه الإنجليز بعد معركة الإين (Aisne) بين القسم الرئيسي بالمدينة وبين ضاحية القديس ميدارد (Medard). وكانـت أسـتار مـن الخيش تحمي المارة على الكوبري من عيون الرماة القناصة الألمان، الذين كانوا يطلقون النار من خنـادقهم في منحنى النهر. فسار مع أدلائه مخترقًا حقلاً ثم تقدم بمحاذاة جدار بستان انفجرت فيه قنبلة ألمانيـة أثنـاء مروره. وبذا وصل إلى المباني المحطمة التي تقوم في موقع دير سانت ميدارد العتيق، الذي خلع فيه آخـر الميروفنجيين، وتوج فيه ببين القصير مكانه، ومن تحت هذه المباني العتيقة، كانت توجد سـراديب عظيمـة، صالحة جد الصلاحية لتكون خنادق – ذلك أن الخطوط الألمانية الأمامية لم تكن تبعد أكثر من مائتي يـاردة. وكان الجنود الفرنسيون الفتيان الأقوياء يهيئون الطعام ويستريحون في هذه المخابئ، وينامون بين التوابيـت الحجرية التي احتفظت بعظام ملوكهم الميروفنجيين.

٤- تنصير البرابرة الغربيين

والسكان الذين كان يحكمهم شارل مارتل وببين، كانوا في مستويات من المدنيـة مختلفـة جـدا بـاختلاف الأصقاع. ففي الغرب والجنوب كانت كتلة السكان مكونة من الكات المسيحيين ذوي الصبغة اللاتينيـة؛ وفـي المناطق الوسطى كان هذان الحاكمان يتوليان شئون ألمانيين يتفاوتون في مدى اعتناقهم للنصرانية، من أمثـال الفرنجة والبرجنديين والأليماني (Alemanni)؛ وإلى الشمال الشرقي كان لا يزال يوجد فريزيون وسكسونيون وهم على الوثنية؛ وكان البافاريون إلى الشرق؛ وقد تنصروا حديثًا بفضل نشاط القديس بونيفاس (Boniface)، وإلى الشرق من هؤلاء كان يوجد كذلك صقالبة وآفار على الوثنية. وكانت "وثنية" الألمان والصـقالبة مشـابهة جدا لديانة الإغريق البدائية، كانت ديانة رجولة يلعب المعبد فيها والكاهن والقرابين دورا تافها وكانـت آلهتهـا شبيهة بالبشر، أو بضرب من "قادة الطلبة بالمدارس"[١]، فهم مخلوقات أشد قوة من الناس يتدخلون في الشـئون الإنسانية حسبما تمليه عليهم دوافعهم ودون قاعدة مطردة. وكان الإله جوبيتر يتمثل عند الألمان في الإلـه أودن (Oden). والإله مارس (المريخ) يمثله ثُور (Thor) والربة الزهرة تمثلها لديهم الربة فرييا (Freya) وهكـذا. وتواصل إبان القرنين السابع والثامن تنصير هذه القبائل الألمانية والسلافونية (الصقلبية).

وربما كان من الشائق للقراء الناطقين بالإنجليزية، أن يتنبهوا إلى أن أشد المبشرين حماسة ونجاحا بـين السكسون والفريزيين جاءوا من إنجلترة. وقد وضعت بذور المسيحية مرتين في الجزر البريطانيـة. فكانـت موجودة بها فعلاً حين كانت بريطانيا جزءا من الإمبراطورية الرومانية. إذ يذكرون أن شهيدا اسمه القـديس ألبان (Alban) خلع اسمه على مدينة سانت ألبانز، ولا شك أن كل زائر لكانتربري، لن يفوته أن يزور كذلك كنيسة القديس مارتن الصغيرة القديمة التي كانت تستعمل إبان العهد الروماني. وانتشـرت المسـيحية مـن بريطانيا – كما أسلفنا – خارج حدود الإمبراطورية إلى أيرلندة – وكان أهم المبشـرين القـديس باتريـك – وحدثت حركة رهبنة قوية تتصل بها أسماء القديس كولمبا والمستوطنات الدينية بجزيرة أيونا (Iona) [٢]. ثم جاء الإنجليز المتوحشون الوثنيون في القرنين الخامس والسادس، ففصلوا كنيسة أيرلندة القديمة عـن جسـم المسيحية الرئيسي. وفي القرن السابع أخذ المبشرون المسيحيون ينصرون الإنجليز في كل من شمال إنجلترة، حيث أتوا من إرلندة، وفي الجنوب وافدين من روما. وقد أوفد بعثة (إرسالية) روما البابا جريجوري الكبيـر عند نهاية القرن السادس بالضبط. وتقول الرواية إنه رأى غلمانًا من الإنجليز يباعون فـي سـوق الرقيـق بروما، وإن كان من العسير علينا إلى حد ما أن نفهم كيف وصلوا إلى هناك. كانوا شديدي الشقرة ووسـامة الطلعة. فلما أن تحرى عنهم أبلغوه أنهم من الإنجليز. فقال "إنهم ليسوا إنجليزا (Angles) وإنما هم ملائكـة (Angels) [٣] لو أن لديهم الإنجيل".

([١]) قادة الطلبة بالمدارس هم أوائل طلبتها وزعماؤهم. (المترجم)

([٢]) هي جزيرة من جزيرة من جزر الهيبرياس الداخلية باسكتلندة نصرها كولمبا في ٥٠٣ م. (المترجم).

([٣]) هنا يلعب الكاتب على الجناس بين لفظتي (Angles) أي الإنجليز و (Angels) أي الملائكة. (المترجم).

وظلت البعثة الدينية تعمل طوال القرن السابع. وقبل أن ينتهي ذلك القرن كان معظم الإنجليز قد تنصروا؛ وإن أبدت مرسيا (المملكة الإنجليزية الوسطى) نحو القساوسة مقاومة شديدة، دفاعا عن العقيدة والطرائق القديمة. وأصاب أولئك المتنصرون الجدد تقدما سريعا في العلوم. فأصبحت أديرة مملكة نورثمبريا في شمال إنجلترة مركزا للنور والعرفان. وكان ثيودور الطرسوسي من أوائل رؤساء أساقفة كانتربري (٦٦٨ – ٦٩٠). "وعلى حين كانت الإغريقية مجهولة جهلاً تاما في غرب أوربا، كان بعض تلاميذ ثيودور يجيدونها. وكانت الأديرة تضم كثيرا من الرهبان الذين بلغوا من العلم الذروة. وكان أشهرهم جميعا بيد (Bede)، المعروف باسم بيد الوقور (٦٧٣ – ٧٣٥)، وهو راهب من جارو (Jarrow) على نهر التاين (Tyne). وتتلمذ عليه رهبان ذلك الدير الستمائة، فضلاً عن الأجانب الكثيرين الذين كانوا يفدون لسماعه. ولم يبرح بيد حتى أتقن بالتدريج كل علوم زمانه، وترك عند وفاته خمسة وأربعين مجلدا من كتاباته، أهمها "تاريخ الإنجليز الكنسي [1] " وترجمة إنجيل يوحنا إلى اللغة الإنجليزية. وذاعت شهرة مؤلفاته واستعملها الناس في كافة أنحاء أوربا. ثم إنه جعل ميلاد المسيح بداية لكل تواريخه، وبفضل مؤلفاته أصبح استخدام التواريخ الدقيقة للأحداث المسيحية شائعا بكل أوربا. ونظرا لكثرة الأديرة والرهبان في نورثمبريا، تقدم ذلك الجزء من بريطانيا حينًا من الدهر تقدما كبيرا على الجنوب في المدنية [2].

وإنا لنجد المبشرين الإنجليز في القرنين السابع والثامن يعملون ناشطين على الحدود الشرقية للمملكة الفرنجية. وأهم هؤلاء هو القديس بونيفاس (٦٨٠ – ٧٥٥)، الذي ولد في كريديتون بمقاطعة ديفونشير والذي نصر الفريزيين والثورنجيين والهيسيين (Hessians) ثم استشهد في هولندة.

وفي كل من إنجلترة والقارة الأوربية، كان الحكام الذين أخذ نجمهن يعلو يستمسكون بالمسيحية ويتخذونها قوة موحدة لتشد أجزاء فتوحاتهم بعضها إلى بعض. وبذلك أصبحت المسيحية لواء يرفعه كل زعيم ينزع إلى العدوان – شأنها في أوغندة بأفريقية في الأيام الدامية قبل أن يلحق ذلك القطر بالإمبراطورية البريطانية.

وخلف ببين الذي توفي ٧٦٨ ولداه، شارل وأخوه، فاقتسما مملكته، ولكن أخا شارل توفي (٧٧١)، وعندئذ انفرد شارل بالحكم (٧٧١ – ٨١٤) في مملكة الفرنجة النامية. ويعرف شارل هذا في التاريخ باسم شارل الكبير في شارلمان، وكما حدث في حالة الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر، فإن الخلَفَ بالغوا في الإشادة بذكراه. فإنه جعل من حروبه العدوانية حروبا دينية لا شك فيها!! وظل عالم شمال غربي أوربا بأجمعه الذي هو الآن بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا والدانمرك والنرويج والسويد طوال القرن التاسع، معتركًا لصراع مرير بين العقيدتين القديمة والجديدة. وأجبرت شعوب بأسرها على اعتناق المسيحية بحد الحسام، كما فعل الإسلام قبل ذلك بنحو قرن حين اضطر شعوبا بأسرها في بلاد العرب وآسيا الوسطى وأفريقية إلى اعتناقه.

---

(1) "The Ecclesiastical History of the English"

(2) انظر: "A General History of Europe" تأليف ثاتشر وشويل.

فاستخدم شرلمان السيف والنار في التبشير بإنجيل الصليب لدى السكسون والبوهيميين، بل توغـل حتـى الدانوب فيما هو الآن بلاد المجرد؛ وحمل نفس التعاليم منحدرا بها حتى سواحل الأدرياتي" خلال ما هو الآن دالماتيا [1]؛ ودفع المسلمين خلف البرانس حتى برشلونة.

زد على ذلك أنه هو الذي آوى إجبرت (Egbert)، يوم نفى من وسِكس بإنجلترة ثم ساعده من فوره فـي أن يقيم نفسه ملكًا في وسكس (٨٠٢). وأخضع إجبرت البريطون[2] في كورنوال، مثلما أخضـع شـرلمان البريطون في بريتاني (بفرنسا)، ثم تهيأ له بقيامه بسلسلة من الحروب التي والاها بعد وفاة نصيره الفرنجي، أن يجعل نفسه آخر الأمر أول ملك لإنجلترة بأسرها (٨٢٨).

على أن هجمات شرلمان على آخر معاقل الوثنية أحدثت حركة مضادة قوية من جانب الذين لم يتنصروا. وكان الإنجليز المتنصرون لم يحتفظوا إلا بالنذر اليسير في الملاحة الـذي جـاء بهـم مـن أرض القـارة الأوروبية، ولم يكن الفرنجة أصبحوا بعد من البحارة. وبينما كانت دعاية شرلمان تنساق نحو شواطئ بحـر الشمال وبحر بلطيق، فقد دفع الوثنيون دفعا إلى البحر. وكان ردهم على اضطهادات المسيحية، القيام بغارات سلب ونهب وحملات على سواحل فرنسا الشمالية وعلى إنجلترة المسيحية.

وهؤلاء السكسون والإنجليز الوثنيون في أرض القارة الأصلية وذوو قرباهم من الدانيمركة والنرويج هـم الدانيمركيون وأهل الشمال (North men) الذين تذكرهم كتب تاريخنا القومي. وكانوا كذلك يسمون بالفيـك إنجز (Vik-ings) [3] ومعناها رجال الخلجان أو الفيوردات، لأنهم جاءوا من الثنايا العميقة فـي الشـاطئ الإسكندناوي. حضروا في سفن طويلة سوداء تسمى القوادس [4]، مستعملين الشراع استعمالاً طفيفًا. ومعظـم معلوماتنا عن حروب وغارات الفيك إنجز الوثنيين مستقاة من مصادر مسيحية، ولذا فـإن لـدينا معلومـات مستفيضة عما كانوا يرتكبونه في غاراتهم من المذابح والفظائع، ونزرا يسيرا عما حلّ بـإخوانهم الـوثنيين السكسون من قساوات على يد شرلمان. وكان عداؤهم للصليب والرهبان والراهبات شديدا متطرفًا. ولشد مـا كان يبهجهم إحراق أديرة الرهبان والراهبات وذبح من بها من الأحياء.

وظل هؤلاء الفيك إنجز أو أهل الشمال طوال الفترة بين القرن الخامس والقـرن التاسـع يتعلمـون فـن البحرية، ويزيدون جرأة ويوسعون مجال نشاطهم. ثم اجترءوا على البحار الشمالية حتـى أعـدت شـواطئ جرينلندة الثلجية مرتادا مألوفًا لديهم، وكانت لهم عند حلول القرن التاسع مستقرات في أمريكا (لـم تعـرف أوربا عنها شيئًا. ولم يكن لأهل الشمال أي مستقر دائم في أمريكا. وفي زمان ما يقـارب (١٠٠٠م). قـاموا بمحاولة للاستقرار في جزء ما من أمريكا اسمه فن لاند (Vinland)، على أنهم لم يتملكـوا الأرض سـوى سنتين اثنتين. فإن قاربا من الجلد ظهر في أحد الأيام مليئًا بالهنود المنقوشي البشرة؛ فدار بخلد رجال الشمال

---

(1) دالماتيا: هي القسم المطل من يوغوسلافيا على شرق الأدرياتي. (المترجم).

(2) البريطون: سكان بريطانيا القدماء الأصليون، أو سكان إقليم بريتاني بفرنسا. (المترجم).

(3) تنبيه: تنطق هذه الكلمات فيك إنجز وليس في كنجز. ومعنى فيك: Vik هو فيورد أو خليج. (المؤلف).

(4) القادس Gally: سفينة قديمة طويلة ذات سطح واحد تسير بالمجاديف والشراع. (المترجم)

أنهم ضيوف سوء شديدو القبح. ويلوح أن الطرفين تبادلا نظرات التفحص الصامت، ولكن لم يحدث بينهمـا تجارة ولا نزاع، لقد حملق العالم الجديد في وجه القديم. وحدثت المتاعب فيما بعد، وإذ إن رجـال الشـمال كانوا أقل عددا وبعيدين عن أوطانهم، فإنهم جمعوا متاعهم واعتلوا سفنهم عائدين إلى بلادهـم. ولا يسـجل التاريخ أي مستقر آخر لرجال الشمال على الأراضي الأمريكية. وفي القرن الثاني عشر، بدئ بكتابة كثيـر من ملاحمهم (Saga) في أيسلندة. ذلك أنهم كانوا ينظرون إلى العالم بوصفه مسـرحا للمغـامرة الجريئـة. فطالما هاجموا كلب البحر والدب والحوت. وقد انتسجت في خيالهم صورة ضخمة لمدينة عظيمة غنية فـي الجنوب – وهي ضرب من الخليط بين روما وبيزنطة وسموها ميكلاجارد (Miklagard) أو ميكلاجـارث (أي المدينة العظيمة) – (قارن هذه بكلمة ميكلابار (Miklabaer) الأيسلندية ومعناها المزرعة العظيمـة). وبلغ من قوة جاذبية الميكلاجارث هذه أن اجتذبت أحفاد رجال الشمال هؤلاء إلى البحر المتوسط بطـريقين، أولهما من جهة الغرب، وثانيهما عبر الروسيا من بحر البلطيق كما سنبين ذلك فيما بعد. وبالطريق الروسـي ذهب كذلك أقرباؤهم السويديون.

ولم يكن الفيك إنجز إلا مجرد مغيرين ما عاش شارلمان وإجبرت؛ ولكن مع تقدم الأيام بـالقرن التاسـع، تطورت هذه الغارات فأصبحت غزوات منظمة. ففي كثير من نواحي إنجلترة، لم يكن مركز المسيحية حتـى آنذاك وطيدا بأي حال. إذ كان رجال الشمال الوثنيون يلاقون في مرسيا على وجه الخصوص كـل عطـف ومعاونة. وما إن وافت (٨٨٦) حتى كان قسم كبير من إنجلترة في قبضة الدانيمركيين، وحتى كـان الملـك الإنجليزي ألفريد الكبير، قد اعترف بحكمهم لما فتحوه، (وهو ما يسمى بالقانون الـدانيمركي Dane-Law) في الحلف الذي عقده مع جوثرام زعيمهم.

وبعد ذلك بقليل في (٩١١) وطدت حملة أخرى بزعامة رولف العداء (Rolf the ganger)، أقدامها على ساحل فرنسا في الإقليم الذي عرف منذ ذلك الحين باسم نورماندي (أي بلد رجال الشمال Northman-dy).

على أننا لا نستطيع أن نحدثك بأي تطويل عن كيف حدث على الفور غزو جديـد لإنجلتـرة علـى يـد الدانيمركيين، ولا كيف أصبح دوق نورماندي آخر الأمر ملكًا على إنجلترة. والفوارق العنصرية والاجتماعية بين الإنجليز (الأنجل)، والسكسون والجوت والدانيمركيين أو النورمانديين ضئيلة لا تكاد تذكر؛ ومع أن هذه التغيرات ترتسم ضخمة في أخيلة الإنجليز، إلا أنها والحق يقال تبدو مجرد تموجات طفيفة جدا في مجـرى التاريخ عندما نقيسها بمعايير عالم أكبر.

وسرعان ما اختفت من مشهد النزاع مسألة الخلاف بين المسيحية والوثنية. إذ قبل الدانيمركيون بمعاهـدة ودمور (Wedmore) أن يعتنقوا النصرانية، إذا ضمن لهم بقاء ما غزوا بأيديهم، ولم يقف الأمـر بأحفـاد رولف في نورماندي عند حد التنصير، بل إنهم تعلموا الكلام بالفرنسية من الشعب المحيط بهم الأكثر مـنهم تمدنًا، ناسين لسانهم الشمالي (النورسي Norse) الخاص على أن هناك شيئًا. له شأن أعظم قدرا في تـاريخ البشرية، هو علاقة شرلمان بجيرانه في الجنوب والشرق، وعلاقاته بالتقاليد الإمبراطورية.

٥- شرلمان يصبح إمبراطورا على الغرب

أعيدت تقاليد القيصر الروماني إلى الحياة في أوربا على يد شرلمان. كانت الإمبراطورية الرومانيـة قـد ماتت وأخذت تتعفن؛ وكانت الإمبراطورية البيزنطية ممعنة في الاضمحلال؛ على أن تعليم أوربا وعقليتهـا كانا ترديا إلى درك كاد معه كل فكر سياسي جديد خلاق أن يكون ضربا من المحال. ولعل أوربا بأكملها لـم تكن لتحتوي مثقال ذرة من قوة النظر والتفكير التي نجدها في الأدب [1] الأثيني في القرن الخامس ق. م. ولم تكن هناك قوة تتصور على سبيل الفرض قيام حالة جديدة أو تضع منهجا سياسيا جديدا وتنظمه فكريا.

تعمدت المسيحية الرسمية أن تسدل منذ أمد بعيد ستارا كثيفًا على تلك التعاليم العجيبة الرائعة، تعاليم يسوع الناصري التي منها انبعثت – كما أنها روضت نفسها على تجاهلها. فأما الكنيسة الكاثوليكية فهي حين تشبثت ذلك التشبث الشديد بملكيتها للقب الحبر الأعظم (Pontifex Maximus) قد تنكرت منذ ذلك الزمان البعيـد لواجبها الذي خلقت من أجله، وأعني بذلك بلوغ مملكة السماء. ذلك بأنها كانت مشغولة بإحياء عزة الرومان على الأرض، التي تصورت أنها تراثها التليد. لقد أصبحت هيئة سياسية، تسـتغل إيمـان بسـطاء النـاس وحاجاتهم للمضي قُدما بمشروعاتها وخططها. وتشبثت بتقاليد الإمبراطورية الرومانية وبفكـرة أنهـا هـي الطريق الطبيعي لوحدة أوربا. على أن أوربا في ثنايا محاولاتها المتكررة إعادة تلـك الإمبراطوريـة إلـى الوجود، قد انحرفت إلى تزييف مثال لها شائه ممسوخ: وإلى ابتعاث كبوات الماضي وسقطاته التي أسـاءت تصورها.

وانقضى أحد عشر قرنًا من عهد شرلمان فما بعده، و "الأباطرة" و "القياصر" من هـذه الأسـرة أو تلـك يظهارون على مسرح التاريخ الأوربي ثم يتوارون كأنهم خيالات سقيمة تتراءى لذهن مضطرب. ونحن على أن نخبرك عن عملية عظيمة من النمو العقلي في أوربا، وعن اتساع الآفاق وتجمع القوى، بيد أنهـا كانـت عملية سارت في طريقها مستقلة عن الأوضاع السياسية للعصر وبالرغم منها، حتى ترامت آخر الأمر إلـى تحطيم تلك الأوضاع تحطيما مطلقًا. وكانت أوربا أثناء حقبة الأحد عشر قرنًا من القياصـر الـزائفين التـي افتتحت بشرلمان، والتي لم تنته إلا بمجزرة (١٩١٤ – ١٩١٨) الرهيبة الوحشية، - أشـبه شـيء بمصـنع مزدحم يملكه رجل مصاب بالتجول أثناء النوم، فهو في بعض الأحيان تافه لا أهمية له مطلقًا، وهو في أحيان أخرى معطل للأعمال تعطيلاً ينذر بالشر المستطير. بل لعلنا نشبهها بما هو أقرب إليها من ذلك المتجول في نومه: فنمثلها بجثة هامدة تتخذ بالسحر سيما الحياة. فأنت تشهد الإمبراطورية الرومانية تترنح ثم تنبطح على الأرض، ثم يقذف بها خارج المسرح ثم تعود فتظهر كل هذا وكنيسة روما – إن جاز لنـا أن نتقـدم بهـذه (الصورة الخيالية) خطوة أخرى إلى الأمام – هي التي تقوم بدور الساحر وتبث في هذه الجثة سيما الحياة.

---

[1] المؤلف هنا كعادته يستخدم لفظة الأدب بمعناها العام الشامل ويقصد بها كل ما ظهر في اللغة من أبحاث ومؤلفات أيا كـان نوعها. (المترجم).

ويتواصل طوال تلك القرون كفاح متصل الحلقات، حول التحكم في الجثة يظل ناشبا بين القوى الروحيـة ومختلف القوى الزمنية. وقد سبق أن وجهنا الأنظار إلى الروح التي ينطوي عليها كتاب "مدينة ا " للقـديس أوغسطين. وهو كتاب نعرف أن شرلمان طالعه، أو استمع لتلاوته – إذ إن معارفه الأدبية تكاد تكون موضع الشك. وكان يرى أن هذه الإمبراطورية المسيحية شيء يحكمه ويصون سلامته في أمثل صـورة وأسـلمها، قيصر عظيم مثله، وأن له أن يحكم حتى البابا نفسه.

(شكل ١٣٦) خريطة أوربا عند وفاة شرلمان عام ٨١٤ م

على أن وجهة نظر روما في شأن الإمبراطورية المبتعثة، كانت تختلف قليلاً عن ذلك. إذ إن الرأي المتخذ هناك هو أن القيصر المسيحي يجب أن يمسحه البابا بالزيت المقدس ويهديه سواء السبيل – بل هـو الـذي تكون له حتى سلطة حرمانه وعزله. وكان هذا التضارب في وجهات النظر واضحا حتى في أيـام شـرلمان نفسه. على أنه ازداد حدة في القرون التالية.

ولا شك أن فكرة الإمبراطورية المبتعثة لم تدر بخلد شرلمان فجأة، بل بغاية البطء والتدرج. فإنه كان في مبدأ الأمر مجرد حاكم على مملكة أبيه الفرنجية، وكان منهمكًا بكل قواه في الكفاح مع السكسون والبافاريين ومع الصقالبة في شرقهم، ومع المسلمين في إسبانيا. وفيما شب في ممتلكاته نفسها من ضـروب العصـيان. وحمله شقاق دب بينه وبين حميه ملك لومبارديا على فتح لومبارديا وشمال إيطاليـا. وقـد رأينـا اسـتقرار اللومبارد في شمال إيطاليا قرابة (٥٧٠) بعد الوباء العظيم، وبعد خلع جستنيان لملوك القوط الشرقيين. كـان هؤلاء اللومبارد على الدوام مصدر خطر وخوف للباباوات، وقد أبرمت ضدهم محالفة بـين البابـا وملـك الفرنجة في زمن ببين. والآن أخضع شرلمان لومبارديا تمام الإخضاع (٧٧٤)، وأرسل حماه إلى أحد الأديرة وحمل فتوحاته إلى ما وراء الحدود الشمالية الشرقية لإيطاليا: إلى دالماتيا (٧٧٦). وفي (٧٨١) جعـل ابنـه ببين (الذي لم يعش بعده) ينصب ملكًا على إيطاليا ويتوج في روما.

وجاء بابا جديد هو ليو الثالث في (٧٩٥)، وقد عقد العزم منذ البداية على ما يظهر على جعـل شـرلمان إمبراطورا. وكان لبلاط بيزنطة حتى ذلك الحين شيء من السلطان غير المحدود على البابا. وكـان أقويـاء الأباطرة من أمثال جستنيان يخيفون البابوات ويجبرونهم على المثول إلى القسـطنطينية؛ وكـان الأبـاطرة الضعفاء يضايقونهم مضايقة غير ذات أثر. ولطالما خامرت قصـر اللاتيـران [1] فكـرة الانفصـال عـن القسطنطينية انفصالاً علمانيا ودينيا، كما تمثل له في الدولة الفرنجية السند الذي لا بد منه إذا أريـد تحـدي القسطنطينية.

ومن ثم أرسل البابا ليو الثالث إلى شرلمان عند توليته البابوية مفاتيح قبر القديس بطرس ولـواء، رمـزا لسيادته في روما بوصفه ملكًا لإيطاليا. وسرعان ما اضطر البابا إلى الالتجاء إلى الحامي الذي اختار. ذلـك أنه كان مكروها في روما؛ فهوجم في شوارعها وأسيئت معاملته أثناء مسيرة في أحد المواكب، واضـطر أن يهرب إلى ألمانيا (٧٩٩). ويقول إجنهارد إن عينيه سملتا وإن لسانه قطع. ويبدو مع ذلك أنه كانت له كل من العينين واللسان مرة ثانية بعد ذلك بسنة من الزمان. فإن شرلمان أعاده إلى روما ورده إلى منصبه (٨٠٠).

ثم حدث مشهد بالغ الأهمية. ففي يوم عيد الميلاد (٨٠٠)، وبينما كان شرلمان ينهض من الصـلاة فـي كنيسة القديس بطرس، وضع البابا (وكان قد جهز كل شيء)، تاجا على رأسه وحياه قيصـرا وأوغسـطس. وعج الشعب بالاستحسان العظيم. ولكن إجنهارد صديق شرلمان والمترجم لسيرته، يقـول إن الإمبراطـور الجديد لم تسره فعلة البابا المفاجئة هذه بأية حال. فإنه قال: "لو أنه عرف أن هذا سيحدث لما دخل الكنيسـة، مهما بلغ العيد من الجلال!". ولا شك في أنه كان يفكر ويتكلم عن جعل نفسه إمبراطورا، ولكن من الواضـح أنه لم يكن يريد أن يجعله البابا إمبراطورا. وكان يجول في خاطره أن يتزوج من الإمبراطورة إيريني، التي كانت تحكم في القسطنطينية في ذلك الزمان، وبذا يصبح عاهلاً لكل من الإمبراطوريتين الشرقية والغربيـة. ولكنه أصبح آنئذ مضطرا إلى قبول اللقب على الشاكلة التي رسمها ليو الثالث، أي بوصفه هبة مـن البابـا وبطريقة أغضبت القسطنطينية وأكدت انفصال روما عن الكنيسة البيزنطية. وكانت بيزنطة في بادئ الأمـر غير راغبة في الاعتراف بلقب شارلمان الإمبراطوري. ولكن حـدث فـي ٨١١ أن حلـت بالإمبراطوريـة البيزنطية كارثة عظيمة. فإن البلغار الوثنيين بقيادة أميرهم كروم (Krum) (٨٠٢ – ٨١٥)، دحروا وشتتوا جيوش الإمبراطور نقفور الذي أصبحت جمجمته كأسا لكروم. وفتح هؤلاء القوم القسم الأكبر من شبه جزيرة البلقان. (وبذلك يكون الشعبان البلغاري والإنجليزي ظهرا كوحدتين سياسيتين في وقت واحد تقريبا). وبعـد هذه الكارثة لم تبد بيزنطة أي اعتراض على هذا الابتعاث للإمبراطورية في الغرب، وفي (٨١٢) اعتـرف رسميا بشرلمان إمبراطورا وأوغسطس على يد مندوبين بيزنطيين.

---

[1] واللاتيران هو قصر البابوات الأول في روما. ثم احتلوا الفاتيكان فيما بعد. (المؤلف)

وبذلك تكون إمبراطورية روما التي ماتت على يدي أودواكر (Odoacer) في ٤٧٦، قد بعثت من جديـد في ٨٠٠ م باسم "الإمبراطورية الرومانية المقدسة" وعلى حين أن جسمها وقوتها الجسمية كانت فـي شـمال جبال الألب، فإن مركز فكرتها كان روما. فكانت من ثم، منذ بدايتها، شيئًا موزعا له قوة غير محددة، كانـت دعوى وجدلاً أكثر منها حقيقة لا يستغنى عنها. كيف كان صليل السيف الألماني يسمع على الدوام في مسيره من فوق جبال الألب إلى إيطاليا، وكانت بعوثُ المبشرين والقاصدون الرسوليون يدلفون من فوقها في الاتجاه المضاد. على أن الألمان لم يتهيأ لهم البتة أن يحتفظوا بإيطاليا باستمرار، إذ لم يكن في طوقهم تحمل الملاريا التي كانت تلك البلاد المخربة المهملة غير المصرفة المياه مباءة لها. وثمة تقليد قديم كانت جذوته تتقد خلال الرماد في روما وفي مدن إيطالية أخرى عديدة، تقليد أعرق منبتًا، هو أحد التقاليد المتوارثة عن الجمهوريـة الأرستقراطية، تلك التقاليد المعادية للإمبراطور والبابا على السواء.

٦- شخصية شرلمان

من العسير علينا أن نتمثل خلق شرلمان وشخصيته، وبالرغم من أن لدينا سيرة مكتوبة عنه كتبها معاصره إجنهارد [(١)]. ذلك أن إجنهارد يعوزه الإشراق والنصاعة، نعم إنه يدلي إلينا بتفاصيل كثيرة، ولكنهـا ليسـت التفاصيل التي تبعث الحياة في صورة الرجل المسجلة. وهو يقول إن شرلمان كان رجلاً طويل القامـة، لـه صوت ضعيف أو يكاد، وكانت له عينان براقتان وأنف طويل. "وكانت قمة رأسه مستديرة"، (وما ندري لذلك القول معنى). وكان أشيب الشعر. وكانت رقبته غليظة قصيرة نوعا و "بطنه شديد البروز". وكان يلبس إزارا Tunic [(٢)] مطرز الحواشي بالفضة وجوربا له أربطة للساق. وكانت له عباءة زرقاء، وكان علـى الـدوام متقلدا سيفه، وكان مقبضه وحمائله من الذهب والفضة.

وواضح أنه كان رجلاً جم النشاط – وإن الإنسان ليتصوره يتحرك بسرعة – ولم تحل غرامياته العديـدة قط دون قيامه بأعماله الحربية والسياسية التي لم تنقطع. كانت له زوجات عديدات وخليلات كثيرات. وكـان يكثر من مزاولة الرياضة: وكان مغرما بالأبهة والحفلات الدينية، كريما يجزل العطاء. كان رجـلاً متعـدد نواحي النشاط عظيم الإقدام الذهني، وكان على ثقة بالنفس تكاد تذكر المرء بغليوم الثاني إمبراطور ألمانيـا السابق الذي هو آخر – وربما كان ذلك إلى الأبد – هذه المجموعة من القياصرة الزائفين بأوربا الذين يقـوم على رأس قائمتهم شرلمان.

والحياة العقلية التي يسجلها عنه إجنهارد شائقة لا تخلو من متعة، لأنها لا تقف عند إعطائنا لمحات عـن شخصه مستطلعة، ولكنها تمثل لنا نموذجا من عقلية ذلك الزمان. كان له إلمام بالقراءة؛ والراجح أنـه كـان أثناء تناوله الطعام "يصغي إلى الموسيقى أو القراءة"، ولكن يحدثنا مؤرخه بأنه لم يتعلم فن الكتابة؛ "وكان من عادته أن يضع دفتره وألواحه تحت وسادته، حتى يمرن يده على كتابة أشكال الحروف إذا تهيأت له فسـحة من وقت الفراغ، ولكن تقدمه كان طفيفًا في ذلك الفن الذي ابتدأه في وقت متأخر جدا من حياته". ومع ذلـك فقد كانت نفسه تنطوي على احترامٍ حق للعلم ورغبة صادقة في المعرفة" وبذلك قصارى جهده ليجتذب رجال العلم إلى بلاطه. ومن بين الكثيرين الذين وفدوا عليه الكوين (Alcuin) وهو عالم إنجليزي.

وكان كل هؤلاء العلماء بالطبع من رجال الكنيسة (الإكليروس)، إذ لم يكن هنـاك أي علمـاء آخـرين، وطبيعي أنهم كانوا يصبغون المعلومات التي يقدمونها لسيدهم بصبغة قوية من الدين. وكان مقر بلاطه فـي العادة إكس لاشابل أو مايانس" فإذا حلت شهور الشتاء أقام فيه مؤسسة غريبة تسمى "مدرسته"، وفيهـا كـان يتظاهر هو وخلطاؤه اللوذعيون أنهم ينبذون جانبا كل تفكير في المراكز الدنيوية، ويتخذون لأنفسهم أسـماء مستقاة من كتاب الآداب الكلاسيكية القديمة أو من الأسفار المقدسة، ويتناقشون في اللاهـوت والأدب. فأمـا شارلمان نفسه فكان يتسمى باسم "داود". فأفاد علما غزيرا ومعرفة جسيمة باللاهوت، وإليـه ينبغـي لنـا أن

---

(١) انظر : "Life of Karl the Great" تأليف إجنهارد (جلايستر).

(٢) هو رداء روماني يشد بنطاق حول الخصر. (المترجم)

ننسب اقتراح إضافة عبارة: "وعن الابن أيضا Filio que" إلى قانون إيمان العقيدة النيقية [1] – وهي إضافة انتهت آخر الأمر بانفصال الكنيستين اللاتينية واليونانية إحداهما عن الأخرى. ولكنا نشك كثيرا في أنه كـان يرمي إلى مثل هذه الفرقة. فإن كل ما أراده أن يضيف إلى قانون الإيمان المسيحي كلمة أو ما إليها، كما شاء الإمبراطور غليوم الثاني بالضبط أن يكتب المسرحيات الغنائية (الأوبرات) وأن يدبج الصور، وكـان بـذلك يتخذ لنفسه ما كان في الأصل بدعة إسبانية. فلم يقبل تلك الإضافة أحد إلا بعد زمن طويل؛ واقتضت حكمـة البابا ليو معارضتها. وعندما تم قبولها آخر الأمر، كان ذلك على الأرجح عمدا بقصد إحداث الانفصال عـن الكنيسة اليونانية. والنقطة التي ينطوي عليها الموضوع، نقطة دقيقة خفية ولكنها حيوية، غير أن كاتب هـذه السطور لا يستطيع أن يدلي فيها برأي. فالمسيحية اللاتينية تعتقد أن "الروح القدس" ينبثق مـن الآب "وعـن" الابن، على حين يعتقد المسيحيون اليونان والشرقيون بأن "الروح القدس" إنما ينبثق من الآب دون أي ذكـر للابن. وهذا الاتجاه الثاني يبدو كأنما يميل هونًا ما نحو وجهة النظر الآريوسية. ولن نسـوق إليـك هنـا إلا القليل من القول في تنظيم شرلمان للإمبراطورية. فقد كان من شدة القلق وعدم الاستقرار وكثـرة المشـاغل بحيث لم يتهيأ له أن يدرس صفة خلفه أو يبحث في شروط الاستقرار السياسي، وأجدر الأمور بالذكر في هذا الصدد هي أنه أوصى ابنه وخليفته، لويس الورع (٨١٤ – ٨٤٠)، بأن يأخذ التاج من المذبح "ويتوج نفسـه بنفسه". على أن لويس الورع كان أتقى من أن يتمسك بهذه التعليمات عندما اعترض البابا.

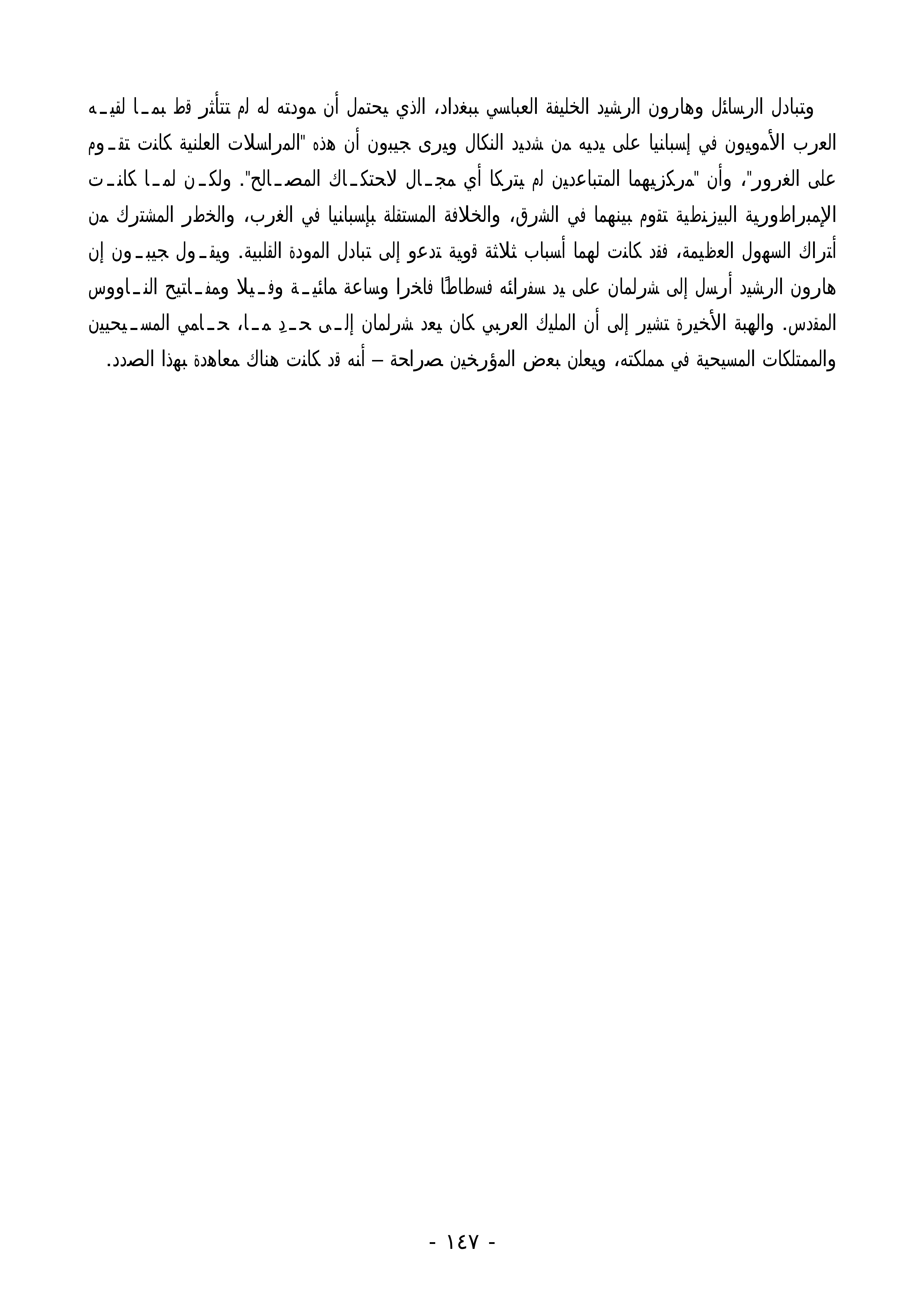
وتأثر تشريع شرلمان أعظم التأثر بقراءته للكتاب المقدس؛ فإنه أصبح مع تقدم الـزمن، جيـد المعرفـة بالكتاب المقدس، ومن خصائصه المأثورة أنه بعد ما توج إمبراطورا، طلب إلى كل ذكر من أفـراد رعيتـه تجاوز الثانية عشرة أن يجدد له قسم الولاء والطاعة، وأن يتعهد بأن يكون لا مجرد فرد طيـب مـن أفـراد الرعية بل مسيحيا صالحا. وكان رفض التعميد والارتداد بعد التعميد جرائم عقوبتها الإعدام.

فعل الشيء الكثير لتشجيع فن العمارة، فاستحضر معماريين إيطاليين عديدين، مـن رافنـا (Ravenna) بصفة خاصة، ونحن مدينون لهم بكثير من المباني الجميلة التي ما زالت تبهج السائحين في ورمز وكولونيـا (كولن) وغيرهما من بلدان أرض الراين. وبذل جهدا كبيرا للنهوض بفن العمـارة "الرومانسـكي" [2] الـذي سنصفه في القسم التالي. وأسس عددا من الكاتدرائيات ومدارس الأديرة، وفعل الشيء الكثير لتشجيع دراسـة اللاتينية (الكلاسيكية) القديمة، وكان هاويا ممتازا شديد الولع بموسيقى الكنيسـة. علـى أن احتمـال تحدثـه باللاتينية وفهمه للإغريقية مسألة فيها جدال ونظر؛ ولعله كان يتكلم اللاتينية الفرنسية. ومع ذلك فإن الفرنجية (Frankish) هي لغته العادية. وقام بجمع مجموعة من الأغاني والأقاصيص الألمانية القديمة. على أن خلفه لويس الورع دمر هذه لوثنيتها.

---

[1] يشير كما أسلفنا إلى المجمع الذي عقده قسطنطين (٣٢٥ م) وأصدر قانون إيمان انظر (ص ٧٤١). (المترجم)

[2] الرومانسكي طراز من فن العمارة وسط بين الطرازين الروماني والقوطي. انتشر بغرب أوربا بين القرن التاسـع والثالـث عشر. (المترجم).



وتبادل الرسائل وهارون الرشيد الخليفة العباسي ببغداد، الذي يحتمل أن مودته له لم تتأثر قط بما لقيه العرب الأمويون في إسبانيا على يديه من شديد النكال ويرى جيبون أن هذه "المراسلات العلنية كانت تقوم على الغرور"، وأن "مركزيهما المتباعدين لم يتركا أي مجال لاحتكاك المصالح". ولكن لما كانت الإمبراطورية البيزنطية تقوم بينهما في الشرق، والخلافة المستقلة بإسبانيا في الغرب، والخطر المشترك من أتراك السهول العظيمة، فقد كانت لهما أسباب ثلاثة قوية تدعو إلى تبادل المودة القلبية. ويقول جيبون إن هارون الرشيد أرسل إلى شرلمان على يد سفرائه فسطاطًا فاخرا وساعة مائية وفيلا ومفاتيح الناووس المقدس. والهبة الأخيرة تشير إلى أن المليك العربي كان يعد شرلمان إلى حدِ ما، حامي المسيحيين والممتلكات المسيحية في مملكته، ويعلن بعض المؤرخين صراحة – أنه قد كانت هناك معاهدة بهذا الصدد.

٧- الفن والعمارة الرومانسكيان

كان يحدث في الشرق بدافع المؤثرات المسيحية، أن فن عمارة الإمبراطورية الرومانية الفاخر الاتزان والجمود، أي فن العمارة الذي يوجد في تدمر وبعلبك قد ألم به تحوير سريع عميق. تحول به نحو جمود الجزالة الأثيرية التي للطراز البيزنطي؛ أما في الغرب فكانت تلم به تطورات مشابهة وإن لم تكن مناظرة لتلك تماما. وقد شاع إطلاق اسم "الرومانسكي" على أضرب جمة من المباني تتبدى فيها جميعا صفة مشتركة، لأنها مشتقة جميعا من التقاليد الفنية الرومانية، التي أوهن قوتها وكبحها انتشار الفقر بصفة عامة في أرجاء العالم، ولكنها تشهد أيضا في كل مكان بوجود تأثيرات عنصرية جديدة وضرورات اجتماعية جديدة. فلم تعد هناك بعد أية مدرجات ولا أية سقايات عظيمة للماء ولا أي أقواس نصر ولا معابد تقام للآلهة. بل كانت هناك حصون وقلاع ضخمة مستديرة أو مربعة، وكنائس وأبراج. ويصبح البرج آنذاك لأول مرة مهما في أوربا: ذلك أن فن العمارة أخذ يعلو صعدا. وقد كنا حتى الآن لا نشاهد الأبراج إلا في أرض الجزيرة بالعراق. ولم تحاول المباني في العالم المصري ولا الهلّيني ولا الروماني أن تشق عنان السموات. حقًا إنه توجد أبراج في التحصينات الرومانية والهلّينية وفي سور الصين العظيم، وهي أجزاء من الاستحكامات الدفاعية، ولكن هذا يكاد يكون كل مظهر من الأبراج حتى الحقبة المسيحية. ثم يصبح البرج ضرورة لا بد منها في عالم يغير عليه الهون والعرب وقراصنة البحر من كل الأنواع – وسنحدثك في قسم مقبل عن أهل الشمال (North men) والعرب والمجريين. وتصبح الكنيسة ضرورة أخرى بسبب صلاة الجماعة التي يدعو إليها الدين الجديد، وطبيعي أن يظهر الاثنان جنبا إلى جنب.



(شكل ١٣٧) رسم بارز من قبر شرلمان

في إيكس لاشابل يمثله وهو يكرس كنيسة للعذراء

وتشترك ديانتا "الكتاب والفكرة" الجديدتان: النصرانية والإسلام، في هذه الصفة؛ فإنهما جهدتا أن تطلا إلى قلب كل إنسان. فكان لابد من حشد الناس في مكان العبادة والقربان؛ وكان لا بـد مـن تـذكيرهم بالصـلاة والعقيدة. ولذا أطلق في العمارة الإسلامي أرق زهراته، وهي المئذنة التي يمكن من فوقهـا دعـوة النـاس وهدايتهم. ولم تعد المسيحية تستطيع الاكتفاء بالمعبد المظلم الصغير الخاص بالآلهة الأقدمين؛ فكان لزاما أن تبنى الكنائس كبيرة متسعة الجنبات، لتضم كل من في الناحية من المؤمنين. وكان لا بد من دعوة الناس مـن برج الجرس. فهجر طراز المعبد الإمبراطوري، ودعت الحاجة إلى المباني الفسيحة المعماريين المسـيحيين للتحول بوجهتهم إلى نموذج دور القضاء الرومانية وأعني بها الباسيليقا (Basilicas) [١].

ومن المستحيل علينا في هذا المجال المتاح لنا أن نقفو الفن "الرومانسكي" بمختلف أنواعه وأشكاله الجمة، فنراه وهو ينتقل متحولا إلى فن بيزنطي ناحية الشرق ثم وهو يعدل علـى يـد النورمانـديين والسكسـون والفرنجة. على أن عهد الاستقرار الذي حل إبان حكم شرلمان جمع تحت رعايته كل ما في أوربا الغربية من قوى فنية، وإنما يصل الطراز الرومانسكي إلى أبرز مستويات تعبيره عن ذاته في مباني كاتدرائيـة إكـس لاشابل (آخن) وأمثالها.

وكما حدث من اختفاء الأشكال المجسمة الممثلة للكائنات الحية الـذي لاحظنـاه فـي الفنـين البيزنطـي والعربي، تواصل في أوربا الغربية أثناء تلك العصور المضطربة، اختفاء مناظر له وإن لم يكن تاما. حتـى إن المثّال الذي كان يستطيع أن يعالج بقوة أوضاع الإنسان أو الحيوان، لم يعد له وجود على ظهر البسـيطة في أية منطقة غربي بلاد الهند. والتجأ فن النقش والتصوير إلى الأديرة. إذ إن تحلية الكتب بالصور ارتفعت إلى مستويات عالية من الإتقان في الإمبراطوريتين الرومانية والهلّينية، ولم تندثر قط اندثارا تاما. وإنما أبقاها على قيد الحياة غدوات الرهبان المسيحيين وروحاتهم، كما كان يتجدد فيها النشاط بتبادل الأساليب والفكرات. وكانت الأديرة الإرلندية تخرج منذ عصر مبكر يتناهى إلى القرن السابع مخطوطات ذات جمال أخّاذ. ويرجع كتاب الرقائق [٢] (The Book of Kells) الذي هو نسخة من الأناجيل بكلية ترينتـي (Trinity College) بدبلن، إلى ذاك العهد. ويماثل الإنتاج الكلتي الإنتاج العربي الأول مماثلة غريبة في امتناعه عـن اسـتخدام صور الأشكال الحية في زخارفه. وألوانه وتصميماته بديعة، ولكن الرسـم فيـه زري حقيـر. واختلطـت المؤثرات الكلتية بالمؤثرات الكلاسيكية والبيزنطية في النهضة الفنيـة بـبلاط شـرلمان. وهنـاك ارتفعـت المخطوطات المحلاة بالصور المثقلة بالذهب إلى أبدع وأروع مستوياتها.

---

[١] الباسيلة أو البازيليك أصلها عند الرومان قاعات مستطيلة ذات صفين من الأعمدة ولها محراب نصف دائري في نهايتهـا، تستخدم في الشئون القضائية والمالية – وتحول أكثرها فيما بعد إلى كنائس مسيحية. (المترجم).

[٢] كلمة معناها الجلد الرقيق أو الغشاء أو المشبكات (على نحو ما يراه الإنسان في الشبكة من خيوط متقاطعة تاركة بينها ثقوبا أو منافذ) وعليه يمكن تسمية هذا الكتاب باسم "كتاب الرقائق أو المشبكات" (المترجم)

على أن بعض المنتجات الإنجليزية والنورماندية تبدي شيئًا من التمرد بإظهارها ميلاً إلى الفـن التمثيلـي ورسم الأشكال بالخط المحيطي [1] Outline، وسرعان ما تنطلق نحو عمل الصور المصغرة Miniatures أو المنمنمات. على أن الانحطاط التدريجي الذي لحق فن تحلية المخطوطات بالصور، واختفاء روح المبادهة والاختراع فيها بسبب انحراف الطاقة الفنية إلى أوساط media أخرى [٢]، لم تصبح ملموسة إلا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر.

---

[1] الخط المحيطي: طريقة في الرسم تبرز فيها الخطوط الخارجية للشيء من غير تظليل. انظر للمترجم كتاب "التربيـة عـن طريق الفن" لهربرت ريد (الألف كتاب).

[٢] الوسط: المواد والأساليب والوسائل الفنية والمادية والتكنيكية للتعبير الفني. (المترجم).

٨- الفرنسيون والألمان يتم انفصالهم

لم تعش إمبراطورية شرلمان بعد ابنه وخليفته لويس الورع، فإنها انشطرت إلى أجزائها الرئيسية الأصلية. ذلك أن سكان بلاد الغال من الكلت والفرنجة ذوي الصبغة اللاتينية يأخذون عند ذاك في أن يتميزوا تحت اسم فرنسا، وإن كانت فرنسا تلك منقسمة إلى عدد من الدوقيات والإمارات انقساما لم يجعل لها معه في معظم الوقت إلا وحدة اسمية؛ وشرعت الشعوب الناطقة بالألمانية بين نهر الراين وبين الصقالبة في الشرق تكون بالمثل صورة لألمانيا أشد من صورة فرنسا انقساما. حتى إذا ظهر آخر الأمر إمبراطور حقيقي في أوربا الغربية (٩٦٢)، فإنه لا يكون فرنجيا بل سكسونيا فقد أضحى المغلوبون في ألمانيا هم السادة.

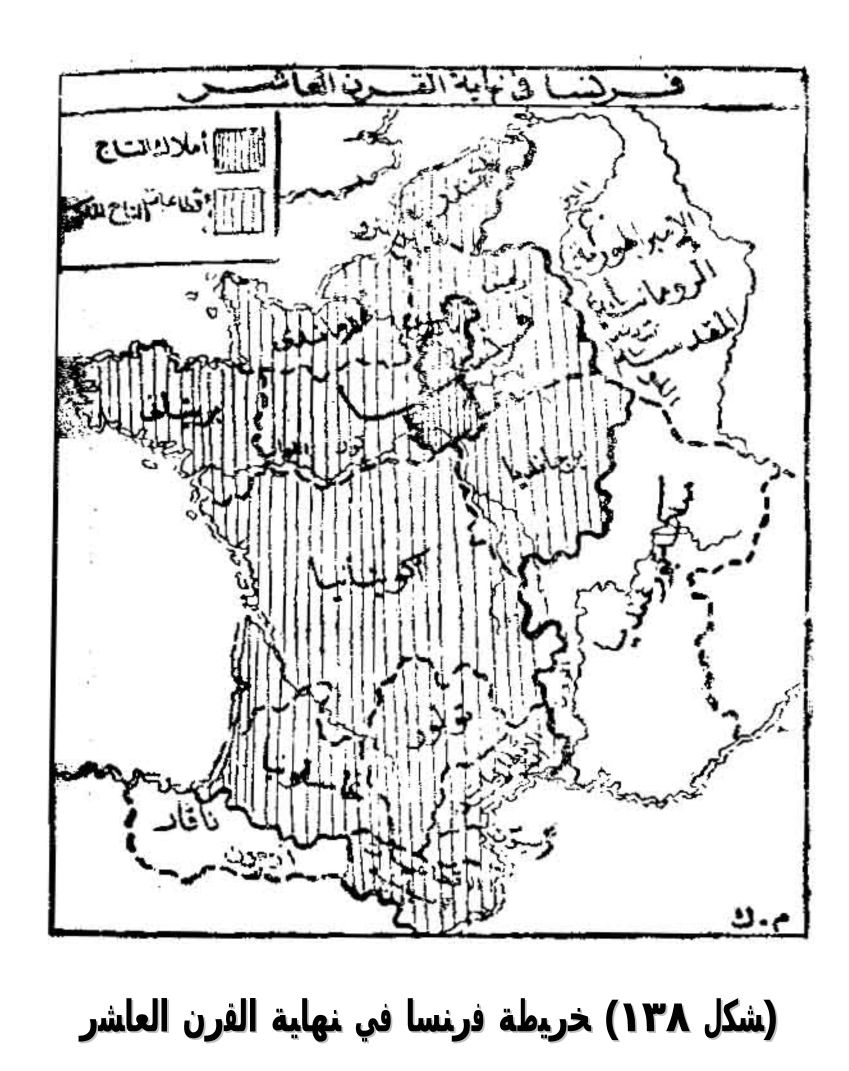
وإنا لنرى ها هنا أول الإشارات إلى صنف جديد من أصناف التجمع السياسي في أوربا، وهو فجر ما نسميه الآن "بالقومية Nationalism". وهي شيء أشبه ما يكون ببداية إحدى عمليات التبلور، أو قل إنها عملية تخارج وفرز حدثت في الخليط المتلاطم التام الاضطراب الذي جاء في أعقاب تحطم النظام الإمبراطوري.

ومحال أن نقفو في هذا المقام أحداث القرنين التاسع والعاشر بأي قدر من التفصيل، مترسمين ما جرى فيه من المخالفات والخيانات والادعاءات وصنوف الضم والاستيلاء. فقد كانت تعم أوربا حالة من الفوضى والخروج على القوانين وحروب وكفاحات من أجل القوة والسلطان. وفي (٩٨٧) انتقل ملك فرنسا الاسمي من أيدي الكارلوفنجيين، وهم آخر سلالة شرلمان إلى يد هيو كابيت، الذي أسس أسرة ملكية جديدة. وكان معظم أتباعه المزعومين مستقلين في الحقيقة، نزاعين إلى خوض غمار الحرب على الملك لأقل استفزاز. فكانت ممتلكات دوق نورماندي مثلاً أشد سعة وأعظم قوة مما كان يملكه هيو كابيت نفسه. وتكاد الوحدة الوحيدة التي تجمع شتات فرنسا هذه، التي كان للملك عليها سلطة اسمية، تنحصر في عزم ولاياتها الكبرى جميعا على مقاومة أي اندماج في أية إمبراطورية يتسلط عليها حاكم ألماني أو يسودها البابا. وفيما عدا ذلك التنظيم البسيط الذي كانت تمليه تلك الإرادة المشتركة، فإن فرنسا لم تزد عن رقعة شطرنج مكونة من نبلاء مستقلين أو يكادون. كانت الحقبة حقبة بناء قلاع وإقامة تحصينات، وفترة ما يسمونه "بالحرب الخاصة" في كل أرجاء أوربا.

وتكاد حالة روما في القرن العاشر أن تعجز القلم عن أي وصف. فإن انحلال إمبراطورية شرلمان ترك البابا ولا حامي له، تتهدده بيزنطة والعرب (الذين استولوا على صقلية)، ويتحرش به نبلاء روما الشرسون. ومن أقوى هؤلاء النبلاء امرأتان، هما تيودورا وماروزيا وهما أم وابنتها [1]، تعاقبتا في الاحتفاظ بقلعة سانت أنجلو (انظر ص ٨٣٠)، التي استولى عليها ثيوفيلاكت زوج تيودورا النبيل، كما استولى على معظم سلطة البابا الزمنية. وكانت هاتان المرأتان من الجرأة وموت الضمير والخلاعة كأي أمير ذكر في ذلك الزمان، والمؤرخون يسبونهما كأنما كانتا أسوأ من الأمراء عشر مرات. وقبضت ماروزيا على البابا يوحنا العاشر وسجنته (٩٢٨)، وسرعان ما توفي في ظل رعايتها!!... فأما أمها تيودورا فكانت خليلة له. ثم نصبت ماروزيا بعد ذلك ابنها غير الشرعي على عرش البابوية، باسم يوحنا الحادي عشر.

---

(١) ويذكر جيبون اسم تيودورا أخرى، هي شقيقة ماروزيا. (المؤلف).



(شكل ١٣٨) خريطة فرنسا في نهاية القرن العاشر

ومن بعده شغل كرسي القديس بطرس حفيدها يوحنا الثاني عشر. وإن ما سطره جيبون عن سلوك يوحنا الثاني عشر وأخلاقه، ليتوارى آخر الأمر خجلاً وراء ستار من الهوامش اللاتينية. وقد جرد هذا البابا يوحنـا الثاني عشر من منصبه على يد الإمبراطور الألماني الجديد أوتو، الذي عبر جبال الألب وانحدر إلى إيطاليـا ليتوج (٩٦٢).



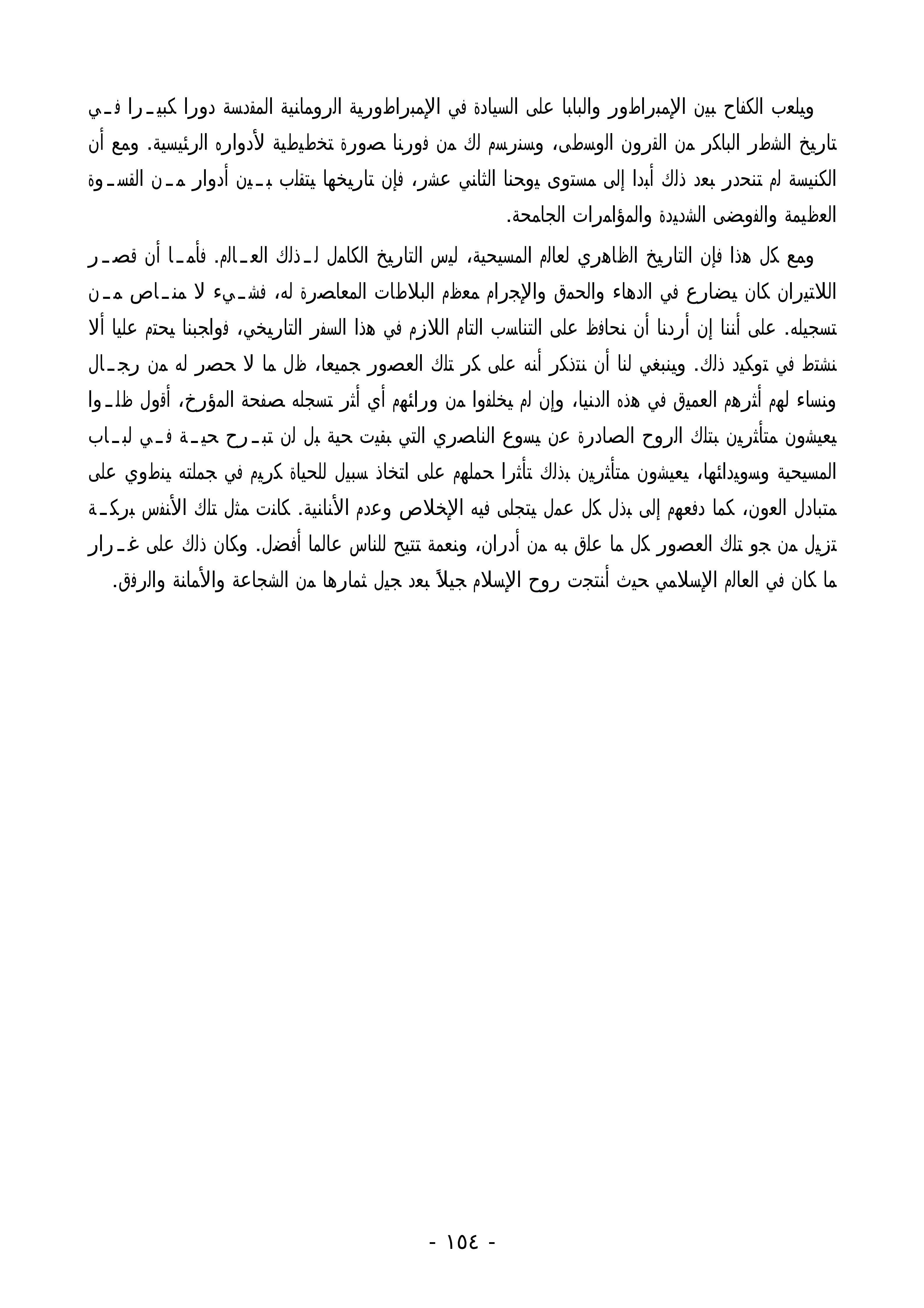
(شكل ١٣٩) خريطة إمبراطورية أوتو الكبير

وهذه السلالة الجديدة من الأباطرة السكسون، التي ارتفعت على هذا النحو إلى رتبة الصدارة، تنتسب إلى شخص معين اسمه هنري الصياد، انتخبته ملكا لألمانيا جمعية من النبلاء والأمراء والأحبار الألمان في (٩١٩). وفي (٩٣٦) خلفه في الملك ابنه أوتو الأول الملقب بالكبير، الذي انتخب كذلك خليفة له في إكس لاشابل، وهو الذي انحدر آخر الأمر إلى روما بدعوة من يوحنا الثاني عشر لكي يتوجه إمبراطورا في (٩٦٢). وقد أجبره على تجريد يوحنا فيما بعد خيانة ذلك البابا له. ولما تسلم أوتو الأول مقاليد سلطته الإمبراطورية، لم يكن ذلك منه تغلبا على روما قدر ما كان إعادة للنزاع القديم على السلطان بين البابا والإمبراطور إلى حالة تداني الاعتدال والكرامة. وتبع أوتو الأول على العرش أوتو الثاني (٩٧٣ – ٩٨٣)، الذي أعقبه أوتو الثالث (٩٨٣ – ١٠٠٢).

وربما جاز لنا أن نشير هنا أنه ظهرت ثلاث أسرات من الأباطرة في أوائل القرون الوسطى – هي السكسونية: من أوتو الأول (٩٦٢) إلى هنري الثاني، وتنتهي في (١٠٢٤)؛ والساليانية [1]: من كونراد الثاني إلى هنري الخامس وتنتهي قرابة (١١٢٥)؛ ثم أسرة هوهنشتاوفن، كونراد الثالث إلى فردريك الثاني، وتنتهي في (١٢٥٠). وكانت أسرة هوهنشتاوفن سوابية الأصل. ثم جاءت أسرة هابسبرج، مبتدئة برودلف الأول في (١٢٧٣)، واستمرت حتى (١٩١٨). وإنا لنتكلم عن الأسرات المالكة هنا، وإن جرت العادة بإقامة احتفال عظيم لانتخاب كل إمبراطور عند تولّيه العرش.

---

(١) كلمة Salian مشتقة من سالو Salü وهم كهنة إله الحرب مارس Mars عند قدماء الرومان. والمقصود هنا من كلمة ساليان هو النسبة إلى قبيلة من قبائل الفرنجة استوطنت الراين الأدنى. (المترجم).



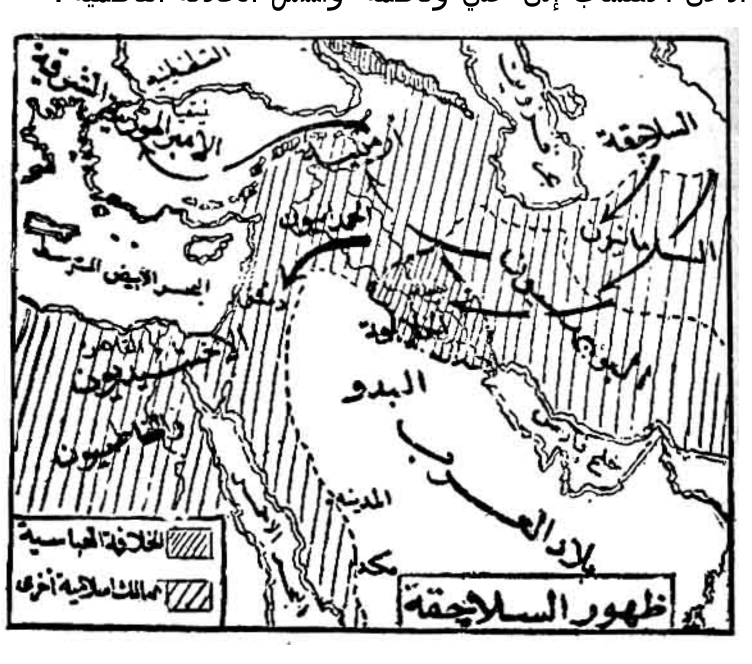
ويلعب الكفاح بين الإمبراطور والبابا على السيادة في الإمبراطورية الرومانية المقدسة دورا كبيـرا فـي تاريخ الشطر الباكر من القرون الوسطى، وسنرسم لك من فورنا صورة تخطيطية لأدواره الرئيسية. ومع أن الكنيسة لم تنحدر بعد ذلك أبدا إلى مستوى يوحنا الثاني عشر، فإن تاريخها يتقلب بـين أدوار مـن القسـوة العظيمة والفوضى الشديدة والمؤامرات الجامحة.

ومع كل هذا فإن التاريخ الظاهري لعالم المسيحية، ليس التاريخ الكامل لـذلك العـالم. فأمـا أن قصـر اللاتيران كان يضارع في الدهاء والحمق والإجرام معظم البلاطات المعاصرة له، فشـيء لا منـاص مـن تسجيله. على أننا إن أردنا أن نحافظ على التناسب التام اللازم في هذا السفر التاريخي، فواجبنا يحتم عليا ألا نشتط في توكيد ذلك. وينبغي لنا أن نتذكر أنه على كر تلك العصور جميعا، ظل ما لا حصر له من رجـال ونساء لهم أثرهم العميق في هذه الدنيا، وإن لم يخلفوا من ورائهم أي أثر تسجله صفحة المؤرخ، أقول ظلـوا يعيشون متأثرين بتلك الروح الصادرة عن يسوع الناصري التي بقيت حية بل لن تبـرح حيـة فـي لبـاب المسيحية وسويدائها، يعيشون متأثرين بذلك تأثرا حملهم على اتخاذ سبيل للحياة كريم في جملته ينطوي على متبادل العون، كما دفعهم إلى بذل كل عمل يتجلى فيه الإخلاص وعدم الأنانية. كانت مثل تلك الأنفس بركـة تزيل من جو تلك العصور كل ما علق به من أدران، ونعمة تتيح للناس عالما أفضل. وكان ذلك على غـرار ما كان في العالم الإسلامي حيث أنتجت روح الإسلام جيلاً بعد جيل ثمارها من الشجاعة والأمانة والرفق.

٩- النورمانديون والعرب
والمجريون والأتراك السلجوقيون

وبينما كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة وشعوب فرنسا وإنجلترة تظهر كما ترى في وسط التمـزق السياسي البالغ الذي أصاب مدنية أوربا الغربية، فإن كلا من هذه المدنيـة والإمبراطوريـة البيزنطيـة قـد تعرضت لهجوم مثلث الجوانب: من دول العرب، ومن أهل دول الشمال، ثم من شيء ثالث هو أبطؤها جميعا تطورا وأشدها بأسا: من زحف جديد نحو الغرب قامت به الشعوب التركية خلال جنوب الروسيا، ومن آسيا الوسطى كذلك بطريق أرمينية وإمبراطورية بغداد.

فبعد أن أسقط العباسيون خلافة الأمويين، تناقصت قوة الدافع العربي ضد أوربا. لم يعد العالم الإسـلامي متحدا: إذ كانت إسبانيا تحت حكم خليفة أموي منفصل؛ على حين أن شمال أفريقية وإن كان خاضعا بالاسـم للعباسيين، كان في حقيقته مستقلاً؛ وما لبثت مصر أن أصبحت في (٩٦٩) دولة منفصلة لها خليفـة شـيعي خاص بها، وهو رجل ادعى الانتساب إلى علي وفاطمة "وأسس الخلافة الفاطمية".



(شكل ١٤٠ خريطة ظهور السلاجقة)

وكان هؤلاء الفاطميون المصريون، وهم المسلمون ذوو العلم الأخضر، متعصبين بالمقارنة إلى العباسيين، وفعلوا الشيء الكثير لتشويه ما بين الإسلام والمسيحية [1] من صلات طيبة. فاستولوا على بيـت المقـدس، وتدخلوا في زيارة المسيحيين للقبر المقدس. وكانت هناك كذلك في الناحية الأخرى من الأمـلاك العباسـية المتقلصة، مملكة شيعية مقرها فارس. وكان أهم فتح قام به العرب في القرن التاسع هو صقلية؛ ولكن ذلـك الفتح لم يتم اجتياحا على الطراز الرائع القديم أي في سنة أو ما يقاربها، بل تم إخضاعها في جهد جهيد خلال قرن كامل من الزمان، ومع نكسات كثيرة في كفة الحرب. وكان عرب إسبانيا يتنازعون في صقلية مع عرب إفريقية. وكان العرب في إسبانيا ينهزمون ويتخاون عن أرضها أمام نهضة جديدة بذلها المسيحيون. ومع ذلك فإن الإمبراطورية البيزنطية وعالم المسيحية الغربية كانا لا يزالان من الضعف في البحر المتوسـط بحيـث استطاع المغيرون والقراصنة العرب من شمال إفريقية، أن يغيروا على جنوب إيطاليا والجزر اليونانية دون أن يجرؤ أحد على تحديهم.

على أن قوة أخرى جديدة أخذت تظهر آنذاك في البحر المتوسط. وقد سبق أن أشـرنا أن الإمبراطوريـة الرومانية لم تبسط نفوذها مطلقًا على شواطئ البلطيق، ولا كان لديها قط القوة لـدفع سـلطانها إلـى بـلاد الدانيمرك. وتعلمت الشعوب الآرية النوردية في تلك الأقاليم المهملة الشيء الكثير من الإمبراطورية التي لـم تستطع إخضاعهم؛ وقد استطاعوا كما أسلفنا النهوض بفن بناء السفن وأصبحوا ملاحين ذوي إقدام؛ فانتشروا عبر بحر الشمال غربا، وعبر بحر البلطيق وأعلى الأنهار الروسية إلى صميم ما هو الآن الروسيا. وكانـت نوفنجورود الكبرى من أقدم مستعمراتهم فيها.

وإن دارس التاريخ لا يفتأ يجد في حالة هذه الشعوب الشمالية ما كان يثقله من المشقة والربكة لدى دراسته للإسكيذيين في الأزمان القديمة، والشعوب التركية الهونية في آسيا الشرقية والوسطى. فإنها تظهر تحت عدد وفير من الأسماء، كما أنها تتغير وتتخالط. ففي حالة بريطانيا مثلاً، ترى أن الإنجليز والسكسون والجوت قد غزوا معظم ما هو الآن بريطانيا في القرنين الخامس والسادس، وجاء في أعقابهم في القرنين الثامن والتاسع الدانيمركيون وهم موجة ثانية من نفس الشعب تقريبا؛ وفي (١٠١٦) حكم في إنجلترة ملك دانيمركـي، هـو كانوت الكبير، ولم يقتصر ملكه على إنجلترة بل تعداها إلى الدانيمرك والنرويج. وكان رعاياه يمخرون البحر بسفنهم إلى أيسلندة وجرينلندة وربما إلى القارة الأمريكية، وجاء حين من الدهر تبدت في الأفق فيه إبان حكم كانوت وأبنائه، بوادر احتمال إنشاء اتحاد عظيم من أهل الشمال.

ثم الثالث في (١٠٦٦) موجة ثالثة من نفس الشعب إلى إنجلترة، من دولة "النورمان" في فرنسا، حيث كان أهل الشمال مستقرين منذ أيام رولف العداء (٩١١)، وحيث تعلموا أن يتكلموا الفرنسية. وأصبح ولـيم دوق نورماندي وليم الفاتح (١٠٦٦) في التاريخ الإنجليزي.

---

[1] أطلق هنا المؤلف القول على عواهنه، إذ المعروف حقيقة أن تسامح الفاطميين مع السنيين والكتابيين كان مضرب الأمثـال، فقد اتخذوا من المسيحيين واليهود على السواء وزراء وكاتمي أسرار وتزوجوا منهم، وكان بعض خلفـائهم مـن أمهـات كتابيات. (المترجم)

وإذا نظرنا إلى هذه الشعوب من زاوية التاريخ العام، وجدناها جميعا تكاد تكون شعبا واحـدا، وألفيناهـا موجات من أرومة نوردية (شمالية) واحدة. ولم تكن هذه الموجات تتجه غربا فحسب بل شرقًا كذلك. ولقـد سبق لنا أن سجلنا حركة جد شائقة قبل هذه لنفس الشعوب تحت اسم القوط تتجه من البلطيـق إلـى البحـر الأسود. وتتبعنا تفرع هؤلاء القوط إلى القوط الشرقية والقوط الغربيـة، كمـا تأثرنـا التجـولات المليئـة بالمغامرات التي انتهت آخر الأمر بتكوين مملكة القوط الشرقيين في إيطاليا ودويلات القوط الغـربيين فـي إسبانيا. في القرن التاسع، كانت لأهل الشمال حركة ثانية عبر الروسيا في نفس الوقـت الـذي كانـت فيـه مؤسساتهم في إنجلترة ودوقيتهم في نورماندي قد أخذت تظهر إلى عالم الوجود.

ولا شك أن بين سكان جنوب اسكتلندة وإنجلترة وشرق إيرلندة وفلاندر ونورماندي والدول الروسية مـن العناصر المشتركة ما لا يكاد يخطر ببالنا بحكم الإلف والعادة. فهم جميعا من الناحية الأساسية شعوب قوطية ونوردية. وإن القرابة بين الروس والإنجليز لنلحظ حتى في موازين الطرفين ومكاييلهم. فإن لدى كل منهمـا البوصة والقدم الشماليين (Norse)، كما أن كثيرا من الكنائس النورماندية الأولى في إنجلترة قد بنيت علـى مقياس يبين استعمال الساجيني (وهو يعادل ٧ أقدام) وربع الساجيني، وهو مقياس نورسي (شمالي) لا يـزال مستعملاً في الروسيا. وكان أهل الشمال "الروسيون" هؤلاء يسافرون زمن الصيف، مستعملين الطرق النهرية الوفيرة في الروسيا؛ وكانوا يحملون سفنهم على الأراضي الفاصلة بين الأنهار المتجهة شمالاً وتلـك التـي تنساب جنوبا. وقد ظهروا على صورة قرصان أو مغيرين وتجار في كل من بحري قزوين والأسود. وذكـر المؤرخون العرب ظهورهم على بحر قزوين، وتعلموا أن يسموهم الروسيين. وقد أغـاروا علـى فـارس، وهددوا القسطنطينية بأسطول عظيم من الزوارق الصغيرة (في ٨٦٥، ٩٠٤، ٩٤١، ١٠٤٣م) [1].

وفي عام ٨٥٠ م تقريبا نصب روريك أحد أهل الشمال هؤلاء، نفسه حاكما على نوفجـورود، واسـتولى خليفته الدوق أوليج (Oleg) على مدينة كييف وبذلك وضع أسس روسيا الحديثـة. وسـرعان مـا قـدرت القسطنطينية ما لدى الفيك إنجز الروس من صفات حربية؛ وكان الروم (اليونـان) يسـمونهم الفـارانجيين (Varangians، وأنشئ من هؤلاء الفارانجيين حرس إمبراطوري خاص. وبعد غزو النورمانديين لإنجلتـرة (١٠٦٦) دفع بعدد من الدانيمركيين والإنجليز إلى المنفى فلحقوا بهؤلاء الفارانجيين الروسيين؛ وواضح أنهم لم يجدوا إلا شيئًا لا يكاد يذكر من الفوارق في اللغة والعادات يحول دون اختلاطهم بعضهم ببعض.

وفي نفس الوقت كان النورمانديون النازحون من نورماندي كذلك يكتشفون طريقهم إلى البحر المتوسـط من الغرب. فهبطوه بادئ ذي بدئ مرتزقة، ثم مغيرين لحسابهم الخاص فيما بعد؛ ويهمنا أن نسجل هنـا أن انتقالهم الرئيسي لم يكن بطريق البحر، بل في شراذم متناثرة بطريق البر. جاءوا مختـرقين أرض الـراين وإيطاليا، يبحثون من ناحية عن الخدمة الحربية والأسلاب، ومن ناحية أخرى بوصـفهم حجاجـا. ذلـك أن القرنين التاسع والعاشر شهدا إقبالا عظيما على الحج.

[1] هذه التواريخ منقولة عن جيبـون بينمـا يحـددها بيزلـي ٨٦٥، ٩٠٤ – ٩٠٧، ٩٣٥، ٩٤٤، ٩٧١- ٩٧٢ History of Russia) مطبعة كلارندن). (المؤلف).

وحين بلغ هؤلاء النورمانديون مبلغ القوة، تنبهوا لأنفسهم وإذا بهم لصوص سلابون ذوو بأس، حتى لقد أرغموا الإمبراطور الشرقي والبابا أن يبرما ضدهم معاهدة ضعيفة غير فعالة (١٠٥٣). فهزموا البابا وأسروه ثم عفا عنهم. وثبتوا أنفسهم في كالابريا وجنوب إيطاليا وانتزعوا صقلية من العرب (١٠٦٠ – ١٠٩٠)، ثم هددوا الإمبراطورية البيزنطية نفسها (١٠٨١) تحت إمرة روبرت جويسكارد، الذي هبط إيطاليا حاجا مغامرا وبدأ حياته قاطعا للطرق في كالابريا. كان جيشه يضم كتيبة من الصقليين المسلمين، فعبر به البحر من برنديزي إلى إبيروس (Epirus) في اتجاه مضاد لذلك الذي عبره الملك إبيروس لمهاجمة الجمهورية الرومانية، قبل ذلك بثلاثة عشر قرنًا (٢٧٣ ق.م). فألقى الحصار على مدينة دورازو البيزنطية المنيعة.

وفتح روبرت دورازو (١٠٨٢). على أن حرج الحالة في إيطاليا استدعى عودته إليه، ووضع حدا نهائيا لهذا الهجوم النورماندي الأول على إمبراطورية بيزنطة، مهيئًا بذلك فرصة لحكم أسرة آل كومنين [1] القوية نسبيا (١٠٨١ – ١٢٠٤).

وحدث أن روبرت جويسكارد تمكن في أثناء منازعات أشد تعقيدا من أن يتسع لها المقام هنا – من محاصرة روما ونهبها (١٠٨٤)؛ ولهذه المناسبة ينبه جيبون المعادي للمسيحية في غبطة واطمئنان – إلى وجود تلك الكتيبة من مسلمي صقلية بين الناهبين. ثم حدثت في القرن الثاني عشر ثلاث هجمات نورماندية أخرى على الدولة الشرقية، إحداها على يد ابن روبرت جويسكارد؛ والأخريان من صقلية مباشرة بطريق البحر...

ولكن لم يقيض للعرب ولا للنورمانديين أن يدقوا الإمبراطورية العجوز في بيزنطة أو الإمبراطورية الرومانية المقدسة، تلك الإمبراطورية الشيخة المتصابية في الغرب. بمثل تلك القوة التي جاءت بها الطعنة المزدوجة من المراكز الطورانية في آسيا الوسطى، التي يجب أن نتحدث عنها الآن.

لاحظنا فيما سلف حركة الآفار نحو الغرب والمجريين الأتراك الذين ترسموا خطاهم. فمنذ أيام بين الأول فما بعدها، كانت الدولة الفرنجية وما خلفها من دول في ألمانيا، في نزاع مع هؤلاء المغيرين الشرقيين على امتداد أراضي الحدود الشرقية بأسرها. وقد صدهم شرلمان وأنزل بهم النكال وأسس لنفسه ضربا من السيادة العليا بمنطقة امتدت شرقًا حتى جبال الكربات؛ ولكن هذه الشعوب عادت في فترة الضعف الذي تلا وفاة شرلمان – وقد تخلّطت عند ذاك تخلطًا يتراوح زيادة ونقصانًا وتسمت في البيانات التاريخية باسم الهنغاريين – عادت فاستردت بقيادة المجريين حريتها كاملة غير منقوصة وأخذت تغير كل عام إغارات كانت تصل أحيانًا إلى نهر الراين. ويذكر جيبون أنهم دمروا دير القديس جال بسويسرا ومدينة بريمن بألمانيا. وكانت أعظم فترات غاراتهم بين ٩٠٠، ٩٥٠، كما أن أقصى جهد بذلوه هو الذي توغلوا به خلال ألمانيا إلى فرنسا، ثم ساروا من فوق جبال الألب، عائدين إلى وطنهم ثانية بطريق شمال إيطاليا وذلك في ٩٣٨، ٩٣٩. ولما كان هذا الشعب من اللصوص في خارج بلاده، فقد كان يستمتع في موطنه بحرية عظيمة جدا. إذ يقال إنهم كان لهم في القرن العاشر دستور سياسي تقليدي موروث.

---

[1] انظر للمترجم في مجموعة الألف كتاب ومكتبة النهضة كتاب "الحضارة البيزنطية" تأليف ستفين رانسيمان.

وإذ إن هذه الاضطرابات وأخرى سنلحظها من فورنا دفعت بالبلغار جنوبا – فإنهم وطدوا أقـدامهم كمـا ذكرنا آنفًا بين الدانوب والقسطنطينية تحت إمرة كُروم (Krum). والبلغار شعب تركي الأصل ولكنهم منـذ ظهورهم لأول مرة في شرق الروسيا، كادوا يصبحون بالتخليط المتكرر صقالبة تماما في جنسـهم ولغـتهم. وأقاموا على الوثنية حينًا بعد استقرارهم الأول في بلغاريا. وقد أولم ملكهم بوريس (٨٥٢ – ٨٨٤) الـولائم لمبعوثين من المسلمين، ويلوح أنه فكر في اعتناق الإسلام، على أنه تزوج آخر الأمر أميرة بيزنطية، وسـلم نفسه وشعبه للعقيدة المسيحية.

وممن أدب الهنغاريين (المجر) حتى أخذوا يحترمون الحضارة الغربية بعض الشيء هنري الصياد ملـك ألمانيا المنتخب وأوتو الأول أول إمبراطور سكسوني في القرن العاشر. بيد أنهم لم يوطنـوا الـنفس علـى اعتناق المسيحية حتى قرابة ١٠٠٠م. وهم وإن تنصروا، فإنهم احتفظوا بلغتهم التركوفنلندية (المجريـة)، ولا يزالون يحافظون عليها إلى يومنا هذا. واحتفظوا كذلك بقدر معين من الحرية تحت الملكيـة التـي فرضـت عليهم. ودستورهم المكتوب "الخاتم الذهبي Golden Seal" يرجع تاريخه إلى ١٢٢٢، وهو عديل "شـرقي" (للماجناكارتا) أي العهد الأعظم الإنجليزي في تقييده لسلطة الملك المطلقة. واشترط الملك استيفن أول ملـوك المجر عندما قبل المسيحية رسميا، أن المجر – على عكس بوهيميا وبولندة – يجب ألا تـدخل فـي نطـاق الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

ومع ذلك فإن البلغار والهنغاريين ليسوا آخر الشعوب الذين كانت تحركاتهم نحو الغرب قوام الزحف التركـي عبر جنوب الروسيا. إذ اندفع الخزر من خلف الهنغاريين والبلغار، والخزر شعب تركي اختلطت به نسبة عظيمة جدا من اليهود المطرودين من القسطنطينية، فاختلطوا بهم واجتذبوا إلى دينهم عددا كبيرا منهم تحولوا عن الوثنية. وإلى هؤلاء الخزر اليهود يجب أن تنسب مستوطنات اليهود العظيمة في بولندة والروسيا. ثم جاء فـي أعقـاب الخزر أيضا، فغلبوا عليهم وعمروهم، قوم هم البتشنج (أو الباتشيناق)، وهم شعب تركي متوحش نسـمع عـنهم لأول مرة في القرن التاسع، وقد كتب لهم أن يحلوا ويختفوا كما فعل ذوو قرباهم الهون قبل ذلك بقرون خمسة.

وعلى حين كانت كل هذه الشعوب تسير غربا، فإن علينا عندما نفكر في سكان تلـك الأقـاليم الروسـية الجنوبية، أن نتذكر أيضا غدو أهل الشمال ورواحهم بين البلطيق والبحر الأسود، وتوثّق صلاتهم بالمهاجرين الأتراك توثق السدى باللحمة، وألا يغيب عنا أيضا أنه كان هناك عدد ضخم من السـكان الصـقالبة، ورثـة وخلفاء الإسكيذيين والسرماتيين [1] ومن شابههم، الذين استوطنوا آنفًا تلك المنـاطق الخصـبة المضـطربة المحرومة من كل قانون. اختلطت كل هذه الأجناس أحدها بالآخر وتفاعلت بعضها مع بعض. ويدلك انتشـار اللغات الصقلبية (السلافونية) انتشارا عاما في كل مكان عدا بلاد المجر، على أن السكان ظلوا يغلب علـيهم العنصر السلافي. فأما ما هو الآن رومانيا، فعلى الرغم من تكرار مرور الشعوب ومن الغزو تلـو الغـزو. ظلت تقاليد وتراث الولايتين الرومانيتين داكيا ومويسيا السفلى تحافظ على بقاء لغة وذكريات لاتينية.

---

[1] Sarmatians سلالة تنتمي إلى فصيلة تكلمت نفس اللغة التي كان يتكلمها الإسكيذيون، ويعتقد أنها انحـدرت مـن أصـل ميدي، ولذلك فهي من الجنس الإيراني؛ ولو أن بعض الباحثين يظن أنها تنتمي إلى الجنس الآرال الطائي Ural-altaic : ويطلق الناس في حديثهم أحيانًا لفظة سرماتيو على البولنديين. انظر المعالم ص ٣٠٥ ط٣. (المترجم).

على أن هذا التوغل المباشر للشعوب التركية ضد المسيحية في شمال البحر الأسود لا يكاد في النهاية يبلغ في الأهمية درجة توغلهم غير المباشر في جنوبيه خلال دولة الخلافة. وليس في إمكاننا أن نتناول هنا قبائل الشعوب التركية التركستانية وانقساماتها ولا الأسباب الخاصة التي أبرزت إلى مكان الصدارة القبائـل التـي كانت تحت حكم العشيرة السلجوقية. ففي القرن الحادي عشر انطلق هؤلاء الأتراك السلجوقيون بقوة لا تقاوم لا في جيش واحد، بل في مجموعة من الجيوش وتحت إمرة أخـوين، وأطبقـوا علـى الحطـام المتـداعي للإمبراطورية الإسلامية.

ذلك بأن الإسلام كف من زمن بعيد عن أن يكون إمبراطورية واحدة. فإن الحكم العباسي السني انكمـش حتى لم يعد يشغل إلا رقعة الأرض التي كانت تسمى "بابل" يوما ما، وحتى في بغداد نفسها لم يكن الخليفة إلا كائنًا يدين بمنصبه لحراس قصره الأتراك. فإن تركيا ذا سلطان كسلطان "محافظ القصر" كان الحاكم الحقيقي. وإلى الشرق من الخليفة في فارس وإلى الغرب منه في فلسطين وسوريا ومصر، كان في الحكـم طوائـف شيعية متزندقة [1].

وكان هؤلاء الأتراك السلجوقيون سنيين يأخذون بالعقيدة السلفية، فأطبقوا عند ذاك على الحكام الشـيعيين ومغتصبي السلطان، وغلبوهم، وأقاموا أنفسهم حماة للخليفة البغدادي ونقلوا لأنفسهم سلطة "محـافظ القصـر" الزمنية. وانتزعوا أرمينية من يد الروم في زمن مبكر جدا، وإذ تهيأ لهم النفاذ من الحدود التي صـدت قـوة الإسلام أربعة قرون، اندفعوا لغزو آسيا الصغرى إلى ما يداني أبواب القسطنطينية. فقد نتج عن غزو أرمينية أنهم داروا من الشمال الشرقي حول حاجز قيليقية الجبلي الذي طالما صد جيوش المسلمين. ثم ما لبث الترك تحت قيادة ألب أرسلان الذي وحد في يده كل قوة السلجوق، أن حطموا الجيش البيزنطي تحطيما تامـا فـي موقعة مانزيكرت (Manzikert) أو ملازجرد (Melasgird) (١٠٧١). وكان تأثير هذه المعركة في أخيلة الناس عظيما جدا. ذلك أن الإسلام الذي بدا عليه الانحلال البالغ والذي كان منقسما على نفسه دينيا وسياسيا، قد تنبه الناس إليه فجأة، وإذا به قد نهض ثانية من كبوته، وكانت الإمبراطورية البيزنطية العجوز الآمنة هي التي لاح أنها على شفا الانهيار.

كان فقدان آسيا الصغرى سريعا جدا. واستقر السلاجقة في قونيـة (Iconium)، فيمـا هـو الآن بـلاد الأناضول. ولم يمض طويل زمن حتى آلت إليهم قلعة نيقيا المقابلة للعاصمة.

---

[1] لا إخال السنيين يعدون الشيعة من الكفرة، اللهم إلا عند بعض المتعصبين، وذلك لأنهم في الواقع مسلمون يؤمنون با ونبيه وكتبه. (المترجم).

١٠- كيف استغاثت القسطنطينية بروما

سبق أن تكلمنا عن هجوم النورمانديين على الإمبراطورية البيزنطية من الغرب، وعـن معركـة دورازو (١٠٨٢)؛ كما ألمحنا إلى أن القسطنطينية كانت لا تزال تعي ذكريات قوية وحية عـن الغـارات الروسـية البحرية (١٠٤٣). لا جرم أن بلغاريا روضت ونُصرت. ولكن حربا ضروسا غير فاصلة كانت تدور رحاها بينها وبين البنشنج (البشناق). وكانت يدا الإمبراطور مليئتين بالمشاغل في الشمال والغرب. وها قد جاء مـن الشرق ذلك التهديد الخطير الذي زاد الطين بلة. ولا بد أن تقدم الأتراك السريع في تلك البلاد التي طال بهـا العهد بأيدي بيزنطة قد لاح لها في صورة النذير النهائي بكارثة قاضية. لذلك اتخذ الإمبراطـور البيزنطـي ميخائيل السابع بدافع هذه الأخطار التي تناوشته من كل جانب، خطوة يرجح أنها بدت له ولروما على السواء ذات أهمية سياسية قصوى. فإن العالم اليوناني تطلع إلى أخيه اللاتيني الذي دب فيه دبيب الحياة من جديـد. والتمس المساعدة من البابا جريجوري السابع. وما لبث خلفه ألكسيوس كومنينوس أن كرر ذلك الرجاء على البابا إربان الثاني في مزيد من الإلحاح والاستحثاث.

ولا بد أن هذه الاستغاثة بدت في أعين مستشاري روما نهزة نادرة لتأكيد رياسة البابا على العالم المسيحي بأسره.

ولقد تتبعنا في هذا التاريخ نمو هاته الفكرة الذاهبة إلى إنشاء حكومة دينية لعالم المسيحية – وللبشر كافـة من خلال عالم المسيحية ذاك – وأظهرنا كيف أنه كان من الأمور الطبيعية التي تقتضيها الضرورة أن تجـد تلك الفكرة في روما مركزا لها بسبب ما اختصت به من متوارث التقاليد عن فكرة الإمبراطورية العالميـة. كان بابا روما هو البطريرك الوحيد في الغرب؛ وكان رئيسا دينيا لمنطقة مترامية الأطراف، لغتهـا السـائدة هي اللاتينية؛ فأما بطاركة الكنيسة الأرثوذكسية الآخرون فهم قوم يتكلمون اليونانية، وبذا كان صوتهم غيـر مسموع في كل أرجاء ممتلكاته؛ هذا إلى أن إضافة عبارة "ومن الابن أيضا Filio Pue" إلى العقيدة اللاتينية أدت إلى فصل المسيحيين البيزنطيين بوساطة إحدى النقاط الدقيقة الخفية التي يتعذر معها كل توفيق. (وتـم الانفصال النهائي في ١٠٥٤).

كانت حياة قصر اللاتيران دائمة التغير من كل نواحيها بتغير شاغل كرسي القديس بطرس؛ فكانت رومـا البابوية في بعض الأحيان مباءة فساد ودنس، شأنها أيام يوحنا الثاني عشر؛ وكان يظلها في أحيـان أخـرى سلطان رجال يفكرون تفكيرا رحبا ونبيلاً. على أنه كان من وراء البابا جمعية الكرادلة والقساوسة وعدد كبير من الموظفين ذوي التعليم الراقي، الذين لم يغب عن أبصارهم قط حتى في أحلك الأيام وأفظعها، تلك الفكرة العظيمة الفاخرة القائلة بمملكة دنيوية مقدسة، وبسلام من المسيح يعم أرجاء الأرض قاطبة، وهي الفكرة التي ترجم عنها القديس أوغسطين. ظلت هذه الفكرة طوال العصور الوسطى هي القوة الهادية التي توجه رومـا. أجل إنه حدث أحيانًا أن سادتها بعض العقول الخبيثة، وعندئذ تلعب روما في شئون العالم دور عجوز شرهة خئون ماكرة مكرا جنونيا؛ وربما جاء في أثر ذلك دور جولة ودهاء دنيوي كامل أو دور رفعة وعظمه. ثـم

قد تأتي بين هذا وذاك فترة تعصب أو تقعر وادعاء للعلم، يوم يغدو الاهتمام كله منصبا على الدقة المذهبيـة. أو ربما حدث انهيار خلقي، يصبح معه اللاتيران عرشًا لأحد المستبدين بأمرهم المنغمسين فـي الملـذات أو المغرمين بالجمال المستعدين لبيع كل ما تستطيع الكنيسة أن تقدمه من أمل أو شرف مقابل نقود ينفقها علـى الملذات والمظاهر. ومع ذلك فإن سفينة البابوية كانت على الجملة تسير في طريقها، ولا تلبث حتى تبرز بعد ذلك أمام الريح ثانية.

وفي هذه الفترة التي وصلنا إليها الآن، وهي مدة القرن الحادي عشر، كانت وما تحـت نفـوذ شخصـية سياسي عظيم نادر المثال، هو هلدبراند (Hildbrana)، الذي تولى مناصب متنوعة تحت رياسة مجموعـة متعاقبة من البابوات، ثم أصبح آخر الأمر بابا باسم جريجوري السابع (١٠٧٣ – ١٠٨٥). وإنـا لنجـد أن الرذيلة والتواني والفساد قد محيت بفضله من الكنيسة تماما، وأن طريقة انتخاب البابوات قد أصـلحت، وأن كفاحا عظيما قد استعر لهيبه مع الإمبراطور على مسـألة ذات حيويـة بـارزة، هـي مسـألة "التعيينـات Investitures". فهل كان البابا أو العاهل الزمني هو صاحب القول الفصل فـي تعيـين الأسـاقفة علـى أبروشياتهم؟ وإنا لندرك على وجه أحسن كم كانت تلك المسألة حيوية بالغة الأهمية إذا تذكرنا أن ما يزيد عن ربع الأراضي كان في كثير من الممالك ملكًا لرجال الكنيسة. وكان رجال الكنيسة الكاثوليكية يستطيعون حتى ذلك الحين أن يتزوجوا؛ ولكن العزوبة فرضت آنذاك على جميع القسس رغبة في فصلهم فصلاً فعـالاً عـن العالم وجعلهم أداة طيعة في يد الكنيسة على وجه أكمل......

على أن النزاع على مسألة "التعيينات" حال بين جريجوري السابع وبين الاستجابة الفعالة لأول استصراخ جاءه من بيزنطة؛ غير أنه ترك في شخص إربان الثاني خليفة له ذا فضل وجدارة (١٠٨٨ – ١٠٩٩)؛ فلما جاءته رسالة أليكسيوس، استمسك إربان على الفور بالفرصة التي هيأتها له لضم كل الأفكار والقوة في أوربا الغربية في تيار واحد من الحمية والهدف. وكان يرجو من وراء ذلك أن يقضي على "الحـروب الخاصـة" السائدة في أوربا، ويجد المخرج المناسب الذي تنصرف إليه طاقة النورمانديين الهائلة. ورأى فيهـا كـذلك فرصة لتنحية الدولة والكنيسة البيزنطية عن مكانتهما؛ وبسط سلطان الكنيسة اللاتينية على سوريا وفلسـطين ومصر.

وسمعت أقوال مبعوثي أليكسيوس في مجلس كنسي دعي على عجل بمدينة بياتشنزا (بلانشـنتيا). وفـي السنة التالية عقد إربان في كلير مونت (١٠٩٥) مجلسا عظيما ثانيا، نظمت فيه كل قوى الكنيسة التي تجمعت في بطء للقيام بدعاية لحرب عامة ضد المسلمين. وكان لزاما أن تقف الحرب الخصوصية ويخمد كل ما بين المسيحيين من حروب، حتى يطرد الكافرون... [كذا!!...] وتصبح أرض القبر المقدس في الأيدي المسـيحية من جديد.

وإن حمية الاستجابة التي قوبلت بها تلك الدعوة لتمكننا من أن نفهم ذلك العمل العظيم من التنظيم البنـاء الذي تم في أوربا الغربية في القرون الخمسة السالفة. فإنا في بداية القرن السابع، رأينا أوربا الغربية خليطًـا متناثرا من الحطام الاجتماعية والسياسية، لا تجمعها فكرة مشتركة ولا أمل مشترك، وألفيناها نظاما قد تحطم حتى كاد أن يصبح ذرات من أفراد لا يبحثون إلا عن أنفسهم ومصلحتهم. فأما الآن، ونحن في ختام القـرن الحادي عشر، فيسري بين الناس في كل ناحية اعتقاد مشترك: أعني فكرة جامعة، قـد يسـتطيع النـاس أن يهبوها أنفسهم، وبها يستطيعون أن يتعاونوا معا في مسعى جماعي عام. وإنا لنرى بأنفسنا هنا مـا صـنعته الكنيسة المسيحية بعملها وجدها، بالرغم من وجود كثير من الضعف وعدم السلامة الذهنية والأخلاقية. وإنـا لنستطيع أن نقدر الأدوار السيئة التي تردت فيها روما أثناء القرن العاشر وما حوت من الفضائح والنجاسات والقتل والعنف، - قدرها الحق إذا وزنّاها بميزان هذه الحقيقة الجديدة. ولا شك كذلك في أنه كان يوجد فـي كل أرجاء العالم المسيحي قساوسة كثيرون من الكسالى والشريرين الحمقى، ولكن من البين أن عبء التعلـيم والتنسيق لم يتم إلا بواسطة عدد غفير من القسيسين والرهبان والراهبات الذين كانوا يعيشون عيش الصلاح. ذلك بأن حلمًا عظيما جديدا، هو حلم العالم المسيحي قد ظهر في هذا العالم، وقام ببنائه آلاف مـن الأنفـس المخلصة المجهولة.

ولم تقتصر هذه الاستجابة لدعوة إربان الثاني على من قد نسميهم بالمتعلمين. فلم يكن الأمر مجرد فرسان وأمراء يرغبون وحدهم في الانخراط في تلك الحروب الصليبية. وإلى جوار شخص إربان يجـب أن نضـع شخص بطرس الناسك" وهو طراز من الرجال جديد في أوربا، وإن كان يذكرنا بعـض الشـيء بالأنبيـاء العبرانيين. قام هذا الرجل يدعو للحروب الصليبية بين عامة الناس. وكان يقص على الناس – إن صدقًا وإن كذبا، إذ إن ذلك أمر لا يكاد يعنينا في هذا المقام – قصة حجه إلى بيت المقـدس؛ ويحـدثهم عـن التـدمير المنطوي على الاستهانة البالغة، الذي أنزله بالقبر المقدس الأتراك السلجوقيون، الذين استولوا عليه في زمان ما يقارب (١٠٧٥) (إذ لا يزال تاريخ هذه الفترة مبهما جدا)؛ ويحدثهم عن ضروب الغصب والابتزاز الجائر والفظائع الوحشية والقساوات المتعمدة التي ينزلونها بالحجاج المسيحيين إلى الأماكن المقدسة. طـوف هـذا الرجل، حافي القدمين وفي ثياب خشنة وممتطيا حمارا وحاملاً صليبا ضخما؛ أنحاء فرنسا وألمانيـا، وهـو يخطب في كل مكان جماهير حاشدة في كنيسة أو شارع أو سوق.

وإنا لنتبين أوربا هنا وقد ألفت بينها لأول مرة فكرة واحدة وروح جامعة! وإنا لنلمس هنا استجابة عامـة من الغضب من قصة ظلم يقع في مكان سحيق، ونشهد تفهما سريعا لهدف مشترك يجمع بين الغنى والفقيـر على السواء. وليس في طوقك أن تتصور حدوث ذلك الشيء في إمبراطورية أوغسطس قيصر، ولا في أيـة دولة سابقة لها في تاريخ العالم. وربما كان شيء من هذا القبيل ممكنا في عالم "هـيلاس" الأصـغر حجمـا بكثير، أو في بلاد العرب قبل الإسلام. فأما هذه الحركة فكانت تؤثر في الأمم والممالك والألسن والشـعوب. فمن الجلي إذن أننا نعالج هنا شيئًا جديدا ظهر في العالم، هو ارتباط جديد واضح بين المصـلحة المشـتركة وبين وعي الرجل العادي من العامة.

١١- الحروب الصليبية

كانت هذه الحماسة المتأججة مختلطة منذ بدايتها بعناصر أكثر اتضاعا. فقد كانت هناك الخطـة الهادئـة المضبوطة التقدير التي رسمتها الكنيسة اللاتينية الطموح الحرة لإخضـاع الكنيسـة البيزنطيـة الخاضـعة للإمبراطور والحلول محلها. وكانت هناك غريزة النهب الذي لا حد له لدى النورمانديين الذين كانوا يمزقون إيطاليا إربا ويبعثرونها أشلاء. وسرعان ما حولت وجهتها آنذاك إلى عام غانم جديد أوفر ثراء. وكان يخـيم على الجموع التي ولت عند ذاك وجهها شطر الشرق، شيء أعمق في التكوين البشري من عاطفـة الحـب، وأعني به الكراهية الناجمة عن الخوف، تلك الكراهية التي أججتها دعوات الدعاة الحانقة والمبالغة في فظائع وقساوات الكفرة [كذا!!...] نارا حامية.

وكانت هناك فضلاً عن ذلك قوى أخرى تعمل عملها؛ ذلك بأن السلاجقة والفاطميين غيـر المتسـامحين كانوا آنذاك عقبة كأداء في سبيل تجارة جنوا والبندقية صوب الشرق، وكانت حتى ذلك الحين تنساب بطريق بغداد وحلب أو بطريق مصر. فلم يكن بد من فتح هذه المسـالك المغلقـة عنـوة، إلا إذا احتكـر طريـق القسطنطينية والبحر الأسود التجارة الشرقية احتكارا تاما. وفضلاً عن ذلك فقد حدث فـي (١٠٩٤، ١٠٩٥) وباء ومجاعة امتدا من نهر الشلت (Scheldt) إلى بوهيميا، وترتب عليهما اختلال اجتماعي بليغ.

يقول المستر أرنست باركر "لا عجب إذن أن ينطلق نحو الشرق تيار من الهجرة، شأن مـا يحـدث فـي الأزمنة الحديثة من انسياب الناس نحو منطقة للذهب حديثة الكشف – تيار يحمل في أمواهه العكـرة أدرانًـا كثيرة من المشردين والمفلسين ومتتبعي المعسكرات والباعة المتجولين والرهبان اللاجئين والأشرار الفارين، موسوم بنفس سمة الخليط المتعدد الألوان، ونفس حمى الحياة، ونفس التأرجحات بين الثراء والإدقـاع التـي تميز الاندفاع إلى منطقة الذهب اليوم".



(شكل ١٤١) خريطة الحرب الصليبية الأولى

على أن هذه كانت أسبابا ثانوية مساعدة. فأما الحقيقة ذات الأهمية البالغة لدى مؤرخي البشرية فهي هـذه "الإرادة النازعة إلى شن حرب صليبية" المتجلية فجأة على صورة إمكانية جماهيرية جديـدة فـي الشـئون الإنسانية.

وقصة الحروب الصليبية مليئة بتفاصيل رومانسية رائعة الجمال يلتزم إزاءها كاتب معالم تاريخ أن يغفـر لقلمه إذا هو انساب منه عند منعطف ذلك الميدان الجذاب. وكانت أول القوات التي سارت شـرقًا جمـاهير غفيرة من أناس غير منظمين أكثر منها جيوشًا، وقد حاولوا أن يتخذوا من وادي الدانوب طريقًـا لهـم، ثـم ينحرفوا جنوبا إلى القسطنطينية. وكانت هذه هي "الحملة الصليبية الشعبية". ولم يحدث البتة من قبل في تاريخ العالم بأسره أن كان هناك مثل ذلك المشهد من الجماهير التي لا قائد لها أو تكاد والتي تحركها فكرة؛ بيد أنها كانت فكرة بالغة الفجاجة فلما أن أصبحوا بين ظهراني الأجانب، لم يبد عليهم أنهم أدركوا أنهم لم يصلوا بعد إلى بلاد الكفرة [(١)]. وقد ارتكبت جماعتان عظيمتان من الغوغاء، هما مقدمة الحملة، من ضـروب الخـروج عن الاعتدال في بلاد المجر (حيث كانت اللغة – لا ريب – غير مفهومـة لهـم) مـا اسـتثار المجـريين (الهنغاريين) إلى القضاء عليهم. فأعملوا فيهم السيف ذبحا وتقتيلاً. وابتدأ حشد ثالث عملـه بمذبحـة كبيـرة أعملها في يهود أرض الراين – ذلك أن الدم المسيحي كان فائرا – ثم تمزق ذلك الجمع أيضا في هنغاريـا. واخترق حشدان آخران أوربا بقيادة بطرس ووصلا إلى القسـطنطينية، وكـم كانـت دهشـة الإمبراطـور أليكسيوس وجزعه بالغين!!.. ذلك أنهم دأبوا على طول الطريق ينهبـون وينتهكـون الحرمـات، فحملهـم الإمبراطور آخر الأمر بالسفن عبر البسفور، وهناك لم يهزمهم السلاجقة فقط بل ذبحوهم عن بكـرة أبـيهم (١٠٩٦).

ومما يؤسف له أن ظهور "الشعوب" لأول مرة كشعوب في تاريخ أوربا الحديث، كان ظهورا تعسا غيـر موفق، وقد أعقبه مجيء القوات المنظمة ١٠٩٧ المخصصة للحملة الصليبية الأولى. جاءوا من طرق شـتى:
- من فرنسا ونورماندي وفلاندر وإنجلترة وجنوب إيطاليا وصقلية، وكان النورمانـديون عصـب الحملـة وعزيمتها، فعبروا البسفور واستولوا على نيقيا التي اختطفها أليكسيوس منهم قبل أن ينهبوها.

ثم واصلوا مسيرهم على نفس الطريق الذي اتخذه الإسكندر الأكبر في الغالب مخترقين البوابة القيليقيـة، تاركين الأتراك في قونية غير مهزومين، ومجتازين ميدان معركة إيسوس ثم مواصلين السير إلى أنطاكيـة التي استولوا عليها بعد حصار قارب السنة. ثم هزموا جيشًا عظيما جاء من الموصل لنجدتها.

وظل قسم كبير من الصليبيين في أنطاكية، وتقدمت قوة أصغر تحت قيادة جودفري البويوني (نسبة إلـى بويون Bouillon من أعمال بلجيكا) أماما إلى بيت المقدس. "وبعد حصار دام أكثر قليلاً من شهر، اسـتولوا على المدينة نهائيا. (١٥ يوليه ١٠٩٩). كانت المذبحة رهيبة؛ وكان دم المقهورين يجري في الشوارع حتـى لقد كان الرجال يصيبهم رشاش الدم وهم ركوب. وعندما أرخى الليل سدوله، جاء الصليبيون وهم " يبكـون

[(١)] غريب أن يشير الكاتب إلى المسلمين بالكفرة فإن كان ذلك منه متابعة لأهل العصر الذي يكتب فيه فما كان أحراه أن ينـزه نفسه عن مثل هذا الجهل بالإسلام وأهله، وأنهم يعبدون ا وحده فلا شرك ولا كفران. (المترجم)

من فرط الفرح" إلى الناووس المقدس بعد خوضهم فيما أريق من دم سال كالخمر من معصرة العنب. ورفعوا جميعا أيديهم الملطخة بالدماء يصلون شكرا . وبذلك انتهت الحرب الصليبية الأولى في ذلك اليوم من شهر يوليه" [١].

وسرعان ما استحوذ رجال الدين اللاتينيون المرافقون للحملة على سلطة بطريرك بيت المقـدس، ووجـد المسيحيون الأرثوذكس أنفسهم تحت الحكم اللاتيني في حال يكاد يكون أسوأ منه تحت حكم الأتراك. وكان أن تأسست إمارات لاتينية في أنطاكية والرها Edessa، وابتدأ النزاع على السلطان بين مختلف هؤلاء الملـوك والقصور، كما أخفقت محاولة كانت غايتها جعل بيت المقدس ملكًا للبابا. على أن هذه أمور معقدة تخرجنـا عما بين أيدينا من مجال.

ومع ذلك فلنقتبس فقرة عامرة بما يتميز به جيبون من خصيصة: "وربما مِلتُ في أسلوب أقل وقارا ممـا يليق بالتاريخ، إلى تشبيه الإمبراطور أليكسيوس بابن آوي، الذي يقال إنه يتعقب خطى الأسد ويلتهم ما يفضل منه. ومهما يكن مبلغ مخاوفه وعنائه أثناء مرور الحملة الصليبية الأولى، فإنه قد جوزي عليها أوفى جـزاء بما اجتناه بعد ذلك من وراء مغامرات الفرنجة. فإن مهارته ويقظته أتاحت له احتياز نيقيا أولى فتوحهم، ومن نقطة التهديد هذه اضطر الأتراك إلى إخلاء ما يجاور القسطنطينية من أرض.

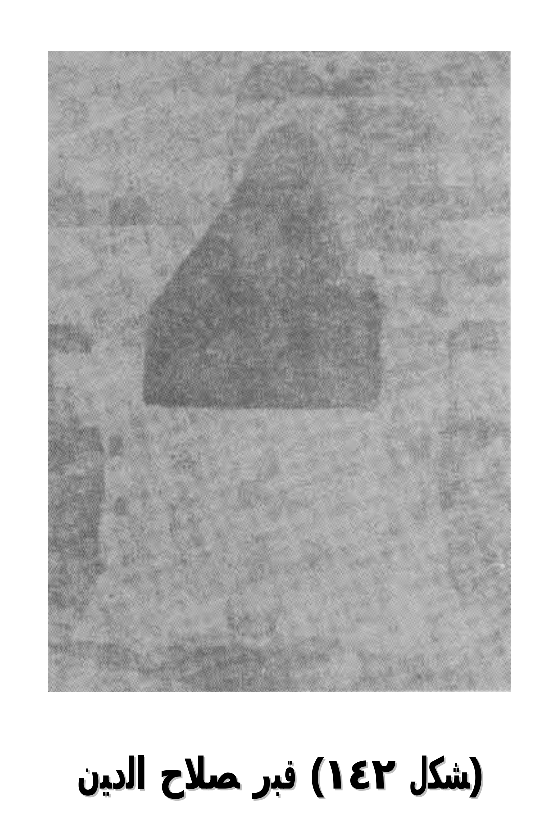
"وعلى حين كان الصليبيون بشجاعتهم العمياء يتوغلون في داخل أقطار آسيا، انتهـز اليونـاني المـاكر الفرصة المواتية وأفاد من استدعاء الترك أمراء ساحل البحر ليلتفوا حول لواء السلطان. فدفع الأتـراك مـن جزائر رودس وخيوس؛ وأعيدت مدن إقيسوس وأزمير وسارديس وفيلادلفيا [٢] واللاذقية إلى الإمبراطوريـة التي وسع أليكسيوس رقعتها من الهلس بونت (الدردنيل) إلى ضفتي نهر الميانذر وعلى شواطئ بامفيليـا [٣] الصخرية. وعادت الكنائس إلى سابق أبهتها؛ وأعيد بناء المدن وتحصينها؛ وعمر القطر القاحـل بمسـتقرات من المسيحيين الذين نقلوا برفق من التخوم النائية الخطرة.

---

[١] باركر في مادة "الحروب الصليبية" الموسوعة البريطانية.

[٢] فيلادلفيا: مدينة بإقليم "ليديا" القديم بآسيا الصغرى واسمها الحديث "الأشهر". (المترجم).

[٣] بامفيليا: منطقة تقع بجنوب آسيا الصغرى. (المترجم)



(شكل ١٤٢) قبر صلاح الدين

"وربما اغتفرنا كل أخطاء أليكسيوس من أجل هذه الرعايات الأبوية، إذا نحن تناسينا خـلاص النـاووس المقدس؛ ولكنه كان في نظر اللاتين موصوما بتهمتي الخيانة والغدر القبيحتين!! وكانوا أقسموا يمين الـولاء والطاعة لعرشه؛ بيد أنه وعد بأن يساعدهم في مغامرتهم بشخصه أو على الأقل بجنوده وأموالـه؛ فـأحلّهم نكوصه الدنيء من يمينهم؛ وعندئذ صار السيف الذي أبلغهم ذرا النصر، هو الكفيل بضمان استقلالهم العادل عنه. ولا يبدو أن الإمبراطور حاول أن يبعث من جديد مدعياته القديمة البالية على مملكة بيت المقدس، على أن عهده بامتلاك حدود قيليقية وسوريا كان أحدث كما أنهما كانتا أقرب إلى ذراعيه منـالا. وكـان أن أبيـد جيش الصليبيين العرمرم أو تشتت؛ وكان أن شغرت إمارة أنطاكية وأصبحت بلا رئيس، بمباغتـة بوهمنـد وأخذه أسيرا؛ وأبهظت الفدية كاهله بالدين؛ ولم يكن لأتباعه النورمانديين كثرة في العدد كافية لـدفع عـدوان الروم والترك.

"وقد أضمر بوهمند أثناء هذه المحنة عزما كريما على ترك الدفاع عن أنطاكية لقريبه المخاص تانكريـد؛ وعلى تسليح الغرب ضد الإمبراطورية البيزنطية، وعلى تنفيذ الخطة التي ورثها درسا ومثـالاً عـن أبيـه جويسكارد. وأحيط نزوله إلى السفينة بالكتمان؛ ولئن وثقنا بقصة ترويها الأميرة أنّا، فإنه مـر فـي البحـار المعادية مختبئًا اختباء شديدا في تابوت. (وتضيف أنا كومنينا [1] إلى ذلك أنه رغبة في اسـتكمال الخدعـة، أقفل عليه التابوت مع ديك ميت؛ ثم تتنازل أنّا فتعجب كيف استطاع الهمجي المتبربر أن يتحمل الحبس وريح التعفن الرمي. على أن هذه القصة السخيفة مجهولة لدى اللاتين). واستقبل في فرنسا بحفاوة لـم يشـبها أي

[1] أنا كومنينا: (و ١٠٨٣) هي ابنة الإمبراطور ألكسيوس ومؤرخة حياته، ولعلها أول مؤرخة في التاريخ. (المترجم)

مساس وذلك بفضل حسن استقبال الشعب له، وزواجه من ابنة الملك؛ وكانت عودته مجيـدة، إذ إن أشـجع رجال العصر قد انضووا تحت إمرته العسكرية الخبيرة؛ وعاد فعبر الأدرياني على رأس خمسـة آلاف مـن الفرسان وأربعين ألفًا من المشاة، اجتمعوا من أقصى أرجاء أوربا ومختلف أجوائها. غير أن مناعة دورازو، وحصافة أليكسيوس واشتداد المجاعة واقتراب الشتاء فوتت عليه آماله الطموحة؛ وقد أغرى الروم حلفاءه من المرتزقة على التخلي عن رايته. وعقدت محالفة سلام كانت حدا مؤقتًا لمخاوف الروم".

عالجنا الحرب الصليبية الأولى على هذه الشاكلة من التطويل لأنها تبين تبيانًا تاما صفات هذه الحمـلات جميعا. وأخذت حقيقة النضال بين النظامين اللاتيني والبيزنطي تتجلى للعيان شـيئًا فشـيئًا. وفـي (١١٠١) وصلت الأمداد التي لعبت فيها أساطيل الجمهوريتين التجاريتين البندقية وجنوا دورا بارزا، وامتـد سـلطان مملكة بيت المقدس.

(شكل ١٤٣) كنيسة القديس مارك بالبندقية

وقد شادها في القرنين ١١ و ١٢ فنيون معظمهم من اللومبارد والشرقيين

وشهدت (١١٤٧) حملة صليبية أخرى، اشترك فيها كل من الإمبراطور كونراد الثالـث والملـك لـويس الفرنسي. كانت حملة أكثر فخامة وأقل نجاحا وحماسة من سابقتها. وكان الدافع إلى إرسالها هو سقوط الرها في يد المسلمين في (١١٤٤). وكان فيها فصيلة ضخمة من الألمان عمدت، بدلاً من أن تتجه إلى الأراضـي المقدسة، إلى مهاجمة وإخضاع شعب الوند (Wend) [1] شرقي نهر الألب وكانوا لا يزالون وثنيين. فوافـق البابا على ذلك واعتبره من الحروب الصليبية، وكذلك كان شأن الاستيلاء على لشبونة، وتأسـيس الفصـائل الإنجليزية والفلمنكية لمملكة البرتغال المسيحية.

---

[1] شعب الوند أو الفند: شعب من مجموعة الشعوب الصقلبية كالبولنديين. ولغتهم صقلبية وأبجديتهم لاتينية الأصل عددهم ١٥٠ ألفًا. ويحيط بهم الألمان، ومع ذلك يحافظون للآن على تقاليدهم ولغتهم. (المترجم).

وفي (١١٦٩) أصبح مغامر كردي اسمه صلاح الدين حاكما على مصر، ذلك القطر الذي قام فيه السنيون بثورة أسقطت الزندقة [كذا!!] الشيعية التي أسسها الفاطميون بها. فوحد صلاح الدين هذا جهود مصر وبغداد ودعا إلى "الجهاد"، أي الحرب المقدسة، أو الحرب الصليبية المضادة، مستنهضا جميع المسلمين على المسيحيين. وقد أثار هذا "الجهاد" في ديار الإسلام من المشاعر القوية ما يداني ما أثارته الحرب الصليبية الأولى في عالم المسيحية تقريبا. وتغير الحال آنئذ وإذا هو حال صليبي ينازل نظيرا له "صليبيا" (حسب تعبير المؤلف)؛ واستعيدت بيت المقدس (١١٨٧).

وأثار هذا الأمر الحرب الصليبية الثالثة (١١٨٩). وكانت هذه أيضا حملة فاخرة وضع خطتها الإمبراطور فردريك الأول (الشهير باسم فردريك بربروسا [1] بالاشتراك مع ملك فرنسا وملك إنجلترة الذي كان يملك في ذلك الوقت كثيرا من أجمل المقاطعات الفرنسية). ولعبت البابوية دورا ثانويا في هذه الحملة؛ مذ كانت في أحد أدوار الضعف؛ وكانت هذه الحملة الصليبية أشد الحملات دماثة وفروسية ورومانسية. إذ خففت من حدة مرارة التعصب الديني روح الشهامة الفروسية التي غمرت كلاً من صلاح الدين وريتشارد الأول (قلب الأسد) (١١٨٩ – ١١٩٩) ملك إنجلترة. فما أجدر محبي الرومانس أن يتوجهوا إلى الروايات الرومانسية المدبجة عن هذه الفترة ليتذوقوا طعمها وشذاها. وقد أنقذت هذه الحملة إمارة أنطاكية إلى حين. ولكنها أخفقت دون استرداد بيت المقدس. ومع ذلك فإن المسيحيين ظلوا مسيطرين على سواحل فلسطين.

ولما وافى زمان الحملة الثالثة، كان عنصر العجب والسحر قد زالا من هذه الحركات زوالا تاما. فإن عامة الناس كانوا عرفوا خباياها. ذلك أن الرجال كانوا يذهبون، فلا يعود إلا الملوك والنبلاء فرادى مشردين؛ وغالبا ما يكون ذلك بعد فرض ضرائب باهظة على الناس لجمع الفدية اللازمة.

لقد ابتذلت فكرة الحروب الصليبية لكثرة ما استعملت وتفاهة ما استخدمت فيه. فكلما تنازع البابا مع شخص من الناس، أو إذا شاء هو أن يضعف من قوة الإمبراطور الخطرة بتوجيه مجهوداته وراء البحار، راح يدعو إلى حرب صليبية، حتى لقد كفت الكلمة عن أن يكون لها أي معنى إلا محاولة وضع شيء من النكهة في حرب غير مستساغة الطعم. فهناك حرب صليبية أعلنت على الهراطقة في جنوب فرنسا، وثانية على جون (ملك إنجلترة)، وأخرى على الإمبراطور فردريك الثاني. فلم يكن الباباوات يفهمون أن الكرامة ضرورية للبابوية. أجل إنهم بلغوا في صدارتهم لعالم المسيحية أوج الرفعة الخلقية. ثم أخذوا بعد ذلك يبددونها شيئًا فشيئًا. ولم يقتصروا على ابتذال فكرة الحرب الصليبية وتضييع قيمتها، بل جعلوا ما في يدهم من قدرة هائلة على الحرمان (أي طرد الناس من الرحمات القدسية، والآمال والسعادات التي يكفلها لهم الدين) – مثار السخرية باستعمالها في المنازعات السياسية البحتة. ولم يقتصر الأمر على إعلان الحرب الصليبية على فردريك الثاني بل إنه "حرم" أيضا – دون أن يعود عليه ذلك بأي ضرر ظاهر. ثم حرم مرة ثانية في (١٢٣٩)، وجدد ذلك الحكم إنوسنت الرابع في (١٢٤٥).

---

[1] معنى كلمة بربروسا هو ذو اللحية الحمراء. (المترجم)

ولم تصل معظم الحملة الصليبية الرابعة إلى الأرض المقدسة بتاتًا. خرجت من البندقية (١٢٠٢)، واستولت على زارا وعسكرت في القسطنطينية (١٢٠٣)، وأخيرا نهبت المدينة (١٢٠٤). كانت الحملة هجوما مشتركًا صريحا على الإمبراطورية البيزنطية. فاستولت البندقية على شطر كبير من شواطئ الإمبراطورية وجزرها، وأقيم أمير لاتيني هو بلدوين الفلاندري إمبراطورا بالقسطنطينية. وأعلنت عودة الوحدة بين الكنيستين اللاتينية واليونانية، وحكم أباطرة لاتين بوصفهم غزاة في القسطنطينية من (١٢٠٤ – ١٢٦١).

ثم حدث في (١٢١٢) حدث رهيب، هو "حملة صليبية للأطفال". فإن هياجا لم يعد يستطيع أن يؤثر بعد في البالغين السليمي العقل انتشر بين الأطفال في جنوبي فرنسا وفي حوض نهر الرون. فسار جمهور مكون من آلاف كثيرة من الغلمان الفرنسيين إلى مرسيليا؛ فاستغواهم تجار الرقيق إلى النزول في السفن، وباعوهم في مصر عبيدا. وسار أطفال أرض الراين على أقدامهم حتى انحدروا إلى إيطاليا، وهناك تشتتوا بعد ذلك أن هلك منهم كثيرون في الطريق.

واستغل البابا إنوسنت الثالث هذه الحادثة العجيبة لصالحه أيما استغلال. فقال: "حتى الأطفال أنفسهم يلبسوننا ثوب الخزي والعار". ثم حاول أن يستثير الحماسة لحملة صليبية خامسة. وكان هدف هذه الحملة غزو مصر، لأن بيت المقدس كانت عند ذاك في قبضة السلطان المصري؛ وعادت البقية الباقية من هذه الحملة (١٢٢١)، مجللة بالخزي بعد جلاء غير كريم عن مدينة دمياط، الفتح الوحيد الذي فتحته، ومعها آثار من الصليب الحق ببيت المقدس كمنحة جاد بها عليهم – على سبيل العزاء – عدوهم المنتصر، ولقد سبق أن لحظنا ما مر بذلك الأثر الجليل قبل أيام محمد (ﷺ) عندما حمله كسرى (الثاني) أبرويز إلى المدائن (طيشفون)، ثم استعاده الإمبراطور هرقل. ومع ذلك فإن أجزاء من الصليب الحق، قد بقيت على الدوام في روما بكنيسة (سانت كروتشي جيروساليمي S. Croce - Gerusalemme) منذ أيام الإمبراطورة هيلانة (أم قسطنطين الكبير، التي تقول الأسطورة عنها، إنها اطلعت على مخبئه في رؤيا رأتها أثناء حجها إلى الأراضي المقدسة.

ويقول جيبون: "إن حراسة الصليب الحق الذي كان يعرض يوم أحد القيامة في جلال ووقار أمام أعين الناس، كانت موكولة إلى أسقف بيت المقدس؛ وكان هو وحده الذي يرضي تقوى الحجيج المتشوقين بأن يهديهم قطعا صغيرة منه، كانوا يضعونها في أوعية من الذهب أو الجواهر، ويحملونها إلى بلادهم ظافرين. ولكن لما لم يكن بد لهذه السلعة المربحة من أن تنضب سريعا، فقد وجد من الملائم الزعم بأن ذلك الخشب العجيب كانت له قوة إنبات خفية، وأن مادته وإن كانت تتناقص باستمرار إلا أنها تظل مع ذلك كاملة غير منقوصة".

فأما الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨) فهي حملة قاربت درجة السخف. ذلك أن الإمبراطـور فردريـك الثاني كان أقسم على القيام بحملة صليبية ثم نكث بنذره. أجل إنه شرع في الحملة شروعا زائفًا ولكنه عـاد أدراجه. والراجح أنه كان يتبرم من مجرد فكرة القيام بحملة صليبية. ولكن النذر كان جزءا من الصفقة التي ضمن بها نصرة البابا إنوسنت الثالث له في انتخابه إمبراطورا. فتشاغل بإعـادة تنظـيم حكومـة مملكتـه الصقلية، وإن كان أوهم البابا أنه سيتخلى عن هذه الممتلكات لو أصبح إمبراطورا؛ وكان البابـا تواقًـا إلـى الحيلولة دون ما يقوم به الإمبراطور من تنظيم ممتلكاته الصقلية وإحكام تماسـكها، - بإرسـاله إيـاه إلـى الأراضي المقدسة. ذلك أن البابا لم يكن ليرغب في وجود فردريك الثاني أو أي إمبراطور ألماني بأي حـال في إيطاليا، لأنه هو نفسه كان يرغب في أن يحكم إيطاليا. فلما أن طال تمام ص فردريـك الثـاني، أصـدر جريجوري التاسع عليه قرار الحرمان وأعلن عليه حربا صليبية، وغزا ممتلكاته في إيطاليا (١٢٢٨). وعنـد ذلك أقلع الإمبراطور بجيش إلى الأراضي المقدسة. وهناك التقى بسلطان مصر (وكان الإمبراطـور يـتكلم بطلاقة ست لغات من بينها العربية)؛ ولقد يبدو أن هذين السيدين، ولكل منهما آراؤه المتشككة، تبادلا وجهات نظر متماثلة متجانسة وتناقشا أمر البابا بروح علمانية، وتباحثا في اندفاع المغول غربا، وهو الأمر الذي كان يهددهما جميعا على السواء، واتفقا آخر الأمر على عقد معاهدة تجارية وتسليم جزء من مملكة بيت المقـدس إلى فردريك.

فكان هذا لا جرم نوعا جديدا من الحروب الصليبية، فهو حرب صليبية بالمعاهدات الخاصة. ولما كان هذا الصليبي المدهش محروما، كان لزاما عليه أن أن يستمتع بتتويج علماني بحت في بيت المقدس، آخذًا التـاج من المذبح بيديه، في كنيسة كان كل رجال الدين قد انصرفوا منها. والراجح أنه لم يجد هناك واحـدا مـنهم يريه الأماكن المقدسة. والواقع أن هذه كلها حظرها عليه بطريرك القدس، وأمر بإقفال أبوابها. وواضـح أن الروح هنا تختلف تمام الاختلاف عن الروح التي أوحت تلك المذبحة الدامية الحمراء في الحـرب الصـليبية الأولى. ولم يكن فيها حتى ذلك الإكرام الظريف الذي لقيته زيارة الخليفة عمر قبل ذلك بستمائة عام.

ورحل فردريك الثاني من بيت المقدس وهو وحيد تقريبا، عائدا إلى إيطاليا من ذلك النجاح غير الرومانسي، وسارع إلى تنظيم شئونه هناك، وطرد الجيوش البابوية من ممتلكاته، وأجبر البابا على أن يحله مـن حرمانـه (١٢٣٠). وفي الحق إن هذه الحرب الصليبية السادسة لم تكن نقيضا للمقصود من الحروب الصـليبية ودلـيلاً غير مباشر على سخفها وحدها فحسب، بل وسخف الحرمان البابوي أيضا. وسنحدثك في قسم تال عن فردريك الثاني هذا، لأنه كان طرازا نموذجيا في تمثيله قوى جديدة بأعيانها، أخذت تظهر في الشئون الأوربية.

ثم فقد المسيحيون بيت المقدس مرة ثانية (١٢٤٤)؛ إذ استرجعها منهم سلطان مصر بغاية السـهولة عنـدما حاولوا أن يدبروا مؤامرة ضده. فتسبب عن ذلك الحرب الصليبية السابعة، وهي حرب القـديس لـويس ملـك فرنسا (لويس التاسع) الذي أخذ في مصر أسيرا ثم افتدي (١٢٥٠). ولم يحدث أن أفلتت بيت المقدس مرة ثانية من قبضة المسلمين حتى (١٩١٨) عندما سقطت في يد قوة مختلطة من الجنود الفرنسية والإنجليزية والهندية.

وتتبقى بعد ذلك حملة صليبية أخرى؛ وهي حملة على تونس قام بها نفس لويس التاسع ذاك، الذي مـات هناك بالحمى.

١٢- الحروب الصليبية اختبار للمسيحية

تنحصر الأهمية الجوهرية للحروب الصليبية لدى مؤرخي البشرية في موجة العواطف وتوحيد الشـعور اللذين أفعما الحملة الأولى بالحيوية الناشطة. ثم أخذت الحملات بعد ذلك تنحدر إلى منزلة العمليات الروتينية العادية، وأخذت قيمتها تقل بالتدريج كأحداث لها أهمية حيوية. كانت الحرب الصليبية الأولى حـدثًا ضـخما يماثل اكتشاف أمريكا؛ على حين لم تزد الحملات التالية عن رحلة اجتياز عادية للمحيط الأطلسي ففي القرن الحادي عشر لا بد أن فكرة الحرب الصليبية كانت أشبه شيء بنور غريب رائع أضاء في السماء، فأما فـي القرن الثالث عشر، فإن الإنسان ليستطيع أن يتصور سكان المدن الأمناء وهم يقولون بصوت المحتج "ماذا؟! أحرب صليبية أخرى!!".

ولم يكن ما لقيه القديس لويس في مصر شيئًا يعد من قبيل خبرة جديدة اكتسبتها البشرية، بل هي أقـرب شبها بجولة جوال على ملعب معروف.. جولة لاحقها سوء الطالع وهي مجموعة من أحداث لا وزن لهـا. ذلك أن مناط اهتمام الحياة قد تحول إلى اتجاهات أخرى.

وتكشف بداية الحروب الصليبية عن أوربا بأجمعها وهي مشبعة بمسيحية سـاذجة، ومسـتعدة فـي ثقـة وبساطة لأن تتبع قيادة البابا. إذ كانت فضائح قصر اللاتيران أثناء أيامه الشريرة تلك، التـي نعرفهـا نحـن جميعا الآن، مجهولة خارج روما أو تكاد. أجل أصلح جريجوري السابع وإربان الثاني كل ذلـك وعوضـا الكنيسة عما أصابها. ولكن خلفاءهما في اللاتيران والفاتيكان [1] لم يكونوا من الناحية العقلية والخلقية كفوا لما بين أيديهم من نهزات. وكانت قوة البابوية تقوم على الثقة التي أولاها الناس إياها، وهي ثقة استغلتها البابوية في غير حرص أو عناية حتى أوهنتها. ذلك أن روما ظلت على الدوام تنطوي على قدر أكثر مما ينبغي من حصافة "الكاهن" ومكره، وعلى النزر اليسير من قوة "النبي" وروحه. ولذا فبينما كان القرن الحـادي عشـر قرن أناس جهلة ذوي ثقة عمياء، كان القرن الثالث عشر قرن رجال عارفين غير مخدوعين. كان عالما أكثر مدنية وأعمق تشككا.

وكان الأساقفة والقساوسة والمؤسسات الديرية في عالم المسيحية اللاتينية قبل أيام جريجوري السابع على شيء من الارتباط المفكك العرى تقريبا، كانوا من حيث الكيف والكنه غاية في الاختلاف والتفاوت؛ ولكن من الواضح أنهم كانوا في العادة على أعظم درجة من المودة الخالصة مع الناس الذين كانوا يعيشون بين ظهرانيهم، كما كانوا ينطوون على نصيب وافر من روح يسوع التي ما برحت حية في شخصهم؛ كانوا موضع الثقة، وكان لهم نفـوذ هائل "على ضمائر أتباعهم". وكانت الكنيسة بالمقارنة إلى حالتها فيما بعد، واقعة بدرجة أكبر في قبضة العلمانيين المحليين والحاكم المحلي؛ وكانت تنقصها الروح العالمية العامة التي صارت لها فيما بعد.

---

[1] سكن البابوات قصر اللاتيران حتى (١٣٠٩)، عندما أقام بابا فرنسي البلاط البابوي في أفنيون. فلما عاد البابا إلى روما في (١٣٧٧)، كان قصر اللاتيران قد تخرب أو كاد، فأصبح قصر الفاتيكان مقر البلاط البابوي. وكان ذلك القصر، بالإضـافة لي ميزات أخرى، أقرب كثيرا إلى قلعة أنت أنجيلو حصن البابوية. (المؤلف)

وقد أفضت جهود جريجوري السابع الفعالة في تقوية الكنيسة وتنشيطها تنشيطًا يستهدف زيادة قوة روما المركزية، إلى فصم كثير من الروابط الخفية بين القسيس والدير من ناحية، وبين منطقة الريف التي من حولهما من الناحية الأخرى. فإن ذوي الإيمان والحكمة من الناس يؤمنون بأن النمو سنة الحياة كما يؤمنون بإخوانهم من الناس؛ فأما القساوسة، حتى من كان منهم من أضراب جريجوري السابع نفسه، فيعتقدون في "الكفاية" الزائفة التي ينطوي عليها نظام مفروض على الناس. وأفضى النزاع على مسألة "التعيينات" بكل أمير في عالم المسيحية إلى الاسترابة من أمر الأساقفة واعتبارهم عمالا لدولة أجنبية. وتسربت هذه الاسترابة حتى وصلت إلى سكان الأبروشيات [1]. ولقد قضت مشروعات البابوية السياسية بأن يزداد البابوات طلبا للمال على الأيام. وشاع بين الناس في كل مكان إبان القرن الثالث عشر القول بأن رجال الدين ليسوا بالرجال الطيبين، وأنهم لا يفتئون يتصيدون الأموال.

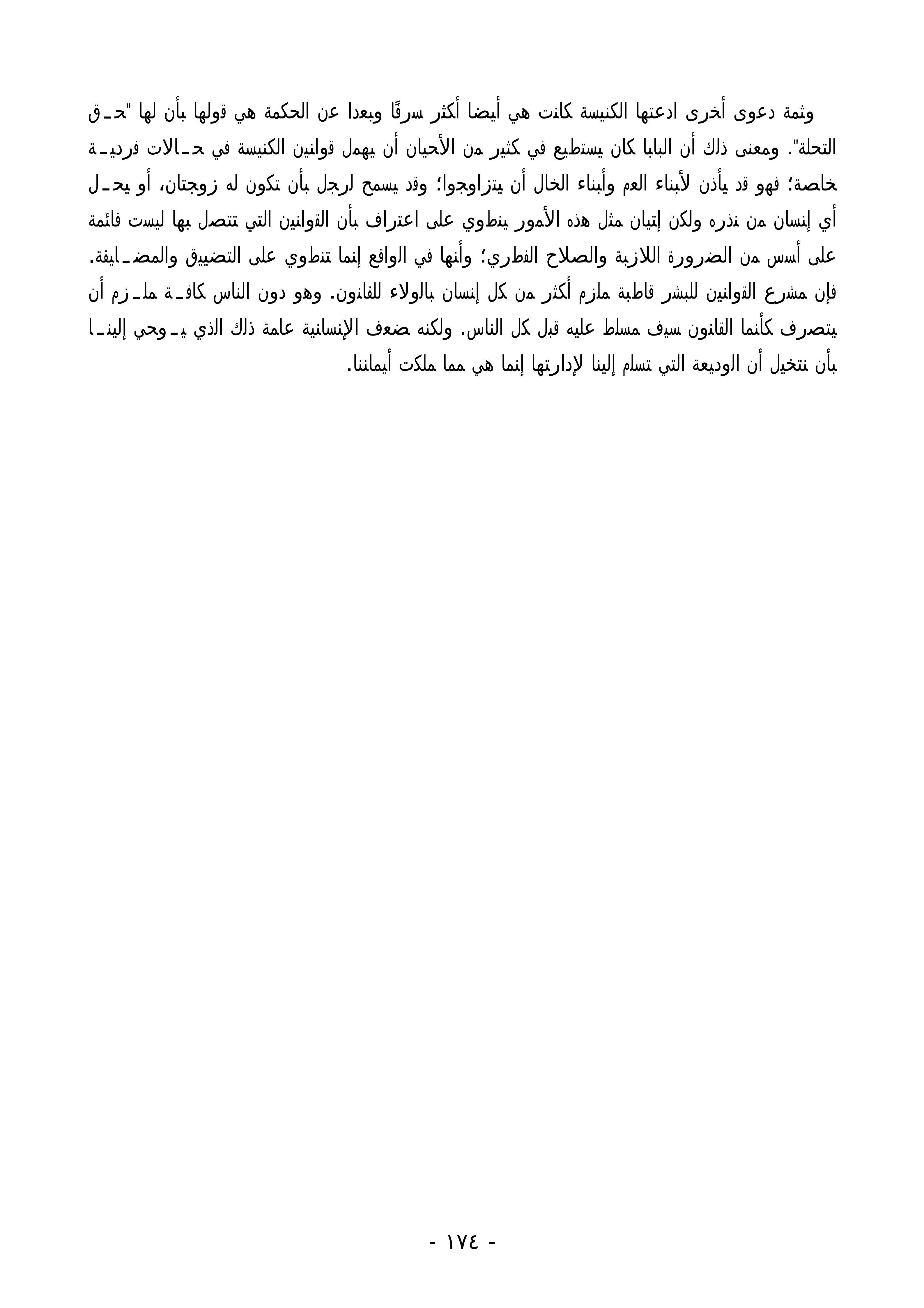
وفي أيام الجهالة الأولى كان الناس دائما على أتم استعداد للاعتقاد بأن طائفة الكهنوت الكاثوليكية طيبة حكيمة. وكانت بالفعل خيرا وأحكم نسبيا في تلك الأيام. ذلك أنه وكلت إلى الكنيسة سلطات هائلة تتجاوز أعمالها الروحية – كما أبيحت لها حريات خارقة لكل معتاد. فاستغلت هذه الثقة أتم استغلال. وقد أصبحت الكنيسة في القرون الوسطى دولة داخل الدولة فكانت لها محاكمها الخاصة، التي لم تقتصر على النظر في قضايا القساوسة (رجال الدين) بل تناولت كذلك قضايا الرهبان والطلاب والصليبيين والأرامل واليتامى ومن لا معين لهم، إذ يحتفظ بقضاياهم للمحاكم الكنسية. وحيثما كان لطقوس الكنيسة أو قواعدها دخل في أي موضوع، ادعت أن لها الاختصاص وتدخلت في مسائل من أمثال الوصية والزواج والأيمان [2]، وطبعا الهرطقة والسحر والتجديف. وكانت هناك سجون كنسية عديدة ربما قضى المذنبون فيها كل حياتهم كاسفين. وكان البابا هو المشرع الأعلى للمسيحية، محكمته بروما هي محكمة الاستئناف النهائية الحاسمة. وكانت الكنيسة تجبي الضرائب؛ ولم يكن لها ممتلكات فسيحة ولا دخل عظيم من الرسوم فحسب، بل إنها فرضت ضريبة العشر (العشور) على رعاياها. وهي لم تدع إلى هذا الأمر بوصفه عملاً من أعمال الإحسان والتقوى؛ بل طالبت به كحق. وأخذ رجال الكنيسة من الناحية الأخرى يدعون عند ذلك حق الإعفاء من الضرائب العلمانية.

ولا شك أن هذه المحاولة منهم للاتجار بنفوذهم الخاص في بابه والتملص من نصيبهم في الأعباء المالية، كانت عاملاً جسيما في السخط المتزايد على رجال الدين. وبصرف النظر عن كل ما يتعلق بالعدالة فإنه كان أمرا لا ينطوي على الحنكة. كان أمرا يجعل الضرائب في أعين من عليهم دفعها تبدو عشرة أضعافها؛ ويجعل كل إنسان مرهف الحس إزاء ما تستمتع به الكنيسة من حصانات.

---

[1] الأبروشية: هي منطقة اختصاص إحدى الأسقفيات (المترجم)

[2] المقصود هنا من الأيمان جمع يمين وهو القسم (المترجم).



وثمة دعوى أخرى ادعتها الكنيسة كانت هي أيضا أكثر سرقًا وبعدا عن الحكمة هي قولها بأن لها "حق التحلة". ومعنى ذلك أن البابا كان يستطيع في كثير من الأحيان أن يهمل قوانين الكنيسة في حالات فردية خاصة؛ فهو قد يأذن لأبناء العم وأبناء الخال أن يتزاوجوا؛ وقد يسمح لرجل بأن تكون له زوجتان، أو يحل أي إنسان من نذره ولكن إتيان مثل هذه الأمور ينطوي على اعتراف بأن القوانين التي تتصل بها ليست قائمة على أسس من الضرورة اللازبة والصلاح الفطري؛ وأنها في الواقع إنما تنطوي على التضييق والمضايقة. فإن مشرع القوانين للبشر قاطبة ملزم أكثر من كل إنسان بالولاء للقانون. وهو دون الناس كافة ملزم أن يتصرف كأنما القانون سيف مسلط عليه قبل كل الناس. ولكنه ضعف الإنسانية عامة ذلك الذي يوحي إلينا بأن نتخيل أن الوديعة التي تسلم إلينا لإدارتها إنما هي مما ملكت أيماننا.

١٣- الإمبراطور فردريك الثاني[١]

يعد الإمبراطور فردريك الثاني خير مثال لطراز المتشكك المتمرد الذي استطاع القرن الثالث عشر أن ينبته. وربما كان من الشائق أن نحدثك قليلاً عن ذلك الرجل الذكي الساخر. وهو ابن الإمبراطور هنري السادس الألماني وحفيد فردريك بربروسا، وأمه ابنة روجر الأول ملك صقلية النورمندي. فورث هذه المملكة (١١٩٨) وهو بعد في الرابعة من عمره؛ وظلت أمه وصية عليه ستة أشهر، فلما أن ماتت أصبح البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨ – ١٢١٦) وصيا على العرش وقيما عليه.

ويبدو أنه حظي بتعليم استثنائي في جودته عجيب في تنوعه، وأكسبته مزاياه لقبا ينطوي على الملق والإطراء هو "أعجوبة العالم Stubor mundi". وكان من نتيجة جمعه بين النظرة العربية إلى المسيحية، والنظرة المسيحية إلى الإسلام، أن أصبح يعتقد أن كل الديانات دجل، وهو رأي ربما ذهب إليه كثير من ذوي الرأي المكبوتي الألسنة في "عصر الإيمان". بيد أنه تحدث دونهم معبرا عن آرائه؛ ذلك بأن كثيرا من تجديفه وإلحاده مدون مسجل.

وإذ إنه ترعرع تحت حكم إنوسنت الثالث ذلك المتغطرس الشامخ بأنفه، الذي لا يبدو عليه أبدا أنه أدرك أن القاصر قد رشد، فقد نمت فيه روح تملص فكهة وكانت سياسة البابا أن يمنع قيام أي اتحاد جديد بين قوة ألمانيا وإيطاليا، ويعادل هذا التصميم من جانب البابا عزم فردريك على أخذ كل ما يستطيع الحصول عليه. فلما أن هيأت له الفرص للساعة تاج ألمانيا الإمبراطوري، استطاع أن يضمن عون البابا له بأن وافق إن هو انتخب – على ترك ممتلكاته في صقلية وجنوب إيطاليا، وأن يقضي على ما في ألمانيا من إلحاد. ذلك أن إنوسنت الثالث كان من أعظم البابوات ولعا بالاضطهاد، كما كان رجلاً مقتدرا طُبع على الجشع والعدوان. (كان بحسبانه بابا، صغير السن صغرا مفرطًا، إذ ارتقى عرش البابوية وهو في السابعة والثلاثين). وإنوسنت هو الذي حض على شن حرب صليبية قاسية على الهراطقة في جنوبي فرنسا، وهي حرب صليبية انقلبت من فورها إلى حملة نهب وسلب أفلت معهما الزمام من يده.

وما إن انتخب فردريك إمبراطورا (١٢١٢)، حتى ألح عليه إنوسنت بأن يبر بالأيمان والوعود التي انتزعها من "قاصره" (الإمبراطور) الفتى!! وقد تعهد أن يرفع عن رجال الدين التشريع العلماني ويعفيهم من دفع الضرائب، ووعد أن ينزل على الملاحدة (الهراطقة) من ألوان القساوات ما يجعلهم عبرة لمن عداهم. ولكن فردريك لم يقم بشيء من كل هاته الأمور. وكما قلنا قبلا، لم يقبل حتى أن يتخلى عن صقلية. إذ كان يؤثر المقام في صقلية ويفضلها على ألمانيا.

---

[١] أصدرت الهيئة المصرية العامة للتأليف ترجمة لهذا الإمبراطور العظيم تحت اسم "الزنديق الأعظم" ألفها جوزيف جاي ديس وترجمها الأستاذ أحمد نجيب هاشم. وهي سيرة رائعة تستحق لفتة من كل قارئ عربي (المترجم).

ومات إنوسنت الثالث وقد أعيته منه الحيل (١٢١٦)، ولم يصل خلفه هونوريوس الثالث معـه إلـى أيـة نتيجة. ومات إنوسنت الثالث دون أن يتوج فردريك، ولكن هونوريوس فعل ذلك (١٢٢٠). وجاء جريجوري التاسع (١٢٢٧) بعد هونوريوس، والظاهر أنه تولى عرش البابوية معتزما عزما أكيدا مغيظًا الهيمنة علـى ذلك الإمبراطور الشاب المحير. فحرمه على الفور لنكوصه عن القيام بحملته الصليبية الموعودة، التي تأخر موعدها اثنتي عشرة سنة؛ ثم شهر برذائله وهرطقاته وذنوبه عامة في رسالة علنية نشـرها (١٢٢٧). فـرد فردريك على هذه بوثيقة على درجة أكبر من الاقتدار، إما أن يكون هو كاتبها أو أنها كتبت له، موجهة إلـى كل أمراء أوربا، وثيقة ذات أهمية قصوى في التاريخ، لأنها أول بيان واضح صريح عن النزاع بين مدعيات البابا في أن يكون الحاكم المطلق على عالم المسيحية بأسره، وبين مدعيات الحكام العلمانيين، وقد كان هـذا النزاع يسري على الدوام كالنار تحت الرماد. ولكنه كان يضطرم هنا على صورة ما، ويتأجج هنـاك علـى صورة أخرى؛ ولكن فردريك وضع الأمر الآن في عبارات واضحة عامة يستطيع الناس أن يتخذوها أساسـا لاتحادهم بعضهم ببعض.

حتى إذا كال هذه الضربة، ارتحل في حربه الصليبية السلمية التي تحدثنا عنها من قبـل. وفـي (١٢٣٩) كان جريجوري التاسع يحرمه للمرة الثانية، ويجدد حرب الشتائم العلنية التي قاست منها البابوية الويلات من قبل. وانبعثت الخصومة من جديد بعد وفاة جريجوري التاسع، عندما أصبح إنوسنت الرابع بابا؛ وللمرة الثانية صدرت عن فردريك رسالة قاضية كتبها ضد الكنيسة، صار لزاما على الناس أن يتذكروها. رسالة شهر فيها بكبرياء رجال الدين وانعدام التدين فيهم، وعزى كل مفاسد الزمان إلى استكبارهم وثـرائهم واقتـرح علـى زملائه الأمراء مصادرة أملاك الكنيسة مصادرة عامة – لخير الكنيسة نفسها. فكانت تلك منه إشارة لم تبارح بعد ذلك أبدا أخيلة الأمراء الأوربيين.

ولن نواصل الكلام عنه في سنواته الأخيرة ولا عن الكوارث التي نشأت عن عدم اكتراثه، فألقـت علـى خاتمته ظلا من الإخفاق. وبدهي أن حوادث حياته الخاصة أقل قيمة من جوها العام. ومن الميسور أن يجمع الإنسان شتات صورة لحياة بلاطه في صقلية. فإنه ليوصف – وقد دنت آخرته – بأنه "أحمر الوجـه أصـلع الرأس ضعيف البصر"؛ على أن قسماته كانت مليحة جذابة. وكان مترفًا في معيشته، مولعا بالأشياء الجميلة. وهو يوصف بالإغراق في الملذات. ولكن من الواضح أن ذهنه لم يشعر بالاقتناع لما مـلأه مـن الشـكوك الدينية، وأنه كان رجلاً أوتي قوتي استطلاع وبحث فعالتين للغاية. وكان بلاطه يجمع بين الفلاسـفة اليهـود والمسلمين والمسيحيين على السواء، وبذل جهدا كبيرا في سبيل إرواء الذهن الإيطـالي بمـؤثرات شـرقية عربية. وعلى يديه أدخلت الأرقام العربية والجبر إلى الطلاب المسيحيين، وكان من بين الفلاسفة الكثيرين في بلاطه ميخائيل سكوت، الذي ترجم أجزاء من أرسطو وتغليفات الفيلسوف العربي العظيم ابن رشد (القرطبي) عليها.

وفي (١٢٢٤) أسس فردريك جامعة نابولي، ووسع مدرسة الطب الكبيرة بجامعة سالرنو أقدم الجامعـات وأغدق عليها الأموال. كذلك أنشأ حديقة للحيوان. وترك كتابا في التصقر [1] يكشف فيه عـن نفسـه خبيـرا بعادات الطير له ملاحظات دقيقة، وكان من أوائل الإيطاليين الذين كتبوا الشعر بالإيطالية. والحق أن الشـعر الإيطالي قد ولد في بلاطه. وقد أطلق عليه كاتب مقتدر اسم "أول المحدثين"، وهي عبارة تترجم في براعـة عما كانت عليه نواحيه الذهنية من استقلال وحياد في الرأي بريء من كل تحيز. كان ذا أصالة تامـة مـن جميع نواحيها. وقد وفق في إبان أزمة أحدثت بعض النقص في الذهب إلى إدخال عملة مصنوعة من الجلـد المختوم أو الرق، تحمل وعدا منه بأن يدفع قيمتها ذهبا، وهو ضرب من (البنكنوت) المصنوع مـن الجلـد. وبذلك ابتعثت طريقة للنقد، لم ير العالم منذ أيام قرطاجة لها نظيرا.

وبالرغم من سيل الشتائم والسباب الذي أغرق فيه فردريك، فإنه ترك أعمق الأثر في مخيلة الشـعب. ولا يزال جنوب إيطاليا يذكره بشكل يكاد يضارع في قوته ذكرى نابليون الأول لدى الفلاحين الفرنسيين؛ وهـو لديهم "فريدريجو العظيم" ويصرح العلماء الألمان أنه بالرغم من كراهية فردريك الظاهرة لألمانيا، فإنه هـو، وليس فردريك الأول، فردريك بربروسا، الذي تنتسب إليه أصلا تلك الأسطورة الألمانية وهي الأسطورة التي تمثل ملكًا عظيما قد أخذه النعاس في غار عميق، وقد نمت لحيته حول منضدة حجرية، انتظارا ليوم ينْتَشَـل فيه العالم على يديه من وهدة فوضى بالغة إلى سلام شامل. ويبدو أن بطولة القصة نقلـت فيمـا بعـد إلـى الصليبي بربروسا جد فردريك الثاني.

كان فردريك الثاني طفلاً عسِر القياد على أمه الكنيسة، على أنه لم يكن إلا موطنًا مهد السـبيل وطليعـة للكثيرين من أمثاله من الأطفال العسرين. وكان الأمراء والمتعلمون في أرجاء أوروبا كافة يقرءون رسـائله ويتباحثون فيها. فأما طلاب الجامعات الأشد إقداما، فراحوا يلتمسون ويشخصون بأبصارهم بل ويهضمون:- كتب أرسطو العربية الأصل التي جعلها فردريك في متناول أيديهم باللاتينية. وألقت سالرنو على روما نورا مهلكًا مؤذيا. ولا بد أن الناس على اختلاف أصنافهم قد راعهم قلة غناء ما انهال على رأس فردريـك مـن ألوان الحرمان والعزلة عن الجماعة.

---

[1] التصقر: كما ورد في معجم الوسيط، الصيد بالصقور. (المترجم)

١٤- معايب البابوية وتحدياتها

أسلفنا أن إنوسنت الثالث لم يبد عليه قط ما يدل على أنه أدرك أن القاصر فردريك الثـاني كـان ينمـو ويرشد. ولا يقل عن هذا صدقًا أن البابوية لم يبد عليها أبدا أنها أدركت أن أوربا كانت آخذة بأسباب النضـج والرشاد. ومن المستحيل على دارس ذكي عصري للتاريخ ألا يعطف على ما كان يجول في ضمير الـبلاط البابوي، من فكرة تقول بوجوب قيام حكم عام للصلاح والبر يحفظ على الأرض السلام، وألا يميز عناصـر النبل العديدة التي دخلت في سياسة اللاتيران. فلا بد للبشرية من أن تصل إن عاجلاً وإن آجلاً إلى سلام عام واحد، اللهم إلا إذا قضت على جنسنا البشري قوته المتزايدة التي تعود عليه مـن مخترعاتـه المهلكـة؛ ولا مناص لهذا السلام العام من أن يتخذ شكل حكومة، أو بعبارة أخرى، هيئة تدعم القانون بطريقة دينية بأحسن ما في كلمة دينية من معان – حكومة تحكم الناس بواسطة التعليم الذي يخلق التناسق الذهني بينهم ويسـلكهم جميعا في تصور مشترك من التاريخ الإنساني والمصير الإنساني.

وعلينا الآن أن ننظر إلى البابوية على أنها أول محاولة واعية واضحة القصد ترمي إلى تزويد العالم بمثل هذه الحكومة. وما يجوز لنا أن نشتط في الحماسة والجد ونحن نفحص عن نقائصها وضروب عجزها، إذ إن كل درس نستطيع أن نستفيده منها، إنما له بالضرورة أعظم القيمة لدينا في تكوين فكراتنا عن علاقاتنا الدولية الحاضرة. ولقد حاولنا أن نشير إلى العوامل الرئيسية التي أفضت إلى انهيار الجمهورية الرومانيـة، ومـن المناسب لنا الآن أن نحاول تشخيص الأسباب التي أدت إلى إخفاق كنيسة روما الكاثوليكية دون تجميع وتنظيم حسن نية البشرية وطواياها الطيبة.

وأول ما يسترعي انتباه الدارس هو تقطع جهود الكنيسة في تأسيس "مدينة ا " العالمية. فلم تكن سياسـة الكنيسة متجهة بكل قواها وفؤادها وباستمرار إلى تلك الغاية. فلم يكن يحدث إلا بين الفينة والفينة أن شخصية ما ممتازة أو مجموعة ما من الشخصيات الممتازة، كانت تتسلط عليها وتوجهها في ذلك الاتجاه. ذلك أنه منذ البداية تقريبا احتجبت مملكة الرب التي دعا إليها يسوع الناصري كما بينا آنفًـا واسـتترت وراء المبـادئ والتقاليد الطقوسية الراجعة إلى عصر أقدم وإلى طراز أدنى عقلية. وقد كفت المسيحية منذ بدايتها تقريبا عن أن تكون محض ديانة نبوية وخلاقة. إذ إنها أوقعت نفسها في شراك التقاليـد العتيقـة الخاصـة بالتضـحية الإنسانية، وبالتطهير الدموي لدى "المثرائية" [1]، وبالكهانة القديمة قدم الجماعة الإنسانية وبتفاصيل النـواحي الدقيقة لطبيعة الإله. ومن عجب أن إصبع الحبر الإتروري (الإترسكي) الأعظم المخضبة بالـدم أصـبحت الداعية المتشددة التي تؤكد للناس تعاليم يسوع الناصري!! وكذلك أيضا أوقعها عقل الإغريقي الإسكندري في أحبولته بما جبل عليه من تعقيد ذهني. حتى إذا وقعت الكنيسة في معمعان هذا التطاحن الذي لا مفر منه بين هذه المتفارقات المتناقضة، اضطرت أن تصبح اعتقادية (دوجماتية) تأخذ بالمذهب الاعتقادي الحتمي[2]. ذلك أنها حين يئست من بلوغ حلول أخرى لخلافاتها الفكرية، التجأت إلى الاستبداد التعسفي.

---

[1] انظر المعالم جـ ٢، ص ٦٣٣

[2] الاعتقاد الحتمي أو القطعي (Dogma): مجموعة المبادئ التي تعدها الكنيسة صحيحة تتجاوز كل ريب وتلزم كـل إنسـان باعتناقها ولا تقبل فيها نقاشًا. (المترجم)

فأصبح قساوستها وأساقفتها على التدريج رجالاً مكيفّين وفق مذاهب واعتقاديات حتمية وإجراءات مقـررة وثابتة؛ حتى إذا ما آن أوان توليهم منصب الكرادلة أو البابوات إذا بهم في العادة كهول قد ألفوا من الكفـاح السياسي ذلك الضرب الذي يقصد إلى غاية قريبة مباشرة، ولم يعودوا أهلا لقبول آراء رحيبة يشـمل أفقهـا العالم بأسره. ولم تعد لهم بعد رغبة في رؤية مملكة الرب موطدة في قلوب الناس. فقد نسوا ذلـك الأمـر؛ وأصبحوا يرغبون في رؤية قوة الكنيسة التي هي قوتهم هم، متسلطة على شئون البشر. وكانوا فـي سـبيل توطيد تلك القوة على أتم استعداد للمساومة مع أي شيء حتى البغض والخوف والشهوات المستقرة في قلوب البشر. ونظرا لأن كثيرا منهم كانوا على الأرجح يسِرون الريبة في سلامة بنيان مبـادئهم الضـخم المحكـم وصحته المطلقة، لم يسمحوا بأية مناقشة فيه. كانوا لا يحتملون أسئلة ولا يتسامحون في مخالفـة، لا لأنهـم على ثقة من عقيدتهم، بل لأنهم كانوا غير واثقين منها. وكانوا يريدون ممن حولهم مـوافقتهم علـى رأيهـم لأسباب تتصل بالسياسة.

وقد تجلى في الكنيسة عندما وافى القرن الثالث عشر ما يساورها من قلق قاتل حول الشكوك الشديدة التي تنخر بناء مدعياتها بأكمله وقد تجعله أثرا بعد عين. فلم تكن تستشعر أي اطمئنان نفسـي. وكانـت تتصـيد الهراطقة في كل مكان، كما تبحث العجائز الخائفات – فيما يقال – عن اللصوص تحت الأسرة وفي الدواليب قبل الهجوع في فراشهن.

ولقد سبق أن أشرنا إلى ماني الفارسي الذي صلب وسلخ جلده في (٢٧٧). وكانت طريقتـه فـي تمثيـل الكفاح بين الخير والشر تتمثله كفاحا بين قوة من نور، كانت في الواقع في ثورة ضد قوة من ظلمة ملابسـة للكون. وكل هذه المعميات العميقة تمثلها بالضرورة بعض الرموز والعبارات الشعرية، ولا تـزال فكـرات ماني تجد استجابة لدى كثير من الأمزجة العقلية اليوم. ولربما سمع الإنسان المبادئ المانوية من فوق كثيـر من المنابر المسيحية. على أن الرمز الكاثوليكي الصحيح كان رمزا مغايرا.

انتشرت هذه الفكرات المانوية انتشارا واسعا جدا في أوربا، وبخاصة في بلغاريا وجنوب فرنسـا. وكـان القوم الذين يعتنقونها في جنوبي فرنسا يسمون الكاثاريين أو الألبيجنسيين (Albigenses). وكـان اخـتلاف فكراتهم عن الأصول الجوهرية المسيحية من الضآلة بحيث جعلهم يحسبون أنفسـهم مسـيحيين مخلصـين. وكانوا كهيئة يعيشون عيشة فضيلة وطهر ظاهر في عصر طافح بالعنف والفوضـى والرذيلـة. بيـد أنهـم أظهروا الشك في صحة مبادئ روما وفي التفسير الصحيح للكتاب المقدس. وكانوا يرون في يسـوع ثـائرا على قسوة رب "العهد القديم"، وليس ابنًا له [كذا!!...] متسقًا وإياه.

وممن يرتبطون ارتباطًا وثيقًا مع الألبيجنسيين طائفة أخرى تسمى الوالدونيون، والوالدونيون هـم أتبـاع رجل اسمه والدو ولكنه لم يكن يقل عن الآخرين مضايقة للكنيسة لأنه كان ينعى على رجال الـدين ثـراءهم وترفهم. ويخيل إلينا أن اللاهوت الذي كان يدعو إليه كان كاثوليكيا صحيحا. وكان في ذلك الكفاية لدى قصر اللاتيران، ومن ثم نرى مشهدا يبدو فيه إنوسنت الثالث وهو يحرض على حرب صليبية ضد هاتـه الشـيع التعيسة، ويأذن لكل نذل زنيم أو متشرد أثيم بأن ينضم إلى الجيش وأن يعمل السـيف والنـار واغتصـاب

الحرائر ويرتكب كل ما يمكن أن يتصوره العقل من أنواع انتهاك الحرمات ضد أشد رعايا ملك فرنسا مسالمة. والقصص التي تروى عن هذه الحرب الصليبية تحكي لنا من أضرب القساوة والنكال البشع ما يتضاءل إزاء بشاعته قصة أي استشهاد للمسيحيين على أيدي الوثنيين، وهي فوق هذا تسبب لنا رعبا مضاعفًا لما هي عليه من صحة لا سبيل إلى الشك فيها.

كان هذا التعصب الأسود القاسي روحا خبيثًا لا يجوز أن يخالط مشروع حكم ا في الأرض. وإنه لروح يتعارض تماما مع روح يسوع الناصري. فما سمعنا قط أنه لطم الوجوه أو خلع المعاصم لتلاميذه المخالفين له أو غير المستجيبين لدعوته ولكن البابوات كانوا طوال قرون سلطانهم في حنق مقيم ضد من تحدثه نفسه بأهون تأمل في كفاية الكنيسة الذهنية.

ولم يقتصر تعصب الكنيسة على الأمور الدينية وحدها. فإن الشيوخ الحصفاء المولعين بالأبهة السريعي الهياج الحقودين الذين من الجلي أنهم كانوا الأغلبية المتسلطة في مجالس الكنيسة، كانوا يضيقون ذرعا بأية معرفة عدا معرفتهم لا يثقون بأي فكر لم يصححوه ويراقبوه. فنصبوا أنفسهم للحد من العلم، الذي كانت غيرتهم منه بادية للعيان. وكان أي نشاط عقلي عدا نشاطهم يعد في نظرهم نشاطًا وقحا. وقد خاضوا بعد ذلك بقليل معركة عظيمة مدارها مسألة موضع الأرض من الفضاء، وهل هي تدور حول الشمس أم لا تدور. ولم يكن هذا في الحقيقة من شئون الكنيسة بتاتًا. وربما كانت تحسن صنعا لو أنها تركت للعقل ما للعقل من أمور، ولكن يبدو أن ضرورة داخلية كانت تسوقها إلى تنفير ضمير الناس الفكري منها.

ولو أن هذا التعصب نشأ عن عمق يقين حقيقي لكان فيه من السوء ما فيه، ولكن كان يصحبه عنصر لا يكاد يستتر من الاحتقار للذكاء والكرامة العقلية عند الرجل العادي يجعله أقل استساغة بكثير في عين تقديرنا العصري، ولا شك أنه جعله أقل قبولا لدى النفوس الحرة في ذلك الزمان. ولقد سردنا بمنتهى الهدوء سياسة كنيسة روما نحو أختها المضطربة في الشرق. ولا شك أن كثيرا مما استعملته من الآلات والوسائل كان بغيضا مقيتًا. وإنك لتشهد في معاملتها لشعبها بالذات مسحة من السخرية الحقة. ولقد قضت على هيبتها بعدم مراعاتها لتعاليمها ذاتها الداعية إلى الصلاح والبر. وقد سبق أن تكلمنا عن نظام التحلّة. وكانت خاتمة حماقاتها في القرن السادس عشر بيع "صكوك الغفران" التي بها يمكن افتداء الروح من عذاب المطهر بدفعة مالية. على أن الروح التي دفعتها آخر الأمر إلى هذه الفعلة المتبجحة التي كانت نكبة عليها، كانت واضحة ملحوظة من قبل في القرنين الثاني عشر والثالث عشر.

وقبل أن تنبت بذرة النقد التي ازدرعها فردريك الثاني بزمن طويل في أذهان الناس، وتؤتي ما لا مناص منه من ثمار العصيان، كان يخيم على عالم المسيحية شعور واضح القوة يوحي إلى الناس بأن حال الجو الروحاني ليست على ما يرام. فابتدأت داخل الكنيسة الحركات – التي قد نسميها نحن اليوم بالحركات "الانتعاشية"، والتي تضمر في نفسها النقد لكفاية طرائقها وتنظيماتها القائمة أكثر مما تنطق به. وعندئذ أخذ الناس يلتمسون أشكالاً جديدة من حياة البر والهدى خارج الأديرة وصفوف الكهنوت.

وهناك شخص جدير بالذكر هو القديس فرنسيس الأسيسـي (١١٨١ – ١٢٢٦). ولسـنا بمسـتطيعين أن نخبرك ها هنا في أي تفصيل كيف أن هذا الشاب المترف الظريف قد نزل عن كل ما وهبته الحياة من متعة ودعة وانطلاق يطلب ا ؛ وليس استهلاك قصته بعيد الشبه عن تجارب جوتاما بوذا الأولى. إذ أصابه تحـول فجائي إلى الهداية وسط حياة ناعمة بالمسرة والملذات، حتى إذا نذر عيشة الفاقة الشديدة، وهب نفسه لحيـاة تشبه حياة المسيح، ولخدمة المرضى والبائسين وبوجه أخص لخدمة المصابين بالجذام، الذين كانوا يكثـرون عند ذاك في إيطاليا.

وانضمت إليه جماهير غفيرة من الأتباع، وبذا ظهر في عالم الوجود أول الرهبان فـي "عِقْـد" الرهبنـة الفرنسسكانية (أو الفرنسسكية). وأقيم عقد من النساء المتبتلات المخلصات إلى جوار عقد الأخـوة الرهبـان الأصلي، وبالإضافة إلى هذا، ضموا إليهم أعدادا غفيرة من الرجال والنساء ارتبطوا بهم كمريـدين ارتباطـًا رسميا بدرجة أقل. فأخذ يعظ الناس في مصر وفلسطين مبشرا بدعوته لا يعترض المسلمون عليه، وهو أمر يجب ملاحظته هنا وتسجيله – وإن كان ذلك إبان الحملة الصليبية الخامسة. ولا تـزال علاقاتـه بالكنيسـة موضوع الأخذ والرد. وقد أقر البابا إنوسنت الثالث عمله؛ غير أن عقد تشكيل الجماعة أعيد تكوينـه وهـو غائب ببلاد الشرق بصورة تقوي روح النظام، وتجعل الرياسة ذات السلطة الموجهة محل الدافع الاستجابي. فأفضت هذه التغييرات إلى تخليه عن رياستها. وقد ظل حتى نهاية أيامه متمسكًا أشد التمسك بـالفقر كمثـل أعلى، ولكن لم يكد يمضي على وفاته أمد طويل، حتى كان العِقد يحتاز الأملاك عن طريق القوامـة علـى الأوقاف ويبني كنيسة عظيمة وديرا تخليدا لذكراه في أسيسي. هذا إلى أن النظم التي طبقت بعد وفاته علـى خلطائه وأتباعه المباشرين لا تكاد تفترق عن الاضطهاد في شيء؛ فجلد كثير من أبرز المتحمسين للبسـاطة، وسجن آخرون، وقتل واحد أثناء محاولته الهرب، وقضى الأخ برنار "أول تلاميذه" سنة في الغابات والتلال، وهو يطارد مطاردة الوحش الضاري.

إن هذا النزاع الذي نشب داخل العِقْد الفرنسسكاني (الفرنسسكي)، نزاع شائق جدا. لأنه ينـذر بالمتاعـب العظيمة التي كانت النصرانية ملة عليها؛ وقد ظل فريق من الفرنسسكانيين يجاهد طوال القرن الثالث عشـر ضد حكم الكنيسة، وفي (١٣١٨) أحرق أربعة منهم وهم أحياء في مرسيليا بوصفهم هراطقة لا يرجى لهـم صلاح. ويبدو أن الفارق كان طفيفًا بين تعاليم القديس فرنسيس وروحه وبين تعاليم والدو وروحه في القـرن الثاني عشر، وهو مؤسس طائفة الوالدنيين التي وئدت وقضى عليها. وكان كلاهما متوقـدا حماسـة لـروح يسوع الناصري. ولكن بينما خرج والدو على الكنيسة، بذل القديس فرنسيس قصاراه لكي يكون ابنـًا بـارا بالكنيسة، ولم تكن تعليقاته على روح المسيحية الرسمية إلا تلميحا ضمنيا غير صريح. ولكن كلا منهما كـان مثالاً لثوران الضمير على السلطة المستبدة وعلى الإجراءات العادية التي تتبعها الكنيسة. ومـن الجلـي أن الكنيسة اشتمت ريح العصيان في المثال الثاني كما أحست به في الأول.

وكان القديس دومينيك الإسباني (١١٧٠ – ١٢٢١) شخصية مغايرة جدا للقديس فرنسيس، فقد كان قبل كل شيء تقليدي العقيدة. وكان ولوعا بهداية الهراطقة عن طريق الجدال، فندبه البابا إنوسنت الثالث للذهاب والتبشير بين الألبيجنسيين. وكان عمله يسير جنبا إلى جنب مع القتال والمذابح التي تمت أثناء الحملة الصليبية عليهم: فمن لم يستطع دومينيك أن يهديهم إلى سبيل الدين، أعمل فيهم صليبيو إنوسنت السيف والنار؛ ومع هذا فإن مناشطه ذاتها واعتراف البابا بعقد رهبانيته وتشجيعه إياه لتشهد بتصاعد سيل المناقشة، وباعتقاد الناس كافة بما فيهم البابوية نفسها بأن القوة ليست علاجا للموقف.

وتطور عقد الرهبان السود أي الدومينكيين (الدومينيكان) – (إذ كان الفرنسسكانيون هم الرهبان الشهب [١]) يبين لنا من عدة أوجه أن الكنيسة الكاثوليكية كانت وهي عند مفترق الطرق تتردى مستسلمة رويدا في أعماق الاعتقادية الحتمية (Dogma) المنظمة، وبذا تقع في نزاع لا رجاء فيه مع ذكاء الإنسانية المتوقد وشجاعتها المشبوبة. وبذلك تخيرت الكنيسة طريق القسر والإجبار، وهي التي واجبها الأوحد أن ترشد وتهدي. ولا يزال آخر حديث ألقاه القديس دومينيك إلى الهراطقة الذين جهد أن يهديهم إلى الطريق السوي باقيا لنا إلى اليوم. وهو في صوى [٢] التاريخ الهامة. وإنه ليكشف لنا عن رجل تغلي مراجل غيظه القتّال لأنه فقد إيمانه في قوة الصدق نظرا لأن صدقه "الخاص" لم ينتصر.

قال: "قد نصحتكم سنين عديدة بلا جدوى: باللطف والموعظة والرجاء والبكاء. ولكننا تبعا للمثل القائل في بلادي: "حيثما تفشل البركات عن إتمام أي شيء، فمن الجائز أن تفيد اللكمات" – سنثير عليكم الأمراء والأحبار الذين سوف – ويا للأسف!... يسلحون الأمم والممالك ضد هذه البلاد... وبذا تفيد اللكمات حيث كانت البركات واللطف غير ذات جدوى [٣]".

شهد القرن الثالث عشر تطور منظمة جديدة في الكنيسة، هي محكمة التفتيش البابوية. ذلك أنه جرت عادة البابا قبل ذلك الزمان بأن يقوم في بعض الأحيان بتحقيقات أو استعلامات عن الإلحاد في هذا الإقليم أو ذاك، ولكن إنوسنت الثالث وجد الآن في عقد الرهبان الدومينيكيين الجديد أداة قوية للقمع ومن ثم نظمت محاكم التفتيش كأداة تحقيق مستديمة تحت إدارتهم. وبهذه الأداة نصبت الكنيسة نفسها لمهاجمة الضمير الإنساني بالنار والعذاب وعملت على إضعافه مع أنه مناط أملها الوحيد في السيادة على العالم. وقبل القرن الثالث عشر لم تنزل عقوبة الإعدام إلا نادرا بالملاحدة والكفار. فأما الآن فإن كبار رجال الكنيسة كانوا يقفون في مائة ساحة من ساحات الأسواق في أوربا ليراقبوا أجسام أعدائها – وهم في غالبية الأمر قوم فقراء لا وزن لهم – تحترق بالنار وتخمد أنفاسهم بحالة محزنة، وتحترق وتخمد معهم في نفس الحين الرسالة العظمى لرجال الكنيسة إلى البشرية فتصبح رمادا تذروه الرياح.

---

(١) الشهب: جمع أشهب وهو الرمادي اللون. (المترجم)

(٢) الصوة: بالضم حجر يكون علامة في الطريق، وجمعه صوى. (المترجم)

(٣) الموسوعة البريطانية – مادة دومينيك.

على أن بدايات الفرنسسكيين والدومينيكيين لم تكن إلا اثنتين من بين القوى الكثيرة الجديدة التـي أخـذت تنشأ في عالم المسيحية، إما لمساعدة الكنيسة أو لتحطيمها حسبما كانت تمليه عليها حكمتها الخاصـة. وقـد تمثلت الكنيسة بالفعل هذين "العقدين" (الهيئتين) واستخدمتهما، وإن كان ذلك مع قليل من العنف في حالة العقد الأول. على أن قوى أخرى كانت أصرح في نقدها وخروجها على الطاعة. إذ ظهر بعد ذلك بقرن ونصـف ويكليف (Wycliffe) (١٣٢٠ – ١٣٨٤). وكان قسيسا ولاهوتيا عالما في أوكسفورد؛ واشـتغل بالتـدريس بكلية باليول حينًا من الدهر؛ وتولى مناصب متنوعة في الكنيسة. ثم شرع وقد علت به السن يوجه سلسلة من النقد الصريح إلى ما عليه رجال الدين من مفاسد وما عليه الكنيسة من الحماقة.

ونظم عددا من فقراء القساوسة، هم الويكليفيون لنشر آرائه في كل أرجاء إنجلترة. ولكي يحكم الناس بينه وبين الكنيسة، ترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية.

كان رجلاً أوسع علما وأكثر اقتدارا من أي من القديسين فرنسيس أو دومينيك. كان له مؤيدون مـن ذوي المراكز العالية، وأتباع كثيرو العدد من بين أفراد الشعب؛ ومع أن روما ثارت حنقًا عليه وأمرت بسجنه، فإنه مات رجلاً حرا، وهو لا يزال يقوم بالطقوس الدينية والأسرار المقدسة بوصفه قسيسا لأبروشية لـوتروورث (Lutterworth).

على أن الروح الخبيثة القديمة التي كانت تسوق الكنيسة الكاثوليكية إلى حتفها لم تكن لتسمح لعظامه بـأن تستقر في قبره. فبمقتضى قرار صادر من مجمع كونستانس في (١٤١٥) انتبشت عظامه وأحرقـت، وهـو قرار نفذه الأسقف فلمنج في (١٤٢٨) بأمر من البابا مارتن الخامس. ولم يكن هذا الانتهاك لحرمة المقابر من عمل متعصب بمفرده؛ بل كان عملاً رسميا أتته الكنيسة.

١٥- قائمة بأسماء البابوات العظام

إن تاريخ البابوية مربك للقارئ العادي لكثرة البابوات ووفرتهم. كانوا في الغالب يعتلون منصـة الحكـم شيوخًا قد تقدمت بهم السنون، وكانت مدة حكمهم قصيرة تقل عن سنتين في المتوسط.

على أن من البابوات من يبرزون ويهيئون لدارس التاريخ نقاطًا بارزة يستطيع أن يمسـك بهـا ويحـس أثرها. ومن أمثال هؤلاء جريجوري الأول العظيم (٥٩٠ – ٦٠٤)، وهو أول بابا مترهب، وصديق بنـدكت، وصاحب الفضل في إرسال بعثة التبشير الإنجليزية.

ومن البابوات الآخرين الجديرين بالذكر ليو الثالث (٧٩٥ – ٨١٦)، الذي توج شـرلمان؛ واثنـان مـن البابوات اشتهرا بالفضائح هما يوحنا الحادي عشر (٩٣١ – ٩٣٦) ويوحنا الثـاني عشـر (٩٥٥ – ٩٦٣)، والأخير هو الذي خلعه الإمبراطور أوتو الأول، ثم يجيء هلدبراند العظيم، الذي خـتم حياتـه تحـت اسـم جريجوري السابع (١٠٧٣ – ١٠٨٥)، والذي فعل الشيء الكثير بتقريره العزوبة على رجال الدين، وتشبثه بسيادة الكنيسة على الملوك والأمراء، لكي يركز قوة الكنيسة في روما.

وحدث نزاع عظيم بين هلدبراند والإمبراطور المنتخب هنري الرابع علـى مسـألة التعيينـات. فحـاول الإمبراطور أن يخلع البابا؛ فحرم البابا الإمبراطور وأحلّ أتباعه الأمراء من ولائهم له. واضطر الإمبراطور أن يذهب تائبا إلى البابا في كانوسا (١٠٧٧)، وأن ينتظر الغفران ثلاثة أيام متدثرا بـالخيش، وهـو حـافي القدمين في الثلج في فناء القلعة. على أن هنري ما لبث أن عاد فيما بعد إلى فرض حقوقه وإبراز قوة شكيمته إذ أعانته أكبر العون هجمات قوية قام بها المغامر النورماندي روبرت جويسكارد على ممتلكات البابا.

وكان البابا التالي لخليفة جريجوري السابع هو إربان الثاني (١٠٨٧ – ١٠٩٩)، وهو البابا الذي دعا إلى الحرب الصليبية الأولى.

وكانت الفترة من جريجوري السابع إلى ما بعده بقرن ونصف من الزمان هي الفترة العظمـى للكنيسـة: فترة اشتداد طموحها وجهودها. وفيها بذلت المحاولات الصادقة المتواصلة لتوحيد عالم المسيحية بأجمعه في ظل كنيسة مطهرة مجددة التنظيم.

وإن في إقامة الممالك اللاتينية بسوريا والأراضي المقدسة على مذهب روما بعد الحرب الصليبية الأولى، لعلامة ملحوظة آذنت باستهلال مرحلة جديدة لغزو روما للمسيحية الشرقية، مرحلة وصلت إلى ذروتها أثناء الحكم اللاتيني في القسطنطينية (١٢٠٤ – ١٢٦١).

وفي (١١٧٧) ركع الإمبراطور فردريك بربروسا (فردريك الأول) للبابا إسكندر الثالث في مدينة البندقية واعترف بسيادته الروحية وأقسم يمين الإخلاص والولاء له. ولكن بعد موت إسكندر الثالث (١١٨١)، تجلى ضعف البابوية الراجع إلى احتمال وقوعها في أيدي كهول محطمين. فإن خمسة من البـابوات دلفـوا إلـى اللاتيران مترنحين لكي يموتوا في مدى عشر سنوات. ولم يتح للبابوية إلا في شخص إنوسنت الثالث (١١٩٨ – ١٢١٦) بابا قوي جديد يتناول بيديه السياسية العظيمة "لمدينة الرب".

وفي عهد إنوسنت الثالث – الوصي على الإمبراطور فردريك الثاني، الذي سبق أن درسـنا ترجمتـه – والباباوات الخمسة الذين خلفوه، أصبح بابا روما أقرب إلى ملك لعالم مسيحي متحد منه في أي زمن سابق أو لاحق. ذلك بأن الإمبراطورية ضعفت لما نشب فيها من منازعات داخلية، على حين صارت القسطنطينية في أيدي اللاتين، ومن ثم صار البابا هو السيد الأعلى فيما بين بلغاريا وإرلندة وما بين النرويج وصقلية وبيـت المقدس. ومع ذلك فإن سيادته هذه كانت ظاهرية أكثر منها حقيقية. ذلك أنه على حين كانت العقيدة كما رأينا آنفًا، قوية أيام إربان الثاني في كل أوربا المسيحية، كانت البابوية أيام إنوسنت الثالث قد فقدت سيطرتها على قلوب الأمراء، كما أن إيمان الناس وضميرهم كانا آخذين في التحول إلى العداء لكنيسة لا تنطوي إلا علـى السياسة والعدوان [(١)].

وكانت الكنيسة في القرن الثالث عشر تقوى وتبسط سلطتها القانونية في العالم وتفقد سيطرتها على ضمائر الناس. وكانت تغدو أقل إقناعا وأكثر عنفًا. ولا يستطيع أي إنسان ذكي أن يتحدث أو يقرأ عن هـذه العمليـة الفاشلة دون أن تخالجه مشاعر بالغة التضارب. لقد آوت الكنيسة بين أحضانها أوربا جديدة كونتهـا بنفسـها خلال العصور الطويلة من الظلمة والفوضى؛ وكانت هي القالب الذي صبت فيه المدنية الجديدة. ولكن هـذه المدنية الجديدة التكوين إنما دفعتها إلى النمو حيويتها الفطرية الكامنة، فأما القالب (الكنيسة) فكان ينقصه القدر الكافي من قوة التنمية والتيسير. وكان الزمان الذي لا بد فيه من كسر هذا القالب يقترب حثيثًا.

وجاءت أول إشارة قوية لانحلال القوى الحية الداعمة للبابوية، عندما حدث بعد ذلك نزاع بين البـابوات وقوة الملك الفرنسي النامية. إذ حدث في حياة الإمبراطور فردريك الثاني أن وقعت ألمانيا فريسـة للفُرقـة، وأخذ الملك الفرنسي يقوم نحو البابا بدور الحارس والمساعد والمنافس، وهو الدور الذي كان يؤديه إلى ذلك الحين أباطرة آل هوهنشتاوفن واتبعت مجموعة متتالية من البابوات سياسة مناصـرة المـلوك الفرنسـيين، فنصب أمراء فرنسيون في ممالك صقلية ونابولي بمناصرة روما وموافقتها، ورأى الملوك الفرنسيون أمامهم فرصة سانحة لاستعادة إمبراطورية شرلمان وحكمها. ومع ذلك فإنه لما انتهت فترة خلو العرش الألماني التي نشأت بعد موت فردريك الثاني آخر أفراد آل هوهنشتاوفن، وانتخب رودلف الهابسبرجي أول إمبراطور من آل هابسبرج (١٢٧٣)، أخذت سياسة اللاتيران تتذبذب بين فرنسا وألمانيا تبعا لميول البابوات المتعاقبين.

---

(١) كانت الكنيسة في ذلك الحين تعد نفسها مجاهدة في سبيل العقيدة (Church Militant) أو منتصـرة علـى شـرور الـدنيا ومستقرة في ملكوت السموات (Church Triumphant). انظر مقال عن جان دارك في كتاب "أعـلام وأفكـار" تـأليف يوهان هويزنجا ترجمة المترجم للهيئة المصرية للتأليف.

ففي (١٢٩٤) تبوأ بونيفاس الثامن دست البابوية. وكان رجلاً إيطاليا معاديا للفرنسيين، وافر الإيمان بتقاليد روما العظيمة ورسالتها الكبرى. فعالج الأمور حينًا من الدهر بقوة واستبداد. وفي (١٣٠٠) عقـد مهرجانًـا لليوبيل واجتمع له جمهور حاشد من الحجاج في روما. "بلغ من عظم انثيال المال إلى خـزائن البابويـة، أن ظل موظفان يجمعان بالمجاريف الهبات التي وضعت عند قبر القديس بطرس"[1]. على أن هذا المهرجان كان نصرا خداعا. فإن جمع جيش عظيم من الرحالة المتنزهين أيسر كثيرا من جمع ثلة من الصليبيين. وتنـازع بونيفاس مع الملك الفرنسي في (١٣٠٢)؛ وفي (١٣٠٣)، بينما كان على وشك إصدار قرار الحرمان ضـد ذلك الملك، فاجأه غليوم دي نوجاريه في قصر أجداده الموروث بأناجني (Anagni) واعتقله. وقد دخل هـذا المندوب عن الملك الفرنسي القصر عنوة وسار حتى وصل إلى مخدع البابا المرتاع – وكان راقدا في فراشه وبيده صليب – وألقى عليه سيلا من الوعيد والإهانة. وأطلق أهل المدينة سراح البابا بعد ذلك بيوم أو بعض يوم، وأعادوه إلى روما؛ ولكن اعتقله هناك ثانية بعض أفراد عائلة أورسيني وسجنوه. ولم تـنقض بضـعة أسابيع حتى مات الرجل الشيخ الهرم مصعوقًا وقد رفعت عنه غشاوة الخداع، فقضى وهو لا يزال سجينًا في أيديهم.

وقد غضب أهل أناجني بالفعل للاعتداء الأول وثاروا ضد نوجاريه لتخليص بونيفاس، ولكن أناجني كانت مسقط رأس البابا. والنقطة الهامة التي علينا ملاحظتها هي أن الملك الفرنسي، كان في هذه المعاملة الخشـنة لرأس المسيحية الأكبر، يتصرف بملء استحسان شعبه؛ فإنه دعا مجلسا من طبقات فرنسا الـثلاث (النـبلاء والكنيسة والعامة) وفاز بموافقتهم قبل البدء في الإجراءات المتطرفة. ولم تبد أي من إيطاليـا أو ألمانيـا أو إنجلترة أدنى مظهر عام ينم عن عدم الموافقة على هذا التصرف الجريء مع الحبر الأعظم صاحب السـيادة العليا. فقد انحلت الفكرة الداعية لتوحيد العالم المسيحي حتى انمحى سلطانها على عقول الناس.

وفي الشرق استرد اليونان مدينة القسطنطينية (١٢٦١) من الأباطرة اللاتين، ولم يلبث مؤسـس الأسـرة اليونانية الجديدة ميخائيل باليولوجوس أو ميخائيل الثامن، بعد محاولات زائفة للصلح مع البابـا، أن انفصـل عن مجتمع روما الكنسي انفصالاً نهائيا، وبهذا الانفصال وبسقوط الممالك اللاتينية في آسيا، زال مـا كـان للبابوات من سيادة في الشرق.

ولم تعمل البابوية شيئًا طوال القرن الرابع عشر لاسترداد هيبتها المعنوية. وكان خليفة البابا التالي، وهو كلمنـت الخامس، رجلاً فرنسيا، اختاره الملك فيليب الفرنسي. فلم يحضر إلى روما أبدا. بل أقام بلاطه في مدينة أفنيون، ولم تكن عند ذاك تابعة لفرنسا، بل كانت تابعة للكرسي البابوي وإن وقعت في صميم الأراضي الفرنسية؛ وهناك أقـام خلفاؤه حتى (١٣٧٧)، عندما عاد البابا جريجوري الحادي عشر إلى قصر الفاتيكان برومـا. ولكـن جريجـوري الحادي عشر لم يحمل معه عطف الكنيسة بأسرها. إذ كان كثير من الكرادلة فرنسـي الأصـل وكانـت عـاداتهم ومشاربهم شديدة الارتباط بأفنيون. فلما أن مات جريجوري الحادي عشر (١٣٧٨)، وانتخب إيطالي هـو إربـان السادس، أعلن هؤلاء الكرادلة المنشقون أن الانتخاب باطل، وانتخبوا بابا آخر هو البابا المضاد كلمنت السابع.

---

[1] هـ. روبنسن.

ويسمى هذا الانقسام "بالصدع الكبير". وظل البابوات في روما، وبقيت كل الدول المعادية لفرنسا، من الإمبراطور إلى ملك إنجلترة إلى هنغاريا وبولندة وشمالي أوربا" موالين لهم. وذلك على حين استمر البابوات المضادون في أفنيون يناصرهم ملك فرنسا وحليفه ملك اسكتلندة وإسبانيا والبرتغال وأمراء ألمان متنوعون. وكان كل بابا في الجانبين يحرم أنصار منافسه ويلعنهم، حتى لقد غدت المسيحية بأجمعها ملعونة أثناء ذلك الزمان لعنًا صحيحا كاملاً بهذا المعيار أو ذاك (١٣٧٨ – ١٤١٧).

ومن المستحيل أن نبالغ فيما ترتب على هذا الانقسام من أثر محزن على قوة تماسك العالم المسيحي. فلا غرو إذن أن رجالاً من أمثال ويكليف شرعوا يعلمون الناس أن يفكروا لحسابهم الخاص، عندما كان معين الصدق يتطاحن ويفري بعضه بعضا على النحو الذي ترى!!

وفي (١٤١٧) التأم الصدع الكبير في مجمع كونستانس، وهو نفس المجلس الذي انتبش عظام ويكليف وأحرقها، والذي تسبب كما سنبين فيما بعد في إحراق جون هس (Huss). وفي هذا المجمع استقال البابا والبابا المضاد أو قذف بهما جانبا، وأصبح مارتن الخامس البابا الوحيد على عالم مسيحية موحدة رسميا ولكنها مضعضعة بادية الإعياء روحيا.

ولسنا بمستطيعين أن نقص ها هنا كيف أن مجمع بازل (١٤٣٩) أدى إلى صدع جديد وإلى بابوات مضادين آخرين.

هذه نبذة موجزة عن قصة القرون العظيمة لرفعة البابوية وتدهورها. وهي قصة الإخفاق في الوصول إلى تلك الفكرة النبيلة الرائعة، فكرة قيام عالم ديني موحد. ولقد أشرنا في القسم السابق كيف أن ميراثًا من لاهوت معقد قائم على الاعتقاد الحتمي (Dogma)، قد أثقل كاهل الكنيسة في مغامرتها الطموح هذه. كان لديها من اللاهوت ما تجاوز الغاية، ومن الدين ما دون الكفاية. على أنه ربما لا يكون من اللغو الإشارة هنا إلى مدى ما ساهم به عدم الكفاية للشخصية للباباوات في انهيار خطة الكنيسة وكرامتها، لم يكن في العالم ذلك المستوى التعليمي اللازم لتزويد سلسلة متعاقبة من الكرادلة والباباوات بسعة المعرفة ورحابة الأفق اللازمين للواجب الذي أخذوا على عاتقهم النهوض به؛ فهم لم يتلقوا التعليم الذي يكفي لقيامهم بواجبهم، ولم يتهيأ إلا للقليل منهم، أن يتساموا على هاته النقيصة بمحض قوة العبقرية. وكما سبق أن نوهنا، كانوا عندما يصلون آخر الأمر إلى النفوذ والسلطان، أسن وأضعف من أن يقدروا على استخدامه. وقبل أن يحكموا القبضة على الموقف الذي كان عليهم أن يهيمنوا عليه، يكون معظمهم قد فارق الحياة.

ومن الشائق أن يتساءل الإنسان كم كان الميزان يجنح إلى جانب الكنيسة لو أن الكرادلة كانوا يتقاعدون في سن الخمسين، أو حرم انتخاب أي إنسان لمنصب البابوية بعد سن الخامسة والخمسين؟ كان ذلك لا جرم يطيل متوسط مدة حكم كل بابا، وكان يزيد زيادة هائلة في استمرار سياسة الكنيسة. وربما كان من المحتمل كذلك أن تُستَنْبط طريقة أكثر كمالاً في انتخاب الكرادلة، وهم أصحاب القول الفصل في انتخاب البابا وذوو الرأي والمشورة لديه. فإن القواعد والطرق التي بها يصل الرجال إلى مناصب السلطان لعلى درجة عظيمة جدا من الأهمية في الشئون الإنسانية. وإن سيكولوجية الحاكم لَعِلْم لا يزال على العلماء أن يدرسوه دراسة صحيحة. لقد رأينا الجمهورية الرومانية تتحطم، وها نحن نرى الكنيسة تخفق في رسالتها العالمية لسبب يرجع على الأغلب إلى طرائق انتخابية عقيمة.

١٦- العمارة والفن القوطيان

هناك تطورات معمارية وفنية خاصة تميز أدوار تاريخ المسيحية من العصر الرومانسكي إلى عصر الشك واضمحلال العقيدة الذي كان فردريك الثاني بشيره. ولقد حدث إقبال عظيم على بناء الكاتدرائيات في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وتطور سريع في العمارة الرومانسكية الغربية، تحول بها إلى ما يسمى في أدق معانيه باسم الطراز القوطي. فإن السقوف المنحدرة في الأبراج الرومانسكية قد استطالت وأصبحت منائر مستدقة (Spires)؛ وأدخل السقف المقبو المتقاطع الحنايا. وجرف العقد المدبب – الذي انتشر من قبل في الفن العربي طوال مائتي سنة أو تزيد – أمامه العقد المدور. وظهر مع هذه المظاهر تطور عظيم وتنميق كبير في النوافذ وفي الزجاج الملون.

والراجح أن نمو هيئات الأديرة وازدياد ثرائها هو الذي أطلق سراح فيض الطاقة الفنية التي أعطت العالم كنيسة نوتردام بباريس مثلاً وكاتدرائية شارتر وكاتدرائية أميان، والبداية الفاخرة التي تشهدها في بوفيه (Beauvais). وظل الدافع الفني القوطي متواصلاً طوال قرون عديدة. ومنذ القرن الثالث عشر أخذت النافذة ذات الحلى الحجرية التشجيرية المنقورة من أعلى تصل إلى أقصى درجات تطورها. وفي القرن الرابع عشر أصبح الفن القوطي زاخرا بالحيوية فترة طويلة من الزمان ثم ارتد قاسيا جامدا. وانتهج الإنجليز طريقًا خاصا بهم إذ اتخذوا لأنفسهم الطراز المرتفع الصارم المسمى "بالعمودي" (Perpendicular) [1]. واتخذت الأشكال القوطية سمة وكيفًا جديدين باستعمال الطوب في مناطق مترامية الأطراف من شرق ألمانيا وشمالها حيث حجر البناء نادر أو بعيد المنال. ولقد ذوى فن العمارة القوطي مع بداية القرن الخامس عشر. ذلك أن أيام عظمة الكنيسة في أوربا قد ولت، وكان لا بد للظروف الاجتماعية الجديدة من أن تعبر عن نفسها بطرائق جديدة. وما زلنا نجد الكاتدرائيات ناقصة لم يستكمل بناؤها في بعض مدن بلجيكا وهولندة، وإلى جوارها بناء للبلدية عظيم سلب ما كان للكنيسة من موارد البناء ومواده. ففي إيبر (Ypres) مثلاً، وقبل أن تمتد يد الحرب بالتخريب، كانت قاعة "بورصة الأقمشة" العظمى تبز الكاتدرائية إتقانًا وتفوقها جمالاً.

وفي إسبانيا كان الفن القوطي يقفو المسيحيين من مقاطعة إلى أخرى أثناء استردادهم شبه الجزيرة من العرب. فالفن العربي المغربي (Mauresque) والفن القوطي الإسباني قد تطورا كل في حدوده الخاصة. هذه إشبيلية تقوم فيها إلى جانب القصر المغربي الطراز المسمى بالكازار، كاتدرائية قوطية عظيمة، وكأن داخلها السامق يستشعر فرحا تغشاه العتمة لما تم من فوز على الغزاة المقهورين.

---

[1] طراز العمارة العمودي: طراز إنجليزي متأخر من العمارة القوطية (أواخر القرن ١٤ إلى منتصف ١٦) ويمتاز بالحليات الحجرية المنقورة بأعلى النوافذ أو بالعقد المخفض ذي الزوايا الأربعة وبالتقبية ذات الحليات الحجرية النقورة على شكل مروحة وبالجدران المرفشة بالصور. (المترجم).

ولم يتغلغل الفن القوطي في إيطاليا بدرجة كبيرة. وأبرز مثال له هو كاتدرائية ميلانو. علـى أن إيطاليـا كانت أثناء الفترة القوطية في أوربا الغربية، ساحة قتال بين التقاليد العتيقة والطرز المتنازعة. فـإن كنيسـة سانت مارك البيزنطية الطراز في البندقية تضاهي بطرازها الطراز القوطي المتجلي في كاتدرائية ميلانـو، وإن النورمانديين والعرب يمزجان روحيهما بالروح الرومانية في مثل مباني كاتدرائيـة أمـالفي. وتشـكل الكاتدرائية ومكان التعميد وبرج الجرس الكبير في بيزا مجموعة من أشد مجموعات المباني الإيطالية تعبيرا، وكلها ترجع إلى حوالي القرن الثاني عشر تقريبا.

وظل الميل إلى فن التشكيل التمثيلي [١] طوال العهد القوطي، وهو الميل القوى المشبوب فـي كـل مـن الشعوب الآرية والحامية، - يكافح كفاحا ظاهرا ضد الميل الغريزي إلى كبته، الذي ظهر في العالم الغربـي بعد الانتشار الأول للمسيحية والإسلام. وينبغي أن يكون من المفهوم أنه لم تكن هناك عداوة صـريحة ضـد الفن التشكيلي التمثيلي عند المسيحيين. وقد اختفى فن التصوير الروماني القديم من سراديب الـدفن والقبـور المسيحية المزخرفة. وظل قدر معين من التصوير الجداري المنمط النوع يكافح خلال القرون الوسـطى ثـم تكاثر في القرنين العاشر والحادي عشر.

ومع زيادة أسباب الاطمئنان في الحياة جاءت الرغبة المتزايدة في تجميل الكنائس ومباني الأديرة. وانتشر التصوير منتقلاً من العمل الضيق المحدود لمن يحلي الكتب بالصور إلى الجـدران واللوحـات العصـرية. فأصبح القديسون الجامدون أكثر مرونة؛ وأضيفت الخلفيات الظاهرة من ورائهم، فأتاحـت للرسـام المجـال لإضافة التفاصيل المتمشية مع الطبيعة الحقة Naturalistic. فأما اللوحة المصورة [٢] التي كانت تعمل فـي مكان ثم تنقل إلى آخر وتثبت فيه، فكانت بشيرا وسلفًا للصورة المستقلة. وانقضت فترة من الزمن في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كانت فرنسا وألمانيا سابقتين فيها لإيطاليا في هذا الابتعاث للفن التصويري. وفـي نفس الوقت كان نحات أحجار البناء ينفث في الحليات المضنية التي عليها المباني القوطية حيويـة وروحـا واقعية متزايدتين. فهو يحول الميزاب إلى رأس حيوان كاشر الوجه مضحك، ويضع وجوها وأشكالاً مصورة على تيجان العمد والأبراج المرتفعة الدقيقة للأبنية Pinnacle. وينقل القديس المنحوت من الحفـر البـارز Relief إلى التجسيد الصلب الماثل (أي يحوله من نقش بارز مسطح إلى تمثال مجسد). وفي ذلك أيضا كانت ألمانيا هي القائدة صاحبة السبق. وهذا الانسلال إلى المحاكاة للطبيعة أمتع حقيقة عامة في تـاريخ العصـور الوسطى الفني.

---

[١] فن التشكيل التمثيلي: (Representative Art) هو القائم على تمثيل أو تصـوير الأشـياء الطبيعيـة والكائنـات الحيـة. (المترجم)

[٢] اللوحة المصورة (Panel) هي التي يسميها أهل الفن باسم بانوه (Panneau) (المترجم)

ولقد سبق لنا أن لاحظنا من قبل اختفاء لمحاكاة الطبيعة مشابها لهذا، ثم ظهورا جديدا لتلك المحاكاة في تاريخ الإنسانية. فالإنسان في أواخر العصر الحجري القديم كان يحفر الأشكال الواقعية ويرسمها بحرية وقوة ولكن إنسان العهد المبكر من العصر الحجري الحديث لم يترك لنا رسوما جيدة ولا نحائت جيدة تمثل الكائنات الحية. ثم لم يكد فن التشكيل يظهر مرة ثانية حتى جاء عصر البرونز. وقد حدث نفس هذا الأمر بالضبط وإن على مقياس أكبر بين الأيام العظيمة للإمبراطورية الرومانية وبين العصور الوسطى، لا في ظلال المسيحية فحسب بل في رحاب الإسلام كذلك. ولم يقم أحد قط بتقديم أي تفسير كامل مقنع لظهور هذه البدائل المتناوبة. فإن الفن تراجع عن محاكاة الحقيقة والطبيعة وحبس نفسه على الإتقان والتنميق الشكلي. ومنذ ذلك التاريخ بدت موجة عظيمة أخرى من روح المحاكاة المشرقة للطبيعة، لعلها بلغت ذروتها من أمد غير بعيد. ومنذ خمسين سنة كان كل من التصوير والنحت أكثر على الجملة امتلاء بروح لمحاكاة للطبيعة والتمثيل لأشكالها، وأقل رمزية وأدنى تلويحا وإشارة مما هو عليه الآن [1]. ولسنا بمستطيعين أن نقدم ها هنا أي تفسير مرض لهذه الموجات التي تلم بالباعث الفني العام، وأعني بها الترجحات المتناوبة بين الحقيقة الجذلة القوية النقل والأداء وبين الترفع والتزمت. وكأنما الروح الواقعية المفرطة والجذل المفرط بالجسم والحركة والانفعال والتفاصيل العرضية كانت تنتهي آخر الأمر إلى إحداث رد فعل يتجه إلى عملية التجريد والشكلية ويسبب التجاء غريزيا إليهما.

---

[1] انظر للمترجم " التربية عن طريق الفن" تاليف هربرت ريد (هيئة الكتب والأجهزة العلمية)، وفي هذه الفقرة يشير الكاتب إلى ما غلب على فن القرن العشرين من روح عصرية تتمثل في التجريدية والسريالية والتكعيبية والوحشية والترقيطية وغير ذلك من أشكال الفن المعاصر. (المترجم).

١٧- موسيقى العصور الوسطى

كانت تلم بالموسيقى تغيرات عظيمة في أيام الحروب الصليبية. إذ إن أي نوع من أنواع الانسجام (الهرموني Harmony) لم يكن معروفًا حتى ذلك الأوان؛ بل كانت الموسيقى شأنًا بسيطًا مكونًا من الإيقاع واللحن؛ وقد ابتدأ آنذاك تطور جديد تمام الجدة – كان في مبدأ الأمر غناء موزعا من نوع بدائي (Part-singing)، ثم تطور فأصبح حبكة معقدة من ألحان يزداد تناسجها على مر الزمان إحكاما وتفصيلاً. إذ جعلت الأصوات المختلفة تغني في نفس الوقت أنغاما مختلفة يجمعها الانسجام الهارموني. وفي الحين نفسه تطور تدوين للنوتة الموسيقية قادر على التعبير عن الموسيقى الجديدة المتعددة الأصوات البوليفونية (Polyphonic) وتسجيلها. وكان التدوين ضروريا للتطور الموسيقي الحر، ضرورة الكتابة لظهور "أدب" نام متنوع.

ويبدو أن البدايات الأولى لهذا التجديد في صوغ الموسيقى إنما ظهرت في أوربا الغربية، والراجح أن ذلك كان في ويلز ووسط إنجلترة. إذ نحن إنما نجد هناك أول ما سجل لنا من حالات الغناء الموزع، ولعله بدأ هنا في زمن مبكر يرجع إلى القرن التاسع. ولكنه كان على التحقيق أمرا قائما يمارسه الناس عند نهاية القرن الثاني عشر. وهناك قطعة ممتازة من التدوين الموسيقي الإنجليزي الموزع ترجع إلى حوالي (١٢٤٠) لا تزال موجودة حتى الآن. وهي الروتا (Rota) ومطلعها "Sumerisi- cumenim). والراجح أن كاتبها هو جون الفورنسيتي وهو راهب محاضر، ويقول السير و.هـ. هادو [١] "إن تدوين التوزيع فيها مدهش في صحته وإرضائه للنفس، ومن الممكن سماعه في الوقت الحاضر بسرور عظيم... وهي أول صوت في تطور فننا الغربي، لا يزال يستطيع أن يحدثنا في نبرات صديقة مألوفة".

وكانت تلك الأيام أيام المغامرين الجوالين، كما كانت أيام الموسيقى الطوافة أيضا. فإن جماعات التروبادور كانت تنتقل من قصر إلى قصر؛ وكان ثمة كثير من المغنين المتسولين، وانتشرت فكرة الانسجام الموسيقى (الهارموني) بأرجاء فرنسا وإيطاليا وإلى أوربا الوسطى. وكانت معظم التلحينات غناء متعدد الأصوات بوليفونيا غير مصحوب بموسيقى. على أن تطور التوزيع الموسيقي على الآلات جاء فيما بعد مع ظهور العود (Lute) والفرجينال [٢] والفيول [٣] وزيادة استخدام ومجال الأرغن بصورة متمشية مع الزيادة في مهارة صانعيه. وكان لا يزال على القصر والبلاط أن يصلا إلى تلك الذرى العالية من الترف والتنميق التي لا بد منها لإنتاج موسيقى علمانية أرفع من هذه التي لا يتجاوز نطاقها هذه الموسيقى الصوتية والشعبية الصرفة، وفي مبدأ الأمر كانت أهم مهاد لإنتاج الموسيقى الجديدة هي جوقات (كورس) المرتلين والعازفين بالكاتدرائيات والأديرة. فهناك كافح الرؤساء المجددون لجوقات المرتلين (الكورس) ضد النزعات الدينية الشديدة المحافظة والتمسك بالقديم، بل لقد كافحوا كفاحا طويلاً بعيد المدى.

---

(١) هو السير وليم هنري هادو: (١٨٥٩ – ١٩٣٩) من كبار رجال التربية ومن أعظم علماء علم الموسيقى وتحليلها وفلسفتها ومحرر "تاريخ أكسفورد للموسيقى" (المترجم).

(٢) آلة وترية قديمة ذات مفاتيح.

(٣) ضرب قديم من الكمان.

وكانت الصيغة الغالبة في أثناء طور الانسجام الهارموني الصوتي البحت هـي المادريجـال [1]. وكـان الملحن الإيطالي بالسترينا (١٥٢٦ – ١٥٩٤) هو الأستاذ الذي بلغت به تلك الفترة من الموسيقى الكوراليـة الجماعية ذروتها. وفي القرن السادس عشر كان الصناع الإيطاليون قد ساروا فعلاً بالكمان (الفيولينـا) فـي سبيل الكمال، وكان الأرغن الحديث في دور التطور النهائي، فقد أخذت ظروف اجتماعية جديدة في الظهور، وثمة مشاعر جديدة أخذت تبحث عمن يترجم عنها، وثم طرائق ومناهج جديدة أخذت في التطور فتيسر بهـا ظهور طراز من التلحينات الموسيقية أرحب أفقًا، وجب فيه على فن التوزيع الموسيقي على الآلات أن يلعب الدور الأعظم.

---

[1] لحن موضوع لقصيدة غزلية.

الكتاب السابع

الإمبراطوريات المغولية صاحبة الطرق البرية

والإمبراطوريات الجديدة صاحبة الطرق البحرية

الفصل الثاني والثلاثون

جنكيز خان وخلفاؤه وإمبراطوريتهم العظيمة

(عصر الطرق البرية)

١- آسيا عند نهاية القرن الثاني عشر.

٢- قيام المغول وانتصاراتهم.

٣- رحلات ماركو بولو.

٤- الأتراك العثمانيون والقسطنطينية.

٥- لماذا لم يعتنق المغول المسيحية.

٦- أسرتا يوان ومنج في الصين.

٧- المغول يرتدون إلى الروح القبلية.

٨- إمبراطورية القبجاق وقيصر موسكوفيا (الروسيا).

٩- تيمورلنك.

١٠- إمبراطورية الهند المغولية

١١- الغجر (النور).

١- آسيا عند نهاية القرن الثاني عشر

الآن نحدثك عن آخر وأعظم غارات نظام "البداوة" والترحل على مدنيات الشرق والغرب. ولقد تتبعنا في هذا التاريخ تطور طريقتي العيش هاتين جنبا إلى جنب، وأشرنا إلى أنه كلما اتسعت رقعة المدنيات وتحسن تنظيمها، كانت تتحسن كذلك أسلحة المترحلين وتزداد سرعة حركتهم ويرتفع مستوى ذكائهم. ولم يكن المترحل أو البدوي مجرد رجل غير ممدن، بل كان إنسانًا متخصصا في طريقة عيشه لا يبرح تخصصه يعمق ويزداد. ومنذ بداية التاريخ ذاتها، كان المترحلون والمستقرون في تفاعل دائم. وقد سبقت الإشارة إلى غارات الساميين والعيلاميين على سومر. ورأينا الإمبراطورية الغربية وكيف حطمها مترحلو السهول العظيمة، ورأينا فارسا تسقط في أيدي مترحلي بلاد العرب الذين يهزون بيزنطة هزا. والعدوان المغولي الذي ابتدأ مع ابتداء القرن الثالث عشر، يعد حتى الآن آخر غارة أعيد فيها حرث الجماعة الإنسانية حرثًا مدمرا.

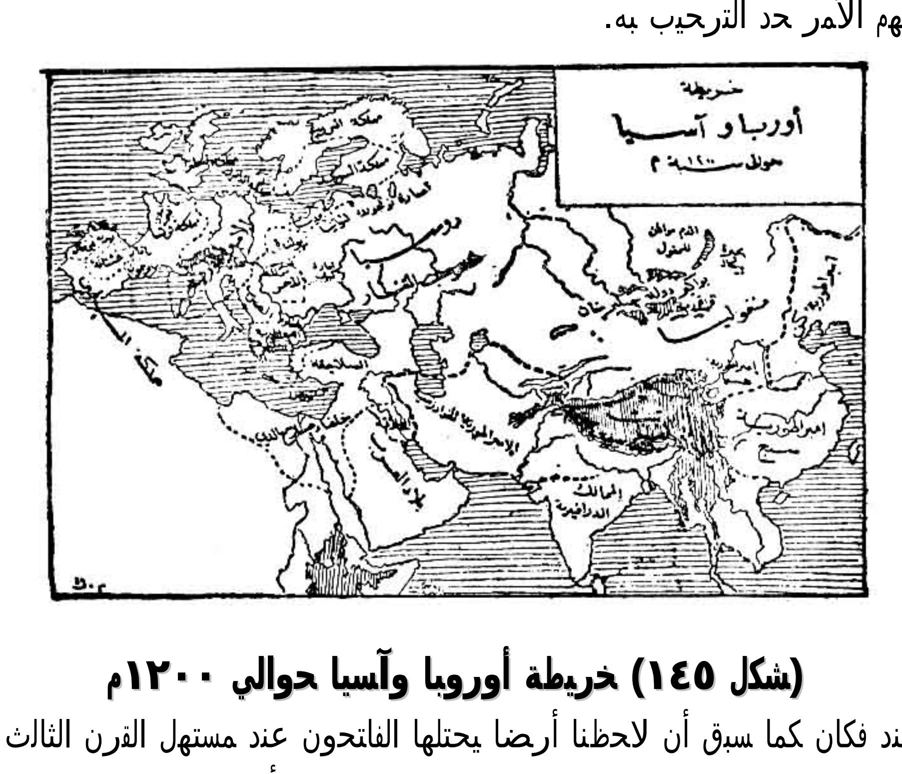
ظهر المغول على مسرح التاريخ فجأة هابطين من غياهب المجهول قرب نهاية القرن الثاني عشر. وكان ظهورهم في القطر الواقع شمالي الصين بأرض الأرومة الأصلية للهون والترك، وواضح أنهم ينحدرون من نفس سلالة هذين الشعبين. تجمعوا بعضهم مع بعض تحت لواء رئيس ما نحن بمثقلين ذاكرة القارئ باسمه، وما لبثت قوتهم أن نمت تحت قيادة ابنه جنكيز خان بسرعة خارقة للعادة.

ولعل القارئ لا يزال يذكر التفكك التدريجي الذي ألم بوحدة الإسلام الأصلية. فقد كان هناك عند بداية القرن الثالث عشر، عدد من الدول الإسلامية المتفرقة المتنازعة في غرب آسيا. كانت هناك مصر (ومعها فلسطين وجزء كبير من سوريا) تحت حكم خلفاء صلاح الدين، وكانت هناك الدولة السلجوقية في آسيا الصغرى، وكانت لا تزال هناك خلافة عباسية في بغداد، وثمة إمبراطورية ضخمة نمت إلى الشرق من هذه أيضا هي الإمبراطورية الخوارزمية، وهي إمبراطورية الأمراء الأتراك في خيوة الذين غزوا عددا من الإمارات السلجوقية الصغيرة المتناثرة، وحكموا الشقة الممتدة من وادي الجانج (الكنج) إلى الدجلة. ولكن سلطانهم على السكان الفرس والهنود كان غير وطيد.

وكانت الحضارة الصينية كقرينتها العربية على حال من الوهن تغري بها أي فاتح مقدام مغامر. ولعل القراء يذكرون لمحة ألقيناها على الصين في هذا التاريخ وأنها كانت في القرن السابع إبان السنوات الأولى من حكم أسرة تانج، يوم كان ذلك الإمبراطور الأريب المقتدر "تاي تسونج Tai Tsung" يوازن بين مزايا كل من المسيحية النسطورية والإسلام والبوذية وتعاليم "لاوتزي Lao Tse" ويميل في جملة الأمر إلى الأخذ بأن لاوتزي معلم يضارع في الفضل أي واحد من الآخرين. وقد وصفنا استقباله للرحالة يوان تشوانج. وتسامح تاي تسنج مع جميع الديانات. ولكن كثيرين من خلفائه أنزلوا بالعقيدة البوذية اضطهادات، لا تداخلها رحمة. على أنها ازدهرت بالرغم من هذه الاضطهادات. ولعبت أديرتها دورا مشابها بعض الشبه للدور الذي لعبته المنظمات الديرية المسيحية في الغرب في أخذها بناصر العلوم بادئ الرأي ثم في اعتياقها سبيل العلم بعد ذلك.

حتى إذا وافى القرن العاشر، كانت أسرة تانج القوية بلغت من الانحلال أقسى المدى. إذ استمرت عمليـة الاضمحلال المألوفة المتسببة عن تعاقب مجموعة من الفساق والعاجزين على عرش الإمبراطورية، وانقسمت الصين مرة ثانية من الناحية السياسية إلى عدد متغير من الولايات المتطاحنة في أثناء مـا يسـمى "عصـر الولايات العشر"، وهو عصر من فوضى استمرت طوال النصف الأول من القرن العاشر. ثم نشـأت أسـرة جديدة هي أسرة صنج (Sung) الشمالية (٩٦٠ – ١١٢٧) التي نشرت في البلاد ضربا من الوحدة، ولكنهـا ظلت مع ذلك في حالة كفاح مستمر مع عدد من الشعوب الهونية الزاحفة من الشمال، والضاغطة جنوبا على امتداد الساحل الشرقي. وجاء زمن تغلب فيه شعب من هؤلاء هم شعب الخيتان (khitan). ولم يلبـث هـذا الشعب أن أخضع في القرن الثاني عشر وأخلى مكانه لإمبراطورية هونية أخرى، هي إمبراطوريـة الكـن (Kin) التي جعلت عاصمتها بيكين وحدها الجنوبي المناطق الواقعة جنوب نهر هوانج هو.

وتقلصت ظلال إمبراطورية صنج أمام إمبراطورية الكن هذه. وفي (١١٣٨) نقلت العاصمة من نـانكين التي أصبحت عند ذاك شديدة القرب من التخوم الشمالية، إلى مدينة هان تشاو على الساحل. وتعرف أسـرة صنج منذ (١١٢٧) إلى (١٢٩٥) باسم صنج الجنوبية. وإلى الشمال الغربي من أراضيها، كان هناك عند ذاك إمبراطورية الهسيا (Hisia) التتارية، وإلى الشمال إمبراطورية الكن، وكان السكان الصـينيون فـي كلتـا الدولتين تحت حكام لا تزال تقاليد المترحلين قوية الأثر فيهم. ومن ثم ترى أنه ها هنا في الشرق كذلك، كانت الجمهرة الرئيسية الغفيرة للبشرية الآسيوية تحت حكام من غير بني جلدتهم، كما كانوا على استعداد لقبول أي فاتح إن لم يبلغ بهم الأمر حد الترحيب به.



(شكل ١٤٥) خريطة أوروبا وآسيا حوالي ١٢٠٠م

فأما شمال الهند فكان كما سبق أن لاحظنا أرضا يحتلها الفاتحون عند مستهل القرن الثالث عشر. وكانـت في مبدأ الأمر جزءا من إمبراطورية خيوة، ولكن حدث في (١٢٠٦) أن حاكما مغامرا اسمه قطب (Kutub) – كان عبدا مملوكًا وارتقى حتى أصبح واليا على الولاية الهندية – أنشأ في دلهي دولة إسلامية منفصلة هي الهندوستان. وكانت البرهمانية كما سبق أن ذكرنا، قد طردت البوذية من الهند منـذ أمـد بعيـد، علـى أن المعتنقين للإسلام كانوا لا يزالون أقلية حاكمة في البلاد.

تلك عجالة وجيزة عن حالة آسيا السياسية، عندما شرع جنكيز خان يوطد دولته بين المترحلين في القطر المحصور بين بحيرتي بلكاش وبايكال عند مفتتح القرن الثالث عشر.

٢- قيام المغول وانتصاراتهم

كانت سيرة فتوح جنكيز خان وخلفائه المباشرين مثار دهشة العالم، ولعلها لم تدهش أحدا أكثر مما أدهشت هؤلاء الخانات المغول أنفسهم.

كان المغول في القرن الثاني عشر قبيلة خاضعة لهؤلاء "الكن" الذين فتحوا شمال شرقي الصين. وكانوا قبيلة من الفرسان المترحلين يعيشون في خيام، ويعتمدون في طعامهم بوجه رئيسي على منتجات لبن الأفراس ولحومها. وكان الرعي والصيد عملهم الذي تدخل الحرب عليه شيئًا من التنويع. وكانوا عندما تذوب الثلوج ينتقلون شمالاً انتجاعا للمراعي الصيفية، كما ينتقلون مع الشتاء جنوبا إلى المراعي الشتوية على جاري عادة أهل السهوب. وابتدأ تدريبهم على الشئون العسكرية بعصيان ناجح قاموا به على "الكن". كانت موارد نصف الصين في قبضة إمبراطورية الكن، وتعلم المغول أثناء الكفاح شيئًا كثيرا جدا مما لدى الصينيين من العلوم العسكرية. وما وافت نهاية القرن الثاني عشر حتى أصبحوا قبيلة مقاتلة من طراز ممتاز.

وقد أنفق جنكيز الأعوام الأولى من حياته العملية في النهوض بعدته الحربية وفي تمثل المغول والقبائل المخالطة لهم والمحيطة بهم وإدماجهم جميعا في جيش واحد منظم. وقد وجه أول امتداد عظيم لسلطانه نحو الغرب، وهناك استطاع الخان أن يضم قبيلتي القرغيز واليويغور (Uighurs) [١] التتاريتين (وهما تؤلفان

---

[١] يظهر اليويغور لأول مرة في القرن السادس، حين كانوا يعرفون باسم الكاوكو (Kao-ku) أي العربات العالية، وهم أحد فرعي الترك الرئيسيين في منغوليا الشمالية وما حولها. وتغطي مدة عظمتهم واستقلالهم ما بين ٧٥٠ – ٨٥٠م وهو زمان يقابل رفعة ومجد أسرة تانج الشهيرة.

وبلغ اليويغور مستوى ثقافيا عاليا جدا، وأظهرت البحوث الأركيولوجية الحديثة مقدارا ضخما من الأدب والفن اليويغوري، ومنها نعلم أن المسيحية والبوذية والمانوية كانت تمارس كلها في مملكتهم، إذ كانوا يراعون أقصى غاية التسامح الديني على حين كانت المانوية هي دين الدولة. وكان اليويغور على التحقيق هم أشد جيران الصين الشماليين حضارة، ومع أن مملكتهم دمرتها (٥٨٠) قبيلة تركية شمالية هي قبيلة القرغيز، فإن اليويغور لم يختفوا من التاريخ بأي حال، إذ إننا لا نبرح نجد حتى القرن الخامس عشر إمارات ودويلات يويغورية صغيرة تنشأ، على حين أنه أثناء المدة كلها كان اليويغور يستخدمون بكثرة في القضاء الإسلامي – ويقومون في مصالح الحكومة بالتركستان بنفس الدور الذي لعبه الهندوس تحت حكم المغول في دلهي والبنغاليون أثناء الحكم البريطاني بالهند.

وتحدثنا فترة تاريخ الشرق التي تبدأ بظهور جنكيز خان في القرن الثالث عشر وتنتهي بفتح القسطنطينية على يد الأتراك العثمانيين، عن قيام وسقوط عدد كبير من الأسرات التركية الحاكمة في آسيا الوسطى والهند وفارس. ومن العجيب أن هذه الأسرات كان يؤسسها في معظم الحالات رجال بدءوا حياتهم مماليك. وقد ورد هذا البيان الغريب التالي عن الأتراك في مخطوط فارسي لم ينشر بعد، يرجع إلى القرن الثالث عشر:

"من المعلوم الشائع أن جميع الأجناس والطبقات، تكون مكرمة محترمة وهي مقيمة بين ظهراني شعبها وفي بلادها، ولكنهم عندما يغادرون بلادهم، يصبحون تعساء أذلاء. والترك على نقيض ذلك، فإنهم عندما يكونون بين بني جلدتهم، يكونون مجرد قبيلة بين قبائل كثيرة، ولا يستمتعون بأي قوة أو منزلة خاصة. ولكنهم عندما يغادرون موطنهم إلى دولة إسلامية –

الشعب التتاري في حوض التاريم) – إلى جيشه عن رغبة واقتناع لا عـن قهـر وغلبـة. وعندئـذ هـاجم إمبراطورية الكن واستولى على بيكين (١٢١٤). فانضم إليه شعب خيان الذين أخضعهم الكـن منـذ قريـب وبذلك ضموا مقدراتهم إلى مقدراته، فأسدوا إليه بذلك معاونة عظيمة جدا. فأما السكان الصينيون المستقرون فقد استمروا فيما هم فيه من بذر البذور وحصد الحصاد والتبادل التجاري أثنـاء تغيـر السـادة هـذا دون الانضمام بثقلهم لأي من الطرفين.

ولقد سبق أن ذكرنا الإمبراطورية الخوارزمية القريبة العهد التي شملت التركستان وفارس وشمالي الهند. كانت هذه الإمبراطورية تمتد شرقًا حتى قشغر، ولا بد أنها كانت تبدو من أكثر إمبراطوريات زمانها تقـدما وأملا في المستقبل. وقد أرسل جنكيز خان رسله إلى خوارزم وهو لا يزال مشتغلاً بالحرب مع إمبراطورية الكن. وأقدمت خوارزم على قتل الرسل – وهي غباوة لا يكاد يصدقها عقل. ذلك أن الحكومة الخوارزمية – إن جاز أن نستعمل لغة اليوم السياسية – رأت ألا تعترف بجنكيز خان وسلكت حياله ذلك المسلك الجـريء. وعند ذلك (١٢١٨) اجتاح جيش الفرسان العظيم الذي وطد أركانه جنكيز خان ونظمه، هضبة البامير وهـبط إلى التركستان. كان جيشًا حسن العدة والسلاح، والراجح أنه كانت معه بعض المدافع والبارود يستعملها فـي الحصار. ذلك أن الصينيين كانوا على التحقيق يستعملون البارود في ذلـك الزمـان، وأن المغـول تعلمـوا استعماله منهم. فسقطت قشغر وخوقند وبخارى ثم سمرقند عاصمة الإمبراطورية الخوارزمية. ومن بعدها لم يعد شيء بالإمبراطورية الخوارزمية يستطيع صد المغول، فاندفعوا غربا نحو بحر قزوين ثم جنوبـا حتـى لاهور. وإلى الشمال من بحر قزوين التقى جيش مغولي بقوة روسية آتية من كييف. ونشبت بـين الفـريقين سلسلة من المعارك، كسرت فيها الجيوش الروسية كسرا نهائيا، وأخذ غرندوق كييف أسيرا. وهكـذا ظهـر المغول على الشواطئ الشمالية للبحر الأسود. وتولى الذعر القسطنطينية، التي وجهت كل جهدها إلى إعـادة بناء تحصيناتها. وفي نفس الوقت كانت جيوش أخرى. تشتغل بفتح إمبراطورية هسيا في الصين فألحقت هذه بملك المغول. ولم يبق من إمبراطورية الكن سليما غير مقهور إلا الجزء الجنوبي. وفي (١٢٢٧) مات جنكيز خان في أوج حياة حافلة بالنصر بعد أن أصبحت إمبراطوريته تمتد من المحيط الهادي إلـى نهـر الـدنيبر. وفوق ذلك فإنها كانت إمبراطورية لا تبرح رقعتها تتسع بقوة.

(وكلما ابتعدوا عن بلادهم وأقاربهم، زادت قيمتهم رفعة وتقديرهم سموا) – يصبحون أمراء وقادة للجيوش. ولم يحدث منذ أيام آدم حتى العصر الحاضر أن أصبح مملوك مشترى بالمال ملكًا قط إلا بني الأتراك؛ ومـن الأقـوال المـأثورة عـن أفراسياب (Afrasyab) الذي كان ملكًا على الترك وكان خارقًا للعادة في حكمته وعلمه قوله: "التركي أشبه شيء بلؤلـؤة في صدفتها تحت أطباق العباب، لا تصبح ثمينة القدر حتى تغادر البحر وتزين تيجان الملوك وآذان الغواني".

على أنها، شأن كل الإمبراطوريات التي أسسها المترحلون، كانت قبل كل شيء إمبراطوريـة عسـكرية وإدارية بحتة، وكانت هيكلاً وإطارا أكثر منها نظام حكم، وكانت تتمركز حول شخصـية العاهـل، وكانـت علاقتها بكتلة الشعوب الذين تحكمهم مجرد علاقة ضرائب تجبى للإنفاق على القبيلة. على أن جنكيـز خـان كان قد دعا لمعاونته سياسيا عظيم الكفاية من مدبري إمبراطورية الكن واسع الخبـرة عليمـا بكـل تقاليـد الصينيين ملما بعلومهم. وقد استطاع هذا السياسي المحنك يليوتشوتزاي (Yeliuchutsai) أن يواصـل إدارة شئون المغول مدة طويلة بعد وفاة جنكيز خان، وليس هناك أدنى ريب في أنه من أعظم أبطال السياسة فـي التاريخ. فكم روض من شراسة سادته وهمجيتهم، وأنقذ من يد التدمير مدنًا لا تحصى ومنتجات فنية قيمـة لا حصر لها. ودأب على جمع السجلات والمخطوطات والنقوش، ولما اتهم بالرشوة، ظهر أن كل ما في حوزته من ثروة يتكون من الوثائق ومن بعض آلات موسيقية وربما جاز أن ينسب إليه، بقدر ما يعزى إلى جنكيـز خان، ما استمتعت به الأداة الحربية المغولية من كفاية. وربما جاز لنا أن ننبه الأذهان أيضا أن آفـاق آسـيا بأكملها كان يسودها إبان حكم جنكيز خان أتم وأكمل أنواع التسامح الديني.

كانت عاصمة الإمبراطورية الجديدة عند وفاة جنكيز لا تزال هي مدينة قره قورم المتبربرة العظيمة فـي منغوليا. وهناك انتخبت جمعية من زعماء المغول أوجداي خان ابن جنكيز خليفة له. فواصل المغـول فـي عهده الحرب على بقايا إمبراطورية الكن، حتى أخضعت إخضاعا تامـا (١٢٣٤). وكانـت الإمبراطوريـة الصينية التي تحت حكم أسرة صنج في الجنوب عونًا للمغول في هذا العمل، وبذا دمروا حصنهم الواقي الذي يمنعهم من الغزاة الفاتحين أعداء الطرفين. ومن ثم سارت الجيوش المغولية عبر آسيا إلى الروسيا لا تلـوي على شيء (١٢٣٥) وهو زحف عسكري رائع سيأخذ بالألباب. فدمرت كييـف (١٢٤٠) وأصـبحت كـل الروسيا تقريبا تابعة للمغول ونهبت بولندة وخربت وأبيد جيش مختلط من البولنديين والألمان بمعركة ليجنتز (Liegnitz) في سيليزيا السفلى (١٢٤١). ويبدو أن الإمبراطور فردريك الثاني لم يقم بأي مجهـود عظـيم ليوقف ذلك السيل المنهمر.

يقول بيوري في ملحوظاته على كتاب "اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها لجيبون": "لم يحـدث إلا في العصر الحديث أن أخذ العالم الأوربي يفهم أن نجاح الجيش المغولي الـذي اجتـاح بولنـدة واحتـل هنغاريا في ربيع (١٢٤١) قد تم بفضل خطط استراتيجية بالغة غاية الكمال وأنه لم يكن راجعا إلـى مجـرد تفوق عددي جارف. ولكن هذه الحقيقة لم تصبح بعد من المعلومات الشائعة المعروفة للناس أجمعـين. إذ لا يزال من الأفكار الشائعة بين الناس تلك الفكرة السوقية التي تمثل التتار في صورة قبيلة ضـارية متوحشـة تجترف كل شيء أمامها بمحض كثرة العدد ليس غير، وتركض بخيولها خلال أوربا الشـرقية دون خطـة استراتيجية مرسومة، وتندفع من فوق كل عائق يعترض سبيلها وتتغلب عليه بمجرد الثقل العددي....



(شكل ١٤٦) خريطة إمبراطورية جنكيز خان عند وفاته سنة (١٢٢٧)

"وكم كان من المدهش أن تنفذ في الوقت المحدد وفي قوة تأثير فعالة – ترتيبات القائد في عمليات حربيـة تمتد من الفستولا الأدنى إلى ترانسلفانيا. فمثل هذه الحملة كانت فوق طاقة أي جيش أوربي في ذلك الزمـان، وكانت وراء أحلام أي قائد أوربي. ولم يكن بأوربا، ابتداء من فردريك الثاني فما دونه قائـد لا يعـد مـن المبتدئين الأغمار في فن القيادة الاستراتيجية بالقياس إلى سوبوتاي (Subutai). كذلك يجب أن يلاحـظ أن المغول قد أقدموا على هذا الأمر وهم على معرفة تامة بموقف المجر (هنغاريا) السياسي وظروف بولنـدة – وذلك لأنهم عنوا مقدما بتعرف الأخبار بواسطة هيئة من الجواسيس حسنة التنظيم. على حين أن المجـريين والدول المسيحية، كانوا شأن المتبربرين الأشبه بالأطفال، لا يكادون يعرفون عن أدائهم شيئًا".

ومع أن المغول انتصروا قرب ليجنتز، فإنهم لم يواصلوا تقدمهم غربا. وذلك لأنهم أخذوا يـدخلون إلـى أراضي غابات ومناطق تلال لم تكن لتوافق ما لديهم من تكتيك [1] حربي. ولذا عرجوا جنوبا وأعدوا عـدة الاستقرار في بلاد المجر، وهم يذبحون المجريين ذوي قرباهم أو يتمثلونهم، على طريقة تداني مـا أعمالـه هؤلاء من الذبح والتمثل من قبلهم في الإسيكذيين والآفار والهون المخاطين. والراجح أنهم كانوا يبغـون أن يقوموا من السهل الهنغاري بالغارات غربا وجنوبا كما فعل الهنغاريون في القرن التاسع والآفار في القـرنين السابع والثامن والهون في الخامس. غير أن المغول كانوا في آسيا يحاربون أسرة صنج حرب غزو عنيفـة، وكانوا كذلك يغيرون على فارس وآسيا الصغرى؛ ومات أوجداي موت الفجاءة، وحدث في (١٢٤٢) نـزاع حول ولاية العرش من بعده، ودعاهم هذا الأمر إلى العودة إلى بلادهم. ولذا فإن الجيـوش المغوليـة غيـر المقهورة أخذت تنساب راجعة عبر بلاد المجر ورومانيا نحو الشرق.

---

[1] التكتيك: فن أو علم تحريك القوات والمداورة بها في المعركة وفق مبادئ مقررة.

ومن حسن طالع أوربا أن الخلافات على العرش في قره قورم دامت بضع سـنين، وبـدت علـى هـذه الإمبراطورية الهائلة الجديدة بوادر التصدع. وأخيرا أصبح "مانكو خان" خانا أعظم في (١٢٥١)، فعين أخاه قوبلاي خان حاكما عاما على الصين. وأخضعت إمبراطورية صنج بأجمعها في بطء ولكن في غير تـراخ، وبينما هي بسبيل الإخضاع، كان المغول الشرقيون يتحولون أكثر فأكثر إلى صينيين في ثقـافتهم وطرائـق عيشهم، وغزا مانجو بلاد التبت وأعمل فيها تدميرا، وغزيت فارس وسوريا بمنتهى الجد والهمة. وكان على إمرة هذه الحرب الأخيرة أخ آخر لمانكو هو هولاكو. فوجه جيوشه إلى الخلافة واستولى على بغداد، وفـي هذه المدينة تلوثت يداه بإعماله الذبح في سكانها برمتهم. وكانت بغداد لا تزال عاصمة الإسلام الدينية. وكان المغول قد أصبحوا معادين للمسلمين عداوة مريرة. وزادت هذه العداوة مـن أوار الخـلاف الطبيعـي بـين المترحلين وأهل المدن. وفي (١٢٥٩) مات مانكو خان وانتخب قوبلاي خانًا أعظم في (١٢٦٠)، إذ إن تجمع قادة المغول من أطراف هذه الإمبراطورية الهائلة من المجر وسوريا والسند والصين قد استغرق شطرا كبيرا من سنة كاملة. ولما كان قوبلاي من قبل عميق الاهتمام بالشئون الصينية، فإنه اتخذ بيكين عاصمة له بـدلاً من قره قورم، وأصبحت فارس وسوريا وآسيا الصغرى مستقلة فعلاً تحت حكم أخيه هولاكو. على حـين أن قبائل المغول في الروسيا والمناطق الآسيوية المجاورة للروسيا وجماعات صـغيرة مغوليـة متنوعـة فـي التركستان، قد أصبحت أيضا منفصلة تقريبا. ومات قوبلاي (١٢٩٤)، وبموته زالت كل سيادة للخان الأكبـر حتى الاسمية منها.

وعند موت قوبلاي كانت هناك إمبراطورية مغولية رئيسية عاصمتها بيكين، تضم كل الصين ومنغوليـا؛ وثمة إمبراطورية مغولية عظيمة ثانية هي إمبراطورية القبجاق (Kipchak) في الروسيا؛ وثم إمبراطوريـة ثالثة في فارس، وهي تلك التي أسسها هولاكو، وهي الإمبراطورية الإيلخانية (Ilkhan) التي كان الأتـراك السلجوقيون في آسيا الصغرى تابعين لها. وكانت هناك دولة سيبيرية تقع بين القبجاق ومنغوليا؛ ودولة أخرى منفصلة" تركيا الكبيرة" في التركستان. ومما هو جدير بالملاحظة بوجه خاص أن الهند فيما وراء البنجاب لم يغزها المغول أبدا أثناء تلك المدة، وأن جيشًا بقيادة سلطان مصر دحر قطبغا قائد هولاكو في فلسطين دحـرا تاما (١٢٦٠)، وحال دون دخولهم إلى إفريقية. وذلك أنه عند (١٢٦٠) كان دافع الغزو المغولي قد انحط عن ذروته. ثم يقع المغول من بعدها في غمرات الفرقة والاضمحلال.

ودامت أيام الأسرة المغولية التي أسسها قوبلاي خان في الصين، وهي أسرة يـوان مـن (١٢٨٠) إلـى (١٣٦٨). ثم تجدد من بعد ذلك نشاط المغول في غرب آسيا تجددا قدر له أن يؤسس ملكيـة أرسـخ قـدما وأطول عمرا في بلاد الهند. ولكن كان الأفغان في القرنين الثالث عشر والرابع عشر هم سادة شمالي الهنـد وليس المغول، وامتدت لهم إمبراطورية أفغانية حتى صميم منطقة الدكن.

٥- رحلات ماركو بولو

لا جرم أن قصة الفتوح المغولية من أعجب القصص وأجدرها بالتنويه في موكب التاريخ بأكمله، وما تستطيع فتوح الإسكندر الأكبر أن تدانيها في العظم واتساع المدى. كما أن أثرها في نشر الأفكار بين الناس وتوسيع آفاقها وفي استثارة أخيلتهم كان هائلاً ضخما. ذلك أن آسيا وأوربا الغربية جميعا أقامتا زمانًا وهما تستمتعان بالاتصال الحر والاختلاط المباشر؛ وفتحت كل الطرق الموصلة بينهما فتحا موقوتًا، كما ظهر ممثلون لجميع الأمم في بلاط قره قورم.

وأزيلت الحواجز الفاصلة بين أوربا وآسيا وهي التي نشأت عن الخلافات الدينية بين المسيحية والإسلام. وأخذت الآمال الكبار تداعب البابوات في تحويل المغول إلى المسيحية. وكانت ديانتهم الوحيدة حتى ذلك الحين هي الشامانية [١] وهي ضرب بدائي من الوثنية. وكان البلاط المغولي مسرحا اختلط فيه مبعوثون من لدن البابا وكهنة بوذيون من الهند، وحذاق صناع باريسيين وإيطاليين وصينيين، وتجار بيزنطيون وأرمن، بموظفين من العرب وفلكيين ورياضيين من الفرس والهنود. وإننا لنسمع في التاريخ الشيء الكثير المستفيض عن حملات المغول ومذابحهم، ولكننا لا نسمع القدر الكافي عن استطلاعهم ورغبتهم في العلم. ولعل تأثيرهم في تاريخ العالم لم يكن بالغًا جدا بوصفهم شعبا مبتكرا خلاقًا بل بوصفهم نقلة للعرفان وحماة للمناهج والأساليب. فكل ما قد يستطيع المرء أن يحصل عليه من العلم بشخصيتي جنكيز وقوبلاي الغامضتين الرومانسيتين يحدو بنا إلى أن نوقر في أذهاننا الانطباعة التي تقول بأن هذين الرجلين كانا عاهلين فهمين خلاقين بدرجة لا تقل عن الإسكندر الأكبر تلك الشخصية الوهاجة الأنانية، ولا عن شرلمان ذلك المبتعث للأشباح السياسية الدفينة واللاهوتي الناشط والأمي في نفس الوقت.

باءت جهود البعثات التبشيرية التابعة للبابوية في منغوليا بالفشل والإخفاق. ذلك أن المسيحية كانت تفقد قدرتها على الإقناع. وما كان المغول يضمرون للمسيحية أي تحامل، بل الواضح أنهم كانوا في بداية الأمر يفضلونها على الإسلام. على أنه كان من الجلي أن البعثات التبشيرية التي حلت ببلادهم كانت تستعمل ما استقر في تعاليم يسوع من قوة ضخمة في تزكية مدعيات البابا الجسام في السيادة الدنيوية. لذا فإن المسيحية – وقد أتلفت على تلك الشاكلة – لم تكن تحوي من عناصر الجودة ما يجعلها مقبولة لدى الذهن المغولي. وربما جاز أن تروقهم فكرة جعل الإمبراطورية المغولية جزءا من ملكوت الرب، لا جعلها إقطاعا تابعا لجماعة من القساوسة الفرنسيين والإيطاليين، الذين كانت مدعياتهم ضخمة، بمقدار ما كانت قدراتهم وآفاقهم ضعيفة هزيلة، والذين كانوا آنًا من صنائع إمبراطور ألمانيا، وآنًا ممن ينصبهم ملك فرنسا، وآونة من ضحايا أحقادهم الصغيرة وغرورهم التافه.

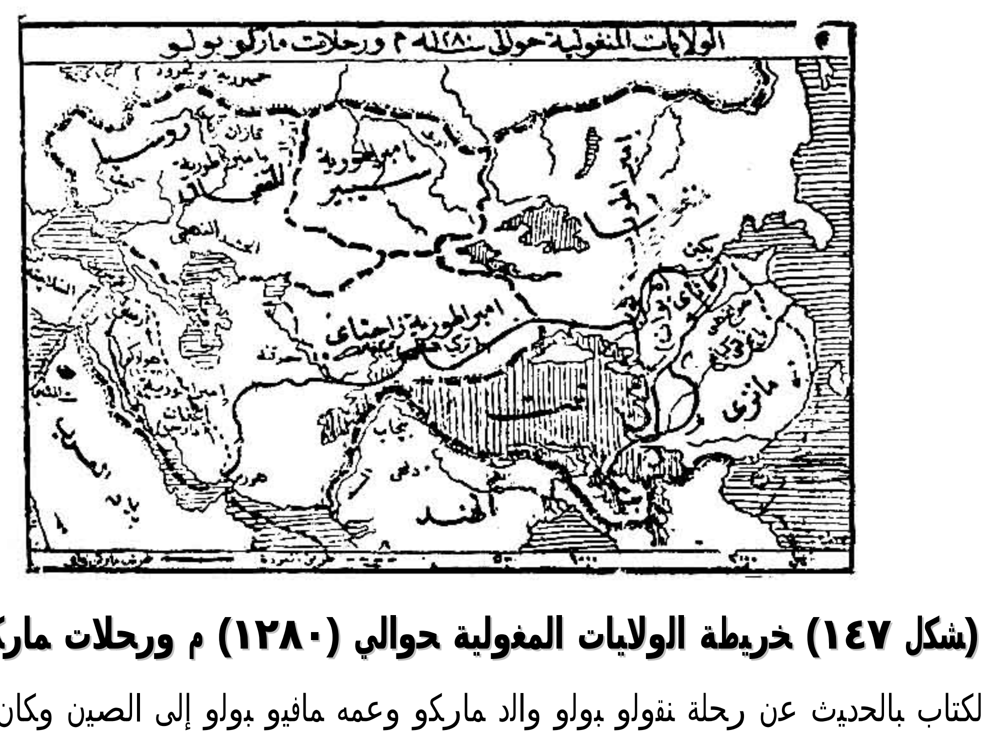
---

[١] الشامانية: هي المعتقدات والممارسات الدينية التي كان عليها سكان آسيا الشمالية القدماء وتقوم على فكرة أن الخير والشر يمكن التصرف فيهما بوساطة السحر. (المترجم)

ففي (١٢٦٩) أرسل قوبلاي خان إلى البابا بعثة كان من الواضح أن الهدف منها هو الوصول إلى وسـيلة ما للتعامل المشترك مع المسيحية الغربية. فطلب أن يرسل البابا إلى بلاطه مائة من رجال ذوي علم ومقدرة ليضعوا أسس التفاهم بين الطرفين. ولكن بعثته وجدت عرش البابوية في العالم الغربي شاغرا وألفته منهمكًا في إحدى تلك المنازعات، التي يكثر اشتجارها في تاريخ البابوية حول وراثة الكرسي البابوي. وظل منصب البابوية شاغرا سنتين كاملتين لا يشغله أي بابا. فلما آن تقلد المنصب أحد البابوات آخر الأمر، أرسل راهبين من الدومينيك لينقلا إلى حكمه ودينه أقوى دولة في آسيا!!!. وقد هال هذين السـيدين الفاضـلين مـا كـان ينتظرهما من بعد الشقة ومتاعب السفر، والتمسا منذ البداية المعاذير للتملص من المهمة.

على أن هذه البعثة العقيمة لم تكن إلا واحدة من بين عدة محاولات للاتصال، ولكنها كانـت علـى الـدوام محاولات ضعيفة واهنة الروح ويعوزها ذلك المضاء الناري القاهر الذي كانت تتسم بـه البعثـات المسـيحية الأولى. وقد أرسل إنوسنت الرابع بالفعل بعض رهبان الدومينيك إلى قره قورم، كذلك أرسل القـديس لـويس الفرنسي البعوث والمخلفات المقدسة بطريق فارس. وكان لدى مانكوخان عدد جم مـن النصـارى النسـاطرة يقيمون في بلاطه، كما أن مرسلين للبابا وصلوا إلى بيكين بعد ذلك فعلاً؛ فإنا نسمع عن تعيين بعض القاصدين الرسوليين وأساقفة متنوعين في بلاد الشرق، على أنه يلوح أن الكثيرين من هؤلاء كانوا يفقدون شـجاعتهم أو يفقدون حياتهم قبل وصولهم إلى الصين. فكان هناك قاصد رسولي بابوي في بيكين في (١٣٤٦)، ولكن يلـوح أنه كان مجرد دبلوماسي بابوي. ولما أن سقطت أسرة يوان المغولية (Yuan) ١٣٦٨، ذهب بسقوطها كل مـا كان للبعثات التبشيرية من فرص ضئيلة مضمحلة ذهابا لا رجعة له. وخلف بيت منج (Ming) بيـت يـوان، وكان بيت منج أسرة شديدة التمسك بالقومية الصينية، فأظهر في بادئ الأمر عظيم العـداوة للأجانـب كافـة. ولعلهم أحدثوا مذبحة أوقعوا فيها بالبعثات التبشيرية النصرانية. فإنا لا نعود نسمع بعد ذلك حتى العهد المتـأخر لأسرة منج (١٦٤٤) إلا النذر القليل عن المسيحية في الصين سواء منها الكاثوليكية أو النسطورية. ثـم بـذلت محاولة جديدة تكاد تكون أكثر توفيقًا من سابقتها. لنشر المسيحية الكاثوليكية في الصين قـام بهـا اليسـوعيون (الجزويت)، على أن هذه الموجة الثانية من البعثات التبشيرية وصلت إلى الصين بحرا.

حدث في (١٢٩٨) أن شبت معركة بحرية بين الجنويين والبنادقة، انهزم فيها الأخيـرون. وكـان بـين الأسرى السبعة الآلاف الذين أسرهم الجنويون سيد من البندقية اسمه ماركو بولو. كان رحالة كبيرا معروفًـا بين أصدقائه عموما بشدة الميل إلى المبالغة. وقد اشترك في تلك البعثة الأولى التي أرسلت إلى قوبلاي خان، غير أنه واصل السير على حين عاد الراهبان الدومينيكيان أدراجهما. وكان ماركو بولو هذا يقتل السأم وهو سجين في جنوة، بأن يقص قصة رحلاته على مسامع كاتب بعينه اسمه رستتشانو (Rusticano)، فدونها هذا الرجل. وما نحن بخائضين ها هنا تلك اللجة الكدرة المتعلقة بمدى ما في قصة رستتشانو من صدق المطابقة للواقع. ولسنا نعرف على وجه التحقيق بأي لغة كتبت. ولكن لا يتطرق أي شك إلى الصدق العام الذي يكتنف هذه القصة العجيبة، التي أقبل الناس عليها أيما إقبال في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ولا سيما كـل من أوتي الذكاء المتوقد من الرجال. وكتاب "رحلات ماركو بولو" من أعظم كتب التاريخ. فهو يفتح أمام عين خيالنا رتاج عالم القرن الثالث عشر – ذلك القرن الذي شهد حكم فردريك الثاني وبدايات محاكم التفتـيش – يفتحها بصورة لا يبلغها أي تدوين تاريخي سطره مؤرخ. فإنه أدى بصفة مباشرة إلى اكتشاف أمريكا.



(شكل ١٤٧) خريطة الولايات المغولية حوالي (١٢٨٠) م ورحلات ماركو بولو

يبدأ الكتاب بالحديث عن رحلة نقولو بولو والد ماركو وعمه مافيو بولو إلى الصين وكان هذان الـرجلان تاجرين من البنادقة من ذوي المكانة يعيشان في القسطنطينية، وحدث في زمن مـا يقـارب (١٢٦٠) أنهمـا رحلا إلى بلاد القرم ومنها إلى قازان، ومن ذلك المكان ارتحلا إلى بخارى، حيث صادفا جماعة من رسـل قوبلاي خان في الصين موفدين إلى أخيه هولاكو في فارس. وألح عليهما هؤلاء المنـدوبون أن يصـحباهم لمقابلة الخان العظيم، الذي لم ير قبل ذلك الزمان أي رجل من الشعوب اللاتينية. فواصلا سيرهما، وواضـح أنهما أحدثا وقعا حسنًا جدا لدى قوبلاي، وملأ صدره بالاهتمام بحضارة النصرانية. فحملهمـا الخـان تلـك الرغبة المتعلقة بطلب مائة من المعلمين والعلماء، "يكونون رجالاً أذكياء ملمين بالفنون السبعة وقـادرين أن يخوضوا حومات الجدل والنقاش، ويستطيعون أن يثبتوا بشكل بين لعبدة الأصنام، ومن إليهم من أقـوام، أن شريعة المسيح خير الشرائع"، وهو الأمر الذي أشرنا إليه من فورنا. على أنهما عندما عادا كانت المسـيحية في دور من الفوضى لم يستطيعا معه إلا بعد سنتين أن يحصلا على التفويض بالرحيل إلى الصين ثانية فـي صحبة هذين الراهبين الدومينيكيين الجبانين. وأخذا معهما ماركو الصغير، وإلى وجوده وإلى ما حل به مـن السأم فيما عقب ذلك من أسره في جنوة، يرجع الفضل في حفظ هذه الذكريات والخبرات الممتعة وبقائها لنا.

ارتحل أفراد أسرة بولو الثلاثة بطريق فلسطين وليس بطريق بلاد القرم، كفعلهم في الرحلة السابقة. وكانت معهم لوحة ذهبية وأمارات أخرى من الخان العظيم، لا بد أن وجودها سهل عليهم رحلتهم أيما تسهيل. وكان الخان العظيم قد سألهم أن يجلبوا معهم شيئًا من الزيت الذي يوقد في مصباح الناووس المقدس ببيت المقدس؛ ومن ثم ذهب الجماعة إلى هناك أولاً، ثم ساروا بطريق قيليقية إلى أرمينية. وقد أوغلوا شمالاً إلى هذا الحـد لأن سلطان مصر كان يغير في ذلك الزمان على الممتلكات الإيلخانية [1]. ومن أرمينية انحدروا فـي أرض الجزيرة حتى هرمز (Ormuz) على الخليج الفارسي، كأنما كانوا يفكرون في القيام برحلتهم بحرا. والتقـوا

---

[1] الإيلخانية: أسرة مغولية حكمت فارس بين السند والعراق وآسيا الصغرى في القرنين ١٣، ١٤م. (المترجم).

في هرمز بتجار من الهند. على أنهم لسبب ما لم يسافروا بالسفين، بل اتجهوا بدل ذلـك شـمالاً مختـرقين الصحارى الفارسية، ومن ثم بطريق بلْخ إلى قشغر من فوق البامير، ثم بطريـق قوطـان ولُـب نـور [1] (مترسمين بذلك خطى يوان تشوانج) حتى وادي نهر هوانج هو ومنه إلى بيكين. ويسمى بولو مدينة بيكـين باسم (كامبالوك)؛ كما يسمى الصين الشمالية باسم كاثاي (خيتان)، والصين الجنوبية صين أسرة منج السـابقة باسم "مانزي".

وكان الخان العظيم في بيكين، فأقيمت لهم وليمة تجلي فيها كرم الضيافة. وسر قوبلاي من ماركو خاصة، إذ إنه كان صغير السن ذكيا لبقًا، وواضح أنه أتقن اللسان التتري إتقانًا تاما. فأسند إلى منصب في الحكومـة وأرسل في مهام عديدة، وخاصة في الجنوب الغربي للصين. والقصة التي رواها تتحـدث عـن مسـاحات منبسطة فسيحة من الأرض البسامة البادية الرخاء "حيث توجد على طول الطريق دور الضيافة للمسـافرين"، "وكرمات الأعناب البديعة والحقول والبساتين المونقة" "وعن أديرة كثيرة"، "وعـن رهبـان بـوذيين، وعـن صناعات للقماش المصنوع من الحرير والذهب، وكثير من الديباج (التافتا) البديع، وعن مجموعة لا آخر لها من المدن والبلدان الكبيرة وهلم جرا"، فأثارت في أوربا لأول وهلة رنة من عدم التصديق، ثم مـا لبثـت أن ألهبت خيالها عن بكرة أبيها.

ثم إنه تحدث عن بورما، وعن جيوشها العظيمة الحاوية مئات من الفيلة، وكيف هزم ناشـبة [2] المغـول هاته الحيوانات، وكذلك حدثنا عن فتح المغول لبيجو (Pegu). وتحدث عن اليابان مبالغًا مبالغة عظيمة فـي كمية الذهب في ذلك القطر. وأدعى من هذا إلى العجب، حديثه عن المسيحيين وعن الحكام المسـيحيين فـي بلاد الصين، وعن شخص بعينه هو القسيس يوحنا (Prester John) الذي كان "ملكًا" على شعب نصـراني. فأما ذلك الشعب فإنه لم يره. والظاهر أنهم كانوا قبيلة من التتر النسطوريين يسكنون منغوليا. والـراجح أن عاطفة يمكن إدراكها وفهمها غلبت على رستتشانو فجعلته يبالغ في توكيد ما لا بد أنه لاح في عينيه أعظـم أعاجيب القصة جمعاء، ومن ثم أصبحت قصة بريستر جون (القسيس يوحنا) من أعظـم الأسـاطير إثـارة للأذهان أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وكان مما شجع روح الإقدام الأوربيـة تشـجيعا هـائلاً زعمهم أنه يوجد في الصين تلك البلاد السحيقة البعد، مجتمع من إخوانهم في الدين، مفروض أنهم مستعدون للترحيب بهم وبذل العون لهم وظل ماركو متوليا حكم مدينة يانج تشـو (Yang Chow) ثـلاث سـنوات، والراجح أنه لم يختلف كثيرا كأجنبي في نظر السكان الصينيين عن أي تتاري آخر. ولعله أوفد أيضا في بعثة إلى الهند. إذ تذكر السجلات الصينية اسم شخص معين هو بولو تصفه بأنه ملحق بالمجلس الإمبراطوري في (١٢٧٧)، وهو مصداق ثمين جدا يثبت صحة قصة بولو بوجه عام.

---

[1] لب نور (Lobnor) مجموعة من البحيرات الضحلة في صحراء تكلا مكان بالتركستان الشرقية. (المترجم).

[2] الناشبة رماة النشاب وهو النبل. (المترجم).

استغرقت رحلة آل بولو إلى الصين زهاء ثلاث سنوات ونصف. وظلوا هناك قرابة ستة عشر عاما. ثـم أخذ الحنين إلى الوطن يداخلهم. ذلك أنهم كانوا صنائع قوبلاي وموضع حمايته، ولعلهم أحسوا أن إيثاره إياهم بالرعاية ربما جر عليهم غيرة وخيمة العاقبة بعد مماته. فالتمسوا منه الإذن بالرحيل إلى بلادهم فأبى علـيهم ذلك ردحا من الزمان، ثم سنحت لهم بعد ذلك فرصة. ذلك أن أرجون ملك فارس الإيلخاني وحفيد هولاكـو شقيق قوبلاي، كان أرمل من زوجته المغولية، ووعدها وهي على فراش موتها ألا يتزوج إلا مغوليـة مـن نفس قبيلتها. فأرسل السفراء إلى بيكين واختيرت له هناك أميرة موائمة، وهي فتاة السابعة عشـرة. ولكـي يجنبوها عناء السفر بالقوافل، تقرر أن ترسل بطريق البحر مع الحاشية اللائقة. وطلـب النـبلاء المكلفـون بمرافقتها أن يستصحبوا معهم آل بولو لأنهم رحالة مجربون وحكماء حصيفون، واغتنم آل بولو هذه النهـزة التي تتيح لهم ركوب الطريق المتجه إلى وطنهم.

أقلعت البعثة من مرفأ ما في شرق الصين الجنوبية؛ وأطالت المقام في سومطرة وجنوب الهند، ووصـلوا إلى أرض فارس بعد رحلة دامت حولين. فسلموا الأميرة الشابة في سلام ا   إلى خليفـة أرجـون – لوفـاة أرجون قبل وصولهم – وتزوجت الأميرة ابنه. وعند ذاك سار آل بولو بطريق تبريز إلى طرابيـزون، ثـم أبحروا إلى القسطنطينية وعادوا إلى البندقية قرابة (١٢٩٥).

ويروى أن الرحالة العائدين وهم في ثيابهم التترية حيل بينهم وبين الدخول إلى منزلهم. وانقضى بعـض الزمان قبل أن يستطيعوا أن يثبتوا شخصيتهم. وكان الكثيرون ممن سلموا بأشخاصهم، لا يزالون يميلون إلى أن ينظروا إليهم شذرا بوصفهم جوالين حقراء، ولكي يبددوا عن أذهان الناس مثل تلك الشكوك أقاموا وليمـة عظيمة، وعندما كانت الوليمة قائمة على ساق أمروا فأحضرت لهم بدلاتهم القديمة ذات البطائن ثم صـرفوا الخدم، ثم شقوا تلك الثياب، وإذا بمجموعة لا يصـدقها عقـل مـن اليـاقوت العـادي واليـاقوت الأزرق (Sapphires) والعقيق الأحمر (البهرمان) والزمرد والماس"، تنهال أمام أعين الضيفَان المنبهرين. وحـدث حتى بعد هذا كله أن قوبلت بيانات ماركو عن حجم الصين وسكانها بشيء من السخرية الخفية. وأطلق عليه أهل النكتة اسم "المليوني (IL Millione)" لأنه كان دائم الكلام عن الملايين مـن النـاس والملايـين مـن الجنيهات الدوقية.

تلك هي القصة جعلت الناس يحملقون بعيونهم دهشا، في البندقية بادئ بدء ثم في أقطار العالم الغربي كافة بعد ذلك. ويردد الأدب الأوربي وخاصة قصص الرومانس الأوربي في القرن الخامس عشر، صدى الأسماء المذكورة في قصة ماركو بولو أمثال كاثاي وكامبالوك.

٤- الأتراك العثمانيون والقسطنطينية

لم تكن رحلات ماركو بولو هذه إلا مقدمة لاختلاط جسيم جدا بين الشعوب. ومع ذلك، فإنا قبل أن نواصل وصفنا للاتساع العظيم الذي ألم بآفاق أوربا الفكرية والذي أخذت تباشيره تبدو، والذي كان لكتاب رحلاته عليه فضل جوهري ملموس جدا، - نرى من المناسب أن نسجل هنا أولا نتيجة جانبية غريبة تمخضت عنها الفتوح المغولية العظيمة: تلك هي ظهور الأتراك العثمانيين على ضفاف الدردنيل، ثم نردف ذلك بأن نذكر في عبارة مجملة تقسيم إمبراطورية جنكيز خان إلى أجزائها العديدة وتطورات كل جزء منها.

كان الأتراك العثمانيون فئة صغيرة من اللاجئين فروا نحو الجنوب الغربي أمام غزوة جنكيز الأولى لبلاد التركستان الغربية. قطعوا ذلك الطريق المديد من آسيا الوسطى، مخترقين الفيافي والجبال ومارين بأقوام أجانب عنهم لعلهم يعثرون على أرض جديدة يستطيعون أن يستقروا فيها. يقول السير مارك سايكس: "ثلة صغيرة من رعاة أغراب يهيمون على وجوههم لا يردهم أحد، ماضين بين الحملة الصليبية من ناحية والصليبية المضادة من ناحية أخرى، وبين الإمارات والإمبراطوريات والدول. فأين كانوا يخيمون؟ وكيف كانوا يتحركون ويحافظون على قطعانهم ورعلانهم؟ وأين كانوا يجدون الكلأ؟ وكيف كانوا يحافظون على السلم مع الرؤساء المتنوعين الذين كانوا يخترقون أراضيهم؟ تلك أسئلة يجوز للإنسان أن يتساءلها متحيرا".

وأخيرا عثروا على مستقر لهم وعلى جيران من ذوي قرباهم وممن يشاكلونهم في الطبيعة والمشرب على هضاب آسيا الصغرى بين ظهراني الأتراك السلجوقيين. وكان غالب هذا القطر الذي هو بلاد الأناضول العصرية قد أصبح آنذاك تركيا لغة مسلما دينًا، فيما عدا وجود نسبة كبيرة من الروم واليهود والأرمنيين بين سكان المدن. ولا مرية في أن النبعات [1] المتنوعة الموروثة عن الحثيين والفريجيين والطرواديين والليديين والإغريق الأيونيين والسمريين والغلاطيين والإيطاليين (من أزمان برجامة) كانت لا تزال تسري في دماء الناس، بيد أنهم نسوا من أمد بعيد تلك العناصر السلفية القديمة. على أنهم كانوا في واقع الأمر نفس الخليط المكون من بيض البحر المتوسط الداكنين [2] القدماء، والآريين النورديين والساميين والمغول، وهو الخليط الذي كان عليه سكان شبه جزيرة البلقان، بيد أنهم كانوا يظنون أنفسهم شعبا طورانيا خالصا متفوقًا تفوقًا تاما على المسيحيين في الضفة المقابلة من البسفور.

وازداد الأتراك العثمانيون أهمية شيئًا فشيئًا، حتى آلت إليهم آخر الأمر السيادة على الإمارات الصغيرة التي تمزقت إليها الإمبراطورية السلجوقية أي إمبراطورية "الروم". وظلت علاقاتهم مع إمبراطورية القسطنطينية المتقلصة علاقات عداء يشوبها شيء من التسامح. فلم يقوموا بأي هجوم على البسفور، ولكنهم اتخذوا لأقدامهم في أوربا على الدردنيل موطئًا، فاستخدموا هذا الطريق – وهو طريق إجزرسيس وليس طريق دارا – ثم دأبوا يشقون طريقهم متوغلين في مقدونيا وإبيروس وإلليريا ويوغسلافيا وبلغاريا.

---

[1] النبعة: هي الأصل والنسل والعترة. (المترجم).

[2] الداكنين: وردت لفظة الأبيض الداكن في مواضع كثيرة بهذا الكتاب ومعناها الفني الأبيض الضارب إلى السمرة قليلا، الأسود الشعر والعينين. (المترجم).

ووجد الأتراك في الصربيين (اليوغوسلاف) والبلغار أقواما شديدي الشبه بهم في الثقافة، كما وجـدوهم فيمـا يرجح شديدي الشبه بهم في جنسهم المخاط عنصريا – وإن لم يدرك أي من الطرفين ذلك، مع فارق بسيط هو أن دماءهم كان يخالطها من نبعة البحر المتوسط الداكنة والنبعة المغولية قدر أقل مما لدى الترك كما يخالطها قـدر أكبر قليلاً من العنصر النوردي. بيد أن هؤلاء الشعوب البلقانية كانوا مسيحيين تفرق بينهم الانقسـامات تفريقًـا مريرا. وكان الترك على النقيض من ذلك يتكلمون بلسان واحد، وكان لديهم شعور أعظم بالوحدة وفيهم عـادات المسلمين من عدم تناول المسكرات والقصد في الطعام، كما كانوا في مجملهم جنودا أفضل. فأدخلوا فـي ديـنهم الإسلامي كل من استطاعوا إدخاله من أفراد الشعوب التي غزوا، ونزعوا سلاح المسـيحيين واختصـوهم دون غيرهم بدفع الضرائب. وما لبث الأمراء العثمانيون أن وطدوا شيئًا فشيئًا أركان إمبراطورية امتدت مـن جبـال طوروس شرقًا حتى حدود هنغاريا ورومانيا في الغرب. وأصبحت أدرنة كبرى مدائنهم. وأحاطوا من كل صوب بإمبراطورية القسطنطينية المتقلصة. ولم تكن القسطنطينية في ذلك الزمان هي حصن أوربا الـواقي ودعامتهـا، وإنما كانت الدعامة هي المجر؛ فقد استوطنها شعب تركي مسيحي دافع عن أوروبا ضد الأتراك المسلمين.

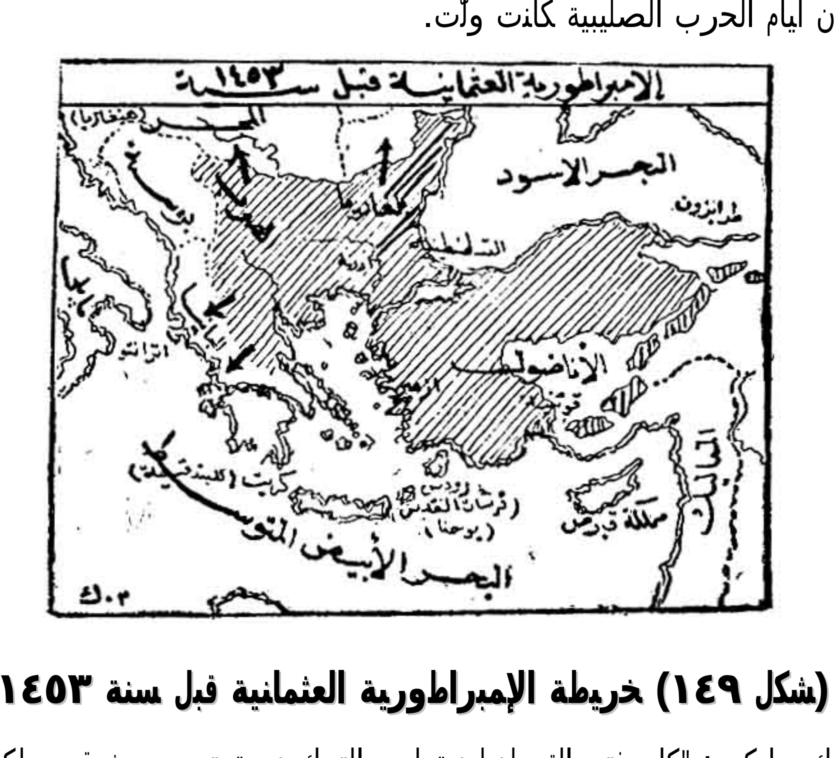
ونظم الأتراك قوة عسكرية مستديمة، هي الانكشارية (Janissaries) على أساس أشبه ما يكـون بسـلك المماليك الذين سيطروا على مصر.

"كانت هذه الجيوش تتكون من مجندة من الفتيان المسيحيين لا يرتفع عددهم عن ألف في كل عام، وكانوا يضمون إلى طائفة الدراويش البكتاشية، ومع أنهم كانوا في البداية لا يجبرون على اعتناق الإسـلام، فـإنهم كانوا بأجمعهم يصبغون صبغًا قويا بالفكرات الصوفية ومبادئ الأخوة التي تعتنقها الجماعة الدينية التي كانوا يلحقون بها. هؤلاء الانكشارية الذين كانوا يتقاضون أجورا عالية وينظمون تنظيما جيدا ويشـكلون جماعـة سرية متماسكة غيورة، أمدوا الدولة العثمانية الحديثة التكوين بقوة وطنية النزعة من الجنود المشاة المدربين، كانت تعد ثروة لا تقوم بمال في عصر سادت فيه الراكبة (الخيالة) الخفيفة وفرق المرتزقة المأجورة...

"وكانت العلاقات بين السلاطين العثمانيين والأباطرة فريدة في نوعها في تاريخ الدولة الإسلامية والمسيحية. فإن الترك قد أقحموا في المنازعات العائلية وخلافات الأسرة المالكة في المدينة الإمبراطوريـة، كمـا كانـت تربطهم بالعائلات الحاكمة وشائج رحم وقربى. وكثيرا ما كانوا يقدمون الجنود للدفاع عن القسطنطينية، وكانوا يستأجرون أحيانًا فريقًا من جنود حاميتها ليساعدوهم في حملاتهم المتنوعة، بل لقد بلغ الأمر أن رافـق أبنـاء الأباطرة ورجال السياسة البيزنطيون الجيوش التركية في ميادين القتال، ومع ذلك فإن العثمانيين لم يكفـوا قـط عن أن يلحقوا بممتلكاتهم الأراضي والمدن الإمبراطورية في كل من آسيا وتراقيا. وكان لهذا الاختلاط العجيب بين بيت آل عثمان والحكومة الإمبراطورية أثره العميق في كل من النظامين: فإن الروم ازدادوا ضـعة علـى ضعة وانحلالا خلقيا على انحلال بسبب التقلبات والحيل التي اضطرهم إلى اللجوء إلـيهم ضـعفهم العسـكري حيال جيرانهم، ودب الفساد إلى الترك مما حولهم من جو أجنبي مشبع بالمؤامرات والخيانات التي تسللت إلـى داخلية حياتهم. وكانت عاقبة ذلك أن قتل الأخ لأخيه والإبن لأبيه، وهما الجريمتان اللتان غالبا ما لطختا تـاريخ القصر الإمبراطوري، ما لبثتا أن صارتا جزءا من سياسة الأسرة المالكة العثمانية. فإن أحد أبناء مـراد الأول ينخرط في مؤامرة أندرونيكوس ابن الإمبراطور الرومي ليقتل كل منهما أباه.

"وكان البيزنطي يجد التفاوض مع الباشا العثماني أيسر من التفاوض مع البابا. وظل الترك والبيزنطيون أعواما طوالا يتزاوجون ويتآخون معا في تصيدهم في مياه التيارات الملتوية للدبلوماسية والمؤامرات. وكان العثمانيون قد حرشوا البلغار والصرب في أوربا بالإمبراطور، على نفس النسق الذي أثار به الإمبراطور الأمراء الآسيويين على السلطان، وكان الأمراء الملكيون (: أولياء العهد) من الأروام والأتراك يتعاهدون فيما بينهم على أن يحتفظ كل منهم بمنافسي الآخر أسرى ورهائن؛ والواقع أن السياسة التركية والبيزنطية بلغت من التشابك والالتفاف بعضها ببعض حدا يعسر علينا إزاءه أن نقول هل كان الترك يعدون الروم حلفاء لهم أو أعداء أو رعايا. وهل كان الروم ينظرون إلى الأتراك بوصفهم الطغاة المستبدين بهم أو المدمرين لهم أو الحماة [1]؟...".

وسقطت القسطنطينية آخر الأمر بيد المسلمين في ١٤٥٣ إبان حكم السلطان محمد الثاني. فإنه هاجمها من الجانب الأوربي، وبقوة عظيمة من المدفعية. فقتل الإمبراطور الرومي وعظم النهب وكثر الذبح، ونهبت كنوز الكنيسة العظيمة كنيسة القديسة صوفيا التي بناها جستنيان الكبير (٥٣٢)، وحولت على الفور إلى مسجد. فبعث هذا الحادث موجة هياج شديدة تردد صداها في كل أرجاء أوربا، وبذلت بعض الجهود لتنظيم حرب صليبية، ولكن أيام الحرب الصليبية كانت ولّت.



(شكل ١٤٩) خريطة الإمبراطورية العثمانية قبل سنة ١٤٥٣

يقول السير مارك سايكس: "كان فتح القسطنطينية لدى الترك نعمة توجت مفرقهم ولكنه كان إلى ذلك ضربة قاضية. فإن القسطنطينية كانت معلم الترك ومهذبهم. فطالما كان العثمانيون يستطيعون أن يستقوا العلوم والمعارف والفلسفة والفن والتسامح من نبع للمدنية جياش زاخر بالحياة في صميم ممتلكاتهم، لم تكن لهم (أعني العثمانيين) القوة الوحشية فحسب بل القوة الذهنية أيضا. وطالما كان للإمبراطورية العثمانية في القسطنطينية مرفأ حر، وسوق ومركز للمالية العالمية ومتجمع مركزي للذهب ومتبادل للتجارة (بورصة) لم

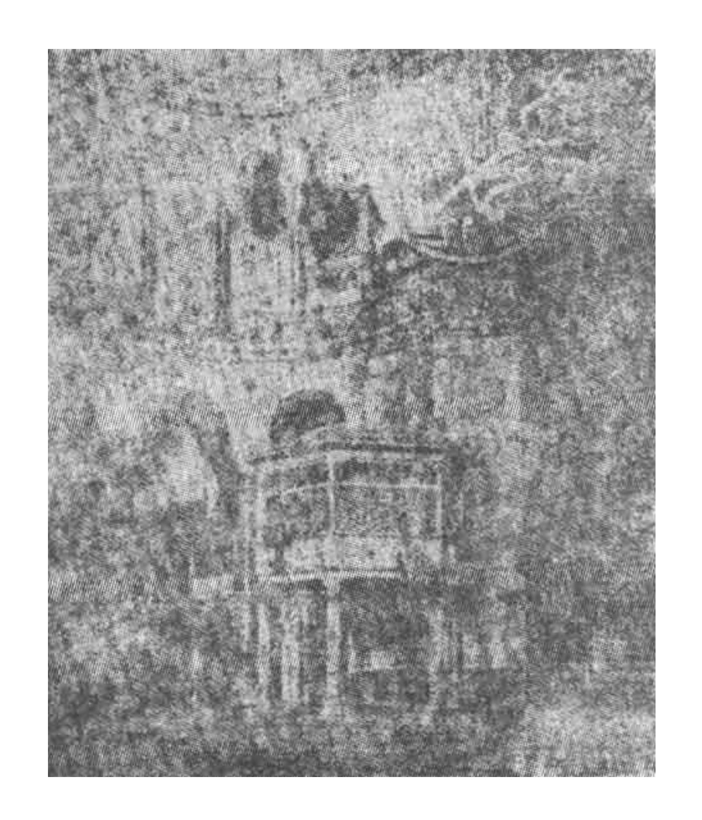
---

(١) Sir Mark Sykes, "The Caliphs' Last Heritage"

يعوز العثمانيين قط المال والعون المالي. وكان محمد الثاني من عظماء رجـال السياسـة. فمـا إن دخـل القسطنطينية حتى شرع يحاول إيقاف الأضرار التي سببتها مطامعه، فناصر البطريرك وأرضى الروم، وبذل كل ما في وسعه لتظل القسطنطينية كما كانت لعهد الأباطرة... ولكن الخطوة القاتلـة كانـت تمـت؛ فـإن القسطنطينية بوصفها مدينة السلاطين لم تعد هي القسطنطينية بأية حال، إذ ماتت الأسـواق وفـرت الثقافـة والمدنية وذوت المالية ذات العمليات المعقدة وتوارت عن الأبصار، وفقد الترك حكامهم وعضـدهم القـوي. ومن الناحية الأخرى استمرت مفاسد بيزنطة، فأما البيروقراطية والخصيان وحـراس القصـر والجواسـيس والرشاة والوسطاء، فإن العثمانيين اتخذوا هؤلاء جميعا لأنفسهم، وظل هؤلاء جميعا أقوياء زاخرين بالحيـاة. لقد أضاع الأتراك باستيلائهم على إسطنبول كنزا ثمينًا وأخذوا في مقابله وباء وبيلا...".

(شكل ١٥٠) خريطة الإمبراطورية العثمانية
عند وفاة سليمان القانوني سنة ١٥٦٦

وما كانت أطماع محمد علي لتقنع بفتح القسطنطينية. فإنه شخص ببصره كذلك إلى روما. فاستولى علـى مدينة أوترنتو الإيطالية ونهبها. وكان شبه الجزيرة منقسما على نفسه. والراجح أن ما أعده من عـدة قويـة لفتحها كان سيكلل بالنجاح، لولا أن وافته منيته في ١٤٨١. اشتبك أبناؤه من بعده بنزاع يقتل فيه الأخ أخاه.



(شكل ١٥١) داخل كنيسة سانت صوفيا
وقد غطت النقوش العربية الفسيفساء الأصلية

وفي عهد خلفه بايزيد الثاني (١٤٨١ – ١٥١٢) حملت رحى الحرب إلى بولندة، وفتحت معظم بلاد اليونان. فأما سليم (١٥١٢ – ١٥٢٠) ابن بايزيد، فإنه وسع الدولة العثمانية بضم أرمينية وفتح مصر. وكان آخر الخلفاء العباسيين يعيش في مصر في رعاية سلطان المماليك، ذلك أن الخلافة الفاطمية كانت شيئًا أصبح في ذمة التاريخ. فاشترى سليم لقب الخلافة من هذا العباسي الأخير المنتكس، واستولى على الراية المقدسة وغيرها من المخلفات النبوية. وبذا أصبح السلطان العثماني أيضا خليفة الإسلام كله. وخلف سليما ابنه سليمان القانوني (١٥٢٠ – ١٥٦٦)، الذي فتح في الشرق بغداد وفتح في الغرب معظم بلاد المجر، وكاد أن يستولي على فيينا، وكانت المجرد قد صمدت أمام السلاطين ثلاثة قرون كاملة، ولكن الكارثة التي أحاقت بهم في موهاكس (١٥٢٦) وقتل فيها ملك المجر، ألقت بتلك البلاد صريعة تحت قدمي فاتحها. كذلك استولت عماراته البحرية على بلاد الجزائر، وأوقعت بالبنادقة هزائم كثيرة. وكان في أثناء معظم حروبه مع الإمبراطورية متحالفًا مع الفرنسيين. وبلغت الدولة العثمانية في عهده أوج عظمتها.

٥- لماذا لم يعتنق المغول المسيحية

لننظر الآن نظرة موجزة عجلى إلى التطورات التي ألمت بعد ذلك بالأجزاء الكبرى لإمبراطورية الخان الأعظم. ولم تفلح المسيحية قط في الاستيلاء على أخيلة هاته الدول المغولية لأن المسيحية كانت في دور إفلاس خلقي وذهني، لا يجمع أشتاتها البتة أي رابط من إيمان أو همة أو شرف، وقد سبق أن أخبرناك حديث هذين الراهبين الدومينكيين التعسين الرعديدين اللذين بعث بهما البابا جوابا على طلب قوبلاي خان، كما لاحظنا الإخفاق العام الذي ظل يصيب البعثات التي أرسلت برا في أثناء القرنين الثالث عشر والرابع عشر. فإن تلك الروح الرسولية الحارة التي كانت تستطيع أن تضم إلى ملكوت السموات شعوبا بأكملها قد ولت من الكنيسة.

وفي (١٣٠٥) – كما سبق أن ذكرنا – أصبح البابا وهو الحبر الأعظم رهينة في قبضة الملك الفرنسي. فكأن كل ما لجأ إليه البابوات من مختاتلات وما دبروا من سياسة في القرن الثالث عشر لاستبعاد الإمبراطور من إيطاليا؛ لم تتمخض إلا عن إحلال ملك فرنسا محله. واستمر البابوات في أفنيون من (١٣٠٩) إلى (١٣٧٧)، وعندئذ لم يكن الجهد الضئيل الذي بذلوه في إرسال البعوث التبشيرية، إلا مجرد جزء من الخطط الاستراتيجية التي رسمتها السياسة الأوربية الغربية. وفي (١٣٧٧) استطاع البابا جريجوري الحادي عشر أن يعود فعلا إلى روما وأن يبقى بها حتى آخر حياته، ولكن الكرادلة الفرنسيين انشقوا عن إخوانهم عند انتخاب خلفه، وكانت نتيجة ذلك أن انتخب اثنان من البابوات، أحدهما في أفنيون والثاني في روما. واستدام هذا الانقسام المسمى بالصدع العظيم [١] من (١٣٧٨) إلى (١٣١٨). وكان كل بابا يلعن الآخر ويضع الحرمان على كل أنصاره. تلك هي حال المسيحية يومئذ.. وهؤلاء هم حملة تعاليم يسوع الناصري!! كانت آسيا كلها ناضجة دانية القطوف ولكن يدا لم تمتد إليها لتجني ثمارها.

حتى إذا عادت إلى الكنيسة وحدتها آخر الأمر وتجددت فيها طاقتها على إرسال البعثات الدينية بإنشاء جماعة الجزويت، كان أوان النهزة قد فات. وولى معه كذلك كل احتمال لتوحيد الشرق والغرب بوساطة المسيحية. فتحول المغول في الصين وآسيا الوسطى صوب البوذية، واعتنقوا الإسلام في جنوب الروسيا والتركستان الغربية والإمبراطورية الإيلخانية.

---

[١] الصدع العظيم أو الانشقاق العظيم Great Schism. (المترجم)

٦- أسرتا يوان ومنج في الصين

كان المغول في الصين متشبعين آنئًا بالحضارة الصينية يوم اعتلى قوبلاي عرشه. فبعد (١٢٨٠) تعالج كتب التاريخ الصينية "قوبلاي" بوصفه عاهلاً صينيا، ومؤسسا لأسرة يوان (١٢٨٠ – ١٣٦٨). ثم شبت حركة قومية صينية خلعت هذه الأسرة المغولية آخر الأمر وأقامت أسرة منج (١٣٦٨ – ١٦٤٤)، وهي سلالة من أباطرة مثقفين ذوي نزعة فنية، حكموا البلاد حتى فتحها شعب شمالي، هو شعب المانشو – وهم نفس شعب الكن الذين هزمهم جنكيز – وأسسوا أسرة مالكة لم تتخل عن السلطان إلا لحكومة أهلية جمهورية في ١٩١٢.

وأسرة المانشو هي التي أجبرت الصينيين على إرخاء ضفائر المانشو إشارة إلى الخضوع. وعلى ذلك يكون الصيني ذو الضفيرة شخصا حديثًا تمام الحداثة في التاريخ. ثم لم تعد الضفائر إجبارية منذ عهد الجمهورية، كما أنها اليوم مجهولة معدومة أو تكاد.

إن هذه التغيرات السياسية التي حدثت بالشرق الأقصى والتي نرى لزاما علينا أن نلحظها بمثل هذا الإيجاز ها هنا سارت في طريقها فوق سطح حياة تمدن زاخرة بالوفرة. وكان من دأب الفن الصيني على الدوام أن يختار أوساطًا (Media) هشة قابلة للفناء، ولذا فليس في حوزتنا من المادة التي تشهد بالتقدم الفني الذي كان في زمن أسرتي صنج ويوان، ثروة ضخمة مثل تلك الباقية عن فن أوربا المعاصرة لهما الذي كان أدنى في التطور كعبا. ولكن القدر الذي في أيدينا كاف لإقناعنا بالصفة الفنية الممتازة لذلك العصر. ومع أن أسرة صنج تسجل عصر تراجع سياسي حدث نتيجة لضغط قوى الخيتان والكن والهسيا، فإنها لفترة نشاط فني عظيم. والناس يتحدثون بأن فن التصوير الصيني وصل إلى أعلى مستوياته في عهد أسرة صنج الجنوبية. كتب المستر لورنس بنيون يقول: "إنها لفاخرة في الفنون فاخرة في الفلسفة، تلك المدة التي تقف من آسيا في التاريخ موقف عصر بريكليس من أوربا.. ففي هيامٍ كِلِفٍ بالطبيعة لا يضارعه قط في أوربا أي كاف حتى أيام وردس ورث [1]، صور فنانو أسرة صنج جذلهم بالجبال والضباب والسيول الغامرة وطيران الإوز البري عن أحراش القصب، وأحلام الحكماء سابحين في نجواهم تحت ضياء القمر في الغابات وصائد السمك جالسا في زورقه على أمواه البحيرة أو الجدول".

وظل دافع أسرة صنج في التصوير مستمرا بلا انقطاع ولا تغيير جوهري حتى نهاية أسرة يوان، حتى إذا ابتدأ حكم أسرة منج ظهر معه قدر معين من الضعف والتنميق. ونحن إنما نصل بظهور أسرة منج إلى فترة خلّفت لنا آثارا وفيرة. إذ يتبقى عنها كثير من الحفر على الخشب والعاج، وسلاطين حفر في الكهرباء الأسود حجر اليشم) والبلور الصخري وعدد وفير من مصنوعات البرونز الممتازة. وإن الشوارع المحفوفة بالتماثيل الحجرية الهائلة والمؤدية إلى قبور أسرة منج، لمعروفة ذائعة الصيت وإن لم تمثل بأي حال خير النحائت الصينية. وما لبث فن الحفر الصيني أن غزته على التدريج نوبة من المبالغة في التنميق حتى اختنق آخر الأمر تحت وابل من الأفاعين [2] والأزاهير والأشكال الرمزية.

---

[1] وليم وردس ورث (Words worth): (١٧٧٠٩ – ١٨٥٠) شاعر إنجليزي عشق الطبيعة حتى بلغ هيامه بها حد العبادة. (المترجم)

[2] الأفاعين جمع أفعوان. (المترجم)

يقول وليم برتون: "ومع أن خزفًا ممتازا جديرا باسم البورسلان، كان يصنع في زمن يرجع في تقدمه إلى عصر أسرة تانج. فإن أقدم ما لدينا من خزف البورسلان الصيني يرجع إلى عهد أسرة صنج". وقـد شـرع البورسلان أن يتخذ طريقه غربا مع الحرير، ويسجل التاريخ أن صلاح الدين أرسل هدية من أربعين قطعـة منه إلى سلطان دمشق. وبمجيء أسرة منج تلقت صناعة الخزف دافعا منبها هـو الرعايـة الإمبراطوريـة المباشرة وتطورت في نشاط ونجاح خارقين للمعتاد. وأخذ الصناع في استخدام الحليات المصبغة. وكـان أن وصل الصينيون في القرن الخامس عشر إلى أبدع أنواع البورسلان الأزرق والأبيض. وثمـة البورسـلان البديع بداعة لا تصدق، وهو البورسلان المخرم، والبورسلان الرائع ذو اللون الأحمـر المغطـى بالصـقال (under glaze red) وهما من بين مفاخر هذا العصر، الذي هو العصر الذهبي للخزف الصيني.

٧- المغول يرتدون إلى الروح القبلية

حدث في هضبة البامير، وفي قسم كبير من التركستان الشرقية والغربية، وإلى الشمال من ذلك، أن المغول انحدروا ثانية إلى حال البداوة القبلية التي رفعهم عنها جنكيز. ومن اليسير علينا أن نتعقب إلى ما يكاد يداني زماننا هذا تضاؤل شأن كثير من الخانات الصغار أثناء تعاقبهم على الملك، منذ استقلوا في غضون تلك الفترة، وأسس القلموق إمبراطورية ضخمة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ولكن المنازعات بين أفراد الأسرة المالكة حطمت تلك الإمبراطورية قبل أن تتجاوز رقعتها آسيا الصغرى. واسترد الصينيون منهم التركستان الشرقية قرابة (١٧٥٧).

وزادت التبت ارتباطًا بالصين، وأصبحت المثابة العظيمة للعقيدة البوذية والرهبانية البوذية. ولا يزال التمييز القديم بين الرحل والمستقرين مستمرا إلى اليوم في معظم آسيا الوسطى الغربية وفارس وأرض الجزيرة، فإن سكان المدن يستاون على المترحلين ويغشّونهم، كما أن الرحل يسيئون إلى أهل الحضر ويحتقرونهم.

٨- إمبراطورية القبجاق

وقيصر موسكوفيا (الروسيا)

ظل مغول مملكة القبجاق العظيمة رحلا يرعون ماشيتهم عبر السهول الفسيحة في جنوبي الروسيا وغرب آسيا الغربية المتاخم للروسيا. وأصبحوا مسلمين غير تامي الإخلاص للإسلام محتفظين ببقايا كثيرة لشامانيتهم الهمجية القديمة. وكان خان "الحشد الذهبي" هو الخان الأعظم بينهم. وإلى الغرب وفوق أجزاء عظيمة من الأرض البراح، وعلى الأخص فيما يعرف الآن باسم أوكرانيا، ارتد السكان القدامى الإسكيذيون، وهم من الصقالبة الذين يخالطهم شيء من الدم المغولي، إلى حياة ترحل مشابهة لهذه. فهؤلاء الرحل المسيحيون، أي هؤلاء القوزاق، كونوا على الحدود ضد التتر ضربا من الستار الواقي وبلغ من جاذبية حياتهم الحرة الطليقة المليئة بالمخاطرة واستهوائها لأفئدة فلاحي بولندة وليتوانيا، أن اضطرت الحكومات إلى إصدار القوانين الصارمة لمنع حدوث هجرة واسعة النطاق من أرض المحراث إلى أرض السهوب. ولهذا السبب صار ملاك الأراضي أصحاب موالي الأرض (Serfs) في بولندة ينظرون إلى القوزاق بعين ملؤها العداوة والحقد، وكثرت الحروب بين الفروسية البولندية والقوزاق، كثرتها بين هؤلاء الأخيرين وبين التتر.

وبينما كان الرحل في إمبراطورية القبجاق كما بلاد التركستان إلى ما يكاد يداني العصر الحاضر، يضربون في الأرض فوق متسعات فسيحة، كان هناك عدد من المدن والأقاليم الزراعية التي يعيش عليها سكان مستقرون ويدفعون في العادة الجزية لخان المترحلين. ففي مدن من أمثال كييف وموسكو وما إليهما كانت حياة السكان المسيحيين المدنيين الموجودة قبل المغول لا تزال مستمرة تحت حكم دوقات من الروس أو ولاة من التتار، ممن كانوا يجمعون الجزية لخان "الحشد الذهبي". واكتسب غراندوق موسكو ثقة الخان، وارتفع شأنه شيئًا فشيئًا تحت سلطان الخان حتى ساد كثيرا من زملائه الأتباع. وفي القرن الخامس عشر نبذت موسكو تحت حكم غراندوقها إيفان الثالث وهو إيفان الكبير (١٤٦٢ – ١٥٠٥) ولاءها للمغول وأبت أن تدفع الجزية بعد ذلك (١٤٨٠). ولم يعد خلفاء قسطنطين يحكمون في القسطنطينية في ذلك الزمان، فاستولى إيفان على النسر البيزنطي ذي الرأسين واتخذه شارة له. وادعى أنه وارث بيزنطة بسبب زواجه (١٤٧٢) من الأميرة زوية باليولوجوس (Zoe Palaeologus) وهي من السلالة الإمبراطورية. وهاجمت هذه الغراندوقية المسكوفية الطموحة جمهورية أهل الشمال التجارية بنوفجورود إلى الشمال منها وأخضعتها، وبذا أرسيت أسس الإمبراطورية الروسية العصرية، وأنشئت حلقة اتصال تربطها بالحياة التجارية في بحر البلطيق. على أن إيفان الثالث لم يدفع ادعاءه بوراثة حكام القسطنطينية المسيحيين إلى حد اتخاذ اللقب الإمبراطوري بل خطا هذه الخطوة من بعده حفيده، إيفان الرابع (وهو إيفان الملقب بالرهيب لقساوته الجنونية) (١٥٣٣ – ١٥٨٤). ومع أن حاكم موسكو وصل بذلك إلى التلقب بلقب القيصر (Tsar)، فإن تقاليده كانت في كثير من الأوجه تتارية أكثر منها أوربية. كان مستبدا على النسق الآسيوي المطلق السلطان، وكانت المسيحية التي اتخذها هي الشرقية الأرثوذكسية التي يسيطر عليها البلاط، والتي وصلت إلى الروسيا قبل الفتح المغولي بزمن مديد على يد مبشرين من البلغار جاءوا من القسطنطينية.

وإلى الغرب من ممتلكات القبجاق خارج مجال الحكم المغولي قام في بولندة مركز ثان لتماسك الصـقالبة أثناء القرنين العاشر والحادي عشر. أجل اكتسحت الموجة المغولية بولندة، ولكنها لم تخضعها قط. ولم تكـن بولندة أرثوذكسية بل كانت عقيدتها هي الكاثوليكية، وكانت تستعمل أحرف الهجاء اللاتينية بـدل الأحـرف الروسية الغريبة، ولم يتخذ عاهلها قط سمة الاستقلال المطلق عن الإمبراطور. والواقع أن بولندة كانت مـن حيث أصولها قسما أماميا ناتئًا من عالم المسيحية ومن الإمبراطورية الرومانية المقدسة. ولم تكن الروسيا في أي يوم من الأيام شيئًا من هذا القبيل.

٩- تيمورلنك

ربما كانت طبيعة وتطور إمبراطورية أسرة إيلخان في فارس وأرض الجزيرة وسوريا وما ألم بتلك الإمبراطورية من تطورات، أشوق قصص هذه الدول المغولية كافة، لأن نظام الترحل في هذه المنطقة حاول بالفعل – ووفق في الحقيقة أيما توفيق – أن يقضي قضاء مبرما على نظام ممدن مستقر. فعندما غزا جنكيز خان الصين في بداية الأمر، حدثت – كما يخبروننا – مناقشة خطيرة بين الرؤساء المغول حول ضرورة أو عدم ضرورة تدمير كل المدن وإبادة السكان المستقرين. فإن هؤلاء البسطاء الممارسين لحياة الهواء الطلق، كانوا يرون أن السكان المستقرين فاسدون متزاحمون تنتشر بينهم الرذيلة ويغلبهم التخنث وأنهم خطرون لا يمكن فهمهم، وأنهم طفح جلدي إنساني جدير بالزراية يعيش على سطح بلاد لولا وجودهم لكانت أرض رعي طيبة. فأما المدن فلم يكن من ورائها أي نفع لهم. ويلوح أن قدامى الفرنجة والأنجلو سكسون غزاة جنوبي بريطانيا، كان يجول بخاطرهم نفس الشعور حيال سكان المدن. ولكن تلك الفكرات لم تتجسد في صورة سياسة متعمدة إلا تحت ظل هولاكو في أرض الجزيرة. فإن المغول ها هنا لم يقتصروا على إعمال النار والسيف إحراقًا وتذبيحا، بل دمروا نظام الري الذي استدام ما لا يقل عن ثمانية آلاف سنة، وبذلك قضى على المدنية الأم التي ولدت المدنيات الغربية جميعا. ولقد ظلت هذه الأقاليم الخصبة منذ أيام الملوك الكهنة في سومر تزرع زراعة مستمرة لا تنقطع، وتواصل تجميع التقاليد، وحشد عدد عظيم من السكان وإنشاء مجموعة متعاقبة من المدن النشيطة العاملة: - منها إريدو ونيبور وبابل ونينوي وطيشفون (المدائن) وبغداد، والآن زال الخصب، وأصبحت أرض الجزيرة أرض خرائب موحشة وقفار خاوية، تحوي فيها مياه عظيمة بددا، أو تفيض على ضفافها مكونة بركًا تمرح فيها الملاريا. ثم حدث فيما بعد ذلك من الزمان أن انتعشت بغداد والموصل انتعاشًا ضعيفًا وصارتا مدينتين من الدرجة الثانية....



(شكل ١٥٢) خريطة إمبراطورية تيمورلنك

ولولا هزيمة قطبغا قائد هولاكو ومقتله في فلسطين (١٢٦٠) لحل بمصر نفس المصير. ولكن مصر كانت عند ذاك سلطنة تركية، تسودها هيئة عسكرية هي المماليك كان يؤخذ أفرادها (شـأن مقاـديها الإنكشـارية بالدولة العثمانية)، وتجدد قوتها، بمشترى الغلمان الأرقاء وتدريبهم. فإن كان السلطان مقتدرا ذا كفاية أطاعه هذا النوع من الرجال، وإذا كان ضعيفًا أو شريرا عزلوه واستبدلوا به غيره. وظلت مصر تحت حكمهم دولة مستقلة حتى (١٥١٧)، عندما آلت إلى الأتراك العثمانيين.

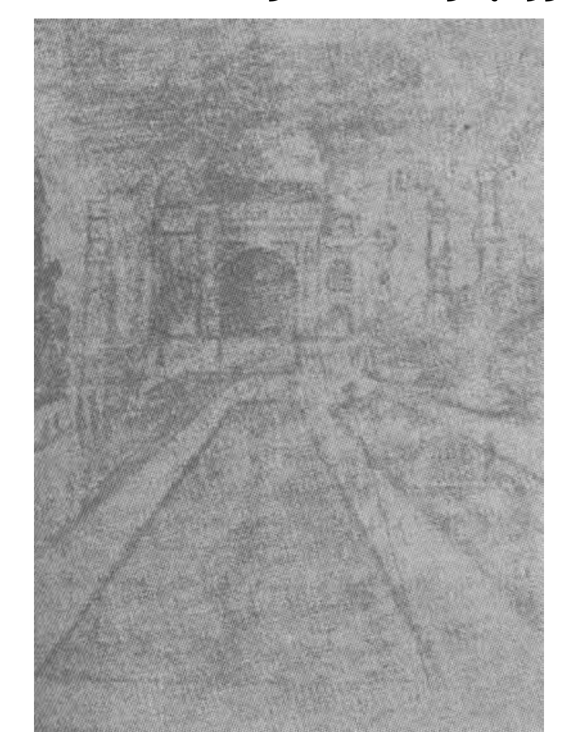
وسرعان ما ضعفت القوة المدمرة الأولى لدى مغول هولاكو، ولكن قامت للمترحلين في القرن الخـامس عشر نهضة أخيرة أشبه ما تكون بعاصفة هوجاء انبعثت في التركستان الغربية تحت قيادة تيمور الأعرج أو تيمورلنك. كان نسبه من الناحية النسائية (أمه) يتصل بجنكيز خان. فجعل قصبة ملكه فـي سـمرقند، ومـد سلطانه على القبجاق (التركستان حتى جنوب الروسيا) وعلى سيبريا وبسطه جنوبا حتى حوض نهر السـند. واتخذ لنفسه لقب الخان الأعظم في (١٣٦٩). كان مترحلا يمت إلـى المدرسـة الوحشـية بسـبب. فأنشـأ إمبراطورية تقوم على الخراب من شمال الهند إلى سوريا. وكانت أشهى تسلية معمارية لديه إقامة أهرامـات من الجماجم، فبعد أن فتح أصفهان أقام على هذه الشاكلة هرما مكونًا من سبعين ألف جمجمة.

وكان يطمع في أن يستعيد إمبراطورية جنكيز خان كما يتصورها هو، وهو مشروع فشل فيه فشلاً تامـا. على أنه بث الخراب والدمار في طول البلاد وعرضها، وأدى إليه الجزية الأتراك العثمانيون – وكان ذلـك قبل فتح القسطنطينية وقبل أيامهم العظيمة – كما أدتها إليه مصر، ثم أعمل في البنجاب تخريبا وعاث فيهـا فسادا، واستسلمت له دلهي. وبعد أن سلّمت المدينة أعمل السيف في أهاليها قتلا وتذبيحا رهيبا. وعندما حانت وفاته (١٤٠٥) لم يبق له إلا القليل مما يشهد له بالقوة اللهم إلا اسم يقترن بالرعب وإلا الخرائب والأقطـار الموحشة المقفرة ومملكة متقلصة الظلال قد عضها الأمحال والعوز في بلاد فارس.

وبعد خمسين سنة قضى فوج آخر من المترحلين التركمان على الأسرة المالكة التي أسسها تيمور الأعرج في فارس.

١٠- إمبراطورية الهند المغولية

وفي (١٥٠٥) اضطر رئيس تركماني صغير، اسمه بابر وهو سليل تيمور وبالتبعية جنكيز أيضا، أن يفر عابرا جبال الهندوكوش إلى بلاد الأفغان مع ثلة من الأتباع بعد بضع سنين قضاها في حرب ناله فيها بعض النجاح الموقوت – إذ وقعت في قبضته سمرقند ردحا من الزمان، وهناك تزايد أنصاره، ونصب نفسه سيدا على كابول. فحشد جيشًا وأكثر من جمع المدافع، ثم ادعى لنفسه ملك البنجاب، لأن تيمور كان غزاها قبل ذلك بمائة وسبعة من السنين. وتقدم ظافرا إلى ما وراء البنجاب. وكانت الهند في حالة انقسام وهي مستعدة تمام الاستعداد للترحيب بأي فاتح يعدها السلام والنظام. والتقى بابر بعد تقلبات عديدة في حظه بسلطان دلهي قرب بابيبات (١٥٢٥) على مبعدة عشرة أميال شمالي المدينة، فانتصر نصرا كاملاً مبينًا مع أنه لم يكن معه سوى خمسة وعشرين ألف رجل ولكنهم مع ذلك مزودون بالمدافع مقابل ألف فيل عند أعدائه وعدد من الرجال يضارع أربعة أمثال عدده، والأعداد – لهذه المناسبة – كانت من تقديره هو. فكفّ عن تلقيب نفسه بملك كابول، واتخذ لقب إمبراطور الهندوستان. كتب يقول:



(شكل ١٥٣) تاج محل بآجرا

إن تاج محل المثوى الأخير لشاه جيهان وزوجته المحبوبة يعترف الناس جميعا بأنه أكثر أبنية العالم استيفاء للكمال. وهو مبني من الرخام الأبيض، ويقال إن عشرين ألفًا من الرجال ظلوا يعملون فيه بلا انقطاع سبعة عشر عاما.

"إن هذا العالم يختلف اختلافًا بينًا عن بلادنا"، إذ إنه وجده عالما أجمل وأخصب وأغنى غنى مطلقًا. ثم واصل الفتح حتى البنغال، ولكن وفاته قبل الأوان (١٥٣٠) أوقفت موجة الفتح المغولي زهاء ربع قرن، ولم يأخذ مد الفتوح يفيض من جديد إلا عند تولي حفيده "أكبر" العرش. وأخضع أكبر كل بلاد الهند حتى بيرار، وأصبح ابن حفيده أورانغزيب (١٦٥٨ – ١٧٠٧) سيدا لشبه الجزيرة الهندية بأكملها تقريبا. فهذه الأسرة العظيمة، المكونة من بابر (١٥٢٦ – ١٥٣٠) وهومايون (١٥٣٠ – ١٥٥٦) وأكبر (١٥٥٦ – ١٦٠٥) وجيهان جير (١٦٠٥ – ١٦٢٧) وشاه جيهان (١٦٢٨ – ١٦٥٨) و "أورانغزيب" (١٦٥٨ – ١٧٠٧)، التي ظل فيها الابن يخلف أباه أمد ستة أجيال متعاقبات، هذه الأسرة المغولية تسجل أزهى عصر بزغ فجره على الهند حتى ذلك الحين. وكان "أكبر" – ولعله الملك الوحيد الجدير بأن يردف بأسوكا – من أعظم عياهل الهند، وأحد القليلين من الشخصيات الملكية الذين يرتفعون إلى قريب من مرتبة العظماء بين الرجال.

ويجب أن نولي "أكبر" نفس الاهتمام الخاص الذي أظهرناه نحو شرلمان أو قسطنطين الكبير. فإنه أحد الأقطاب التي يدور حولها التاريخ. ولا يزال الشيء الكثير من عمله في سبيل توثيق الترابط وتوطيد النظام في الهند باقيا إلى يومنا هذا. إذ تناوله البريطانيون وواصلوا العمل به عندما صارت إليهم وراثة ملك الأباطرة المغول. والواقع أن العاهل البريطاني كان يتخذ لنفسه لقبا هنديا هو لقب الأباطرة المغول، وهو لقب "قيصر الهند " (Kaisar – I – Hind) ولقد تبددت جميع النظم الإدارية الكبرى التي أقامها حفدة جنكيز خان في الروسيا وفي أرجاء آسيا الوسطى والغربية كافة وفي بلاد الصين، حيث بادت منذ زمن بعيد وحلت محلها أشكال حكومية أخرى. والحق أن حكوماتهم لم تزد كثيرا عن كونها حكومات تفرض الضرائب، وأنها نظام لجمع الإيرادات لتكون طعمة لمؤسسة الحاكم المركزية، شأن "الحشد الذهبي" في جنوب الروسيا، أو المدينة الإمبراطورية بقره قورم أو بيكين. فأما حياة الشعب وفكراته فشيء كانوا يهملونه ويدعونه جانبا، فلا يعنون بطريقة معيشته ما دام يدفع. فليس عجيبا إذن أن يحدث بعد خضوع دام قرونًا طويلة، أن يعود كل جزء من أجزاء إمبراطوريتهم إلى سابق عهده، فتقوم من جديد موسكو وكييف مسيحيتان وتبعث فارس شيعية وصين تامة الصبغة الصينية بعد أن زال عنهن كابوس المغول وانجلت غمرتهم. بيد أن "أكبر" أقام صرح هند جديدة. ومنح أمراء الهند وطبقاتها الحاكمة بادرات أو على الأقل تلميحات تشير ولو من بعيد، إلى أن هناك مصلحة مشتركة تجمعهم. فلئن أصبحت الهند اليوم مكونة من شيء أفضل ولو قليلاً من مجموعة متنافرة غير مترابطة من الدولات والأجناس أشبه ما تكون بكيس ممتلئ بالخرق البالية، وأمنع من أن تكون فريسة لكل مغير عرضي من الشمال، فإن أعظم الفضل ذلك يرجع إليه.

وكانت سمته المميزة هي انفتاح ذهنه. فإنه نصب نفسه لجعل جميع أنواع الرجال المقتدرين في الهند، مهما يكن جنسهم أو دينهم، صالحين لأداء الخدمة العامة للحياة الهندية. وكان يتصف بسجية رجل الدولة الحق من حيث قدرته على جمع الشمل والتأليف بين مختلف العناصر. وما كان يرضى لدولته أن تكون إمبراطورية مسلمة ولا مغولية، وما كان يرضى لها أن تكون راجبوتية ولا آرية، ولا درافيدية ولا هندوسية ولا منتسبة إلى الطائفة العليا أو الطائفة الدنيا، بل كان يريدها "هندية". "وأتيحت له أثناء سني تدريبه فرص كثيرة أدرك فيها الصفات الطيبة والوفاء والإخلاص – وفي كثير من الأحيان – نبل النفس التي يتصف بها

أولئك الأمراء الهندوك، الذين كان رجال حاشيته المسلمون يرون في قرارة أذهانهم أن مصيرهم هو العذاب الأبدي لأنهم من أتباع براهما. ثم إنه لحظ أن هؤلاء الرجال والرجال الذين يفكرون على شاكلتهم ويؤمنـون بعقيدتهم، كانوا هم الأغلبية الساحقة من رعاياه. ولحظ فضلاً عن ذلك أن الكثير مـنهم – وكـانوا أشـدهم اكتسابا لثقته – ظلوا مستمسكين بدينهم الخاص، وإن تجلى أمامهم ما يعود عليهم من المغانم الدنيوية إن هـم اعتنقوا دين البلاط. من أجل ذلك كان ذهنه المتفتح، يرفض منذ البداية قبول النظرية القائلة بأن الإسلام يجب أن يعتنقه الناس جميعا لمجرد الصدفة التي جعلته وهو الحاكم والفاتح ولد مسلما يؤمن بمحمد. وأخذت أفكاره تتبلور شيئًا فشيئًا في هذه الكلمات: "متى كان لي أن أدعي إرشاد الناس قبل أن أجد من يرشدني؟". ثـم إنـه كلما أصغى إلى التعاليم الدينية الأخرى وإلى العقائد الأخرى، توفر في نفسه ما كان يجول بها مـن شـكوك شريفة، وإذ ظل يلحظ في كل يوم ذلك الضيق المرير الذي عليه روح التشيع الطائفي، مهما يكن شكل الديانة الذي ينتسب إليه، تزايد تعلقه بمبدأ التسامح مع الجميع".

يقول الدكتور إميل شميت: "كان ابنًا لإمبراطور مخلوع وقد ولد في الصحراء، وتربى في حبس اسـمي؛ فعرف الناحية المريرة من الحياة منذ شبابه فما تلاه من سنين، وحباه الحظ بجسم قوي، دربه علـى احتمـال أبعد غايات الإجهاد. فكان التدريب الجسمي لديه غراما وكلفًا؛ وكان مولعا بـالطراد، وبخاصـة بالانفعـال العنيف المصاحب لصيد الحصان الوحشي أو الفيل أو ذبح النمر الخطر. وقد حدث ذات مرة عندما كان مـن الضروري إقناع راجاجودهبور بالتخلي عن اتجاهه إلى إجبار أرملة ابنه المتوفى أن تعتلـي كومـة النـار الجنازية، أن قطع أكبر مائتين وعشرين ميلا في يومين على ظهر الخيل وكان يظهر فـي معتـرك القتـال أقصى غاية الشجاعة. فكان يقود جيوشه بشخصه في أخطر أوقات الحملات، تاركًا لقواده ما دون ذلك مـن واجبات إنهاء الحرب. وكان يبدي في كل ظفر يناله إنسانية نحو المغلوب، ويعارض معارضة حاسمة في كل مظهر من مظاهر القساوة. ولما كان بريئًا من كل أثر لذلك التحامل الذي يفرق المجتمع ويخلق الخلافـات، متسامحا مع ذوي المعتقدات الأخرى، غير متحزب إزاء من هم من أجناس أخرى، سواء أكانوا من الهندوس أم من الدرافيديين، فإنه كان الرجل الذي خصصته الظروف تخصيصا واضحا لإيجاد التلاحم بين عناصـر مملكته المتنازعة بعضها مع بعض وجعلها كُلا قويا متماسكًا يرفرف عليه الرخاء.

"حبس نفسه بكل ما أوتي من جد وقوة على خدمة السلام. وإذ كان معتدلاً في كل مسراته، غير محتاج إلا إلى القليل من النوم ومعتادا أن يقسم وقته بأقصى دقة، فإنه كان يجد فسحة من الوقت يكرس فيها نفسه للعلـم والفن بعد فراغه من مهام دولته. فكانت الشخصيات النابهة الصيت والعلماء المشهورون الذين تـزدان بهـم العاصمة التي ابتناها لنفسه في فاتيبور سيكري أصدقاء له في نفس الوقت؛ فكانت تجتمع من هؤلاء حلقة في مساء كل خميس لتبادل المحادثات الفكرية والمناقشات الفلسفية. وكان ألصق أصدقائه به أخوين أوتيا مواهب عالية هما فيضي وأبو الفضل، وهما ابنا عالم حر الفكر [1] (Free-Thinker). وكان أسن هذين الأخـوين

---

[1] المفكر الحر الفكر: الشخص الذي لا يقيد تفكيره في المسائل الدينية وغيرها بما تواضع السابقون عليه مـن تقاليـد أو آراء متواترة. (المترجم)

عالما ذائع الشهرة في الأدب الهندوكي، وبمساعدته وتوجيهه أمر أكبر فترجمت أهم المؤلفات السنسكريتية إلى الفارسية. فأما أبو الفضل، وكان صديقًا حميما بوجه خاص لأكبر، فكان قائدا ورجل دولة ومنظما صاحب تدبر، وإلى نشاطه تدين مملكة أكبر بترابطها وبتنظيمها الداخلي بوجه خاص [1]".

وكان أكبر شأن شرلمان وشأن تاي تسنج يوجه إلى الأمور الدينية بعض عنايته ويقيم حلبات جدل مسهبة مع المبشرين اليسوعيين لا تزال تفاصيلها مدونة في السجلات.

(على تلك الشاكلة كانت الحلقة التي اعتادت أن تلتئم في قصور فاتيبور سيكري التي لا تفتأ مبانيها تسبح في ضياء شمس الهند المشرقة، والتي أصبحت الآن خاوية موحشة، ذلك أن مدينة فاتيبور سيكري شأن مدينة أمبار، أصبحت اليوم مدينة ميتة. وحدث منذ سنوات قلائل أن قتلت أفعى في أحد شوارعها الساكنة ابنا لأحد الموظفين الإنجليز).

وكان أكبر، شأن كل الرجال جميعا مهما عظم خطرهم أو هان أمرهم – يعيش في حدود زمانه وفي دائرة فكرات عصره. وكان بوصفه تركمانيا يحكم الهند، يجهل بالضرورة الشيء الكثير مما ظلت أوربا تتعلمه في ألف سنة بالألم والعناء. كان يجهل كل شيء عن نمو "الوعي الشعبي" في أوربا، كما كان يعلم الشيء الذي لا يكاد يذكر عن تلك الإمكانات "التعليمية" الرحيبة التي كانت تنتجها الكنيسة في الغرب. إذ كان مثل هذا الأمر يتطلب شيئًا أعظم من جدل عارض مع مبشر مسيحي. وجعلته تربيته على الإسلام وعبقريته الفطرية يعتقد اعتقادا بينًا أن ليس في الإمكان ربط الهند في شعب واحد عظيم إلا على فكرات عامة تقوم على أساس ديني، ولكن أنّى له المعرفة التي يمكن بها خلق مثل هذا التماسك والإبقاء عليه حيا بإنشاء المدارس العامة والكتب الرخيصة وإقامة نظام جامعي يجمع بين خلتي التنظيم وحرية الفكر؟ وهي أمور لا تزال الدولة العصرية تتحسس طريقها إليها حتى اليوم. لقد كان ذلك كله مستحيلاً عليه استحالة المعرفة بالزوارق البخارية والطائرات. وكان شكل الإسلام الذي يجيد معرفته هو ذلك الشكل الضيق الأفق العنيف في عدم تسامحه، إسلام الأتراك السنين. ولم يكن المسلمون إلا أقلية بين السكان. وكانت المشكلة التي تواجهه في الواقع شديدة المماثلة للمشكلة التي واجهت قسطنطين الكبير. ولكنها كانت تنطوي على صعوبات فريدة خاصة بها. ولهذا فإن كل ما فعله أنه حاول أن يكيف الإسلام تكييفًا يكفل له عند الناس قبولاً أوسع وأشمل بأن يستبدل بعبارتي "لا إله إلا الله ومحمد رسول الله" عبارة "لا إله إلا الله وإن الإمبراطور رافد [2] الله" إذ زعم أن ذلك سيكون دعامة عامة لكل ما حوت الهند من ضروب العقائد والنحل. وربط بهذه العقيدة طقسا بسيطًا استلفه من الزرادشتيين الفرس (وهم الفارسيس (The Parsees)، الذين كانوا – ولا يزالون إلى اليوم – موجودين بالهند. ومع هذا فإن هذه الديانة الرسمية الجديدة ماتت بوفاته، إذ لم يكن لها جذور مستقرة في أذهان من حوله من الناس.

---

(1) Dr. Schmit: Helmolt's History of the World

(2) الرافد (Regent) هو النائب. (المترجم)

والعامل الجوهري في تنظيم الدولة النابضة بالحياة ذلك العامل الذي أخذ العالم في إدراكه، هو إنشاء نظام تعليمي. وذلك أمر لم يفهمه أكبر البتة. ثم إنه لم يتوافر له طبقة من الرجال يوحون إليـه بهاتـه الفكـرة أو يعينونه على تنفيذها. فلم يكن المعلمون المسلمون في الهند بمعلمين قدر ما كانوا حراسا لعقيدتهم محـافظين على تعصب ديني حاد، فكانوا لا يرغبون في وجود عقلية مشتركة في الهند بل مجرد تعصب عـام للعقيـدة الإسلامية وعدم تسامح مشترك في الإسلام. وكان البراهمة الذين كان بيدهم احتكار التعلـيم بـين الهنـدوك يتصفون بكل ما للهيئة ذات الامتياز الوراثي من غرور وتقاعس. ومع ذلك فعلى الرغم من أن أكبر لم ينشئ للهند أية خطة تعليمية عامة، فإنه أنشأ عددا من المدارس الإسلامية والهندوكية.

ولا تبرح البقايا الفنية والمعمارية المتخلفة عن المغول وفيرة جدا. وعندما يتكلم الناس عن "الفن الهنـدي" بدون تحديد، فإنهم يعنون بذلك تلك الفترة العظيمة. وفن تصوير ذلك الزمن ممتاز جميل، وهو في طـرازه وصنفه وثيق القربى بالإنتاج الفارسي المعاصر له.

فأما في المباني فقد كان من نصيب الهند دوما أن تستورد بذرة الأساليب العالية التطور وأن تفرض عليها تعديلات وتنميقات من عندياتها. ولم يتم لفن العمارة الحجري الانتشار إلا بعد الفتح الهللينـي، وإن انتشـار الاستوبا [١] والعمد التذكارية والنصب الأخرى في حكم أسوكا ليشهد في كل مكان بوجود الفنـانين الفـرس والهللينيين. وفضلاً عن ذلك فإن الفن البوذي الذي خلف لنا مثل تلك البقايا العظيمة في منطقة جندهارا على الحدود الشمالية الغربية، والراجع إلى القرون الأربعة الميلادية الأولى، تبدو فيه كذلك الروح الهللينية قويـة واضحة. فيرى الإنسان واجهات بها العمود الكورنثي العادي.

ولم يصبح فنا العمارة والنحت هندوكيين بشكل ظاهر مميز له صفة وكرامة تخصه إلا في حكـم أسـرة جوبتا وفي القرنين الخامس والسادس الميلاديين. وحالت المؤثرات الدرافيدية الجنوبية دون انتشار الخطـوط الرأسية، كما أنها أوقرت البناء بكرانيش [٢] (Mouldings) أفقية مع نزوع إلى طراز الأهـرام المدرجـة. والهرم الأسود في كاناراك من أبدع المعابد الهندوكية وأشدها تمثيلاً لطراز تلك المعابد قبل الإسلام.

واستقدم الغزو الإسلامي الأشكال الرئيسية للطراز العربي (Saracenic) وهي المئذنة والعقـد المـدبب، وعلى هذا الأساس الجديد اشتغلت الهند في حفر بديع الإتقان وأنتجت التفريغات التشجيرية الزخرفية للنوافـذ (Window-tracery) والأستار المخرمة، والمسجد الجامع بأحمد آباد (في القرن الخامس عشر) من أبـدع المساجد الهندية، ولكن لعل أبدع مثال لكل فن العمارة المغولي هذا وأشدها تمثيلاً لطرازه هو "تـاج محـل"، وهو القبر الذي ابتناه شاه جيهان (١٦٢٧ – ١٦٥٨) لزوجته. ويتعاون المعماريون الإيطاليون والهنود فـي هذا البناء الرشيق.

---

[١] الاستوبا (Stupa) أثر أو مقصورة مقدسة بوذية على هيئة رابية ذات قبة. (المترجم)

[٢] الكرانيش: هي صبات (جمع صبة بتشديد الباء) في قوالب. (المترجم).

١١- الغجر (النور)

وهناك نتيجة جانبية عجيبة نشأت عن هذه الاضطرابات التي أحدثها مغول القرن الرابع عشر، الذين كان تيمورلنك رأسهم وقطب رحاهم – هي ظهور شراذم متنقلة في أوربا تتكون من شعب غريب شرقي لاجـئ هو الغجر. ظهروا ببلاد اليونان في زمان ما قريب من نهاية القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر، حيث زعمهم الناس مصريين (Egyptians)، (ومنها اشتقت كلمة Gipsy) التي يطلقونها عليهم في أوربا، وهـو اعتقاد عم الناس جميعا وقبلوه هم أنفسهم وبثوه في كل مكان. ومهما يكن من شيء فـإن زعمـاءهم كـانوا يلقبون أنفسهم بلقب "كونتات آسيا الصغرى".

والراجح أنهم ظلوا يتنقلون في أرجاء آسيا الغربية قرونًا عدة قبل أن تدفعهم مذابح تيمورلنك إلى عبـور (الهلسبونت) الدردنيل. وربما دفعهم عن أرض أرومتهم الأصلية – شأن الأتراك العثمانيين – ذلك الطوفـان العظيم الذي أحدثه جنكيز أو حتى قبله. تنقلوا في البلاد كما تنقل من قبلهم الأتراك العثمانيون، وإن كانوا أقل حظًا حسنًا منهم. فانتشروا على مهل متجهين غربا عبر أوربا: حطاما غريبة من نظام الترحل في عالم قوامه المحراث والمدينة، مطرودين من وطنهم القديم بسهوب (بلخ) نازلين في أراضي الشيوع الأوربية، وبجـوار السياجات المضروبة حول المزارع وفي أراضي الغابات البرية والبقاع المهملـة. سـماهم الألمـان باسـم "الهنغاريين" و "التتار" وسماهم الفرنسيون "البوهيميين".

ولا يبدو أنهم حافظوا على تقاليد منبتهم الحقة، غير أن لهم لغة مميزة تشير إلى تاريخهم الضائع؛ فإنهـا تحتوي على كثير من كلمات شمال الهند، ويرجح أن تكون في أصولها هندية شمالية أو باكتريـة. ويحتـوي لسانهم على عناصر ضخمة فارسية وأرمنية.

وإنك لتجدهم الآن في كل أقطار أوربا، منهم السمكري والبياع المتجول وتاجر الخيل ومنهم أصحاب دور الملاهي والعرافون والمتسولون. ولقد يلتذ كثير من ذوي الأذهان الخيالية التذاذًا قويا بمخيماتهم القائمة علـى جانب الطريق، ونيرانهم الداخنة، وخيامهم المدورة، وخيولهم المقيدة وعجيج أطفالهم الصاخبين الذين لوحـت الشمس وجوههم.

والمدنية شيء يبلغ من حداثته في التاريخ، كما أنها ظلت معظم عهدها ذات صورة محلية بالغة، بحيث لا يزال لزاما عليها أن تقهر غالب غرائزنا وتتمثلها في نطاق احتياجاتها. فإن عرق الهداوة والترحل المنـدس في معظمنا يتحرك في سويدائنا كلما مسنا السأم مما عليه المدنية من أوضاع ومعقّدات. وما نحن إلا أصحاب بيوت فاترو الحماسة، غير مخلصين لمعيشتنا المنزلية. والدم الذي يسري في عروقنا قد تكـون فـي بـلاد السهوب كما تكون في أراضي المحراث.

ومن بين الأنواع الأخرى من العدوى التي حملها الغجر من قطر إلى قطر، ذلك اللـون مـن الموسـيقى الشعبية الذي أشاعوه في الأقطار التي مروا بها، فإنهم كانوا على الدوام موسيقيين متحمسين لفـنهم وإن لـم يكونوا مبتكرين خلاقين؛ ذلك بأنهم حملوا إلى كل مكان حلوا به ضربا من فن الإنشاد الشعبي، يضفون عليه نكهة وحيوية صادرة من ذات أنفسهم. ولطالما سرقوا ألحان الشعوب كما سرقوا في بعض الأحيان أطفـالهم وجعلوا منهم أغجارا. وهم لم يستعملوا البتة أي تدوين موسيقى "نوتة"، ولكن تقاليدهم الموسيقية كانت علـى الدوام قوية، وللأغنية الغجرية اليوم أحفاد كثيرة هي موسيقى هنغاريا وإسبانيا والروسيا.

الفصل الثالث والثلاثون

نهضة المدنية الغربية

الطرق البحرية تحتل مكان الطرق البرية

١- المسيحية والتعليم الشعبي.
٢- أوربا تشرع في التفكير لنفسها.
٣- الطاعون الكبير وبزوغ فجر الشيوعية.
٤- كيف حرر الورق عقل الإنسان.
٥- بروتستانتية الأمراء وبروتستانتية الشعوب.
٦- العلم يستيقظ من سباته
٧- النمو الجديد للمدن الأوربية.
٨- النهضة الأدبية.
٩- النهضة الفنية.
١٠- أمريكا تدخل التاريخ.
١١- رأي ماكيافللي في العالم.
١٢- جمهورية سويسرا
١٣-
أ- حياة الإمبراطور شارل الخامس
ب- بروتستانت إذا رغب الأمير في ذلك.
ج- التيار الفكري السفلي المضاد.

١- المسيحية والتعليم الشعبي

إن نظرة إلى الخرائط تحدثنا أن القرون الثلاثة منذ بداية الثالث عشر حتى نهاية الخامس عشر كانت عصر تراجع للمسيحية. وكانت هذه القرون عصر الشعوب المغولية. ففي إبانها كانت البداوة: (الترحل) القادمة من آسيا الوسطى تسود العالم المعروف. وكان على مفرق الدنيا، وهذه الفترة في ذروتها، حكام من الجنس المغولي أو ذي قرباه التركي، ينهضون بالحكم ومعهم تقاليدهم في كل من الصين والهند وفارس ومصر وإفريقيا الشمالية وشبه جزيرة البلقان وهنغاريا والروسيا.

ولقد بلغ الأمر بالتركي العثماني أن جنح إلى البحر، وقاتل البنادقة على سطح بحرهم المتوسط نفسه. وحاصر الترك في (١٥٢٩) مدينة فيينا، ولكنهم هزموا إذ ردهم الزائدون عنها. ودفعت إمبراطورية شارل الخامس الهابسبرجية الجزية للسلطان. ولم يحدث حتى معركة ليبانتو (١٥٧١)، وهي المعركة التي فقد فيها سرفانتيز مؤلف دون كيشوت ذراعه اليسرى – "أن كسرت المسيحية (على حد قوله) أنفة العثمانيين وكبرياءهم ورفعت الغشاوة عن عيون العالم الذي كان يعد الأسطول التركي شيئًا لا سبيل إلى قهره".

وكانت البلاد الوحيدة التي تهيأ فيها للمسيحية التقدم. هي إسبانيا – ولو تهيأ لرجل ذي بصيرة نفاذة أن ينظر إلى العالم في مفتتح القرن السادس عشر فلعله كان يستنتج أنه لن تمضي إلا بضعة أجيال قليلة لا يلبث بعدها العالم أجمع أن يصبح مغوليا – وربما أصبح إسلاميا، على نفس الشاكلة التي يلوح بها أن معظم الناس يسلّمون اليوم بأن الحكم الأوربي ونوعا من المسيحية المتحررة مقدر لهما أن ينشرا ظلالهما فوق العالم أجمع. ويبدو أنه قل من الناس من يدرك مبلغ حداثة هذه العظمة الأوربية، وربما فاته أيضا أن يدرك كم هي وقتية عارضة. ولم تبد أية دلائل واضحة تدل على مبلغ الحيوية الحقيقية لأوربا الغربية إلا عندما أخذ القرن الخامس عشر يدلف نحو نهايته.

ويقترب تاريخنا الآن من زماننا هذا، ومن ثم تتحول دراستنا أكثر فأكثر إلى دراسة للأحوال القائمة بيننا. فالنظام الأوربي أو المصبوغ بالصباغ الأوربي الذي نعيش تحت ظلاله اليوم هو نفس النظام الذي نراه يتطور في أوائل القرن الخامس عشر بأوربا الذاوية المنهارة التي يتهددها المغول. وما كانت مشاكلها آنذاك إلا "الجنين" لمشاكل اليوم ومن المستحيل علينا البحث في شئون ذلك الزمان دون البحث في شئون زماننا هذا. فترانا نخوض في السياسة بالرغم من أنفسنا. قال السير ج. ر. سيلي [1] :" إن السياسة بلا تاريخ شجر لا جذور له والتاريخ بلا سياسة شيء لا ثمار له".

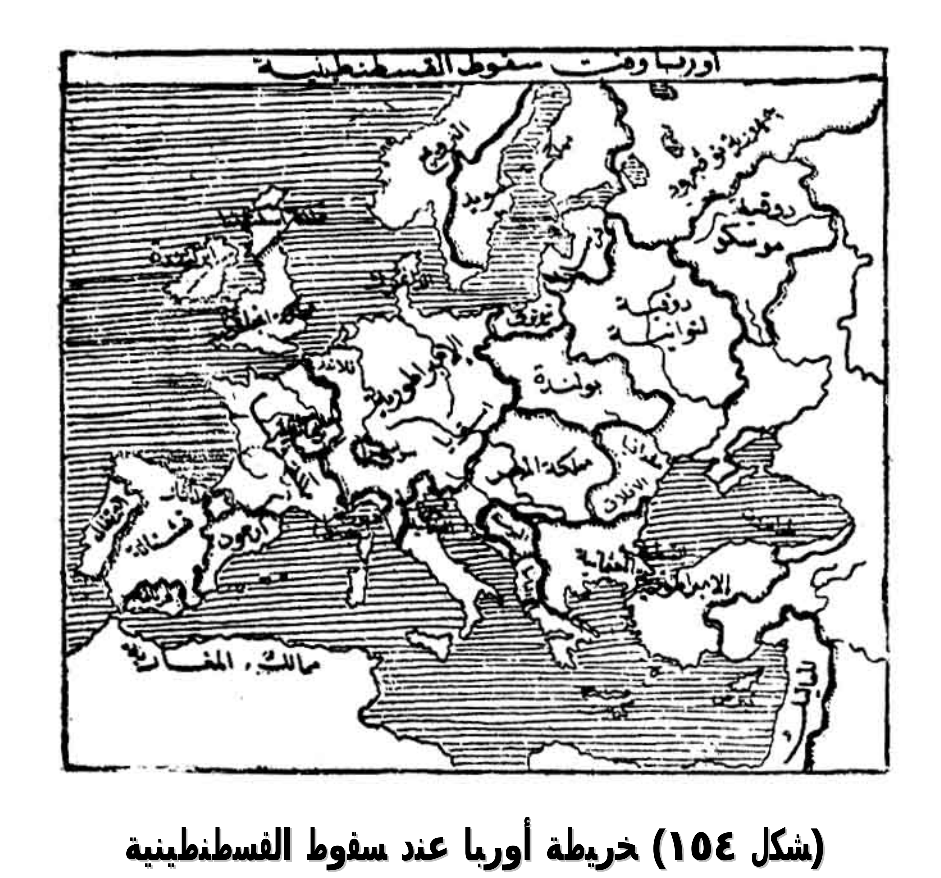
فلنحاول الآن مستمسكين جهد طاقتنا بالبعد عن التحيز، أن نستكشف تلك القوى التي كانت تفرق طاقات نشاط أوربا بددا وتعرقلها أثناء تلك الهوجة العظيمة التي قامت بها الشعوب المغولية، وأن نرى كيف يتيسر لنا أن نفسر تجمع الطاقة العقلية والجسمية التي لا شك أنها مضت في طريقها قدما أثناء فترة التقهقر الظاهرة هذه، والتي انفجرت عند نهايتها على تلك الشاكلة الضخمة.

---

[1] هو السير جون روبرت سيلي، المؤرخ الإنجليزي (١٨٣٤ – ٩٥). (المترجم)

فالموقف الآن كمثيله في العصر الميزوزوي: فبينما كانت الزواحف الكبرى تسوده على ظهر البسيطة، كانت هناك زوايا متوارية منعزلة تتطور فيها تلك الثدييات ذات الشعر وتلك الطيور ذات الريش التي تمكنت في نهاية الأمر أن تحل تماما محل تلك المجموعة الحيوانية الهائلة مستبدلة بها أخرى أكثر مزايا ومقدرة، وكذلك نرى في المناطق المحدودة مناطق أوربا الغربية، أنه بينما كانت الممالك المغولية تسود العالم من الدانوب إلى المحيط الهادي ومن البحار المتجمدة الشمالية إلى مدراس ومراكش والنيل، كانت توضع أسس القواعد الجوهرية في طراز للمجتمع الإنساني جديد أشد صلابة وأكثر كفاية؛ فهذا الطراز من المجتمع، الذي لا يزال في دور التكوين لم يتجاوزه بعد، والذي لا يزال آخذًا بأسباب النمو ولا يزال بمرحلة التجارب، قد نستطيع أن نطلق عليه اسم "الدولة العصرية". ونحن ندرك دون أدنى ريب أن تلك العبارة مبهمة، على أنّا جاهدون أن نبث فيها شيئًا من المعنى مع تقدمنا بحثنا هذا.

وقد سبق أن سجلنا ظهور نواة الفكرات الأساسية لتلك الدولة العصرية في الجمهوريات الإغريقية وبخاصة في أثينا وفي الجمهورية الرومانية العظيمة وفي دين اليهودية والإسلام، وفي قصة الكاثوليكية الغربية. وهذه الدولة العصرية، كما نراها اليوم وهي تنمو تحت أسماعنا وأبصارنا، إنما هي بالضرورة مزج تجريبي بين فكرتين تلوحان متناقضتين في الظاهر، وهما فكرة "مجتمع من العقيدة والطاعة"، على غرار تلك المجتمعات التي كانت عليها ولا ريب المدنيات القديمة، وفكرة "مجتمع من العزيمة والإرادة" مثل التجمعات السياسية البدائية عند الشعوب النوردية والهونية. ذلك أن الشعوب الممدنة المستقرة، وهم الذين ينتسبون في الغالب إلى الجنس القوقازي الأبيض الداكن، أو إلى الدرافيديين السمر أو المغوليين الجنوبيين، يبدو أنها ظلت آلاف السنين تطور فكراتها وعاداتها على أساس العبادة والخضوع الشخصي، كما يلوح أن المترحلين طوروا فكراتهم وعاداتهم على أساس الاعتماد الشخصي على النفس فضلاً عن الاعتداد بالذات. وكان من الطبيعي جدا في هذه الظروف أن تدأب الشعوب المترحلة على إمداد المدنيات بحكام جدد وأرستقراطيات جديدة. فذلك هو "الإيقاع" الذي لبث يدق منتظما في كل أحقاب التاريخ المبكر. وبعد آلاف من السنين انقضت في تغيرات دورانية يتعاور فيها الانتعاش بفتح المترحلين فالمدنية فالاضمحلال ثم الفتح الجديد، ابتدأت العملية الحالية، عملية المزج المتبادل بين النزعات المتحضرة، أي العاملة الكادحة الطيعة، وبين النزعات الحرة أي الأرستقراطية والمغامرة، مزجا أنتج طرازا جديدا من المجتمع؛ يتطلب منا الآن توجيه انتباهنا إليه كما أنه قوام التاريخ المعاصر لنا.



(شكل ١٥٤) خريطة أوربا عند سقوط القسطنطينية

وقفَونا في هذا "التاريخ" التطور البطيء لمجتمعات بشرية "ممدنة" أكبر فأكبر، منذ أيام قبيلة العائلة البدائية بالعصر الحجري القديم. ورأينا كيف أن مزايا الزراعة وضروراتها والخوف من آلهة القبيلة والفكرات القائلة بالملك الكاهن والملك الرب، لعبت دورها في توثيق عرى التماسك داخل جماعات إنسانية متزايـدة الحجـم والقوة في مناطق بلغت أقصى غاية الخصب. وراقبنا التفاعل بين الكاهن (وكان في العادة من الأهالي) وبين العاهل (وكان في العادة فاتحا) في تلك المدنيات القديمة الباكرة، كما رأينا تطور الكتابة والتقاليـد المكتوبـة وإفلاتها من السيطرة الكهنوتية، وظهور قوى جديدة تبدو أول أمرها عارضة طارئة ثانوية في ظاهرها، وقد سميناها "الفطنة الحرة" و "الضمير الحر" للبشرية. وشهدنا حكام المدنيات البدائية في وديان الأنهار يوسـعون ممتلكاتهم ويمدون سلطانهم، وشهدنا في نفس الوقت في الأراضي الأقل خصبا ما كان مجرد "همجية " قبليـة يتطور إلى "حالة ترحل" تزداد في كل آن اتحادا وكفاية سياسية.

ودأبت البشرية على مسيرها في أحد هذين النهجين أو في الآخر. وظلت المدنيات جمعاء عصورا طويلة وهي تنمو وتتطور على أساس الملكية: أعني فوق أساس من الملكية المستبدة المطلقة، وشهدنا كيف حدث في كل ملكية وأسرة مالكة أن الكفاية والهمة كانتا تخليان مكانهما للترف الباذخ والتراخي والانحلال، كأنما كـان ذلك أمرا إيقاعيا محتوما لا مفر منه، ثم رأيناها وقد خضعت آخر الأمر إلى أسرة أحدث منهـا قادمـة مـن الصحراء أو السهوب.

وتتجسم قصة المدنيات الأولى الزارعة ومعابدها وبلاطاتها الملكية، ضخمة في التاريخ الإنساني؛ على أنه من الخير أن نتذكر أن مشهد هذه القصة لم يتجاوز قط رقعة صغيرة جدا من سـطح اليـابس فـي الكـرة الأرضية. ففي القسم الأكبر من الأرض وإلى زمن قريب جدا لا يتجاوز الألفين الأخيرين من السنين، كانـت الشعوب القبلية الأصلاب عودا والأقل عددا النازلة في أراضي الغابات والأحراش الحقيقة، والشعوب المترحلة ساكنة أراضي الكلأ الموسمية تلازم طرائقها الخاصة بها في الحياة وتطورها.

ربما جاز لنا أن نقول إن المدنيات البدائية كانت "مجتمعات طاعة". فكانـت الطاعـة للملـوك الأربـاب والملوك الذين في رعاية الأرباب هي القوة التي تشدهم بعضهم إلى بعض، فأما نزعة المترحلين فكانت مـن الناحية الأخرى تتجه على الدوام شطر طراز مخالف من الترابط سوف نسميه ها هنا باسم "مجتمع الإرادة". إذ يجب في مجتمع جوال مقاتل أن يكون الفرد جامعا بين الاعتماد على الذات وبين التزام النظام في الوقـت نفسه. ويجب أن يكون رؤساء مثل هذه المجتمعات رؤساء يتبعون لا سادة يجبرون.

ومن اليسير تتبع أثر "مجتمع الإرادة"، هذا في تاريخ الإنسانية بأجمعه، فنحن نجد في كل مكان أن النزعة الأصلية للمترحلين كافة: النورديين منهم والساميين والمغول سواء، كانت من الناحية الفردية أكثـر نزوعـا وإرادة وأشد ترفعا وشهامة من نزعة الأقوام المستقرين. هبطت الشعوب النوردية إيطاليا وبـلاد الإغريـق تحت ملوك قادة، ولم يستجلبوا معهم أية نحلة معبد نظامية، بل وجدوا تلك الأشياء في الأراضي المغزوة ثـم كيفوها حين استعملوها. ثم تحول الإغريق واللاتين ثانية إلى تكوين الجمهوريات بغاية السهولة، وكذلك فعل الآريون في بلاد الهند. وكان هناك أيضا تقاليد للانتخاب في ممالك الفرنجة والجرمـان الأولـى، وإن كـان القرار يؤخذ في العادة على عضو أو آخر من أعضاء طائفة أو عائلة ملكية. وكان الخلفاء الأولون ينتخبون، وكان قضاة بني إسرائيل وملوك قرطاجة وصور ينتخبون، وكذلك كان شأن الخان الأعظم المغـولي حتـى أصبح قوبلاي ملكًا صينيا.

وعلى نفس هذه الشاكلة من الاطراد والاستمرار نجد الفكرة المضادة في أراضي الاسـتقرار المسـكونة، فكرة ربوبية الملك غير الانتخابية وفكرة حقه الطبيعي الفطري في الحكم.

ولاحظنا في ثنايا تطور تاريخنا ظهور عناصر جديدة أدخلت التعقيد في قصة الجماعات البشرية؛ ورأينـا أن المترحلين انقلبوا إلى وسطاء، وبذلك ظهر التاجر، ولاحظنا أهمية السفن وهي تنمو في العالم. ويلوح أنه لا مندوحة للرحلات والأسفار من أن تجعل الرجال أحرارا في عقولهم وأفكارهم كما أن الاستقرار في داخل أفق ضيق يجعل الناس جبناء خانعين... على أنه بالرغم من كل هذه الأمـور المعقـدة تجـري الخصـومة الإجمالية بين طريقة "الطاعة" وطريقة "الإرادة"، مخترقة حقب التاريخ حتى تصل إلى زماننا هذا. ولا يـزال التوفيق بينهما ناقصا غير كامل إلى يومنا هذا.

وقد جرت المدنية على الدوام – حتى ما كان منها في أحط الصور – على سنة بذل كثير مـن الأمـور الجذابة المريحة للبشرية والموافقة لطبيعتها. على أن يجنسنا ناحية قلقة غير مروضة تحاول على الـدوام أن تنقل المدنية من اعتمادها الأصلي على "الطلعة التي لا مشاركة فيها" إلى مجتمع من "إرادات متشاركة". وإن سمة الترحل الكامنة في دمائنا، وبخاصة في دماء الملوك والطبقات الأرستقراطية، تلك السمة التي رجع إليها ولا مراء قسط كبير من فضل إنتاج الأجيال التالية، ولشيئًا يجب أن ينسب إليه كذلك تلك الرغبـة الملحـاح المستديمة التي تنزع بنا نحو توسعة المجال وتضطر كل دولة أن توسع حـدودها إن اسـتطاعت، وأن تمـد مصالحها إلى أقصى الأرض. ويظهر أن دوافع القلق الترحلي، التي تنزع إلى جـذب كـل الأرض تحـت سلطان حكم واحد، هي بذاتها الروح التي تجعل مراجل معظمنا تغلي في ظل التوجيه والتضييق، وتدفعنا إلى أن نحاول "المشاركة" في أية حكومة نسمح بوجودها.

ظل هذا الكفاح الطبيعي، هذا الكفاح المتمشي مع مزاج البشرية الهادف إلى التوفيق بين المدنية والحرية، - (ظل) حيا عصرا بعد عصر بسبب العجز العسكري والسياسي في كل "مجتمع طاعة" وجد علـى ظهـر البسيطة حتى اليوم. ومتى أضرع الناس مرة للطاعة، أمكن القبض عليها بغاية السهولة ونقلها إلى الغير؛ وما عليك إلا أن تلقي البصر إلى الدور السلبي الذي لعبته مصـر وأرض الجزيـرة والهنـد: أرض الخضـوع الأصلية النموذجية و "مهاد المدنية" – وهي تنتقل من سيد إلى آخر. وما المدنية الخانعة إلا دعوة مسـتديمة موجهة إلى الرجال الأحرار السلابين.

ولكن "مجتمع الإرادة" يحتم صهر مواد عسيرة بعضها في بعض؛ وهو مجتمع إيجـاده أصـعب كثيـرا، وأصعب من إيجاده الإبقاء عليه. ولعلنا لا نزال نذكر أن قصة الإسكندر الأكبر تظهر مجتمع الإرادة للقـواد المقدونيين وهو يذوب شيئًا فشيئًا تلقاء طلبه إليهم أن يعبدوه. وما حادث مقتل كليتوس إلا دلالة طرازية على الكفاح بين التقاليد الحرة والتقاليد الذليلة الذي كان يجري كلما وجد فاتح جديد قادم من الأرض البراح والهواء الطلق نفسه متربعا في قصر ملكية من الطراز القديم.

ويحدثنا التاريخ في حال الجمهورية الرومانية عن أول "مجتمع إرادة" كبير في التاريخ أي أول مجتمع حر حجمه أكبر كثيرا من حجم مدينة، ويخبرنا كيف دب الوهن إليه مع نموه وتبددت قواه مـع النجـاح الـذي أصابه، حتى استسلم آخر الأمر لملكية من الطراز القديم، ثم انحل سريعا إلى مجتمع من أشد مجتمعات المذلة ضعفًا، منهارا أمام حفنة صغيرة من الغزاة. ولقد أولينا في هذا الكتاب بعض انتباهنـا إلـى عوامـل ذلـك الانحلال، لأن لها أهمية جوهرية في التاريخ الإنساني، ومن أوضح تلك العوامل الافتقار إلى منظمة واسـعة النطاق للتعليم لتؤسس وتبني عقول المواطنين العاديين على فكرة خدمة الجمهورية والارتباط بها، أعني على الإبقاء عليهم راغبين: "ذوي إرادة"؛ وثمة عامل آخر هو غياب كل وسيلة للإعلام العام تكفل دوام الانسـجام بين أوجه نشاطهم، وتمكنهم من أن "يصدروا إرادتهم" كهيئة واحدة وشخص واحد. ذلك أن القيود التي تفرض على إمكانيات "مجتمع المعرفة" هي التي تحدد حجم "مجتمع الإرادة". ولم يصبح تركيز الملكية والأملاك في أيد قليلة وإحلال الرقيق محل العمال الأحرار، في الإمكان إلا بسبب انحـلال الـروح الغيريـة العامـة [1] (Public Spirit) وتبلبل الذكاء العام نتيجة لتلك القيود.

---

[1] الروح الغيرية العامة: هي تلك الروح التي تدفع الأفراد إلى خدمة المجتمع والمحافظة عليه عن طواعية ورضا. (المترجم).

وفضلاً عن ذلك لم تكن هناك أية فكرة دينية ذات كفاية تستند إليها الدولة الرومانية؛ فـإن عقيـدة رومـا الإترورية (الإترسكية) الغامضة الباحثة عن الكبد المختلج [1] كانت لا تقل في سوء تكيفهـا، والاحتياجـات السياسية في مجتمع ضخم، عن الشامانية الشديدة الشبه بها لدى المغول. والواقع أن السر فيما بلغته المسيحية والإسلام من الأهمية التاريخية الهائلة إنما يكمن في أن كلا من العقيدتين على طريقتها المميزة قـد وعـدت على الأقل أن تملأ لأول مرة في الخبرة الإنسانية تلك الثغرة الواضحة في نظام الجمهورية الرومانية وفـي تاريخ المترحلين، وذلك بتقديم تعليم أخلاقي مشترك لجمهرة من الناس بتزويدهم بتاريخ مشـترك للماضـي وفكرة مشتركة لهدف إنساني ومصير إنساني. وقد حدد كل من أفلاطون وأرسطو كما لحظنـا آنفًـا عـدد المجتمع المثالي في حدود بضعة آلاف من المواطنين، إذ إنهما لم يستطيعا أن يتصورا أن فـي الإمكـان أن يترابط جمهور أكبر من هذا بفكرة مشتركة. إذ لم تكن لديهما أية خبرة بأي نوع من التعليم يتجاوز طرائـق التعليم بواسطة العرفاء والمؤدبين الخصوصيين المتبعة في زمانهما. ذلك أن التعليم عند الإغريق أوشـك أن يكون تلقينًا شفويا (Viva Voce) محضا، ومن ثم فمجاله لا يتسع إلا لأرستقراطية محدودة العدد. على حين أظهر كل من: الكنيسة المسيحية، والإسلام عدم سلامة ذلك التحديد وخطأه. وربما جال بخاطرنا أنهما قامـا بواجبهما في التعليم داخل ميادين فرصهما الفسيحة قياما فجا أو سيئًا، ولكن محور الاهتمام عندنا الذي يعنينا في هذا الشأن إنما هو مجرد قيامهما بهذا العمل. فقد قام كل منهما بدعايات تكاد تملأ العـالم حـول الفكـرة والإلهام. واعتمد كل منهما بنجاح على قوة "الكلمة المكتوبة" في ربط جماهير عظيمة من أنـاس متنـوعين مختلفي المشارب ربطًا يضمهم في مساعٍ وجهود مشتركة.

ولما وافى القرن الحادي عشر، كانت فكرة المسيحية قد فُرِضت كما سبق أن رأينا، علـى ذلـك الخلـيط المتقاتل في الإمبراطورية الغربية المهشمة المتناثرة وعلى أوربا وراء حدود الإمبراطورية بكثير، بوصـفها فكرة موحدة ملهمة. فكونت "مجتمع إرادة" ضحلا رقراقًا ولكنه فعال، فوق منطقة لم يسبق لهـا مثيـل فـي الاتساع، وبين جمهور من الكائنات الإنسانية لم يسبق له ضريب في العظم. وكان اليهود يربطـون بالفعـل شتات مجتمعهم بالتعليم النسقي المنتظم في بداية الحقبة المسيحية على الأقل. ولم يحدث شيء كهذا لأي شطر عظيم من البشرية في أي عصر من عصور التاريخ إلا مرة واحدة، وكان ذلك هو فكرة "مجتمـع السـلوك الحسن" التي نشرها الأدباء (Literati) في كافة أرجاء الصين.

وقدست الكنيسة الكاثوليكية ما كان يعوز الجمهورية الرومانية: وهو نظام من التعليم الشعبي العام، وعدد من الجامعات وبعض طرائق التواصل الذهني. وبهذا العمل الجليل مهدت السبيل أمام الاحتمـالات الجديـدة للحكم البشري التي أصبحت الآن واضحة جلية في هذه "المعالم"، وهي احتمالات لا تزال موضع الخشية من الناس كما أنها لا تزال في دور التكوين في العالم الذي نحيا بين ظهرانيه. وكانت حكومة أية دولـة، حتـى آنذاك، إما أن تكون استبدادية يتولاها اتحاد يجمع بين الكاهن والعاهل لا ينتقده منتقد ولا يتحـداه متحـد؛ أو ديمقراطية لا تتلقى تعليما ولا إعلاما، وتنحل وتنتكس حين تبلغ أي قسط جسيم من زيادة سعة الرقعة، منحطة

[1] انظر في ذلك المجلد الثاني من المعالم. (المترجم)

إلى مجرد حكم الرعاع ورجال السياسة كما فعلت روما وأثينا. ولكن عندما حل القرن الثالث عشر كانت قـد بزغت أول إشارة تلوح بمثل أعلى للحكومات لا يزال إلى الآن يشق طريقه نحو التحقيق، وهو المثل الأعلى العصري: المثل الأعلى القاضي بإنشاء "حكومة تعليمية" للعالم أجمع، لا يكون فيها الرجل العادي عبدا لمالـك مطلق ولا لدولة يحكمها ديماجوج، بل يكون عضوا في المجتمع يتلقى الإعلام ويوحى إليه ويستشار. ويجب أن يوجه التشديد والعناية إلى كلمة "التعليمية" هذه، وإلى الفكرة القائلـة بـأن "الإعـلام" ينبغـي أن يسـبق الاستشارة.

وتحقيق هذه الفكرة تحقيقًا عمليا، وأعني بذلك أن التعليم وظيفة جماعية وليس عملاً خاصا – نقطة أساسية يكمن فيها أحد الفوارق الجوهرية التي تميز "الدولة العصرية" من أية دولة أخرى سبقتها. وقد شرع الناس أن يدركوا أن المواطن العصري يجب أن يتلقى الإعلام أولاً ثم يستشار بعد ذلك، فلا بد له قبل إعطاء صـوته من سماع الأدلة والبينات. ولا بد له أن يعرف قبل أن يمكنه أن يفصل. ولا يكفي أن تقام غرفات الانتخابات وصناديقها، بل أن تؤسس المدارس وأن تجعل الكتب والمعرفة والأخبار في متناول الناس جميعا، حتى ينفتح الطريق الذي ينقل الناس من العبودية والارتباك إلى تلك الدولة التعاونية بالإرادة والرضا التي هـي المثـل العصري الأعلى. فالأصوات الانتخابية في حد ذاتها أشياء لا قيمة لها ولا وزن. فقديما كان للناس في إيطاليا أصوات في زمن أسرة جراكوس (Gracchi). ولكن أصواتهم لم تنفعهم بشيء. ذلـك أن حيـازة الرجـل للصوت الانتخابي تكون أمرا خطرا أو شيئًا لا فائدة تجنى من ورائه حتى يحصل الرجل على تعليمه. وليس المجتمع المثالي الذي نتجه صوبه "مجتمعا للإرادة" وكفى، بل هو "مجتمع معرفة وإرادة" يحل محل "مجتمـع عقيدة وطاعة". والتعليم هو المكيف الذي يجعل روح الحرية والاعتماد على الذات عنـد البـدوي المترحـل يستقيم مع ألوان التعاون ومع الثروة والأمن التي تستظل بها الحضارة.

٢- أوروبا تشرع في التفكير لنفسها

لا جدال في أن الكنيسة الكاثوليكية بما اعتمدت عليه من دعايات واحتكامات إلى الرأي العام ومن مدارس وجامعات – قد هيأت السبيل لاحتمال قيام الدولة التعليمية العصرية في أوربا، غير أن من المحقق كذلك أن الكنيسة الكاثوليكية لم تتعمد قط فعل ذلك قصدا. فهي لم ترسل المعرفة في صحبة بركاتها، بل هي أطلقت سراحها عفوا وعن غفلة وتهاون ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية ترى نفسها وريثة للجمهورية الرومانية، بل للإمبراطور الروماني. ولم يكن تصورها عن التعليم هو إطلاق السراح له، ولا الدعوة للمشاركة فيه، وإنما هو إخضاع العقول. وهناك اثنان من كبار المعلمين في القرون الوسطى لم يكونا في الواقع من رجال الكنيسة بتاتًا، بل كانا ملكين ومدبري دولة هما: شرلمان، وألفريد الكبير ملك إنجلترة، اللذان استخدما هيئة الكنيسة ومنظماتها. ولكن الحق أن الكنيسة هي التي أمدتهما بالمنظمات. وكان كل من الكنيسة والملك في صراعهما المتبادل على القوة والسلطان يستنجد بأفكار الرجل العادي. ومن ثم يظهر الرجل العادي استجابة لاحتكام هذين الخصمين إليه، وهو الرجل الخارجي المستقل غير الموظف الذي يفكر لنفسه.

ولقد رأينا فعلاً في القرن الثالث عشر البابا جريجوري التاسع والإمبراطور فردريك الثاني مشتبكين في خصومة علنية عامة عنيفة. فكأنه كان هناك بالفعل إذن إحساس بأن قد ظهر في العالم حكم جديد أعظم من البابا والملكية جميعا، أي أن هناك قرارا ورأيا عاما. وأفضى خروج البابوات إلى أفينيون وانقسامات البابوية واضطرابها أثناء القرن الرابع عشر إلى تنبيه ذلك "الحكم الحر" على السلطة في كل أرجاء أوربا تنبيها هائلاً.

وابتدأ الأمر بأن اقتصر النقد المتداول في شأن الكنيسة على أمور أخلاقية ومادية ليس غير. فإن ثراء كبار رجال الإكليروس وترفهم والضرائب البابوية الفادحة. كانت رأس أسباب الشكوى. كما أن المحاولات الأولى التي بذلت لاستعادة البساطة المسيحية الأولى، كتأسيس جماعة الرهبان الفرنسسكيين مثلاً، لم تكن حركات فرقة وانفصال، بل حركات نهضة وانتعاش. ولم يتطور النقد فيغدو أكثر عمقًا وأشد تدميرا إلا بعد ذلك بفترة من الزمان يوم أخذ يوجه سهامه إلى الحقيقة المركزية في تعاليم الكنيسة، ومبررات أهمية القسوس وأعني بها تقديم القرابين في الصلاة.

وقد سبق لنا أن رسمنا لك في صورة إجمالية البدايات الباكرة للمسيحية، كما بينا كيف أنه سرعان ما حدث لتلك الخاطرة العسيرة المتزمتة، خاطرة ملكوت الرب التي كانت الفكرة المركزية في تعاليم يسوع الناصري، أن غطى عليها ابتعاث الفكرة القربانية العتيقة. وهي في واقع الأمر مبدأ أصعب فهما، ولكن التوفيق بينه وبين عادات وميول وخنوع الحياة اليومية في الشرق الأدنى أيسر وأسهل. ولحظنا كيف أن ضربا من تمازج العقائد (الثيوقرازيا) حدث بين المسيحية واليهودية ونحلة السرابيوم والمثرائية والنحل الأخرى المتنافسة، وتم به تطعيم الديانة الناشئة – وهي بعد في مراحل التطور – بيوم الأحد المثرائي، وفكرة اليهود عن الدم بوصفه ضرورة دينية، والأهمية التي ناطتها الإسكندرية بأم الرب، والقسيس الحليق الصوام،

والزاهد المعذب لنفسه، وأمور أخرى كثيرة من الإيمان والطقوس والممارسة. فهذه التكيفات قد جعلت ولا شك التعاليم أدنى كثيرا إلى الأفهام وأكثر قبولاً في مصر وسوريا وما أشبههما من بلاد. كانت أمورا تتمشى مع طريقة تفكير الجنس الأبيض الداكن في البحر المتوسط؛ كانت موائمة لفطرة ذلك الطراز من الناس. ولكن هذه الأمور لم تجعل المسيحية دينًا أقرب إلى قلوب المترحلين العرب – كما سبق أن أظهرناك على ذلك في قصة محمد (ﷺ) - بل كانت تلك المظاهر تجعلها في رأيهم منَفرة كريهة. وكذلك أيضا يلوح أن الراهب الحليق والراهبة والقسيس أثاروا شيئًا يقارب العداوة الغريزية عند الهمج (البرابرة) النورديين في الشمال والغرب. ولحظنا العداء الغريب الذي أبداه الأنجلوسكسون وأهل الشمال نحو الرهبان والراهبات. ويخيل إلينا أنهم شعروا أن حياة هؤلاء المتبتلين القانتين وعاداتهم كانت شاذة غير طبيعية.

ومما زاد كثيرا في أوار الصدام بين ما نسميه العوامل "البيضاء الداكنة" والعناصر الأحدث منها في المسيحية، أن البابا جريجوري السابع فرض العزوبة على القسوس الكاثوليك في القرن الحادي عشر. وقديما عرف الشرق رجال الدين العزاب منذ آلاف السنين ولكن الغرب كان ينظر إليهم نظرة التشكك والريبة.

وفي القرن الثالث عشر والرابع عشر، وبينما عقل الشعوب النوردية ذو النزعة الدنيوية آخذ بأسباب تحصيل العلم وشرع يتعلم القراءة والكتابة والتعبير عن النفس، وبينما هو يتصل بما اجتمع للذهن العربي من مناشط منبهة، نجد الكاثوليكية تتلقى بداية نقد أعظم قوة بكثير، ونلحظ هجوما عقليا على القسيس بوصفه قسيسا، وعلى مراسم القداس بوصفه الحقيقة المركزية في الحياة الدينية، هجوما مصحوبا بطلب العودة إلى تعاليم يسوع الشخصية كما هي مسجلة في الأناجيل.

أسلفنا إليك ترجمة ويكليف الإنجليزي قرابة (١٣٢٠ – ١٣٨٤) وبينا كيف ترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية لكي يقيم سلطة مناهضة لسلطة البابا. وقد شهر ويكليف بمبادئ الكنيسة المتعلقة بالقداس ناعتًا إياها بأنها خطأ ذريع، وبخاصة تلك التعليمة القائلة بأن الخبز المقدس الذي يتناول في ذلك الطقس يصبح بطريقة ما سحرية هو الجسم الفعلي للمسيح. ولن نحاول أن نتتبع موضوع "استحالة المادة" [1] كما تسمى عملية التغيير السري للعناصر في "القربان المقدس" – تتبعا يتغلغل بنا إلى دقائق معقداتها. فإن هذه أمور تترك للإخصائي في علم اللاهوت. ولكن من الواضح أن ذلك المبدأ الكاثوليكي الذي يجعل تقديس العناصر "القربان المقدس" عملية إعجازية يقوم بها القسيس، ولا يجوز لأحد القيام بها إلا القسيس وحده، والذي يجعل "القربان المقدس" هو الضرورة المركزية في النظام الديني، إنما يزيد "أهمية هيئة القساوسة زيادة هائلة.

على أن وجهة النظر الأخرى – وهي وجهة النظر "البروتستانتية" الأساسية القائلة بأن هذا "القربان المقدس" إنما هو مجرد تناول للخبز وشرب للنبيذ يتخذان على سبيل الذكرى الشخصية ليسوع الناصري – لا بد أن تقضي آخر الأمر على كل احتياج خاص إلى قسيس متكرس.

[1] استحالة المادة Transubstantiation: تحول الخبز والنبيذ أثناء طقس "التناول" إلى جسد المسيح ودمه. (المترجم).

ولم يذهب ويكليف نفسه إلى هذا الحد المتطرف، إذ إنه كان قسيسا كما أنه بقي كذلك حتى نهاية حياته، وكان يرى أن ا حاضر روحيا إن لم يكن حضوره ماديا في الحيز المقدس؛ ولكن مبدأ أثار مسألة دفعت الناس بقوة حتى أبعدتهم عن وجهات نظره. وإذا نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر المؤرخ رأينا الكفاح مع روما الذي بدأه ويكليف سرعان ما أصبح كفاحا ناشبا بين ما قد نسميه الديانة العقلانية أو ديانة الرجل العلماني، التي أخذت تحتكم إلى ما للبشرية من ذكاء حر وضمير حر- وبين الديانة المستبدة التقليدية الطقوسية الكهنوتية. وكان الاتجاه النهائي في هذا الكفاح المعقد هو تجريد المسيحية حتى تصبح كالإسلام عارية تماما من كل أثر من آثار الكهانة العتيقة، والانقلاب إلى وثائق الكتاب المقدس بوصفها حجة يستند إليها وإلى استرجاع تعاليم يسوع الأصلية إن كان ذلك في الإمكان. ولا يزال غالب ما أثير في ذلك الكفاح من خصومات قائما لم يفصل فيه بين المسيحيين حتى يومنا هذا.

ولم تكن كتابات ويكليف أعظم أثرا في أي مكان منها في بوهيميا. ففي قريب من (١٣٩٦) ألقى عالم تشيكي اسمه جون هس؛ سلسلة من المحاضرات في جامعة براج تقوم على مبادئ المعلم الأكسفوردي العظيم. وعين هس عميدا للجامعة، وأثارت تعاليمه الكنيسة حتى أصدرت عليه قرار الحرمان (١٤١٢).

كان هذا في إبان "الصدع الكبير"، قبيل انعقاد مجلس كونستانس (١٤١٤ – ١٤١٨) للبحث فيما تردت فيه الكنيسة من فوضى شائنة. وقد حدثناك آنفًا كيف انتهى الصدع بانتخاب مارتن الخامس. وكان المجلس يطمح أن يعيد إلى المسيحية وحدتها إعادة كاملة. ولكن الوسائل التي حاول بها إعادة تلك الوحدة لا تتفق وضميرنا العصري. فإنه قضى بإحراق عظام ويكليف. واستدرج هس حتى ذهب إلى كونستانس منخدعا بوعد منهم بضمان سلامته، وعند ذلك قدم للمحاكمة بتهمة الزندقة (الهرطقة). وأمر أن يسحب بعض آرائه. فأجاب بأنه لا يستطيع أن يسحب شيئًا حتى يقنعوه بخطئه. فأبلغوه أن من واجبه أن يسحب أقواله إذا طلب ذلك إليه رؤساؤه، اقتنع أم لم يقتنع. فأبى أن يقبل هذا الرأي. وبالرغم من ضمان الإمبراطور لسلامته، فإنه أحرق حيا (١٤١٥)، فذهب شهيدا من أجل مبدأ معين، بل من أجل ذكاء البشرية الحر وضميرها الحر.

ومن المستحيل أن يعرض الإنسان النزاع بين القسيس وعدو القسيس على صورة أوضح مما تجلى في محاكمة جون هس هذه، أو أن يوضح شيء أكثر منها الروح الشريرة المنبثة في أساليب رجال الكهنوت. وفي السنة التالية أحرق زميل لهس هو جيروم البراجي.

وتمخضت هذه الاعتداءات عن عصيان قام به أتباع هس في بوهيميا (١٤١٩)، وهو أول حلقة في سلسلة من حروب دينية تسجل انقسام المسيحية. وفي (١٤٢٠) أصدر البابا مارتن الخامس مرسوما يعلن حربا صليبية "للقضاء على جميع أتباع ويكليف وهس وكل من عداهم من الهراطقة في بوهيميا"، واستهوت هذه الدعوة الجنود المرتزقة العاطلين وكل وغد عاطل من أعوان السوء المتجولين في أوربا فأطبقوا على القطر الشجاع من كل صوب. فوجدوا في بوهيميا تحت قيادة زعيمها العظيم زيسكا، متاعب أكثر وغنائم أقل مما يطمع الصليبيون أن يلقوه. وكان أتباع هس يدبرون أمورهم على أسس ديمقراطية متطرفة، وانبعثت الحماسة متأججة ضراما في البلاد جمعاء. وحاصر الصليبيون مدينة براج ولكنهم فشلوا في الاستيلاء عليها: ولقوا

سلسلة من الهزائم انتهت بتراجعهم عن بوهيما. وجرت حرب صليبية ثانية (١٤٢١) لم تكن أكثر توفيقًا مـن سابقتها. وكذلك أخفقت حربان صليبيتان أخريان، ثم حدث لسوء الحظ أن دب بين الهسيين دبيب الخلافـات الداخلية. وتشجع الصليبيون بهذا النزاع فعبرت الحدود قوة خامسة (١٤٣١) بقيادة فردريـك مـارجريف [1] براندنبرج.

وكان جيش هؤلاء الصليبيين يتكون – حسب أقل التقديرات – من ٩٠ ألفًا من المشـاة، و ٤٠ ألفًـا مـن الفرسان. ولما كانوا يهاجمون بوهيميا من الغرب فإنهم ألقوا الحصار أولاً على تاخوف (Tachov)، ولكنهم وقد فشلوا في الاستيلاء على تلك المدينة المنيعة التحصين، فتحوا عنوة مدينة مست الصغيرة، وفيهـا وفـي الريف المحيط بها، اقترفوا من الفظائع أنكرها، مع سكان كان قسم كبير منهم بريئًا تمام البراءة من التشـيع لأي لاهوت.

وواصل الصليبيون توغلهم في بوهيميا وهم يسيرون سيرا بطيئًا، حتى أصبحوا على مقربة مـن مدينـة دومازليك (تاوس). "وكان أن حدث في الساعة الثالثة من اليوم الرابع عشر من أغسطس (١٤٣١)، أن تلقى الصليبيون وقد عسكروا في السهل الواقع بين دومازليك وهورسوف تاين – الأخبار بأن أتباع هس يقتربـون تحت قيادة بركوب الكبير. ومع أن البوهيميين كانوا لا يزالون على مبعدة أربعة أميال، فإن جلجلة عربـاتهم الحربية وأغنيتهم: أيها المحاربون في سبيل ا – التي كان جيشهم العرمرم ينشدها بأجمعه – كانت مسموعة واضحة للآذان". عند ذلك تبخرت حماسة الصليبيين بسرعة مدهشة. ويصف لوتزو [2] كيف اعتلى منـدوب البابا ودوق سكسونيا تلا يستطيعان منه الاطلاع على الميدان. فعرفا من بوادره أنه لن يكون معترك قتـال. ذلك أن المعسكر الألماني كان في اضطراب تام. فكان الخيالة ينثالون منصرفين عنه في كل صوب، وكانت جلجلة المركبات الخالية وهي تساق خارج الميدان، تكاد تطغى على ذلك الغناء الرهيب. وكـان الصـليبيون يتخلون عن كل شيء حتى غنائمهم. وجاءت رسالة من مارجريف براندنبرج ينصح فيها بالهرب؛ فلـم يعـد هناك من سبيل إلى السيطرة على أي فريق من جنودهم. فكأنهم لم يعودوا الآن خطرين إلا على جانبهم هـم دون غيرهم. وقضى مندوب البابا ليلة غير سعيدة مختبئًا منهم في الغابة... وهكـذا كانـت نهايـة الحملـة الصليبية البوهيمية.

وفي (١٤٣٤) نشبت الحرب الأهلية مرة ثانية بين أتباع هس وانتهت بهزيمة القسـم المتطـرف الأشـد شجاعة، وعقد اتفاق في (١٤٣٦) بين مجلس بال وبين الهسيين المعتدلين، سمح فيه للكنيسة البوهيميـة بـأن تحتفظ بفروق معينة تميزها عما يمارسه الكاثوليك عامة، وهي تسوية ظلت سارية حتى أوان الإصلاح الديني الألماني في القرن السادس عشر.

---

[1] مارجريف (Margrave) لقب لأمراء بأعيانهم في الدولة الرومانية المقدسة. (المترجم)

[2] كتاب بوهيميا تأليف لوتزو.

٣- الطاعون الكبير وبزوغ فجر الشيوعية

كان الانقسام بين أتباع هس راجعا في معظم أمره إلى اتجاه القسم المتطرف منهم إلى اعتناق نوع بدائي من الشيوعية أزعج طبقة النبلاء التشيكيين الأوفر ثروة ونفوذًا. ومن قبل ذلك ظهرت نزعات مشابهة لهذه بين أتباع ويكليف من الإنجليز. ويلوح أن تلك النزعات تجيء كنتيجة جد طبيعية لمبادئ المساواة والأخوة الإنسانية التي تنبعث حيثما حدثت محاولة للعودة إلى القواعد الأساسية للمسيحية.

ومما ساعد على زيادة التطور في هاته الفكرات زيادة عظيمة كارثة هائلة اجتاحت العالم وكشفت عن أسس الجماعة الإنسانية كشفًا ذريعا جردها تماما للعيان. وهي وباء لم يسمع الناس بمثل ذراعته وفتكه. أطلق عليه الناس اسم الموت الأسود، وقد أوشك أن يقضي على البشرية أكثر من أي شر أصابها قبل ذلك. كان أشد فتكًا بكثير من طاعون بريكليس، أو طاعون ماركوس أوريليوس، أو موجات الطاعون في أيام جستنيان وجريجوري العظيم التي مهدت السبيل أمام اللومبارد في إيطاليا. نشأ ذلك الوباء في جنوب الروسيا أو آسيا الوسطى، وانتقل بطريق بلاد القرم وبوساطة سفينة جنوية إلى جنوة وأوربا الغربية. ومر من أرمينية إلى آسيا الصغرى ومصر وشمال أفريقيا. ووصل إلى إنجلترة في (١٣٤٨). فمات به كما يحدثوننا ثلثا الطلاب بأوكسفورد، ويقدر عدد من هلك به في ذلك الأوان بما يتراوح بين ربع ونصف سكان إنجلترة. وكان عدد الوفيات في كل أرجاء أوربا كافة يقارب هذا المقدار في العظم. ويقدر هِكَر مجموع الموتى بخمسة وعشرين مليونًا. وانتشر الوباء شرقًا إلى الصين حيث تقول السجلات الصينية إن ثلاثة عشر مليونًا من الأنفس هلكوا. ويقول الدكتور ك. ستاليبراس: إن هذا الطاعون وصل الصين بعد ظهوره لأول مرة في أوربا بثلاثين أو أربعين سنة. ولقيه ابن بطوطة الرحالة العربي الذي أقام في الصين من (١٣٤٢ إلى ١٣٤٦) – لأول مرة وهو في طريق عودته إلى دمشق. والموت الأسود هو الصورة البشرية لمرض متوطن بين اليرابيع [1] والقوارض الصغيرة الأخرى في المناطق المحيطة برأس بحر قزوين. وبلغ من شدة الاضطراب الاجتماعي المترتب عليه في الصين أن أهملت جسور الأنهار. فغمرت الفيضانات العظيمة – نتيجة لهذا – الأراضي الزراعية المزدحمة بالسكان.

ولم يسبق للإنسانية أن تلقت قبل ذلك تحذيرا على مثل هذه الدرجة من الوضوح يحدوها على طلب المعرفة والكف عن المنازعات وإلى الاتحاد ضد قوى الشر في الطبيعة. وما كانت جميع مذابح هولاكو وتيمورلنك تعد شيئًا بالقياس إلى هذا. ويقول ج. ر. جرين "إن فتكاته كانت أشد ما تكون عنفًا في المدن الكبرى حيث كانت الشوارع القذرة التي لا تصريف لمياهها تهيئ للجزام والحمى مباءة لا ينضب معينها. ويقال إنه دفن أكثر من خمسين ألف جثة في الجبانة التي اشتراها السير والتر ماني بدافع التقوى لسكان مدينة لندن، وهي التي يحدد موضعها فيما بعد بموضع الشارتر هاوس [2] (Charter House). وهلك آلاف من الناس في نورويتش (Norwich) على حين لم يستطع الأحياء بمدينة بريستول أن يدفنوا الموتى إلا بشق النفس.

---

[1] اليربوع: دويبة نحو الفأرة لكن ذنبه وأذناه أطول منها ورجلاه أطول من يديه. (المترجم)

[2] ملجأ بلندن للمسنين المتقاعدين. (المترجم)



(شكل ١٥٥) مشاهد من حياة الفلاحين منقولة عن أحد كتب الأدعية

"على أن الموت الأسود قد انقض على القرى بقوة تقارب في عنفها حالته في المدن. والمعروف أن أكثر من نصف قسوس يوركشير لقوا حتفهم؛ وخلت مناصب ثلثي الأبروشيات في أسقفية نورويتش فشغلها آخرون. وفسد نظام العمل بأكمله. وصار من العسير على صغار المستأجرين أن يقوموا بالخدمات اللازمة لأراضيهم لقلة اليد العاملة، ولم يحمل الفلاحين على الامتناع عن هجر مزارعهم إلا تنازل أصحاب الأراضي تنازلا مؤقتًا عن نصف الإيجار. وأصبحت الزراعة مستحيلة ردحا من الزمان. ويقول معاصر: إن الأغنام والماشية كانت تهيم على وجوهها في الحقول والقمح لا تجد من يتصدى لدفعها".

ومن هذه النوازل نشأت حروب الفلاحين في القرن الرابع عشر. إذ حدث هناك نقص كبير في اليد العاملة ونقص كبير في السلع، وكان الرهبان الأغنياء والأديرة الثرية الذين كانوا يملكون قدرا عظيما من الأراضي، والنبلاء والتجار الموسرون، من الجهل بالقوانين الاقتصادية بحيث لم يدركوا أنه لا يحسن بهم أن يضغطوا على العمال الكادحين في زمان المحنة العامة ذاك. فرأوا أملاكهم تتداعى ورأوا أراضيهم تبور ولا تزرع، وأصدروا اللوائح القاسية لإجبار الرجال على العمل دون أية زيادة في الأجور ولمنع فرارهم بحثًا عن عمل أفضل. وطبيعي جدا أن يستثير هذا تمردا جديدا على نظام عدم المساواة الاجتماعي بأكمله وهو الذي ظل حتى ذلك اليوم معمولاً به لا يناقشه أحد حسابا بوصفه النظام الذي قضت به الإرادة الإلهية للعالم. ووجدت صيحة الفقراء ترجمانًا فظيعا هو قسيس "قسيس مجنون من كنت" – كما يسميه فرواسار [1] (Froissart) المؤرخ (١٣٦٠ – ١٣٨١) – فإن هذا القسيس ظل عشرين سنة يلتقي بالفلاحين الأشداء الذين كانوا يجتمعون في أفنية كنائس كنت ويجد فيهم جمهورا يستمع لمواعظه التي تحدى بها الحرمان الديني والسجن. ومهما يكن مجنونًا، كما كان أصحاب الأراضي يسمونه، فلقد أصغت إنجلترة لأول مرة في مواعظ جون بول (John Ball) إلى إعلان بالمساواة الطبيعية وحقوق الإنسان وكان ذلك الواعظ يصيح: "أيها الناس الطيبون، لن تستقيم الأمور في إنجلترة ما ظلت السلع في غير متناول الجميع، وطالما كان هناك سوقة وسادة (جنتلمانية). فبأي حق يكون من نسميهم لوردة [2] أناسا أعظم منا؟ وعلى أي أساس استحقوا ذلك؟ ولماذا يتخذون منا موالي للأرض؟ وما دمنا جميعا ننحدر من أب واحد وأم واحدة، من آدم وحواء، فأني كان لهم

---

[1] هو جان فرواسار (١٣٣٨ – ١٤١٠) المؤرخ الفرنسي، الذي عاش بفرنسا وانجلترة ومات قسيسا لشيماي. (المترجم).

[2] اللوردة: جمع لورد، كما أن الجنتلمانية جمع جنتلمان. (المترجم).

أن يقولوا أو يقيموا البرهان على أنهم خير منا؟ إن لم يكن لأنهم يجعلوننا نكسب لهم بكدحنا ما ينفقونـه فـي كبريائهم؟ فهم يرتدون القطيفة ويستدفئون بفرائهم وقاقمهم (١) الثمين، على حين لا تستر أبداننا إلا الأسـمال؟ لهم الخمر والأفاوية والخبز الأبيض، فأما نحن فأقراص الشوفان مطعما والوقش مرقدا والماء شرابا. ولديهم أوقات الفراغ والمنازل الجميلة. ولدينا الألم والنصب والعمل، والريح والمطر في الحقول. ومع ذلـك فمنـا وعلى أكتاف كدحنا يحتفظ هؤلاء الناس بما هم عليه من أبهة". وثمة نغم قتال لنظام العصور الوسطى بأكمله انطلق في أغنية شعبية فبلور مبدأ التسوية الذي قال به جون بول وهو "عندما كان آدم يعزق الغيطان وتغزل حواء الخيطان من ذا كان الجنتلمان؟".

واغتيل، وات تيلر (Wat Tyler) زعيم العصاة الإنجليز على يد عمدة لنـدن بحضـرة الملـك الشـاب ريتشارد الثاني (١٣٨١) فانهارت حركته.

وكانت الناحية الشيوعية في حركة أتباع هس فرعا من تلك المجموعة من الاضطرابات. وحـدث قبيـل شبوب الثورة الإنجليزية، أن شبت نار "الجاكري الفرنسـية Jacquerie (١٣٥٨) وهـي ثـورة الفلاحـين الفرنسيين التي قاموا فيها بإحراق القصور والعيث فسادا في نواحي الريف المحيطة بهم. وقدر لـنفس ذلـك الدافع الملح أن يجتاح ألمانيا بعد ذلك بقرن من الزمان جارفًا إياها في سلسلة من حروب الفلاحين الداميـة. وابتدأت هذه الحروب متأخرة في القرن الخامس عشر. وكانت الاضطرابات الاقتصادية والدينيـة مختلطـة بعضها ببعض. حالة ألمانيا على صورة أوضح منها في حالة إنجلترة.

وهناك دور بارز لهذه الاضطرابات الألمانية هو ثورة التعميديين (٢). ظهرت شيعة التعميديين في وتنبرج (١٥٢١) برياسة ثلاثة "أنبياء" وانقلبت إلى عصيان (١٥٢٥). وظل العصاة بين (١٥٣٢ – ١٥٣٥) قابضين على مدينة مونستر (Munster) بمقاطعة وستفاليا، وبذلوا قصاراهم لتحقيق فكراتهم الخاصة بشيوعية دينية. فحاصرهم أسقف مونستر، ودب في المدينة تحت ضغط ويلات الحصار ضرب من الجنون، فيقال إنهم أكلوا لحوم البشر، وقبض على السلطة شخص معين يدعي جون الليدني (Leydén)، وأعلن نفسه خليفـة للملـك داود، واقتدى بقدوة ذلك العاهل السيئة بممارسته تعدد الزوجات. وبعد تسليم المدينة أمر الأسـقف المظفـر بزعماء التعميديين فعذبوا تعذيبا مرعبا جدا، ثم أعدموا في ساحة السوق، وعلقت جثثهم بعد التمثيل بها فـي أقفاص مدلاة من برج إحدى الكنائس لتشهد أمام العالم أجمع أن الوقار والنظام قد أعيدا إلى مونستر....!!

---

(١) القاقم: فراء حيوان من فصيلة بنات عرس. (المترجم)

(٢) التعميديون Anabaptists: طائفة دينية كانت تعتقد بوجوب التعميد بالغمر الكامل في الماء المقدس، ووجوب إعادة التعميد عند سن الشاب. (المترجم).

هذه الثورات التي قام بها العمال العاديون في الأقطار الأوربية الغربية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، كانت أكثر خطورة وأطول أمدا من كل ما سبقها من أحداث التاريخ. وأقرب الأحداث السـابقة شـبها بها، حركات إسلامية شيوعية حدثت في فارس. وقد حدثت ثورة للفلاحين في نورماندي قرابـة (١٠٠٠م)، كما حدثت ثورات للفلاحين (باجوداي Bagoudae [1]) في الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ولكن هذه لـم تقارب تلك في ضخامتها وشناعتها، وهي كلها تظهر روحا جديدة تنمو في الشئون الإنسـانية، وهـي روح مخالفة تمام المخالفة لبلادة الإحساس المستسلمة التي طبع عليها موالي الأرض والفلاحون فـي الأراضـي الأصلية للمدنية، أو لحالة اليأس الفوضوية لدى موالي الأرض والأرقاء العمال عند الرأسماليين الرومان.

كانت كل هذه من عصيانات العمال المبكرة التي ذكرنا تقمع بقساوة بالغة، بيد أن الحركة نفسها لم تخمد قط إخمادا تاما. فمنذ ذلك الحين إلى هذا الزمان وروح التمرد موجود في المستويات الدنيا من هرم المدنيـة. نعـم كانت هناك أدوار عصيان، وأدوار كبح؛ وأدوار تفاهم ومسالمة نسبية، ولكن الكفاح لم ينقطع قط انقطاعا تامـا منذ ذلك الأوان إلى وقتنا هذا، فلسوف نراه مندلعا أثناء الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر، وسيشتعل مرة ثانية في منتصف القرن التاسع عشر وعند مفتتح الربع الأخير منه، ونراه يصل إلى نسب ضخمة في عالم اليوم. ولم تكن الحركة الاشتراكية في القرن التاسع عشر إلا صورة من ذلك التمرد المتواصل.

وقد حدث في بعض الأحيان أن حركة العمال هذه اتخذت في كثير من الأقطار، كفرنسا وألمانيا والروسيا مثلا خطة العداء للمسيحية، ولكن لا مجال للشك أن هذا الضغط المستمر المتزايد إجمالاً الذي يظهره الرجل العادي في الغرب ضد حياة المشقة والنصب والتبعية للغير يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالتعاليم المسيحية. وربما لـم تقصد الكنيسة ولا المبشرون المسيحيون أن ينشروا مبادئ المساواة، ولكن كان من وراء الكنيسـة شخصـية يسوع الناصري التي لا يمكن إخماد نارها ولا إخفاء ضيائها، فالواعظ المسيحي كان يجتاب معه، وإن بالرغم منه، بذور الحرية والمسئولية، ولا بد لها إن عاجلاً أو آجلاً من أن تنبت وتربو حيثما بشر.

ولا شك أن هذا الجيشان المتواصل المطرد الزيادة في نفوس "العمال"، وإنماءه فيهم وعيا بأنفسهم كطبقـة خاصة وبثه فكرة مطالبة العالم في جملته بمطالب محددة، فضلاً عن كثرة وجود المدارس والجامعات وعـن كثرة وجود الكتب المطبوعة ووفرتها، وفضلاً عن قيام عمليات للبحث العلمي متطورة متوسعة، هـذه كلهـا أمور تفرق بين طراز مدنيتنا الحاضرة "المدنية العصرية" وبين أية حالة سابقة مرت بها الجماعة الإنسـانية، كما أنها تسجل عليها أنها شيء موقوت غير متقن بالرغم من كل ما نالته من نجـاح عـارض جـاء وليـد الصدفة. فهي جنين لم يتخلق بعد صورة سوية أو لعلها شيء محتوم عليه الموت. ذلك بأنها ربما اسـتطاعت أن تحل هذه المسألة المعقدة. مسألة التوفيق بين الكدح والسعادة، وبذلك توفق بين نفسها واحتياجات الـروح الإنسانية، أو هي ربما فشلت وانتهت بكارثة شأن النظام الروماني. وربما كانت دور افتتاح لنظام للجماعـة البشرية أكثر اتزانًا وأوجب للرضى، وربما كانت طريقة مقدرا لها أن تتمزق، وأن تحل محلها طريقة ما من الترابط الإنساني مدبرة بشكل مخالف لهذا.

---

[1] الباجوداي هم جماعات الفلاحين الذين ثاروا على دولة الروم الشرقية بين القرن الثالث والخامس الميلادي. (المترجم).

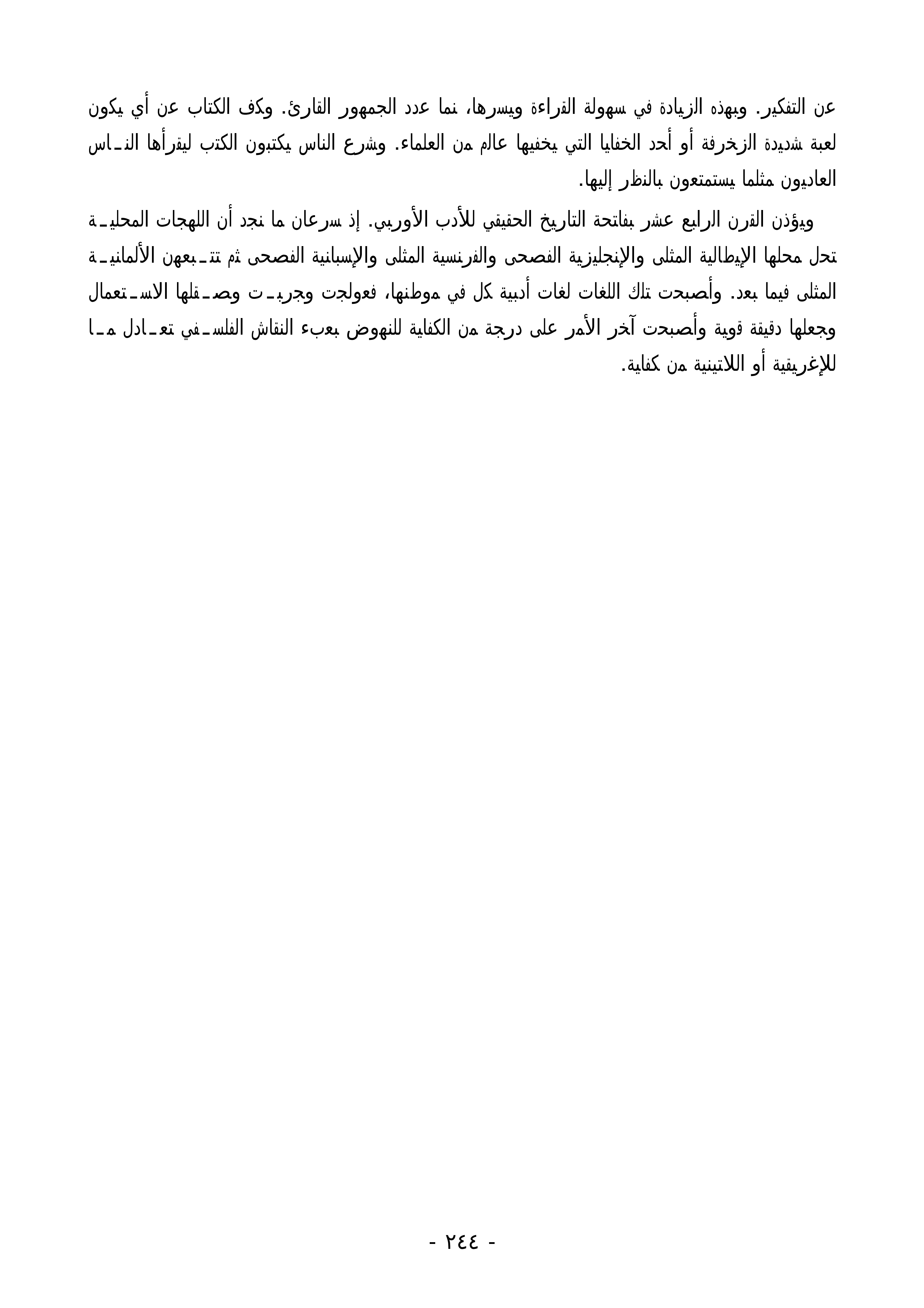
وربما لم تزد مدنيتنا الراهنة شأن سابقتها، عن واحد من تلك المحصولات التي يزرعها الفلاحون لتحسين تربة أراضيهم بواسطة تثبيت الأزوت (النتروجين) المستخلص من الهواء. وربما لم تـنم – مجمعـةً تقاليـد بأعيانها إلا لكي تحرث في الأرض ثانية طلبا يتلو ذلك من نبت أفضل منها. إن هذه المسائل إنما هي حقائق التاريخ العملية. وسنجدها في كل ما يتلو هذا في صورة أكثر وضوحا وأعظم أهمية حتى تنتهي في فصـلنا الأخير، كما تنتهي أيامنا وأعوامنا، باستعراض لآمالنا ومخاوفنا – وبعلامة استفهام.

٤- كيف حرر الورق عقل الإنسان

كان ظهور الكتب المطبوعة عونًا هائلاً لتطور البحث الحر في أوربا أثناء هذا العصـر المتـرع بـالقلق والتخمر، وكان استقدام الورق من الشرق هو الذي جعل في الإمكان الوصول إلى طريقة الطباعة التي كمنت كمونًا طال أمده. ولا يزال من العسير علينا تعيين صاحب شرف السبق إلى استعمال الوسيلة البسيطة، وسيلة الطباعة لتكثير الكتب. وإنه لأمر تافه جرى حوله جدل طويل وعقيم. على أن ظواهر الأمور تومئ إلـى أن ذلك المجد أيا ما كان أمره من نصيب هولندة إذ كان في هارلم شخص يدعي كوستر يطبع بحروف متحركة في زمان ما يسبق (١٤٤٦). على أن جوتنبرج كان يقوم بأعمال الطباعة في ماينز (Mainz) في نفس ذلك الوقت تقريبا. وكان هناك طابعون في إيطاليا في (١٤٦٥)، كما أن كاكستُن أقام مطبعتـه فـي وستمنسـتر (١٤٧٧). وتاريخ أول كتاب طبع في هنغاريا هو (١٤٧٣). على أنه كان يجري قبل ذلك الزمان بأمد مديـد استعمال جزئي للطباعة. فإن مخطوطات ترجع إلى القرن الثاني عشر تظهر بها حروف في بداية الفقـرات ربما كانت مطبوعة عن أختام خشبية.

وأهم من هذا كثيرا موضوع صناعة الورق. ولا يكاد يكون من المبالغة، القول بأن الورق جعـل إحيـاء أوربا أمرا في حيز الإمكان. اخترع الورق في الصين، حيث يرجع استعماله في الراجح إلى القرن الثاني ق. م. وفي (٧٥١) قام الصينيون بهجوم على العرب المسلمين في سمرقند؛ فصدهم العرب وأسـروا بعضـهم، وكان بين الأسرى جماعة من مهرة صناع الورق، ومنهم تعلم العـرب تلـك الصـنعة. ولا تـزال هنـاك مخطوطات على ورق عربي يرجع إلى القرن التاسع فما تلاه. ودخلت الصناعة في الـبلاد المسـيحية إمـا بطريق بلاد الروم أو بالاستيلاء على مصانع الورق العربية (المغربية) إبـان اسـتعادة المسـيحيين أرض إسبانيا. ولكن الإنتاج انحط في ظلال الإسبان المسيحيين انحطاطًا محزنًا. ولم يصنع الجيد من الـورق فـي أوربا المسيحية حتى قريب من نهاية القرن الثالث عشر، وعند ذلك كانت إيطاليا زعيمة العالم في صـناعته. ولم تصل تلك الصناعة إلى ألمانيا إلا عند القرن التاسع عشر، ولكنها لم تصل إلا في نهاية ذلك القرن إلـى الحد الكافي من الوفرة والرخص الذي يجعل من ممارسة طباعة الكتب حرفـة تجاريـة ناجحـة. وسـارت الطباعة منذ ذلك الحين سيرها الطبيعي الضروري، ودخلت الحياة الفكرية للعالم في دور جديد أكثـر قـوة بكثير، وكفت عن أن تكون رشحا طفيفًا تنتقل قطراته من عقل إلى عقل، وأصبحت فيضانًا عميما، تساهم فيه آلاف من العقول ما لبثت أن صارت – على الفور – عشرات آلاف ثم مئات آلاف.

وكانت هناك نتيجة مباشرة لهذا النجاح في مضمار الطباعة هي ظهور عدد موفور مـن نسـخ الكتـاب المقدس في العالم. وثمة أخرى هي جعل ثمن الكتب المدرسية زهيدا. وانتشرت المعرفة بـالقراءة انتشـارا سريعا. إذ لم يقتصر الأمر على زيادة عظيمة في عدد الكتب في العالم، بل إن الكتب التي أصـبحت تصـنع عند ذاك، أضحت أوضح قراءة وبذلك كانت أيسر فهما. وبدلاً من العناء والكدح فوق نص عويص (معقرب) الخط ثم التفكير في معناه، أصبح القراء عند ذاك يستطيعون أن يفكروا وهم يقرءون – دون أن يعوقهم عائق



عن التفكير. وبهذه الزيادة في سهولة القراءة ويسرها، نما عدد الجمهور القارئ. وكف الكتاب عن أي يكون لعبة شديدة الزخرفة أو أحد الخفايا التي يخفيها عالم من العلماء. وشرع الناس يكتبون الكتب ليقرأها النـاس العاديون مثلما يستمتعون بالنظر إليها.

ويؤذن القرن الرابع عشر بفاتحة التاريخ الحقيقي للأدب الأوربي. إذ سرعان ما نجد أن اللهجات المحليـة تحل محلها الإيطالية المثلى والإنجليزية الفصحى والفرنسية المثلى والإسبانية الفصحى ثم تتـبعهن الألمانيـة المثلى فيما بعد. وأصبحت تلك اللغات لغات أدبية كل في موطنها، فعولجت وجربـت وصـقلها الاسـتعمال وجعلها دقيقة قوية وأصبحت آخر الأمر على درجة من الكفاية للنهوض بعبء النقاش الفلسـفي تعـادل مـا للإغريقية أو اللاتينية من كفاية.



٥- بروتستانتية الأمراء وبروتستانتية الشعوب

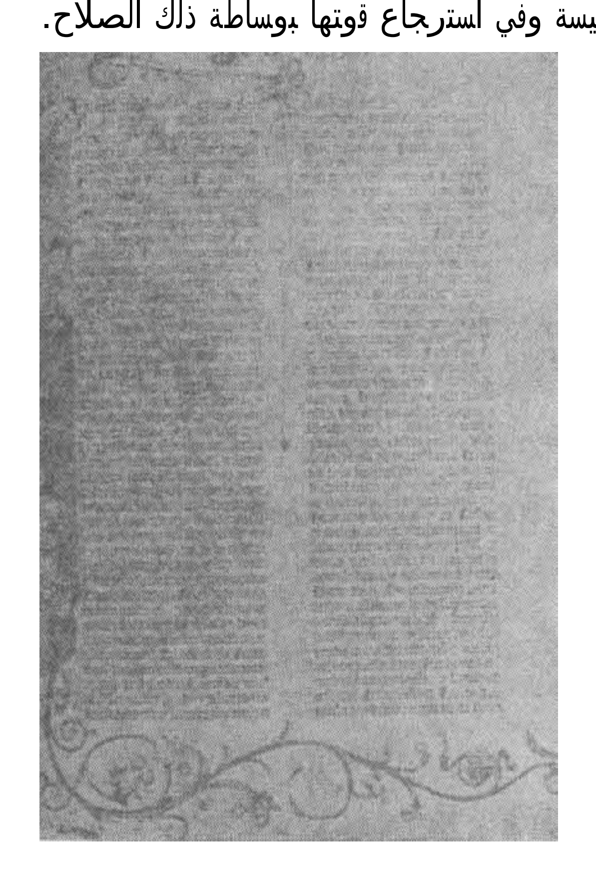
هنا نورد كلمة موجزة عن الحركة التي حدثت في فكرات الناس الدينية أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وهي مقدمة لا بد منها للتاريخ السياسي الذي يعقب ذلك في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

غير أنه لا بد لنا أن نميز تمييزا واضحا بين طريقتين مختلفتين كل الاختلاف لمعارضة الكنيسة الكاثوليكية. وهما تتشابكان على مر الأيام تشابكًا يورث التبلبل والحيرة كانت الكنيسة تفقد سيطرتها على ضمائر الأمراء وذوي اليسار والاقتدار من الناس، كذلك شرعت تفقد إيمان عامة الناس بها وثقتهم فيها. وكان من نتيجة انحطاط سلطانها الروحي على الطبقة الأولى أن جعلتهم ينكرون تدخلها في شئونهم وقيودها الخلقية عليهم ومدعياتها بالسيادة العليا فوقهم وادعاءها الحق في فرض الضرائب وفي حل ارتباطات الولاء. لذلك كفوا عن احترام ما لها من سلطان وممتلكات. ولقد ظل هذا الخروج عن الطاعة يصدر عن الأمراء والحكام طوال العصور الوسطى بأكملها، بيد أن الأمراء لم يشرعوا في التفكير جديا في الانفصال عن المذهب الكاثوليكي وإقامة كنائس جزئية منفصلة، إلا عندما أخذت الكنيسة في القرن السادس عشر تنضم علنًا لخصمها القديم: الإمبراطور، عندما قدمت إليه التأييد وقبلت منه المساعدة لها في حملتها على الهرطقة. وما كانوا ليقدموا على ذلك أبدا لولا أنهم أيقنوا أن سيطرة الكنيسة على أذهان الجماهير قد ضعفت.

وكان تمرد الأمراء بالضرورة تمردا لادينيا على حكم الكنيسة الشامل للعالم أجمع. وكان الإمبراطور فردريك الثاني هو الطليعة السباق إلى ذلك برسالاته إلى نظرائه الأمراء. وكانت ثورة الشعب على الكنيسة من الناحية الأخرى، دينية بالضرورة كذلك. فلم يكن اعتراضهم على قوة الكنيسة بل على مساوئها ونواحي الضعف فيها. وكانوا يريدون كنيسة شديدة الصلاح والشجاعة لكي تعينهم وتنظمهم ضد شرور الأقوياء. وكانت حركات تمردهم على الكنيسة سواء أكانت في داخلها أو خارجها حركات لا يقصد بها الفكاك من الرقابة الدينية بل طلب رقابة دينية أتم وأوفى. لم يطلبوا رقابة دينية أقل بل طالبوا بالمزيد منها – ولكنهم أرادوا أن يتحققوا من أنها دينية وقد اعترضوا على البابا لا لأنه الرأس الديني للعالم بل لأنه لم يكن كذلك، أي لأنه كان أميرا ثريا دنيويا بينما كان يجب أن يكون قائدهم الروحي.

من أجل ذلك كان النزاع في أوربا منذ القرن الرابع عشر نزاعا ذا ثلاثة أركان، فالأمراء يريدون أن يستعملوا القوى الشعبية ضد البابا، على ألا يسمحوا لتلك القوى أن تقوى وتطغى على قوتهم ومجدهم وظلت الكنيسة زمنًا مديدا تنتقل من أمير إلى أمير طلبا يحالفها دون أن تدرك أن الحليف المفقود الذي عليها أن تسترده إنما هو توقير الشعب لها.

ومن أجل هذا الوضع الثلاثي للمنازعات الفكرية والخلقية التي تواصلت إبـان القـرون الرابـع عشـر والخامس عشر والسادس عشر، فإن سلسلة التغييرات المترتبة عليها، تلك التغييرات التي يعرف مجموعهـا في التاريخ باسم الإصلاح الديني (Reformation) اتخذت وضعا مثلث الأشكال. فكـان هنـاك الإصـلاح الديني كما يراه الأمراء، الذين كانوا يريدون أن يقفوا انثيال النقود إلى روما، وأن يسـتولوا علـى السـلطة الخلقية، والنفوذ التعليمي، وما للكنيسة من ممتلكات مادية داخل إماراتهم. وكان هناك الإصلاح الـديني كمـا يراه الشعب الذي كان يبتغي أن يجعل المسيحية قوة تناهض الفسوق وعدم التقوى، وتناهض بخاصة فسـوق أهل الثراء والقوة. وأخيرا كان هناك الإصلاح الذي كان القديس فرنسيس الأسيسي بشيرا به ورائدا، والـذي جهد في استرجاع صلاح الكنيسة وفي استرجاع قوتها بوساطة ذلك الصلاح.



(شكل ١٥٦) صفحة من طبعة جوتنبرج للكتاب المقدس

واتخذ الإصلاح الديني حسبما يراه الأمراء صورة إحلال الأمير، بوصفه رأس الديانـة والرقيـب علـى ضمائر شعبه، محل البابا ولم يكن يخالج الأمراء أية نية ولا فكرة عن إطلاق سراح عقـول رعايـاهم كـي تتولى الحكم على الأشياء، وبخاصة وقد مثل أمام أعينهم نموذج الهسيين والتعميديين مجسما قويا، فحاولوا أن يؤسسوا كنائس قومية تعتمد على صاحب التاج. ولما أن انفصلت إنجلتـرة واسـكتلندة والسـويد والنـرويج والدانمارك وشمال ألمانيا وبهيميا عن الارتباط بروما، أظهر الأمراء وغيرهم من الوزراء أقصى بوادر القلق والاهتمام بحفظ زمام الحركة في قبضة أيديهم. ذلك أنهم كانوا لا يسمحون من الإصـلاح إلا بالقـدر الـذي يمكنهم من فصم العلاقة مع روما. فأما ما تجاوز ذلك، وأما أي انفصام خطر يتجه بالأفكار إلى تعاليم يسوع

البدائية، أو التفسير الفج المباشر للكتاب المقدس، فأمور كانوا يقاومونها. والكنيسة الإنجليزية الرسمية مثـال لواحد من أبرز وأنجح ما ترتب على ذلك من تسويات. وهي لا تزال كهنوتية قطب رحاها قسيس متكـرس وتدين بالقربان المقدس [1]. ولكن هيئتها التنظيمية تتركز في البلاط وفي قاضي القضاة. ومـع أنـه ربمـا صدرت عن الصفوف الدنيا لرجال الكهنوت فيها الأقل ثراء آراء هدامة – بل الواقع أن ذلك كان يحدث فعلاً – فإن من المستحيل عليهم أن يرتفعوا كفاحا حتى صاوا إلى مناصب النفوذ والسلطان.

على أن الإصلاح الديني حسبما يراه الرجل العادي شيء، والإصلاح لدى الأمراء شيء آخر مختلف جدا في روحه. وقد أسلفنا القول في المحاولات الشعبية في سبيل الإصلاح الديني بكل مـن بوهيميـا وألمانيـا. وكانت الفورات الروحية الفسيحة النطاق (أعني الشعبية) في ذلك الزمان أشرف نفسا وأشد اضطرابا وأثبـت أثرا وأطول عمرا وأقل نجاحا مباشرا عاجلاً من إصلاحات الأمراء. فقد ندر بين ذوي الأرواح المتدينة مـن الرجال، من بلغ من الجرأة أن يخرج على كل تعاليم استبدادية أو بلغ من القحة أن يعترف بأنه خرج علـى ذلك النوع من التعاليم، وأنه أصبح عندئذ يعتمد اعتمادا كليا على عقله وضميره. فإن ذلك كان يحتـاج إلـى شجاعة فكرية عالية جدا. وكان الاتجاه العام للرجل العادي في تلك الفترة في أوربا هو أن يتخذ مـن ذلـك الشيء الذي أحرزه حديثًا، وأعني به الكتاب المقدس، حجة وقوة مضادة للكنيسة. وكان هذا بصفة خاصـة، حال زعيم البروتستانتية الألمانية العظيم مارتن لوثر (١٤٨٣ – ١٥٤٦). فإن الذي كان يجري آنذاك في كل أرجاء ألمانيا، بل في الواقع في كل أنحاء أوربا الغربية؛ أن الناس قد أكبوا على صفحات الحروف السـوداء للكتاب المقدس المترجم حديثًا والمطبوع حديثًا، وعلى سفر اللاويين ونشيد الإنشاد لسليمان ورؤيـا القـديس يوحنا الرسول – وهي كتب غريبة محيرة – يكبون عليها قدر ما يكبون على سيرة يسوع البسيطة الملهمـة في الأناجيل؛ وطبيعي أنهم كانوا يستنتجون آراء عجيبة وتفسيرات مضحكة غريبة، بل إن مما يـدهش لـه الإنسان أنها لم تكن عجيبة أكثر وأشد إضحاكًا وغرابة. ولكن العقل البشري شيء عنيد ولا بد له من أن ينتقد وينتقى بالرغم من كل ما يعقد عليه العزم من تصميم. وقد أخذت جمهرة دارسي الكتاب المقدس هـؤلاء مـا تستحسنه ضمائرهم من الكتاب وتجاهلوا ألغازه ومتناقضاته.

وفي كل أرجاء أوربا، وحيثما أقيمت كنائس الأمراء البروتستانتية: كانت تتبقى للبروتستانت الأقحاح بقية حية ناشطة تأبى أن تصاغ لها ديانتها على تلك الشـاكلة. وكـان هـؤلاء هـم "المخـالفون أو المنشـقون Nonconformists" وهم خليط من الشيع، لا يجمعهم جـامع إلا مقـاومتهم لديانـة أصـحاب السـلطان الاستبدادية سواء أكان مصدرها البابا أم الدولة. فأما في ألمانيا فقد قضى الأمراء على الانشقاق والمنشـقين قضاء تاما في معظم الحالات. فأما بريطانيا فإن حركتهم فيها ظلت قوية ومتنوعة الأشكال. ويلوح أن الكثير من الفوارق بين سلوك الشعبين الألماني والبريطاني يمكن تتبعها وإرجاعها إلى ما تلقاه حرية الرأي وحريـة إصدار الأحكام على الأشياء من كبت بألمانيا.

---

[1] ومعنى ذلك أنه ليس هناك فارق تقريبا بين الكنيسة الإنجليزية والكاثوليكية في العقيدة والمذهب والطقوس وإن اختلف الاسم والرئاسة. (المترجم).

وكان جل هؤلاء المنشقين، ولكن ليس كلهم، يستمسكون بالكتاب المقدس بوصفه مرشدا حـافلاً بالإلهـام القدسي جديرا بالاعتماد عليه بوجه قاطع. وكان موقفهم هذا موقفًا اسـتراتيجيا لا موقفًـا ثابتًـا. والاتجـاه العصري للمنشقين يبتعد يوما بعد يوم عن تلك النزعة الأصلية إلى المغالاة في إجلال الكتاب المقدس، ويتجه نحو التركيز على تعاليم يسوع الناصري المجردة تركيزا معتدلاً مخففًا ملونًا باللون العاطفي. وتوجـد فـي الحضارات العصرية في هذه الأيام أيضا وراء مجال الانشقاق والمنشقين ووراء مجال المسيحية المعتـرف بها، كتلة عظيمة ونامية من أقوام يؤمنون بالمساواة والتكافؤ بين البشر وتمتلئ نفوسهم بالدوافع الغيرية، كتلة لا شك أنها تدين للمسيحية بروحها كما سبق أن أكدنا.

ولنقل الآن كلمة عن الدور الثالث لعملية الإصلاح الديني، وهو الإصلاح الديني داخل الكنيسة [١]. فقد بدأ ذلك الإصلاح فعلا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بظهور جماعتي الرهبان السود والشهب (الفصـل ٣١ القسم ١٤). وظهر في القرن السادس عشر دافع جديد من نفس النوع، جاء والحاجة إليه أشد ما تكـون. وكان ذلك الدافع الجديد هو جمعية يسوع التي أسسها إينيجولوبيزدي ريكالدي الشهير في عالم اليـوم باسـم القديس أغناطيوس لويولا.

(شكل ١٥٧) مارتن لوثر نقلاً عن صورة من عمل هولبين)

استهل إغناطيوس حياته العملية شابا إسبانيا مجتمع القوة عظيم الشجاعة. كان ذكيا حاذقًا تمـلـؤه الحميـة همة وصبرا على المكاره؛ وحبا للمجد في شيء من التفاخر؛ وكانت مغامراته الغرامية كثيرة خلابة. وفـي ١٥٢١ انتزع الفرنسيون من الإمبراطور شارل الخامس مدينة بامبيلونا في إسبانيا، وكان إغنـاطيوس أحـد الذادة عنها. فهشمت إحدى قذائف المدافع ساقيه، وأخذ أسيرا. ورمت عظام إحدى ساقيه على خطـأ، وكـان لزاما أن تكسر من جديد: وأوشكت هذه العمليات المعقدة الأليمة أن تقضي على حياته؛ حتى لقد تلقى السـر المقدس الأخير. ولكنه حين امتد به الليل بعد ذلك أخذ يتحسن وما لبث حتى أصبح في دور النقه، وأخذ يواجه مقدما حياة ربما عاش فيها مقعدا على الدوام. فاتجهت أفكاره إلى خوض تجربة دينية. وتطيف بخاطره فـي

[١] ويسمى أيضا بحركة الإصلاح الديني المضاد Anti-Reformation (المترجم)

بعض الأحايين صورة سيدة ما عظيمة؛ ويخيل إليه أنه سيفوز بإعجابها بالرغم مما به من سوء حال، بعمـل رائع عظيم؛ ويطيف به في أحايين أخرى أن يكون فارس المسيح بطريقة ما خاصة شخصية. وهو يحدثنا أنه بينما هو يضرب في أسداس هذه الخيالات والحيرات؛ إذ استرعت انتباهه في إحدى الليالي وهو راقـد فـي يقظة تامة سيدة عظيمة جديدة، وتمثلت أمامه في الرؤيا، العذراء المباركة مريم، وهي تحمل المسيح الطفـل بين ذراعيها. "وتملكته على الفور كراهية عظيمة لما قدمت يداه في حياته". فعقد النية على أن يهجر كل فكرة عن نساء الدنيا، وأن يحيا حياة عفة مطلقة وإخلاص تام لأم الرب. وقرر الإكثار من الحـج إلـى مختلـف الأماكن المقدسة وأن ينذر نفسه لحياة الرهبنة.

والطريقة التي حلف بها يمين الترهب تظهر أنه كان بحق أخًا ومواطنًا صميما للدون كيشوت!! فبعـد أن استرد عافيته، خرج هائما على وجهه في أرجاء العالم لا يكاد يكون له هدف معين، جنديا مرتزقًا مفلسـا لا يملك من حطام الدنيا إلا سلاحه والبغل الذي يركب، فألقته المقادير في صحبة أحد المغاربـة (مـن عـرب إسبانيا). وسارا معا يتجاذبان الحديث، ثم تنازعا للفور على الدين. وكان المغربي أحسن الـرجلين تعليمـا، فأفحم صاحبه في الجدل، وتفوه بعبارات جارحة عن العذراء مريم وجد من العسير أن يرد عليها، ثم افتـرق عن أغناطيوس فرحا بفوزه عليه. وكانت نفس الشاب فارس "مولاتنا مريم" تغلي خجلاً وسخطًا. فتردد بـين أن يقفو المغربي ويقتله، وبين أن يواصل ما عقد عليه العزم من حج. ولكنه ترك الأمور لبغله عند منشـعب الطريق فكانت في ذلك نجاة المغربي.

ووصل إلى الدير البندكتيني في مونتي سيرات بالقرب من مانريسا، وهناك قلد البطل الذي لا نظير له، أمـاديس دي جول [1] بطل قصة المغامرة الرومانسية في القرون الوسطى، وظل طول ليله سـاهرا أمـام مـذبح العـذراء المباركة. ثم أهدى بغله للدير، وأعطى ثيابه الدنيوية لأحد المتسولين، ووضع سيفه وخنجره على المـذبح وارتـدى ثيابا خشنة من قماش الجوالق وحذاء من الخيش. ثم حمل نفسه إلى إحدى التكايا حيث استسلم لضروب جمـة مـن التعذيب والتقشف. واستمر أسبوعا كاملاً وهو صائم صوما مطلقًا، ثم نهض ليحج إلى الأراضي المقدسة.

وظل بضع سنوات يتجول على غير هدى، وهو مستغرق اللب بفكرة تأسيس عقد جديـد مـن الفروسـية الدينية، دون أن يدري كيف يبدأ هذا المشروع. وأخذ يزداد إحساسا بأميته وجهله. وحظرت عليـه محـاكم التفتيش (Inquisition) – وقد أخذت تهتم بتصرفاته – أن يحاول تعليم الآخرين حتى يقضي ما لا يقل عـن أربع سنوات في الدراسة. وإن التاريخ ليلقي على كاهل محاكم التفتيش من موفور القساوات وعدم التسامح ما يلذ لنا معه أن نسجل أنها في معالجتها أمر ذلك المتحمس الشاب العنيد الواسع الخيال، أظهرت نفسها بمظهر العاطف عليه المتزن التصرف. ذلك أنها أدركت قوته وما يرجي منه من نفع، ورأت أخطار جهالته. فجد في الدرس والتحصيل في سلامنكا وباريس وغيرهما. ونصب قسيسا (١٥٣٨)، وبعد ذلك بسنة تأسست جمعيتـه التي طالما حلم بها تحت اسم "جمعية يسوع". وقد رأت – شأن جيش الخلاص في إنجلترة العصرية – انتهاج أقرب السبل لوضع التقاليد الكريمة لطريقة تنسيق الجيوش ونظامها في خدمة الدين.

---

[1] أماديس ديجول أو (أماديس الغال): قصة رومانسية تصور الفارس المثالي ألفت في القرن ١٣، ١٤ في إسبانيا أو البرتغال. (المترجم)

كان عمر هذا الرجل أغناطيوس لويولا مؤسس جمعية الجزويت (اليسوعيين)؛ سبعا وأربعين سنة، وكان أبعد ما يكون وأشد حكمة وأثبت رؤية من ذلك الشاب الأحمق الذي قلد أماديس دي جول تقليد القـردة وقـام الليل كله في دير مانريسا، وكانت الهيئة التبشيرية والتعليمية التي أنشأها آنذاك ووضعها تحت تصرف البابا من أقوى الوسائل التي تهيأت للكنيسة.

كان هؤلاء الرجال يقدمون أنفسهم بكليتها مختارين لتستخدمهم الكنيسـة. وكانـت جماعـة اليسـوعيين (الجزويت) هي التي حملت المسيحية إلى الصين للمرة الثانية بعد سقوط أسرة منج، وكان اليسـوعيون أهـم إرساليات المبشرين المسيحيين في الهند وأمريكا الشمالية. ولسوف نشير من فورنا إلى ما بذلوه مـن جهـود لنشر الحضارة بين ظهراني الهنود في أمريكا الجنوبية، ولكن أجلّ ما قاموا به من عمل ينحصر في رفعهـم مستوى التعليم عند الكاثوليك. فأصبحت مدارسهم – وظلت زمانًا طويلاً – خير المدارس في العالم المسيحي. يقول اللورد فيريولام (السير فرانسيس باكون): "فأما عن الناحية البيداجوجية (التربوية) فارجع إلى مـدارس اليسوعيين، إذ لم يمارس في التعليم شيء أحسن منها". رفعوا مسـتوى الـذكاء، وأثـاروا ضـمير أوربـا الكاثوليكية بأجمعها، واستثاروا أوربا البروتستانتية إلى بذل الجهود لمنافستهم في مضمار التعليم.

ولعلنا نشهد في أحد الأيام جمعية جديدة لليسوعيين، ممن ينذرون أنفسهم لا لخدمـة البابـا، بـل لخدمـة البشرية.



(شكل ١٥٨) لويولا

وفي نفس الوقت وبإزاء تلك الموجة العظيمة موجة المجهود التعليمي، تنصلح نغمـة الكنيسـة وسـمتها انصلاحا عظيما بفضل ما قام به مجلس ترنت من تنقية المبادئ وما أدخله من إصلاحات في هيئتها ونظامها. كان هذا المجلس يجتمع بين الفينة والفينة إما في ترنت وإما في بولونيا بـين سـنتي (١٥٤٥) و (١٥٦٣)، وكان عمله يضارع في الأهمية عمل الجزويت في إيقاف الجرائم والأخطاء التي كانت تحمـل الدولـة تلـو الدولة على الانفصال عن مجتمع الكنيسة الكاثوليكية. والتغيير الذي أحدثه الإصلاح الديني داخل كنيسة روما يضارع في عظمة التغيير الذي حدث في الكنائس البروتستانتية التي انفصلت عن الكنيسة الأم. فليس هنـاك منذ ذلك التاريخ أية فضائح علنية ولا أي صدع ولا انقسامات يسجلها التاريخ. ولكن مهما يكن من شيء فإن ضيق الأفق في مبادئ الدين قد اشتد ولم تعد أدوار الخيال القوي الناشط التي يمثلها جريجـوري الكبيـر ولا تلك المجموعة من البابوات المرتبطة بجريجوري السابع وإربان الثاني، أو المجموعة التي ابتدأت بإنوسـنت الثالث، تنعش قصة التاريخ الهادئ العادي. واستقرت الكنيسة إلى ما هي عليه اليوم بوصـفها هيئـة دينيـة منفصلة عن السياسة، وهيئة دينية بحتة كغيرها من الهيئات الدينية. لقد رحل الصولجان من روما.



٦- العلم يستيقظ من سباته

ينبغي ألا يظن القارئ أن النقد المدمر الذي وجه إلى الكنيسة الكاثوليكية والمسيحية الكاثوليكية، وأن طبع الكتاب المقدس ودراسته، كانت المناشط الفكرية الوحيدة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ولا هي كانت أهم عمليات النشاط الفكري. فإن ذلك كله لم يكن إلا الناحية الشعبية البارزة بقوة في الانتعاش الفكري في ذلك الزمان. إذ كانت تجري هناك خلف ذلك التيقظ البارز الشعبي الذي ألم بالفكر والبحث تطورات عقلية أخرى أقل استرعاء مباشرا للأنظار ولكن أهميتها النهائية أعظم. وسندلي إليك الآن بإشارة موجزة عن اتجاه تلك التطورات. فإنها ابتدأت قبل طبع الكتب بزمن طويل، ولكن الطباعة هي التي نفضت عنها غاشية الظلمات وكشفتها للأنظار.

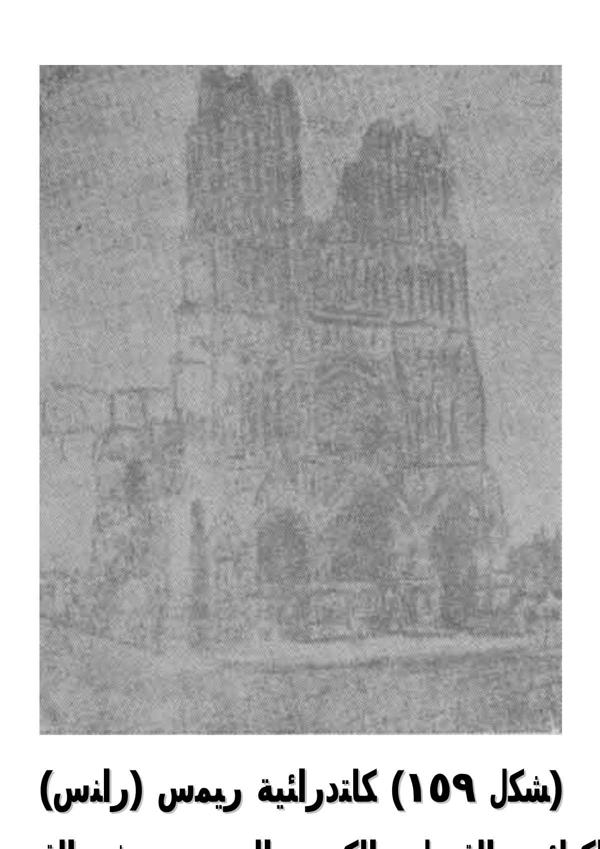
ولقد أسلفنا لك كلمة عن ابتداء ظهور الذكاء الطليق أو الفطنة الحرة: روح التحري والاستعلام، والإدلاء الواضح الصريح بالرأي – في الشئون الإنسانية. وهناك اسم يعد أساسيا في سجل تلك المحاولة الأولى الرامية إلى جمع المعرفة المنظمة، وهو اسم الفيلسوف أرسطو. وهناك أيضا كما لحظنا آنفًا ذلك الدور الوجيز للإنتاج العلمي في الإسكندرية. ومنذ ذلك الحين عاقت المنازعات الاقتصادية والسياسية والدينية المعقدة في أوروبا وآسيا الغربية، كل تقدم فكري آخر. فإن تلك المناطق كما رأينا، وقعت أمد عصور طويلة تحت سلطان الملكيات ذات الطراز الشرقي وسلطان التقاليد الدينية الشرقية. وقديما جربت روما في الصناعة نظاما عماده الرقيق ثم عادت فنبذته، وفيها تطور أول الأنظمة الرأسمالية، ثم مزقته الفوضى بسبب ما جبل عليه من عيوب متأصلة. وارتدت أوربا إلى حالة عامة من عدم الاستقرار. وثار السامي على الآري، وأحلّ ثقافة عربية محل المدنية الهللينية في كل أرجاء آسيا الغربية ومصر. ثم وقعت آسيا الغربية كلها ونصف أوربا في قبضة الحكم المغولي. ولم يحدث إلا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر أن الذكاء الآري شرع يكافح من جديد التماسا للتعبير الواضح الصحيح عن ذات نفسه.

وإنا لنجد عند ذلك في جامعات باريس وأكسفورد وبولونيا النامية قدرا متزايدا من البحث الفلسفي. ومن حيث الشكل كان الطابع الغالب على ذلك البحث هو الموضوعات المنطقية. والأساس الذي قامت عليه هذه الأبحاث إنما هو جزء واحد من تعاليم أرسطو، وهو "منطقه": فحسب وليس مجموع ما خلف من كتابات. ثم زادت معرفة الناس فيما بعد بتواليفه بواسطة الترجمات اللاتينية المنقولة عن النسخة العربية التي علق علمها ابن رشد. وفيما عدا هذه الترجمات لأرسطو – وكانت كلها رديئة الترجمة إلى أبشع حد – لم يكن الناس يقرءون في أوربا الغربية حتى القرن الخامس عشر إلا النزر الطفيف من الأدب الفلسفي الإغريقي.

ولم يكد الناس يعرفون شيئًا عن أفلاطون ذي العقلية المبتكرة الخلاقة المختلفة تماما عن أرسطو ذي النزعة العلمية. فكأن أوربا كانت تملك النقد الإغريقي دون الروح والدافع الإغريقي. أجل إن بعض كتاب الفلسفة الأفلاطونية الحديثة كانوا معروفين بها، ولكن شتان بين الأفلاطونية الحديثة وبين أفلاطون، إذ إن شقة الخلاف بينهما كشقة الخلاف بين العلم في البلاد المسيحية وبين العقيدة المسيحية نفسها.

لقد جرت عادة الكتاب المحدثين بالتشهير بالأبحاث الفلسفية لعلماء القرون الوسطى المدرسانيين برميها بالإملال وعدم الغناء. ولكنها لم تكن كذلك بأي حال. وإنما كان لزاما عليها أن تحتفظ بقالب فني شديد الجمود، لأن كبار رجال الكنيسة، وهم على ما هم من الجهالة وعدم التسامح، كانوا على أهبة الترقب لأية بادرة للزندقة. لهذا، كان يعوزها ذلك الصفاء الحلو الناشئ عن الفكر الذي لا يعوقه خوف. وكثيرا ما كانت تلك الأبحاث تلمح إلى ما لم تكن تجرؤ أن تقوله صراحا. على أنها كانت تعالج موضوعات جوهرية الأهمية، وكانت كفاحا طويلاً ضروريا لا بد منه لتصفية وإصلاح عيوب معينة متأصلة في العقل البشري، وإن الكثير من الناس اليوم ليخطئون أفحش الأخطاء بسبب إهمالهم للمسائل التي كان علماء القرون الوسطى المدرسانيون يتناقشون فيها.

وهناك ميل طبيعي في العقل البشري إلى المبالغة في الفروق وأوجه الشبه التي تنبني عليها عملية الترتيب والتصنيف، وإلى الظن بأن الأشياء ذوات الأسماء المختلفة متباينة مختلفة. وأن الأشياء المسماة بنفس الاسم، تكاد تكون متطابقة. وغني عن البيان أن هذا الميل إلى المبالغة في التصنيف ينتج ألف شر وظلم. ففي مجال العنصر (Race) أو القومية (Nationality) مثلاً، كثيرا ما يعامل "الأوروبي" أخاه "الآسيوي" كأنما هو حيوان مختلف، على حين تراه يميل إلى اعتبار "أوربي" آخر كأنما هو بحكم الضرورة معادل له في الفضيلة والروعة. وإنه لينضم تبعا لهذا إلى الأوروبيين ضد الآسيويين. ولكن الواقع – كما يجب أن يدرك ذلك قارئ هذا الكتاب – هذه الفوارق التي يدل عليها التضاد بين تلك الأسماء أمر لا وجود له. وإنما هو طيف فارق خيالي خلقه وجود الاسمين.



(شكل ١٥٩) كاتدرائية ريمس (رانس)

مثال رائع للكنائس القوطية الكبرى التي بنيت في القرنين ١٣، ١٤

وكانت الخصومة الكبـرى فـي القـرون الوسـطى قائمـة بـين الـواقعيين (Realists) والاسـميين (Nominalists) ومن الضروري أن ننبه القارئ أن كلمة "الواقعي" في أبحاث العصور الوسطى لها معنـى يكاد يكون مضادا على خط مستقيم للفظة "الواقعي" في استعمالها في اللغة العاديـة للنقـد العصـري. فـإن "الواقعي" العصري إنما هو من يصر على التفاصيل المادية، بينما كان "الواقعي" في القرون الوسطى أقـرب كثيرا إلى ما قد نسميه اليوم "بالمثالي"، وكان احتقاره للتفاصيل العارضة شديدا وعميقًا. وكان الواقعيون أشد الناس تمسكًا بذلك الميل البشري الشائع إلى المبالغة في أهمية "الصنف Class" أو الطبقة. وكانوا يعتقـدون بأن هناك شيئًا في الاسم (أي في التسمية العامة) له بالضرورة ظل من الحقيقية. مثال ذلك أنهم كانوا يؤمنون بأن هناك "أوروبيا" نموذجيا، أوربيا مثاليا، وجوده حقيقي أكثر بكثير من أي أوربي فرد. ومن ثم يكون كـل أوربي عينة معيبة ونكوسا ظاهرا، وابتعادا عن تلك الحقيقة الأكثر عمقًا إن صح هذا التعبير. ومن الناحيـة الأخرى، كان الاسميون أصحاب المذهب الاسمي يرون أن الحقائق الوحيدة في الأمر إنما هـي الأوربيـون الأفراد، وأن الاسم "أوربي" إنما هو مجرد اسم، ولا يتجاوز أن يكون اسما، يطبق على كل هاته الأفراد.

وليس هناك شيء أصعب من ضغط واختصار المجادلات الفلسفية التي هي بطبيعتها ضخمة الحجم منوعة، كما أنها مصطبغة بالصباغ العقلي لمجموعة منوعة من العقول. والقارئ العصري غير الملم بالأبحاث الفلسفية ربما جنح – وقد قدمنا له الفارق بين الواقعيين والاسميين على هذه الشاكلة الساذجة الجرداء – إلى الوثوب من فوره إلى تأييد رأى الاسميين. ولكن ليس الأمر من البساطة بحيث يكفي مثال واحد للحكم عليه، وقد تعمدنا هنا اختيار مثال متطرف. وتختلف الأسماء والتصنيفات في قيمتها وحقيقتها. فبينا ترى أنه من السـخف أن يظـن الناس أن هناك عمقًا كبيرا في الفارق الصنفي بين رجال اسمهم توماس وآخرين اسمهم وليم، أو أن هناك مـثلاً أعلى أو خلاصة نقية لتوماس أو لوليم، إلا أنه قد تكون هناك من الناحية الأخرى فوارق أعمق بكثير بين رجل أبيض وبين زنجي من الهوتنتوت، فضلاً عن أخرى عميقة بين الإنسان العـادي (Homo Sapiens) وبـين الإنسان النياندرتالي. وكذلك بينما التمييز بين صنف الحيوان المدلل وصنف الحيوان النافع يعتمد على فـوارق طفيفة في العادات والتطبيق، فإن الفارق بين القط والكلب من العمق بحيث يستطيع المجهر الميكروسـكوب) أن يقفوه ويكتشفه ولو في قطرة دم أو شعرة مفردة. وبينا تكون بعض التصـنيفات تافهـة، إذا بـالبعض الآخـر جوهري حقيقي. فإذا نحن تأملنا هذه الناحية من المسألة أمكننا أن نفهم كيف أن الاسمية و "الاسميين" اضـطروا في النهاية إلى التخلي عن الفكرة القائلة بأن الأسماء تعادل في قلة أهميتها بطاقات الزجاجات، وكيف أن تنقـيح المذهب الاسمي وتصحيحه تمخض عن المحاولة المنظمة للعثور على التصنيف "الحق" – أشد التصانيف أهمية وأعظمها فائدة – للأشياء والمواد وهو الذي يسمى بالبحث العلمي.

ولسوف يقارب هذا في الوضوح أنه بينما ميل الواقعيين والمذهب الواقعي الذي هو الميل الطبيعـي لكـل عقل غير مثقف، كان متجها إلى الاعتقاد الحتمي (Dogma) والتقسيمات الخشنة الفجة والأحكـام الخشـنة الساذجة والمواقف والاتجاهات الخالية من كل تساهل، فإن ميـل المـذهب الاسـمي والاسـميين القـدامى والمتأخرين كان متجها نحو الأقوال المحددة بالأوصاف، ونازعا نحو اختبار الأمثلة الفردية ونحـو البحـث والاستعلام والتجربة والتشكك.

وعلى ذلك فإنه بينما من في الأسواق والحياة العامة من الناس يتشككون في أخلاق رجال الدين وصلاحهم ومدى إخلاصهم في عزوبتهم وصدق يقينهم فيها ونقاء سيرتهم بها، ومبلغ العدالة فيما يفرضـه البابـا مـن ضرائب، وبينما تنشغل أذهان من في الدوائر اللاهوتية بمسألة الاستحالة ومسألة قدسية أو عدم قدسية الخبـز والنبيذ في القداس، كان يصدر عن دور الدراسة وقاعات المحاضرات نقد أوسـع مـدى لطرائـق التعلـيم الكاثوليكية العادية.

وليس في استطاعتنا أن نقدر في هذا المقام مبلغ الأهمية التي اجتمعت أثناء تلك العملية لأشـخاص مـن أمثال بطرس أبيلارد [١] (١٠٧٩ – ١١٤٢)، وألبرتوس ماجنوس (١١٩٣ – ١٢٨٠)، وتومـاس أكوينـاس (١٢٢٥ – ١٢٧٤). فإن هؤلاء الرجال حاولوا أن يعيدوا بناء العقيدة الكاثوليكية على أساس عقلـي أسـلم؛ فاتجهوا صوب مذهب الاسميين. ومن بين أبرز نقادهم وخلفائهم دنزسكوتوس (؟ - ١٣٠٨)، وهـو راهـب فرنسسكي من أكسفورد، لن يشك القارئ في أنه اسكتلندي قح لو اطلع على اجتهـاده فـي التفكيـر وخفـاء عباراته المتعمد، ومن بينهم كذلك أكام وهو إنجليزي (؟ - ١٣٤٧).

وقد أقام كلا هذين الأخيرين – شأن ابن رشد – حدا فاصلاً مميزا بين الحق اللاهوتي والحـق الفلسـفي، فوضعا اللاهوت من فوق قبة عالية، ولكنهما وضعاه حيث لم يستطع أن يعترض بعد ذلك طريـق البحـث: فأعلن دنز سكوتوس أن من المستحيل أن يثبت المرء بالتفكير العقلي وجود ا   أو وجود الثالوث أو إمكـان تصديق عملية الخلق، وكان أكام أشد إصرارا على فصل اللاهوت من الحق العملي – وهـو فصـل أطلـق سراح البحث العلمي إطلاقًا بينًا من تحكم الاعتقاد الحتمي (Dogma) ولكن خلف من بعدهم جيل تال فاتـه وقد أخذ يستفيد من الحريات التي هدفت إليها جهود هؤلاء الرواد، إدراك العلم بمصادر حريته – فبلـغ مـن كفرانه بالجميل أن يتخذ من اسم سكوتوس رمزا للغباء، ومن ثم نشأت كلمـة (Dunce) الإنجليزيـة التـي معناها الغبي مشتقة من اسمه (Duns). يقول الأستاذ برنجل باتيسون [٢]: "إن أكام الذي كان مع ذلك عالمـا مدرسانيا [٣] ليعطينا التبرير المدرساني للروح الذي استولى بالفعل على روجر باكون، والذي قـدر لـه أن ينضج ويستكمل نموه في أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر".

وروجر باكون هذا يقف وحيدا بارزا لما له من عبقرية مميزة (قرابـة ١٢١٠ – ١٢٩٣) وكـان كـذلك إنجليزيا. كان راهبا فرنسسكيا من أكسفورد، كما أنه في الواقع رجل إنجليزي نموذجي حقًا، إذ هـو سـريع الهياج متسرع شريف حصيف العقل. وكان يسبق عالمه بقرنين من الزمان. يقول عنه هـ. ا. تايلور [٤]:

---

(١) انظر، للمترجم، كتاب أعلام وأفكار (الهيئة العامة للتأليف والنشر). (المترجم).

(٢) الموسوعة البريطانية، الطبعة الثانية عشرة، مادة المدرسانية Scholasticism.

(٣) كلمة المدرساني تطلق على معلمي القرون الوسطى وعلى كل فيلسوف متحذلق، بفلسفة العصور الوسطى التي تسمى أيضا بالفلسفة المدرسانية أو الإسكولائية. (المترجم)

(٤) The Medieval Mind تأليف هنري أوسبورن تايلور.

"كانت حياة باكون مأساة ذهنية، تطابق الأصول القديمة لفن المآسي: القاضية بأن تكـون أخـلاق البطـل كريمة نبيلة، وإن لم تخل من العيوب، وذلك نظرا لأن النهاية القاضية المحتومة يجب أن تصدر عن الخلـق، وألا تحدث نتيجة للصدف. ومات شيخًا في سن عالية. وكان في شيخوخته شأنه في صـباه محبـا مخلصـا للمعرفة الملموسة. وكان طلبه المعرفة التي لا تصل إلى مرتبة العلم بمعناه التام، يلقى اعتراضا مـن تلـك الهيئة التي انتمى إلى عضويتها وكان فيها عضوا تعسا ثائرا؛ كما أضر به من الناحية الأخرى، أن ما حصله من منجزات قد نخرت فيه من الداخل المبادئ التي تقبلها نقلاً عن عصره. ولكنه يعد مسـئولاً عـن قبولـه للآراء السارية؛ واستثارت آراؤه شكوك إخوانه الرهبان، كما جر عليه خُلقه العصِي الشموس عداءهم. فـإن القدرة على الإقناع واللباقة شرطان ضروريان لمن يرغب في التأثير بمثل هذه الآراء الجديدة على أقرانه، أو لمن شاء الفرار في القرن الثالث عشر من الاضطهاد لإذاعته إياها فقد هاجم باكون ذوي المكانة والفضل من الرجال، الأحياء منهم والأموات في غير حنكة ولا عدل وفي حماقة ونزق. ونكاد لا نعرف شيئًا عن حياتـه البتة، اللهم إلا من إشاراته إلى نفسه وإلى الآخرين، وهي إشارات لا تكفي لتكوين صـورة طفيفـة متصـلة الحلقات لحياته. ولد ودرس في أكسفورد، وذهب إلى باريس ودرس وأجرى التجارب، ثم عاد إلى أكسـفورد ثانية، وأصبح راهبا فرنسسكيا؛ وتابع دراساته ثم تولى التدريس وأصبح عند جماعته بمنزلة الظنة والريبـة، ثم يبعثُ به ثانية إلى باريس، ويوضع تحت الرقابة، ويتلقى رسالة من البابا، ويكتـب، ويكتـب، ويكتـب – مؤلفاته الثلاثة الأبعد شهرة، ثم تعود المتاعب فتغشى حياته، وإذا هو يسجن سنوات كثيرة ويطلـق سـراحه ويموت، يموت كل الموت بجسده وبشهرته على السواء حتى يبعث بعثًا جزئيا بعد ذلك بخمسة قرون".

والمادة الرئيسية في هذه "المؤلفات الثلاثة الأبعد شهرة" إنما هي هجوم لاذع العبارة يكون فـي الأحـايين مفعما بالسباب. ولكنه هجوم عادل تماما على ما يريم على عصره من جهالة، تخالطه مجموعة ثريـة مـن المقترحات لزيادة المعرفة. وإن روح أرسطو لتتبدى فيه حية من جديد في إلحاحه الحار على الحاجـة إلـى التجربة وإلى جمع المعارف. فلقد كانت الصيحة التي طالما حملها روجر باكون على عاتقه هـي "التجربـة، التجربة".

ومع ذلك فإن روجر باكون اختصم أرسطو نفسه وهاجمه. اختصمه لأن الرجال بدل أن يواجهوا الحقائق في جرأة، كانوا يجلسون في حجرات ويكبون على الترجمات اللاتينية الرديئة التي كانت عند ذاك كـل مـا يستطاع للوصول إليه عن "المعلم". كتب يقول بلهجته غير المعتدلة "لو كان الأمر بيدي... لأحرقت كل كتب أرسطو، لأن دراستها لا يمكن أن تؤدي إلا إلى مضيعة الوقت وإنتاج الخطأ وزيادة الجهالة"، وهو إحساس ما كان أرسطو في الراجح إلا ليردده لو أنه عاد إلى عالم لم تكن فيه مؤلفاته تقرأ قدر ما تُعبد – وكـان ذلـك التقديس كله موجها لهذه الترجمات غير الجديرة تماما بأية ثقة كما بين ذلك روجر باكون.

وروجر باكون في كل مؤلفاته متنكر بعض التنكر بسبب ضرورة ظهوره في كل أموره بمظهر من يطابق بين آرائه وبين العقيدة السلفية الصحيحة خشية السجن أو ما هو شر من السجن، لذا كان يصيح بالإنسانية من وراء هذا التنكر والتقية "أن كفي عن أن تحكمك الاعتقادية (الدوجما) والسلطات الاستبدادية، وانظـري إلـى العالم".

وقد شهر بأربعة أسباب للجهل هي: احترام السلطة، والعرف والعادة، وروح الجمهور الجاهل، وما عليه ميولنا من عدم قابلية للتعلم تتسم بالغرور والكبرياء. فلو تغلب الناس على هذه وحدها لا نفتح أمامهم عالم من القوة. "فإن في الإمكان أن توجد آلات للملاحة البحرية تسير السفن من غير مجدفين؛ بحيث أن سفنا ضخمة تناسب البحر والنهر جميعا ويقودها رجل فرد، يمكن أن تُسير بسرعة أعظم مما لو كانت غاصة بالرجال. وعلى هذا النحو يمكن أن تُصنع العربات التي تتحرك بلا حيوان يجرها (Cum impetus inoestimabili)، شأن العربات ذات المناجل التي كان يحارب عليها الأقدمون فيما يقال. وفي الإمكان استحداث الآلات الطيارة، حتى إن الرجل ليستطيع أن يجلس في وسطها يدير آلة ما فتضرب الهواء أجنحة اصطناعية على مثال جناحي الطائر".

وإن ُأكام وروجر باكون لهما البشيران الباكران بحركة عظيمة في أوربا تنبذ المذهب الواقعي (Realism) وتتجه إلى الواقع (Reality). وانقضت فترة من الزمن اشتد فيها الصراع بين المؤثرات القديمة وبين "الطبيعة" [1] عند أصحاب المذهب الاسمي الجديد. وفي (١٣٣٩) حرمت كتب أكّام وصدر قرار جدي وقور باستنكار المذهب الاسمي وتسفيهه. وبذلت في عام (١٤٧٣)، محاولة متأخرة فاشلة، لحمل معلمي باريس على تدريس المذهب الواقعي بقسم يقسمونه. وفي القرن السادس عشر ابتدأ طبع الكتب وزاد الذكاء. وعندئذ أصبحت حركة الانتقال من مذهب التجريد (Absolutism) إلى التجريب حركة ضخمة، وأخذ الباحثون يتعاونون بعضهم مع بعض.

وكان التجريب على الأشياء المادية آخذًا بأسباب الزيادة طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر؛ فأخذ الرجال يفوزون بكميات متتابعة من المعرفة، ولكن لم يكن هناك تقدم تعاوني يقوم على العلاقة المتبادلة بين رجال العلم، بل كان العمل يتم بصورة انعزالية متدابرة وخفية غير كريمة. فقد أخذت أوربا عن العرب تقاليد البحث المنعزل، وكان هناك قدر كبير من الأبحاث العلمية التي تتم بشكل خاص وسري والتي يقوم بها الكيماويون القدامى (Alchemists) الذين يجنح العصريون إلى المبالغة في احتقارهم إلى حد ما. على أن هؤلاء الكيماويين القدامى كانوا على اتصال وثيق بصناع الزجاج والمعدن وبأصحاب صناعة الأعشاب والعقاقير وصناع الأدوية في زمانهم، وقد تدسسوا في أسرار كثيرة للطبيعة، ولكن كانت نفوسهم مشبعة بفكرة "المنافع العملية" ذلك أنهم لم يكونوا يطلبون المعرفة، بل القوة. وكانوا يرغبون في أن يصطنعوا الذهب من المواد الأزهد منه ثمنًا، وأن يجعلوا الناس من أهل الخلود بوساطة إكسير الحياة، وما إلى ذلك من الأحلام السوقية المبتذلة. وحدث أنهم عرفوا عرضا أثناء أبحاثهم، الشيء الكثير عن السموم والأصباغ وعلم المعادن وما إليها؛ واكتشفوا مواد منوعة تسبب انكسار الأشعة؛ وشقوا طريقهم صوب الزجاج الصافي، ومن ثم إلى العدسات والآلات البصرية. ولكن الواقع كما يخبرنا رجال العلم على الدوام، وكما لا يزال العمليون ورجال الأعمال يرفضون أن يتعلموه – هو أن المعرفة لا تحبو خدامها بهبات غالية وعطايا غير متوقعة في أي قدر من الوفرة إلا عندما تُطلب المعرفة من أجل المعرفة نفسها.

---

[1] الطبيعة أو الطبعانية Naturalism هي مذهب مجاراة الطبيعة ومطابقتها. (المترجم).

ولا يزال عالم اليوم أميل كثيرا إلى إنفاق المال على البحث الفني العملي (التكنيكي) منه على العلم البحت. ولا يزال نصف من في معاملنا ومختبراتنا العلمية من الرجال يحلمون بالمخترعـات المسـجلة (Patents) والعمليات السرية. ونحن إنما نعيش اليوم في معظم أمرنا في عالم الكيميائيين القدامى بالرغم من كل هزئنـا بذكراهم. ولا يزال "رجل الأعمال" في عصرنا هذا يفكر في البحث بوصفه نوعا من الكيمياء القديمة.

والمنجمون الذين كانوا يرتبطون بالكيماويين القدماء ارتباطًا وثيقًا، كانوا هم كذلك فئـة تطلـب "المنـافع العملية" فكانوا يدرسون النجوم لينبئوا الناس بطوالعهم، وكان يعوزهم ذلك الإخلاص والتفهم الأوسـع أفقًـا اللذان يحملان الناس على مجرد دراسة النجوم في حد ذاتها.

ولم تشرع الفكرات التي ترجم عنها روجر باكون في أن تؤتي ثمارها الأولى من المعرفة الجديدة والنظرة الشاملة والأفق المتسع إلا في القرن الخامس عشر. ثم حدث على حين بغتة مع بزوغ فجر السادس عشـر، ومع قيام العالم من كبوته في عاصفة الفتن الاجتماعية التي أعقبت أوبئة القرن الرابع عشر، أن تفجرت أوربا الغربية عن مجموعة من الأسماء اللألاءة كسفت بضيائها أصحاب أبعد الناس صيتًا علميا في أزهى عصور الإغريق. وأسهمت في ذلك كل الشعوب تقريبا، كما سوف يلحظ القارئ، وذلك لأن العلم لا يعرف القومية.

ومن أبكر أفراد هذه المجموعة اللألاءة من الكواكب، وأعظمهم جلالا، ذلك الفلورنسي ليوناردو دافنشـي (١٤٥٢ – ١٥١٩)، وهو رجل تكاد تكون له "بالحقيقة" بصيرة إعجازية. كان عالمـا بالطبيعـة والتـاريخ الطبيعي وبعلم التشريح، وكان مهندسا، كما كان فنانًا عظيم الشأن جدا، وهـو أول رجـل عصـري أدرك الطبيعة الحقة للحفريات، فأنشأ دفاتر مذكرات ملأها بملاحظات لا تزال تذهل ألبابنا إلى اليوم، وهو يظهـر اقتناعا بإمكان الطيران الميكانيكي إمكانًا عمليا. وثمة اسم عظيم آخر هو اسم كوبرنيكـوس وهـو بولنـدي (١٤٧٣ – ١٥٤٣)، قام بأول تحليل واضح لحركات الأجرام السماوية وأبان أن الأرض تدور حول الشمس. وقد رفض تلك الفكرة تيخوبراهي (١٥٤٦ – ١٦٠١) وهو دانمركي كان يشغل في جامعـة بـراج، ولكـن ملحوظاته عن الحركات السماوية كانت على أقصى غاية القيمة لخلفائه، وبخاصة للألماني كبلـر (١٥٧١ – ١٦٣٠). وكان جاليليو جاليلي (١٥٦٤ – ١٦٤٢) هو مؤسس علم الديناميكا. فكان الاعتقاد السائد قبل زمانه أن وزنًا يكبر عن وزن آخر مائة مرة يسقط أسرع من الثاني بمائة مرة فأنكر جاليليو ذلك. وبـدلاً مـن أن يناقش الأمر بالمجادلة على طريقة المدرسانيين والجنتلمانية في عصره، وضعه تحت الاختبـار التجريبـي الخشن بإسقاط كتلتين غير متعادلتين من طابق علوي من برج بيزا المائل – مثيرا بذلك انزعاجا في قلـوب كل الرجال اللوذعيين من علماء عصره.

وأنشأ جاليليو ما يكاد يكون أول مرصاد (تلسكوب)، وكذلك طور آراء كوبرنيكوس الفلكية، ولكن الكنيسة قررت – وهي تكافح النور بشجاعة!! – أن الاعتقاد في أن الأرض أصغر من الشمس وأدنى منها مرتبة، لا يجعل للإنسان والمسيحية وزنًا؛ ولذا حمل جاليليو على التراجع عن هذا الرأي، وعلى إرجاع الأرض إلـى مكانها الأول كمركز ثابت للكون لا يتحرك!!!.. وقضى عليه سبعة من الكرادلة بالسجن مدة مـن الزمـان، وأمر بتلاوة مزامير الندم السبعة مرة كل أسبوع طوال سنوات ثلاث.

ولد نيوتن (١٦٤٢ – ١٧٢٧) في السنة التي توفي فيها جاليليو. فأتم باكتشافه قـانون الجاذبيـة، إزاحـة الستار تماما عن عالم النجوم الذي بين أيدينا اليوم. على أن نيوتن يحملنا إلى صميم القرن الثامن عشر. فهو يحملنا إلى ما يتجاوز مدى الفصل الحالي كثيرا.

(شكل ١٦٠) جاليليو

ومن بين أقدم الأسماء اسم الدكتور جلبرت (١٥٤٠ – ١٦٠٣) من كولشستر الذي يبرز خالدا أبديا. كـان روجر باكون قد بشر بالتجريب، وكان جلبرت من أوائل من مارسوه. ولا سبيل إلى الشك في أن عمله، الذي كان موجها في جل شأنه إلى المغناطيسية، ساعد على تكوين فكرات فرنسيس باكون، لورد فربولام (١٥٦١ – ١٦٢٦)، وهو قاضي القضاة في عهد جيمس الأول ملك إنجلترة. ولقد سمى فرنسيس باكون هذا باسم "أبي الفلسفة التجريبية"، ولكن ما أثير حول نصيبه في تطوير الجهد العلمي كان أعظم من حقه[١]. يقول السير ر. ا. جريجوري "لم يكن المؤسس للطريقة العلمية بل الرسول المبشر بها". وكانت أعظم خدمة أداهـا للعلـم، كتابا خياليا عجيبا، هو كتاب الأطلانطيس الجديد (The new Atlantis). وفرنسـيس بـاكون فـي كتابـه الأطلانطيس الجديد يصمم في لغة كثيرة الزخرفة حافلة بالخيال شيئًا ما، خطة قصر للاختراع، ومعبد عظيم للعلوم، حيث ينظم طلاب المعرفة بجميع فروعها على أسس ومبادئ في الذروة العليا من الكفاية".

وعن ذلك الحلم اليوتوبي المثالي نشأت الجمعية الملكية في لندن [٢]، التي تلقت مرسوما ملكيا من شارل الثاني ملك إنجلترة في (١٦٦٢). والفائدة – بل الميزة – الجوهرية لهذه الجمعية كانت ولا تزال "نشر العلم وإذاعتـه". ويسجل إنشاؤها خطوة محددة تنتقل بالعلم من البحث المنعزل إلى العمل التعاوني بين العلمـاء، ومـن أبحـاث الكيماويين القدامى السرية المنفردة إلى التقرير الصريح والبحث الجهري، الذي هو عصب الحياة فـي الطرائـق العلمية العصرية، ذلك أن المنهج العلمي الحق يقوم على: "ألا يفترض أي فرض لا ضرورة له، ألا يقبل أي خبر أو بيان من غير تحقيقه، أن تختبر كل الأشياء بأشد دقة مستطاعة، ألا يحتفظ بأي أسرار، ألا يحـاول أحـد أي احتكار، وأن يقدم الإنسان خير ما لديه في تواضع ووضوح، وألا يخدم أية غاية أخرى غير المعرفة".

---

[١] انظر كتاب "الاكتشاف Discovery" تأليف جريجوري، الفصل السادس.

[٢] هي أقدم جمعية بريطانية للعلوم وأبرزها مكانة وتعد زمالتها شرفًا عظيما. (المترجم).

وأنعش هارفي (١٥٧٨ – ١٦٥٧) علم التشريح الذي طال نعاسه، كما كشف الدورة الدموية. وما لبث الهولندي ليفنهوك (١٦٣٢ – ١٦٢٣) أن استخدم أول مجهر (ميكروسكوب) ساذج في الكشف عن الدقائق الخفية للحياة.

وما هؤلاء إلا قليل من كثير من أسطع النجوم في ذلك الجمع المتزايد من الرجال الذين نهضوا منذ القرن الخامس عشر إلى زماننا هذا، بهمة وثابة ونشاط تعاوني إجماعي لم يبرحا يتزايدان على كر الأيام – نهضوا بإنارة الكون أمام أبصارنا، وزادا من سيطرتنا على ظروف الحياة.

٧- النمو الجديد للمدن الأوربية

قد توسعنا في معالجة تجدد نشاط الدراسات العلمية في العصور الوسطى، لما له من أهمية قصوى في الشئون الإنسانية. ولا شك أن روجر باكون كان في جملة أمره أعظم أهمية للجنس البشري من أي ملك في زمانه. ولكن العالم المعاصر ظل في معظم أمره لا يعرف شيئًا عن ذلك النشاط المتقد تحت الرماد في غرفات البحث وقاعات المحاضرات ومعامل الكيماويين القدامى، ذلك النشاط الذي قدر له أن يغير كل أحوال الحياة. والواقع أن الكنيسة أدركت ما كان يجري، ولكن لم يكن مرد ذلك إلا شعورها بعدم احترام قراراتها الحاسمة. فإنها كانت قررت أن الأرض هي مركز خليقة ا ، وأن البابا هو حاكم الأرض الذي ندبته السماء لهذه المهمة. وقد أصرت الكنيسة على أن فكرات الناس عن هذه النقاط الجوهرية، يجب ألا يعترضها أي تعليم يناقضها. ومع ذلك فإنها ما كادت تجبر جاليليو على القول بأن الأرض لا تتحرك حتى قنعت بذلك ورضيت. والظاهر أنها لم تكن تدرك أن الأرض برغم كل ما تبذل كانت تتحرك فعلا وأن موقفها من تلك المسألة كان نذير ثبور عليها.

ذلك أن أوربا الغربية كانت مسرحا لتطورات اجتماعية عظيمة جدا وأخرى فكرية في كل هذه الفترة من العصور الوسطى المتأخرة. ولكن العقل البشري يفهم الحوادث بصورة أوضح كثيرا مما يفهم التغييرات، كما أن الناس واصلوا آنذاك كفعلهم اليوم – التمسك بتقاليدهم الخاصة بالرغم مما يلم بما حولهم من المناظر من تغيرات وتقلبات.

ومن المحال علينا في كتابنا هذا أن نكدس أحداث التاريخ المتراصة التي لا تبين بوضوح العملية الرئيسية لتطور الإنسان، مهما بلغت من بريق وجمال. ولا بد لنا من أن نسجل النمو المتواصل للمدن كبيرها وصغيرها، وانتعاش قوة التجارة والنقود، وعودة القانون والعرف إلى نصابهما شيئًا فشيئًا، وانتشار الأمان، والقضاء على الحرب الخاصة التي دامت في أوربا الغربية في الفترة بين الحرب الصليبية وبين القرن السادس عشر.

وهناك أشياء كثيرة، تتراءى لنا ضخمة في تواريخنا القومية ولكننا سنضرب عنها صفحا وليس لدينا متسع نذكر فيه قصة المحاولات المتكررة التي بذلها الملوك الإنجليز لفتح اسكتلندة وتنصيب أنفسهم ملوكًا لفرنسا، ولا عن كيف استقر الإنجليز النورمانديون في إرلندة استقرارا غير وطيد في القرن الثاني عشر، وكيف ألحقت ويلز بالتاج الإنجليزي (١٢٨٢). وقد تواصل كفاح إنجلترة مع اسكتلندة وفرنسا طوال العصور الوسطى جميعا. وجاءت أزمان بدا فيها أن اسكتلندة قد أخضعت إخضاعا نهائيا، وحدث إبانها أن ملك إنجلترة كان يتملك في فرنسا من الأرض أكثر من عاهلها الاسمي. وغالبا ما تصور كتب التاريخ الإنجليزية هذا الكفاح مع فرنسا في صورة محاولة حاولت فيها إنجلترة بمفردها أن تقهر فرنسا وكادت أن تبلغ التوفيق. والواقع أنها كانت مشروعا مشتركًا قامت به مجتمعة مع الفلمنك والبافاريين أولاً، ثم بعد ذلك مع ولاية برجنديا الفرنسية القوية لغزو تراث هيوكابيت واقتسامه...

ولسنا على أن نحدثك عن تشتيت شمل الإنجليز على يد الاسكتلنديين في بانوكبرن (١٣١٤) ولا عـن ولـيم والاس وروبرت بروس البطلين الوطنيين الاسكتلنديين، ولا عن معارك كريسـي (١٣٤٦) وبواتييـه (١٣٥٦) وأجينكور (١٤١٥) في فرنسا، التي يشرق ضياؤها في الخيال الإنجليزي، وهي معارك صغيرة قام فيهـا رمـاة نبال أقوياء المراس في بعض الساعات المشرقة بإنزال هزيمة منكرة بالفرسان الفرنسيين في دروعهم السـابغة؛ ولا عن الأمير الأسود [1] وهنري الخامس ملك إنجلترة، ولا عن كيف دفعت فتاة ريفية هي جان دارك، عـذراء أورليان، الإنجليز مرة ثانية عن وطنها (١٤٢٩ – ١٤٣٠) – فلن يقص هذا الكتاب عن ذلك كله شيئًا. ذلـك أن لكل قطر مثل تلك الأحداث القومية التي يعتز بها. فهي طنافس التاريخ التي تعلق للزينة والزخرفة، وليست جزءا من البناء بأي حال. فإن راجبوتانا أو بولندة والمجر والروسيا وإسبانيا وفارس والصين تستطيع كلها أن تباري أو تبز أقصى ما دار على مسرح التاريخ الأوربي الغربي من مغامرات رومانسية يظهر فيها فرسان لا يقلون عـن الأوربيين مغامرة، وأميرات لسن أقل من الأوربيات إقداما، وقتالاً وصيتًا لا يقل قوة شكيمة في هذه عن تلك.

ولن نحدثك في أي تفصيل كيف أن لويس الحادي عشر الفرنسي (١٤٦١ – ١٤٨٣)، وابن شارل السابع صديق جان دارك، أذل برجنديا ووضع أساسا لملكية مركزية بفرنسا. إذ إن الذي يهمنا أكثر من ذلك أنه حدث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر أن البارود، تلك الهبة المغولية، وصل إلى أوربا، فاستطاع بفضله الملوك (بما فيهم لويس الحادي عشر) والقانون – معتمدين على نصرة المدن النامية، أن يحطموا قلاع الفرسـان والبارونـات اللصـوص نصف المستقلين في العصور الوسطى الأولى وأن يجمعوا في أيديهم أشتات سلطان أشد تمركزا.

(شكل ١٦١) خريطة الطرق التجارية الرئيسية
بأوربا في القرن الرابع عشر

---

[1] هو إدوارد: الأمير الأسود (١٣٣٠ – ٧٦) ابن إدوارد الثالث ملك إنجلترة. (المترجم)

ويختفي نبلاء وفرسان الفترة الهمجية المتقاتلون من التاريخ في بطء أثناء تلك القرون، ذلك أن الحروب الصليبية استنفدتهم، كما أفنتهم أيضا أمثال حرب الوردتين من الحروب بين الأسر المالكة، فكانت الأسهم المرسلة من القسي الإنجليزية الطويلة تنفذ من أجسامهم ناشبة فيما وراءهم بيارزة، وكان المشاة المسلحون بهذا القوس يجتاحونهم ويقذفون بهم إلى ميادين الهزيمة، فأخذوا يروضون أنفسهم على التجارة وغيروا من طبعهم. واختفوا من الوجود وزال كل أثر لهم إلا وجود اسمي في غرب وجنوب أوربا. قبل أن يختفوا من ألمانيا. وذلك أن الفارس في ألمانيا ظل محاربا محترفًا حتى صميم القرن السادس عشر.

وحدث إبان الفترة المنصرمة بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر في أوربا الغربية، وبخاصة في فرنسا وإنجلترة، أن نشأت كالزهرات باقة كبيرة من المباني والكاتدرائيات والأديرة وما إليها طرازها شديد التميز والجمال وهو فن العمارة القوطي وقد سبق أن أشرنا إلى أهم خصائص ذلك الطراز. ويسجل هذا الازدهار البديع ظهور هيئة من أرباب الحرف ترتبط بدايات نشوئها ارتباطًا وثيقًا بالكنيسة. وشرع العالم للمرة الثانية في إيطاليا وإسبانيا كذلك، يكثر من تشييد المباني بوفرة وجمال. وفي بداية الأمر كانت أموال الكنيسة وثروتها هي التي تقوم بمعظم هاتيك المباني، ثم أقبل الملوك والتجار أيضا على البناء. ومن ثم فإلى جوار الكنيسة والقلعة يظهر القصر الريفي والمنزل.

وقد حدث في كل أرجاء أوربا مع زيادة التجارة، انتعاش كبير في حياة المدن منذ القرن الثاني عشر فما تلاه. ومن أبرز هذه المدن البندقية وتابعتاها راجوزا وكورفو، ثم جنوة وفيرونا وبولونيا وبيزا وفلورنسا ونابولي وميلانو ومرسيليا ولشبونة وبرشلونة وناربونه وتور وأورليان وبوردو وباريس وغنت وبروج وبولوني ولندن وأكسفورد وكمبردج وسوثهمبتون ودوفر وانتورب وهمبورج وبريمن وكولونيا ومانيس ونورمبرج وميونخ وليبزيج ومجدبرج وبرسلاووستتن ودانزج وكونجزبرج وريجا وبسكوف ونوفجورود وويسبي وبرجن.

"وكانت المدينة بألمانيا الغربية بين عامي (١٤٠٠)، (١٥٠٠) [1] تضم كل ألوان التقدم التي اكتملت للناس في ذلك الأوان، وإن كانت – من وجهة النظر العصرية - يعوزها الشيء الكثير... فكانت معظم الشوارع ضيقة، غير منتظمة المباني. وكانت المنازل تبنى في الغالب من الخشب، على حين كاد كل ساكن من سكان المدينة يحتفظ بماشيته في منزله، كما أن قطيع الخنازير الذي يسوقه في كل صباح راعي المدينة إلى المرعى كان جزءا لا يتجزأ من حياة المدينة". ويذكر شارلز ديكنز في كتابه "مذكرات أمريكية" أن الخنازير كانت موجودة في برودواي ونيويورك في منتصف القرن التاسع عشر. وذلك بينما كان القانون يحرم، في فرانكفورت على نهر المين بعد (١٤٨١)، تربية الخنازير في المدينة القديمة (Altstadt). ولكن هذه العادة ظلت قائمة في المدينة الجديدة (نيوستاد) وفي ساخسنهاوزن – كأمر عادي بحت. ولم تتمكن السلطات من هدم حظائر الخنازير في المدينة الداخلية في ليبزج إلا في (١٦٤٥) بعد محاولة فاشلة قامت بها في

[1] نقلا عن الدكتور تيلي في كتاب "تاريخ العالم" لهلموت.

(١٥٥٦). وكان سكان المدن الأغنياء الذين كثيرا ما كانوا يشتركون في شـركات التجـارة العظيمـة مـن أصحاب الأراضي الواسعي الثراء، وكانت لهم أفنية فسيحة بها أجران كبيرة داخل أسوار المدينـة. وكـان أوسعهم ثراء يملكون تلك البيوت الضخمة الفاخرة التي ما نزال نعجب بها إلى يومنا هذا.

"ولكن جل بيوت القرن الخامس عشر قد اندثرت حتى في المدن القديمة نفسها، ولم يعد باقيا إلا بناء هنـا أو هناك يتجلى فيه الخشب والطوابق البارزة بعضها فوق بعض، كما في مدينة بخـاراخ (Bacharach) أو ملتنبورج، وهي تذكرنا بطراز العمارة المألوف آنذاك في بيوت سكان المدن. فأما الأغلبية الغالبة من الطبقة الدنيا من السكان، الذين كانوا يعيشون عيش التسول، أو يحصلون على معاشهم بممارسة الصناعات الـدنيا، فكانوا يسكنون أكواخًا قذرة خارج المدن. وكثيرا ما كانت أسوار المدينة هي الدعامة الوحيدة لهـذه المبـاني التعسة. وتعتبر تنظيمات ومرافق المنزل الداخلية حتى عند السكان الأغنياء، ناقصة ومعيبة جدا من وجهـة النظر العصرية، كما أن الطراز القوطي كان مكيفًا بشكل رائع لبناء الكنائس وقاعات البلديات بقدر ما كـان أقل الطرز صلاحية لإبراز التفاصيل الصغيرة في وسائل الترف. على أن عصر النهضة أضـاف الشـيء الكثير من وسائل الراحة إلى البيوت.

"وشهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر بناء عدة كنائس للمدن وقاعات للبلديات [١] قوطية الطراز في كل أرجاء أوربا، لا تزال في كثير من الحالات تخدم الغرض الأصلي المنشود منهـا. ولا أدل علـى قـوة المدينة ورغدها من هذه المباني والتحصينات، بما حوت من أبراج قوية وبوابات ضخمة. وما مـن صـور لمدينة في القرن السادس عشر أو ما يتلوه من قرون إلا وتظهر بشكل بين هذه البنايـات الأخيـرة المبتنـاة لحماية المدينة وتشريفها.

"وكانت المدينة تتولى أشياء كثيرة تقوم بها الدولة في زماننا هذا. فإن إدارة المدينة كانت تتولى المسـائل الاجتماعية أو يتولاها ما يقابل ذلك من مجالس بلدية. وكان تنظيم الحرف من اختصاص النقابات بالاتفاق مع المجالس، على أن العناية بالفقراء من شأن الكنيسة، على حين كان من واجب المجالس وقاية أسـوار المدينـة والعناية بفرق المطافئ العظيمة الضرورة والأهمية. وتنبها من المجالس إلى عنايته بواجباته الاجتماعية، فإنه يشرف على ملء مخازن الحبوب التابعة للبلدية، لكي يكون لديه الطعام اللازم في سنوات القحط. ولم تخـل مدينة واحدة من هذه المخازن تقريبا إبان القرن الخامس عشر. ولم ينقطع قط صدور تعريفات لأسعار بيـع السلع كلها، وهي على درجة من الارتفاع تكفل لكل صانع ماهر أن يكتسب رزقًا طيبا؛ وتتضـمن للمشـتري جودة صنف السلعة وكانت المدينة كذلك هي الممول الرأسمالي؛ وبالتزامها ببيع المرتبات السنوية على الحياة وعند الميراث، أصبحت تقوم بعمل البنوك وتحظى بثقة لا حد لها. وكانت تحصل مقابل تلك الخدمات علـى المال اللازم لابتناء التحصينات أو الحصول على حقوق السيادة من يدي أمير مفلس".

---

[١] قاعة البلدية Town Hall: مبنى عام يستعمل لاجتماع مجالس المدينة ولأعمال أخرى.

وكانت هذه المدن الأوربية في معظم شأنها جمهوريات أرستقراطية مستقلة أو شبه مستقلة. وكان معظمها يعترف بسيادة عليا مبهمة من جانب الكنيسة، أو الإمبراطور أو أحد الملوك. على أن بعضها الآخر كان جزءا من ممالك، أو حتى عواصم دوقات أو ملوك. وفي مثل هذه الحالات كانت حرياتها الداخلية مكفولة الاستمرار بأمر ملكي أو إمبراطوري. وفي إنجلترة قامت على نهر التاميز مدينة وستمنستر الملكية ملاصقة تمام الملاصقة ونداً مساويا لمدينة لندن المسورة، التي كان الملك لا يدخلها إلا بإذن ومراسم خاصة.

وحكمت جمهورية البندقية المستقلة إمبراطورية من الجزر التابعة والثغور التجارية، على طريقة تقارب طريقة الجمهورية الأثينية. كذلك كانت جنوا منفصلة وحدها.

وكانت المدن الألمانية في منطقة البلطيق وبحر الشمال من ريجا إلى ميدلبرج في هولندا ودرنموند وكولونيا متحدة اتحادا كنفدراليا مفككا، هو اتحاد مدن الهانسا، تحت زعامة هامبرج وبريمن وليوبك، وهو اتحاد كان ارتباطه بالإمبراطورية أضعف وأشد تفككًا، وقام هذا الاتحاد الذي يحتوي على أكثر من سبعين مدينة في مجموعة، والذي كانت له مستودعات في نوفجورود وبرجي ولندن وبروج، يبذل الجهد الكثير للاحتفاظ بالبحار الشمالية خالية من القرصنة، تلك اللعنة التي نكب بها البحر المتوسط والبحار الشرقية.

وكانت الإمبراطورية الشرقية إبان دورها الأخير بأكمله، منذ الفتح العثماني لأراضيها الأوربية بالبلقان في القرنين الرابع عشر وأوائل الخامس عشر حتى سقوطها في (١٤٥٣)، تكاد تقتصر على مدينة القسطنطينية التجارية ليس غير، فكانت من ثم "دولة مدينة" مثل جنوا أو البندقية، لا يفرقها عنهما إلا وجود بلاط إمبراطوري فاسد يرهقها ويثقل كاهلها.

وقد بلغت حياة المدن تلك في العصور الوسطى المتأخرة، أعلى ذرى تطورها وفخامتها في إيطاليا. فبعد انقراض أسرة هوهنشتاوفن في القرن الثالث عشر، ضعفت قبضة الإمبراطورية الرومانية المقدسة على شمال ووسط إيطاليا، وإن ظل الأباطرة الألمان – كما سنذكر فيما بعد – يتوجون ملوكًا وأباطرة لإيطاليا حتى زمان شارل الخامس (قرابة ١٥٣٠). ونشأ عدد من دول مدن شبه مستقلة، إلى الشمال من روما العاصمة البابوية. ولكن جنوب إيطاليا وصقلية ظلتا مع ذلك تحت السيادة الأجنبية. وكانت جنوة ومنافستها البندقية أكبر الثغور التجارية في ذلك العصر؛ ولا تزال قصورهما الفخمة ونقوشهما الفاخرة تحظى بإعجابنا. وانتعشت كذلك ميلانو عند سفح ممرسان جوثارد ففازت بالثراء والقوة. ولعل أسطع المدن ضياء في كل تلك المجموعة من النجوم الإيطالية، مدينة فلورنسا، وهي مركز تجاري مالي، حظيت بعصر كعصر "بريكليس" تحت حكم عائلة ميديتشي شبه الملكي في القرن الخامس عشر. على أن فلورنسا أنتجت قبل زمان هؤلاء "الكبراء" الميديتشيين المثقفين، الكثير من آيات الفن الجميل، فإن برج جوتّو [1] (١٢٦٦ – ١٣٣٧) ومبنى ديومو (الذي عمله برونللسكو، ١٣٧٧ – ١٤٤٦) كانا موجودين قبل عهدهم. وقد أصبحت فلورنسا قرب نهاية القرن الرابع عشر، مركز اكتشاف فنون القدماء واسترجاعها ومحاكاتها. على أن نهضة الفنون التي قامت فيها فلورنسا بدور عظيم كبير، من الأوفق أن نتكلم عنها في قسم تالٍ.

---

[1] برج جوتو (Giottotower): هو برج الحرس الكبير بكاتدرائية فلورنسا. (المترجم).

٨- النهضة الأدبية

يرتبط بهذا التيقظ العام الجديد الذي ألم بالذكاء الأوربي الغربي انفجار عظيم في الأدب الابتداعي الخلاق. ولقد سبق أن لحظنا ظهور الأدب في اللغة الإيطالية بفضل مبادرات الإمبراطور فردريك الثاني. وفي نفس الوقت كان المنشدون التروبادور [١] في كل من شمال فرنسا وبروفانس [٢] يدفعون الناس إلى نظم الشعر باللهجات الشمالية والجنوبية، ومنها أغاني الحب والأغاني القصصية وما شاكلها. وقد انفجرت هذه الأمور جميعا، إن صح لنا هذا التعبير، كتيار سفلي يجري تحت ميل إلى كتابة اللاتينية وقراءتها. وكان صدورها عن العقل الشعبي وعن العقل المتهاون المرسل على سجيته وليس عن العقل المتعلم. وولد بفلورنسا في (١٢٦٥)، دانتي ألليجيري، الذي انتهى أمره إلى المنفى بعد نشاط سياسي عنيف، ثم كتب بين ما كتب من أعمال، قصيدة رصينة جزلة في شعر إيطالي مقفى، هي "الكوميديا"، وهي وشي من الإشارات الرمزية والأحداث المتقطعة غير المترابطة والبحث الديني. وهي تصف زيارة للجحيم والمطهر والفردوس. ومما يلوح بعلاقتها بأدب الأجداد اللاتيني اتخاذ دانتي من فرجيل دليلاً يهديه في المناطق السفلى (أعني الجحيم). وهي في ترجماتها الإنجليزية المختلفة تسبب للقارئ مللا وسآمة، ولكن أهل الفكر الذين أوتوا من العلم ما يسمح لهم بالحديث في الموضوع لا يكادون لفرط إعجابهم يستطيعون أن يعبروا عما يحسونه إزاء الجمال الرائع، واللذة والحكمة التي تنجلي في الأصل. وقد كتب دانتي أيضا باللاتينية في المسائل السياسية وفي الدفاع عن حق اللسان الإيطالي بأن يعد لغة أدبية. فوجه إليه نقد لاذع لاستعماله اللغة الإيطالية، واتهم بعدم المقدرة على كتابة الشعر باللاتينية.

وبعد ذلك بزمن وجيز أخذ بترارك (١٣٠٤ – ١٣٧٤) كذلك يكتب الأهازيج (Sonnets) [٣] والقصائد الغنائية Odes باللغة الإيطالية مما أثار حمية جميع من بلغ من الثقافة حدا يمكنه من التأثر بهما. مثال ذلك ما كتبه جون أدينجتون سيموندس: "إن القافية في قصيدة حياة المادونا لورا ووفاتها (Vita e Morte di Madonna Laura) لا يمكن أن يتقادم عليها العهد مهما طال الزمن، وذلك لأن الصيغة العروضية البالغة حد الكمال قد قرنت فيها إلى الألفاظ المنتخلة الصافية". على أن القصائد تتركنا في شك من أمر وجود المادونا لورا. وكان بترارك أحد جماعة من الإيطاليين الذين دأبوا جاهدين في استرجاع أمجاد الأدب اللاتيني. وإن كتاب معالم تاريخية كهذا قد لا تستطيع فيه هذه الأمجاد أن تبلغ حد السمو الذي لاحت به في عين جيل من الإيطاليين أخذ يفتح عينيه ثانية على ما للجمال الأدبي من روعة تهز الأنفس. ثم ذوت عملية الكتابة بالإيطالية ردحا من الزمان انتعش أثناءه التأليف باللاتينية. فكتب بترارك ملحمة باللاتينية هي "أفريقيا". وظهر محصول ضخم من الكتابة الكلاسيكية الكاذبة (Pseudo-classical)، وهي ملاحم ومآسي

---

[١] التروبادور: مغنون جوالون في القرون الوسطى ينشدون أغاني الحب. (المترجم).

[٢] بروفانس: القسم الجنوبي من فرنسا المطل على البحر المتوسط. (المترجم).

[٣] الأهازيج أو السونيتات: ضرب من القصائد الأوربية مكون من ١٤ بيتًا وله بحر خاص. (المترجم)

(تراجيديات) زائفة ومهازل (كوميديات) زائفة باللاتينية، لا شك في شبهها الكبير بالأشعار والنثـر البيـاني المنمق الذي يصدر في الإنجليزية من بعض الموهوبين من شباب الهنود. ولم يحدث أن عاد الشعر الإيطالي من جديد إلى رفعته وتميزه إلا بعد ذلك بزمن، بظهور بوياردو ثم آريوستو (١٤٧٥ – ١٥٣٣). ولـم تكـن قصة آريوستو المسماة (أورلاندو فوريوسو) إلا الآية المتوجة لعدد جم من القصائد الرومانسـية القصصـية التي كانت تدخل البهجة إلى قلوب قراء عصر النهضة القليلي الإطلاع. وكانت هـذه القصـائد القصصـية تعترف على الدوام بالفضل لذويه بإشاراتها ومحاكاتها بشكل ما لتقاليد الملحمة الفرجيلية المصطنعة، التي هي في حد ذاتها عمل جليل ينطوي على المحاكاة وموفور الاطلاع. وتتكون كتلة هذا الأدب مـن الكوميـديات والقصيدة القصصية، والقصائد القصيرة في أشكالها المتنوعة. ولم يبلغ النثر من التكلف والدماثة الدرجة التي تجعله موضع استحسان النقاد.

وكذلك رانت على تيقظ الحياة الأدبية في المجتمع الناطق بالفرنسية ذكريات للأدب اللاتيني. وكان هنـاك بالفعل أدب من الأغاني المرحة كتب في فرنسا بلاتينية القرون الوسطى، وهي أغاني الحان والطريق (وهي ما يسمى بالشعر الجولياردي في القرن الثالث عشر)، وظلت روح هذه الكتابة الأصيلة تعيش فـي الأشـعار الصادقة التعبير لشعراء مثل فيون Villon (١٤٣١ – ١٤٦٣)؛ ولكن انتعاش الدراسات اللاتينية انتقل مـن إيطاليا وفرض التكلف على الناس عامة اللهم إلا أصحاب أقوى العقول. وتأسس أسلوب محكم فيه شيء مـن جلال المباني الحجرية الأثرية. وأنشئت قصائد فاخرة وروايات تمثيلية كلاسيكية قصد منهـا إلـى اسـتثارة إعجاب الخلف (الأجيال التالية) أكثر من إدخال السرور عليهم. ومع هذا فإن عبقرية الحيـاة الفرنسـية لـم تقتصر اقتصارا تاما على هذه الممارسات الرفيعة؛ فإن نثرا يتصف بالامتياز والمرونة قـد ظهـر. وكتـب مونتين (١٥٣٣ – ١٥٩٢)؛ وهو أول كاتبي المقالات، كتابات لطيفة عن الحياة وكريهة عن العلماء، وانفجر رابليه (١٤٩٠؟ - ١٥٥٣) كسيل من الحمم المحرق الصاخب الضاحك، انفجر محطما ما للعلماء المتحذلقين في عصره من مظاهر الكرامة واللياقة.

فأما في ألمانيا وهولندة فإن الدوافع الفكرية الجديدة جاءت في نفس الوقت تقريبا الذي تجلت فيـه الآثـار السياسية والدينية الضخمة للإصلاح الديني، كما أنهما أنتجتا أشكالاً روحها الفنية أقل نقاء. يقول ج. أدينجتون سيموندس: إن إيراسموس (إيرازم) هو الممثل العظيم لعصر النهضة في هولندة مثلما كان لوثر في ألمانيـا، ولكنه لم يكتب بالهولندية بل باللاتينية.

وحدث في إنجلترة انفجار في النشاط الأدبي يرجع إلى القرن الرابع عشر. فأنتج جفري شوسر (١٣٤٠؟ - ١٤٠٠) شعرا قصصيا ممتعا نهج فيه بشكل ظاهر نهج النماذج الإيطالية، على أن قدرا كبيرا من الشعر القصصي الرومانسي كان موجودا من قبل. ولكن الحروب الأهلية وحروب الوردتين والوباء والمنازعات الدينية قضت على هذه البداية الأولى، ومن ثمة لم يدخل الأدب الإنجليزي مرحلة الحياة القوية إلا مع استهلال القرن السادس عشر بعد عهد هنري الثامن. فحدث في مستهل الأمر انتشار سريع للدراسات الكلاسيكية وسيل من الترجمات عن اللاتينية والإغريقية والإيطالية بعث الخصب في الأذهان. وظهر محصول فجائي من الكتابات الإنجليزية الممتازة. وأخذ الكتاب يداعبون اللغة الإنجليزية ويختبرونها ويصقلونها. وكتب سبنسر قصته (الفيري كوين)، وهي عمل رمزي ممل له جمال زخرفي عظيم. ولكن الدراما في أيام الملكة إليزابث، كانت المضمار الذي وجدت فيه العبقرية الإنجليزية خير مجال للتعبير عن نفسها. لم تخضع قط للتقاليد الكلاسكية، بل كانت الدراما في عصر إليزابث شكلاً أو قالبا أدبيا جديدا أشد اكتمالاً وأتم تحررا وأعظم قوة وأحفل بالسمة الطبيعية التامة. ووجدت في شكسبير (١٥٦٤ – ١٦١٦) خير من يجلّيها إلى أقصى حد؛ وهو رجل كان لديه لحسن الحظ "القليل من اللاتينية والأقل من الإغريقية"، وكانت أجزل فقراته وأحفلها بالبراعة مستقاة من الحياة المتواضعة بل حتى السوقية، كان رجلا ذا فكاهة حادة وحلاوة ذهنية عظيمة، يحول كل جملة يكتبها لحنًا شجيا. وولد ملتون (١٦٠٨ – ١٦٧٤) قبل وفاة شكسبير بثمانية أعوام. وقد أسبغت دراساته الكلاسيكية الأولى في صباه على كل من شعره ونثره سمة مختالة من الكبرياء والفخامة لم تزل منهما قط زوالا تاما. رحل إلى إيطاليا وشهد روائع التصوير في عصر النهضة. وترجم تصاوير رافاييل وميشيل أنجلو شعرا إنجليزيا فائقًا دونه في ملحمتيه العظيمتين "الفردوس المفقود" و "الفردوس المستعاد". ومن حسن حظ الأدب الإنجليزي أن شكسبير جاء ليوازن ملتون وينقذ قدرا كبيرا من الروح الجوهري لذلك الأدب من التشبع بالروح الكلاسيكي.

وأنتجت البرتغال بلمسة نالتها من النهضة الأدبية، ملحمة اللوسيادة التي وضعها كاموينس (١٥٢٤ – ١٥٨٠) ولكن كان من حسن حظ إسبانيا – شأن إنجلترة، أن وجدت رجلا ذا عبقرية فائقة، لا يثقل فرط العلم كاهله، يعبر لها عن روحها. فإن سرفانتيز (١٥٤٧ – ١٦١٦) تناول بسخريته الفكاهات والسخافات التي أثارها في رأس رجل هزيل فقير نصف مجنون، نزاع نشب بين تقاليد الفروسية في العصر الوسيط وبين احتياجات الحياة السوقية ودوافعها. وإن بطلّيه دون كيشوت وسانكوبانزا – شأن بطل شكسبير السير جون فالستاف وبطلة شوسر زوجة باث، وبطل رابيليه جارجنتوا- ليقتحمان كرامة الأدب الشكلي القديم وبطولاته مدخلين عليهما الحرية والضحك. وإنهما ليقتحمان خلالهما كما اقتحم روجر باكون والرجال العلميون عالم العلماء المدرسانيين المعتمد على الكتب وحدها، وكما اقتحم المصورون والمثالون الذين سنتكلم عنهم فيما بعد، القيود والتضييقات الزخرفية والتزام الاحتشام الديني في فنون العصور الوسطى. ولم تكن الحقيقة الجوهرية التي اجتذبها عصر النهضة هي الروح الكلاسيكية بل إطلاق السراح وتحطيم القيود؛ ولم يكن إحياء العلوم اللاتينية والإغريقية إلا إسهاما في القيم الإيجابية لعصر النهضة، لما لتلك القيم من تأثير مدمر للتقاليد الكاثوليكية والقوطية والإمبراطورية.

٩- النهضة الفنية

لا شك أن مما يتجاوز مجالنا وحدودنا أن نقفو النهضات المتعددة في الفنون المحلية والزخرفية في هـذه الفترة العظيمة من الانتعاش البشري العام؛ وأن ننبئك كيف كيفَ الفن القـوطي الشـمالي لمبـاني البلـديات والمباني الخاصة، ثم كيف أدخلت عليه التعديلات، واستبدل إلى حـد كبيـر بأشـكال مسـتقاة مـن الفـن (الرومانسكي) الإيطالي، ومن إحياء التقاليد القديمة في إيطاليا. ولم يحدث قط أن مالت إيطاليـا إلـى الفـن القوطي الذي اجتاحها من الشمال، أو إلى الأشكال العربية التي دخلتها من الجنوب. وفي القرن الخامس عشر تم اكتشاف الكتابات اللاتينية التي سطرها فتروفيوس (Vitruvius) في فن العمارة، وكانت منبها قويـا زاد في عمليات التغيير التي كانت تجري فعلاً. فانتشرت المؤثرات الكلاسيكية القديمة التي كانت تنهمر في الأدب بقوة، منتقلة إلى عالم الخلق والابتكار الفني المتفزز بالنشاط آنفًا.

ولكن كما أن الانتعاش الأدبي قد سبق إحياء الدراسات الكلاسيكية (إحياء العلوم القديمة)، فقد جرى كذلك أن اليقظة الفنية بلغت أقصى مراتب تقدمها قبل اتجاه الأنظار إلى الفن التمثيلي [1] الكلاسيكي. فإن أوربا أخذ يشتد فيها على التدريج منذ أيام شرلمان بروز الميل إلى المحاكاة التمثيلية للطبيعـة وإيثارهـا علـى الفـن الزخرفي. فحدث بألمانيا إبان القرنين الثاني عشر والثالث عشر تطور قوي في فن التصـوير، وأعنـي بـه تصوير أشياء حقيقية على الخشب. فأما في إيطاليا – حيث كانت الأشكال المعمارية تتيح لأهل الفـن براحـا أرحب مما يتيحه الفن القوطي، فإن أهمية التصوير على الجدران كانت تتزايد. وقامت أول مدرسـة محـددة التصوير الألماني في مدينة كولونيا (١٣٦٠ فما تلاها). وبعد زمن غير كبير ظهر فـي هولنـدة الأخـوان هوبارت وجان فان آيك (قرابة ١٣٨٠ – ١٤٤٠). ويمتاز عملهما بالإشراق والنضرة والبهجة وهو يشبه ما في كتاب القداس (الخولاجي) من تصويرات. ولكنها حية تتنفس الهواء على السـطوح الأرحـب للوحـات المصورة (Panels).

وكان تشيمابويه (Cimabue) يصور في القرن الثالث عشر، وهو أستاذ جوتو (١٢٦٦ – ١٣٣٧)، الذي يبرز بوصفه الشخصية الضليعة المبكرة في تلك المرحلة الأولى من مراحل نهوض الفن إلى سـابق عهـده. وهي مرحلة بلغت ذروتها في شخص فرا أنجليكو دا فيسولي (١٣٨٧ – ١٤٥٥) وختمت به.

وعند ذاك ابتدأ في إيطاليا وبخاصة في فلورنسا، بحث علمي بالمعنى الدقيق في الوسـائل الفنيـة للفـن التمثيلي الواقعي. ولا حاجة بنا أن نؤكد بقوة أن جوهر التغيرات التي كانت تحدث في الفن والنحت في أوربا في عصر النهضة هو التخلي عن الاعتبارات الجمالية والاستمساك بالاعتبارات العلمية، وهي حقيقة تجاهلتها على الدوام جميع الكتب التي تبحث في الفنون. فنشأ في مكان تصميم الحليات وصوغ أشكال الزخارف بمـا فيها من شكلية وتجريد وجمال، بحث وراء الواقع كان في خير أحواله جريئًا بديعا وغالبا مـا كـان خشـنًا

[1] الفن التمثيلي Representative art هو مجموعة فنون الرسم والتصوير والتشكيل وسمى بالتمثيل لأنـه يمثـل الطبيعـة والحياة. (المترجم)

صحيحا إلى حد مؤلم. فعلى الجدران والأحجار ظهر من جديد ما للجسم الإنساني في هيئته الساذجة من تمايس ولدونة حركة بعد أن قضى عليهما الفن العربي وجمدهما الفن البيزنطي. فقد أخذت الحياة تدب ثانية في الفن وأخذت من فورها تتنفس وتتحرك وتتصبب عرقًا وتؤدي الإشارات المعبرة. ودرست مشاكل المنظور ووجدت لها الحلول، وشرع المصورون لأول مرة، مع التمكن والاطمئنان، في أن يمثلوا "العمق" في الصورة. وأخذ الفنانون يدرسون التكوين التشريحي للبدن دراسة استقصاء مدققة. وقد ظل الفن فترة من الزمان ثملا تسكره خمرة التمثيل التشكيلي. فأقبل المصورون على التفاصيل يظهرونها إظهارا دقيقًا صادقًا – الزهور والجواهر، والثنيات في القماش والانعكاسات في الأشياء الشفافة. ووصل الفن إلى دور من الجمال الزخرفي المتطرف وتجاوزه.

وليس في إمكاننا أن نقفو هنا المضي المتواصل لهذه الدوافع المبتعثة خلال المدارس المختلفة بمدن إيطاليا وشمال ألمانيا، ولا أن نتأثر التفاعلات المتبادلة بين جماعات المصورين الفلمنكيين والفلورنسيين والأمبريانيين [1] وغيرهم. وسنقتصر فقط على ذكر أسماء بعض كبار أساتذة القرن الخامس عشر الفلورنسيين، فيليبوليبي وبوتيشللي وغرلنداجو، والأمبريانيين: سنيورللي وبيروجينو ومانتنيا. فأما مانتنيا (١٤٣١ – ١٥٠٦) فإنه يبزهم جميعا لأن الإنسان يلحظ في عمله وحده أكثر من أي معاصر له، روح الفن القديم الكلاسيكي المسترجعة. وإن له في خير أحواله لصرامة لا تجارى.

وظهر مع القرن السادس عشر ليوناردو دافنتشي (١٤٥٢ – ١٥١٩) الذي أسلفنا لك القول في آرائه العلمية. وكان هناك في نورمبرج شخص ذو روح قريبة من روحه هو ألبرخت دورر (١٤٧١ – ١٥٢٨). وارتفع فن البندقية إلى ذروة مجده، بفضل كل من تتيان (١٤٧٦؟ - ١٥٧٦) وتنتورتو (١٥١٨ – ١٥٩٤) وبول فيرونيزي (١٥٨٢ – ١٥٨٨). ولكن ليس يعني القارئ في كثير ولا قليل أن نقوم بسرد الأسماء له، ولن تستطيع أجود صور مستنسخة لهم، نقدمها للقارئ، أن تقدم إليه إلا إشارات قليلة عن "كنه وكيف: هؤلاء الأساتذة، وما نستطيع بواسطة المطبعة إلا أن نذكر علاقتهم العامة بالفن والحياة بوصفهم عوامل في اتجاه جديد نحو الجسم والأشياء الملموسة. ولا بد للقارئ الدارس من الرجوع إلى صورهم الأصلية يطلب فيها بنفسه إدراكًا واقعيا لسماتهم المميزة. وربما أشرنا له إلى صورة تتيان المعروفة بالاسم غير المطابق لها، وهو "الحب الطاهر والحب الدنس"، أو إلى مختلف صور العرافات (Sibyls) وإلى "خلق آدم" التي رسمها مايكل أنجلو على سقف كنيسة السستين، بوصفهن من أبدع أزاهير تلك الروضة فتنة وجمالاً. وانتقل فن التصوير إلى إنجلترة على يد هانز هولبين الألماني (١٤٩٧ – ١٥٤٣)، وذلك لأن إنجلترة قد بلغ بها التمزق في الحرب الأهلية حدا لم تستطع معه أن تظل في كنفها أية مدرسة للفن. كان مجيئه مجرد زيارة عابرة. بل إن عصر الملكة إليزابث نفسه – وناهيك بتراثه في الأدب وبخصبه في الموسيقى – لم ينتج أي تصوير أو نحت يمكن أن يقارنا بمثيليهما في إيطاليا وفرنسا. ولم تلبث الحروب والشغب السياسي أن عوقت فن ألمانيا عن التقدم، ولكن الدافع الفني الفلمنكي استمر إلى روبينز (١٥٧٧ – ١٦٤٠)، ورامبراندت (١٦٠٦ –

[1] الأمبريانيون (Umbrian): نسبة إلى أمبريا وهي منطقة بوسط إيطاليا.

١٦٦٩)، وإلى عدد عظيم من مصوري الجنري[١] البهيج والمناظر الطبيعية البرية الذين أنتجوا صورا زيتية في غرب أوربا الأقصى، والذين كان إنتاجهم شبيها في روحه وموضوعه شبها عجيبا بطائفة من أقدم الصور الصينية دون أن يكون هناك أي احتمال لوجود علاقة أو نقل أو محاكاة. وربما كان هذا التماثل راجعا إلى وجود تماثل ما غامض في الظروف الاجتماعية.

وأخذت عظمة مصوري إيطاليا تنحدر وتخبو منذ نهاية القرن السادس عشر. فذوت حماسة الناس وإحساسهم بطرافة تصوير الجسم الإنساني المغمور بالضياء بكل ما يحتمل أن يحتويه من ثنيات، ومن امتداد ومن التقصير الأمامي (Exiension & Foreshortening) بين أحضان خلفيات (Backgrounds) لها نصاعة وإشراق يفوق ما للطبيعة من إشراق. كما أن مبررات اتخاذ النحت والأساطير (الميثولوجيا) الكلاسيكية موضوعات للتماثيل التي تمثل التمرينات الجسمية قد استنفدت أغراضها إلى حد كبير. ولم تعد تستثير العقول الأصيلة الصور التي تقوم بتمثيل الفضائل والرذائل والفنون والعلوم والمدن والأمم وما إليها بأشكال نسائية مكشوفة كشفًا حرا ومقدمة في هيئة تسر الأعين؛ وظهر طراز من المحترفين أقل ميلا للاجتهاد وأخذ في ممارسة الفن قانعا بتصوير صور كانت في خير أحوالها مجرد مطاولة لصور موجودة من قبل. فأما فن النحت الأوربي الذي تطور بهيئة بطيئة طبيعية في ألمانيا وفرنسا وشمال إيطاليا منذ القرن الحادي عشر فما أعقبه من قرون، والذي كان أنتج أعمالاً ممتازة من أمثال ملائكة الكنيسة المقدسة بباريس، تمثال الفارس لكان جراندي في فيرونا، وتمثال كليوني في البندقية (الذي صنعه فيروتشيو وليوباردي) – فلم يلبث أن جرفته أمامها المحاولات التي أنفقت لإحياء الصفات الخاصة التي تمتاز بها صناعة التماثيل الكلاسيكية التي كان الناس عند تلك قد استخرجوها من الأرض وأخذوا ينظرون إليها معجبين. فأنتج مايكل أنجلو وهو سكران بنشوة هذا الإلهام أعمالا بالغة الذروة في القوة والكرامة مع تمكن في تكوينها التشريحي لا يشق له غبار وهي أعمال أذهلت خلفاءه ودفعتهم إلى التقليد، فأوردهم ذلك موارد التدهور. ومع تقدم الزمن بالقرن السابع عشر أخذ فنا التصوير الأوربي والنحت يتخذان لنفسيهما سمة الرياضي الذي أفرط تمرينًا حتى بلغ حد الإعياء، أو الوردة التي أفرطت في التفتح.

على أن حاجات الناس المادية تدعم فن العمارة عندما تضمحل الفنون الأقل منه ضرورة، ولذلك تواصل إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر إنتاج مستمر منوع لمبان رقيقة جميلة في كل أرجاء أوربا. ولن نذكر لك إلا اسم بالاديو (١٥١٨ – ١٥٨٠)، الذي تملأ أعماله مدينة فيشنزا مسقط رأسه، والذي نشرت كتبه وتعاليمه في كل أقطار أوربا تقريبا أسلوبه الكلاسيكي المبتعث حيا. وإنه ليحاكي ينبوعا عظيما يفيض بالأفكار المعمارية. ولسنا بمستطيعين ها هنا أن نقص أثر التفريعات والتغييرات المعقدة التي ألمت بعمارة عصر النهضة والتي استمر تطورها استمرارا طبيعيا ومتواصلاً حتى زماننا هذا.

---

[١] الجنري (Genre): نوع وطراز من تصوير مناظر الحياة العادية. (المترجم)

ولم يكن فن التصوير في إسبانيا نباتًا أصيلاً في أراضيها كما كان حاله في شمال ألمانيا وإيطاليـا. فـإن المصورين الإسبان كانوا يهبطون إيطاليا للدراسة ثم يعودون منها بفنهم. ولكن حدث في النصف الأول مـن القرن السابع عشر، في البلاط الإسباني المتقاص الذي كان لا يزال محتفظًا بثرائـه، أن ازدهـر التصـوير الإسباني. شخص فيلاسكويز (١٥٩٩ – ١٦٦٠) العظيم الأصيل. فكانت له إلى الأشياء نظرة تمتاز بالطرافة والقصد المباشر إلى الغاية، وكانت في مرقاشه قوة جديدة؛ فهو – ويشاركه في ذلك رامبراندت الهولنـدي – يبرز متفوقًا على بقية مصوري عصر النهضة في الروح والكيف كما أنه يسير في طريق أقوى ما أنتجـت أخريات القرن التاسع عشر وما أخرج زماننا هذا من أعمال.

١٠- أمريكا تدخل التاريخ

سقطت القسطنطينية في (١٤٥٣) كما أسلفنا إليك القول. وظل الضغط التركي على أوربا طوال القرن التالي قويا لا ينقطع. فإن الحد الفاصل بين المغولي والآري، الذي كان يمتد في مكان ما شرقي هضبة البامير في أيام بريكليس، تراجع عند ذلك إلى هنغاريا. وتحولت القسطنطينية ردحا طويلاً من الزمان إلى مجرد جزيرة من المسيحيين تحيط بها شبه جزيرة البلقان الذي يحكمه الترك. وأفضى سقوطها إلى عرقلة التجارة مع الشرق إلى حد كبير.

فأما مدينتا البحر المتوسط المتنافستان جنوة والبندقية، فكانت الأخيرة منهما على وجه الإجمال أحسن علاقة بالترك من الأولى. لذا كان كل ملاح جنوي ذكي مستاء من احتكار البندقية للتجارة في البحر المتوسط، ويحاول أن يستنبط طريقة لاختراق نطاق ذلك الاحتكار أو الدوران من حوله. وظهرت عند ذاك شعوب جديدة كثيرة هوت التجارة البحرية، ومالت إلى البحث عن طرق جديدة تؤدي إلى الأسواق القديمة، وذلك لأن الطرق العتيقة كانت مغلقة في وجوههم.

فكان البرتغاليون مثلاً يطورون تجارتهم بإزاء شواطئ المحيط الأطلسي. وبذا أخذ ذلك المحيط يستيقظ من جديد بعد مدة إهمال مترامية ترجع إلى أوان "مقتل" قرطاجة على يد الرومان. ومن العسير علينا الفصل فيما إذا كان الأوربي الغربي يندفع إلى المحيط من تلقائه أم كان يدفعه الأتراك إليه دفعا، وهم الذين كانت لهم السيادة في البحر المتوسط حتى يوم معركة ليبانتو (١٥٧١). فإن السفائن البندقية والجنوية كانت تتسلل بمحاذاة الشواطئ حتى تبلغ أنتورب [١]، وكان ملاحو مدن الهانسا أخذوا ينحدرون جنوبا ويوسعون مجالهم. وحدثت أثناء ذلك تطورات ضخمة في فنون الملاحة وبناء السفن. ولا يخفى أن البحر المتوسط بحر قوادس [٢] وملاحة ساحلية. ولكن المحيط الأطلسي وبحر الشمال، أكثر رياحا وأشد موجا والشواطئ فيهما في كثير من الأحيان مصدر خطر أكثر منها كنفا يحتمى به. فاستدعت البحار العالية وجود السفينة الشراعية الضخمة، ومن ثم يتم ظهورها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وتمخر البحر مسترشدة في طريقها بالبوصلة والنجوم.

وكان تجار الهانسا عندما وافى القرن الثالث عشر يقلعون بانتظام عبر البحار الباردة الشهباء، من برجن إلى أهل الشمال سكان أيسلندة. وعرف الناس من أيسلندة خبر جرينلندة، وكان الرحالة المغامرون قد وجدوا من زمان مديد أرضا أخرى خلفها، هي فينلندة، حيث المناخ لطيف معتدل وحيث يستطيع الناس أن ينزلوا ويستقروا إن آثروا أن يقطعوا الصلة بينهم وبين بقية الجنس البشري. وفينلندة هذه إما أن تكون نوفاسكوتشيا أو، نيوإنجلند [٣] وهو الأرجح.

---

[١] وهي بالفرنسية أنفرس، وتقع الآن في بلجيكا. وكانت لها أهمية تجارية عظيمة. (المترجم)

[٢] القادس أو الغليون Galley: طراز قديم من السفينة الشراعية الكبيرة ذات المجاديف. (المترجم)

[٣] هو الاسم الذي يطلق على المنطقة الشمالية الشرقية من الولايات المتحدة ويضم ولايات: ماين وينيو همشير وفرمونت وماساشوستس، ورود - آيلند، وكونيكتيكت. (المترجم)

وكان التجار والبحارة في كل بقاع أوربا في القرن الخامس عشر يقلبون الفكر في شـأن طـرق جديـدة تفضي إلى الشرق. وكان البرتغاليون يتساءلون غير عالمين بأن الفرعون نخاو قد حل المشكل قبل زمـانهم بعصور مديدة: أليس في الإمكان أن يصل الناس إلى الهند بالدوران حول ساحل أفريقيـا؟ واتبعـت سـفنهم (١٤٤٥) نفس الطريق الذي سلكه هانو إلى رأس فردي، فانطلقوا في البحر غربا ووجدوا جزائر الكنـاري وماديرا والأزورس. وكانت تلك خطوة طويلة نوعا ما عبر الأطلسي. يقول السير هاري جونستون متحـدثًا عن هذه المغامرات البحرية في المحيط الأطلسي الشرقي وبمحاذاة الشاطئ الإفريقي الغربي: "إن البرتغاليين قد سبقهم في القرنين الثالث عشر والرابع عشر وأوائل الخامس عشر كـل مـن النورمـان والقطـالونيين والجنويين. ولكن مناشط البرتغاليين سمت إلى الذروة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ومهما يكـن الأمر فهم وحدهم الذين ثبتوا المكتشفات، وركزوها بعد أن كانت حتى ذلك الحين مجـرد زيـارات مبهمـة عارضة. فكانوا رواد علم الفلك البحري". وفي (١٤٨٦) أعلن برتغالي اسمه برثولوميو دياز أنه دار حـول جنوب أفريقيا. وبذلك انفتح السبيل أمام مغامرة فاسكودا جاما الكبرى بعد ذلك بإحدى عشرة سنة. وقبـل أن يتجه الإسبان إلى الغرب كان البرتغاليون ينشئون طريقهم إلى الشرق فعلاً.

وشرع جنوي اسمه خرستوف كولمبس يمعن في التفكير فيما نعتبره الآن مشروعا واضحا وطبيعيا جـدا، ولكنه مشروع أجهد خيال القرن الخامس عشر إلا أقصى حد، وهو الإبحار نحـو الغـرب مباشـرة عبـر الأطلسي. ولم يكن أحد يعرف في ذلك الزمان بوجود أمريكا بوصفها قارة منفصلة. كان كولمبس يعـرف أن العالم كروي الشكل، ولكنه أخطأ في تقدير حجمه، فزعمه أقل من حقيقته، وذلك لأن رحلات مـاركو بولـو أدلت إليه بفكرة مبالغ فيها عن مدى اتساع آسيا، فظن تبعا لذلك أن اليابان بما لها من صيت بعيد في ثـروة عظيمة من الذهب كانت تقع عبر الأطلسي فيما يقارب موقع المكسيك. وقد قام برحلات متنوعـة بـالمحيط الأطلسي، ووصل إلى أيسلندة ولعله سمع هناك شيئًا عن فينلندة، وهو أمر لا بد أنه شجع في نفسـه فكراتـه تلك، وأصبح ذلك المشروع، مشروع السفر إلى مغرب الشمس الهدف الأسمى المتسلط على حياته.

كان رجلاً مملقًا، تقول بعض الروايات عنه إنه كان مفلسا، ولم تكن أمامه من وسيلة للحصول على سفينة إلا أن يحمل أحد الناس على أن يسند إليه قيادة سفينته. فذهب بادئ ذي بدء إلى الملك جون الثاني البرتغالي، فأصغى إليه وأقام في سبيله الصعاب، ثم دبر أمر رحلة تقوم بغير علم منه؛ وتكون رحلة برتغالية صـرفة. وأخفقت هذه المحاولة المغرقة في "الدبلوماسية" الملتوية والتي قصد بها استراق السبق إلى السفر خفية عـن رجل عبقري أصيل، وبحق ما أخفقت، فإن الملاحين تمردوا، وفقد الربان شجاعته وعاد أدراجـه (١٤٨٣). عند ذلك اتجه كولمبس إلى البلاط الإسباني.

ولكنه لم يتمكن في بادئ الأمر أن يحصل لا على سفن ولا على تفويض. وذلك لأن إسبانيا كانت تهـاجم غرناطة؛ آخر معقل للمسلمين في أوربا الغربية. وكان المسيحيون قد استردوا معظم إسبانيا إبان الفترة بـين القرن الحادي عشر والقرن الثالث عشر، ثم تلت ذلك فترة توقف. فلما أن أصبحت كل إسبانيا المسيحية كتلة واحدة بزواج فرديناند الأرجوني من إيزابلا القشتالية، نهضت لاستكمال الفتح المسيحي. حتى إذا غاب اليأس على نفس كولمبس من مساعدة إسبانيا له، بعث بأخيه بارثولوميو إلى هنري السابع ملـك إنجلتـرة، ولكـن

المغامرة لم ترق في عين ذلك الملك الحذر. وأخيرا سقطت غرناطة (١٤٩٢). وهـي شـيء طفيـف مـن التعويض عن فقدان المسيحية لمدينة القسطنطينية قبل ذلك بخمسين سنة. وما عتم كولمبس أن حصل علـى سفائنه بمساعدة بعض تجار مدينة بالوس، وهي ثلاث سفن لـم تكـن منهـا إلا واحـدة ذات سـطح هـي "السانتاماريا" وحمولتها مائة طن. وكانت السفينتان الأخريان زورقين مكشوفين لهما نصف الحمولة.

وانحدرت الحملة الصغيرة – وكان مجموع عدد أفرادها ثمانية وثمانين رجـلاً! – جنوبـا إلـى جزائـر الكناري، ثم انطلقت تعبر البحار المجهولة، في جو جميل وتحت ريح مواتية.



(شكل ١٦٢) خريطة للعالم

تبين رحلات الاستكشاف الرئيسية إلى سنة ١٥٢٢

ولا بد للقارئ من أن يقرأ بالتفصيل قصة تلك الرحلة الجليلة الشأن التي دامت شهرين وتسعة أيام حتـى يقدرها قدرها. كانت نفوس البحارة تفيض بالمخاوف والشكوك؛ فكانوا يخشون أن يظلوا يسيرون في البحـر إلى الأبد. ولكن رؤيتهم بعض الطيور وعثورهم على قضيب من الخشب فيه آثـار بعـض الآلات، وعلـى غصن يحمل بعض ثمار غريبة أدخلت الطمأنينة على أفئدتهم. وفي الساعة العاشرة مـن ليلـة ١١ أكتـوبر ١٤٩٢ آنس كولمبس أمامه نورا؛ وفي الصباح التالي شوهدت الأرض، ونزل كولمبس والصـبح لا يـزال يتنفس، إلى أرض العالم الجديد في ثياب فاخرة وهو يحمل راية إسبانيا الملكية.

وعاد كولمبس إلى أوربا في مستهل (١٤٩٣)، مجتلبا معه ذهبا وقطنًا وحيوانات وطيورا غريبة وهنديين هائجين منقوشي الجسم ما لبث أن عمدهما في الكنيسة، وزعم أنه لم يجد اليابان، بل وجد الهند. ولذلك سميت الجزر التي اكتشفها باسم جزر الهند الغربية. وفي نفس السنة رحل مرة أخرى تصحبه حملة عظيمة من سبع عشرة سفينة وألف وخمسمائة رجل، بإذن خاص من البابا بأن يتملك تلك الأراضي الجديدة للتاج الإسباني.

ويضيق بنا المقام عن الحديث عما مر به من الحوادث وهو حاكم لهذه المستعمرة الإسبانية، ولا عن كيف عزل وكبل بالأصفاد. ولم يمض زمن طويل حتى كان حشد من المغامرين الإسـبان يرتـادون الأراضـي الجديدة. ولعل من الشائق أن نسجل أن كولمبس مات وهو يجهل أنه اكتشف قارة جديدة. فإنه ظل يعتقد حتى يومه الأخير أنه دار حول العالم إلى آسيا.

وأحدثت أخبار الاكتشافاته هزة عظيمة في كل أرجاء غـرب أوربـا. وحفـزت البرتغـاليين أن يجـددوا محاولاتهم الوصول إلى الهند بطريق جنوب إفريقيا. وفي (١٤٩٧) أقلع فاسكودا جامـا مـن لشـبونة إلـى زنجبار، ثم سار من هناك بهداية دليل عربي فاخترق المحيط الهندي إلى قاليقوط في الهند.

وأصبحت للبرتغال (١٥١٥) سفائن في جاوه وجزر مولوقا [١] (ملكا). وفي (١٥١٩) سار ملاح برتغالي اسمه ماجلان، يعمل في خدمة ملك إسبانيا جنوبا محاذيا لشاطئ أمريكا الجنوبية، فاجتاز "مضـيق مـاجلان" المظلـم المخيف، وبذا وصل إلى المحيط الهادي الذي سبقه إلى مشاهدته المكتشفون الإسبان الذين عبروا برزخ بنما.

وواصلت بعثة ماجلان سيرها قُدما إلى الغرب عبر المحيط الهادي. وكانت تلك رحلة يتجلى فيها من آيـات البطولة قدر أوفى كثيرا مما في رحلة كولمبس، إذ ظل ماجلان "تسعين وثمانية من الأيام" يسير بسـفائنه غيـر هياب ولا متردد على أمواه ذلك المحيط الهائل الخالي المترامي الأطراف، دون أن يرى فيه شيئًا إلا جزيـرتين صحراويتين صغيرتين. وتفشى مرض الإسخربوط وعمل عمله في البحارة، ولم يبق إلا القليل الفاسد من الماء والتالف من البسكوت. وكان البحارة يصيدون الفئران بلهفة شديدة ويقرضون جلود البقـر ويلتهمـون نشـارة الخشب لكي يوقِفُوا عضات الجوع في أحشائهم. وصلت البعثة إلى جزائر اللادرون وهي علـى هـذه الحـال السيئة. فاكتشفوا جزر الفلبين، وهناك قتل ماجلان أثناء عراك مع الأهالي. وقتل كذلك كثير من الربابنة. وقـد خرج ماجلان في أغسطس (١٥١٩) بخمس سفن عليها مائتان وثمانون رجلاً، ولكن لم تعد منها إلا "الفيتوريـا "Vitoria" في يوليه (١٥٢٢) وعليها البقية الباقية وعددها واحد وثلاثون رجلاً. عادت مصعدة فـي المحـيط الأطلسي إلى مرساها قرب رصيف أشبيلية في نهر الوادي الكبير – وهي أول سفينة دارت حول هذا الكوكب.

فأما الإنجليز والفرنسيون والهولنديون ونوتية مدن الهانسا، فإنهم هبطوا إلى ميدان مغامرة الارتياد هـذه متأخرين نوعا ما. إذ لم يكن يخالجهم نفس الاهتمام الشديد بالتجارة مع الشرق. فلما أن انحدروا إلى الميـدان فعلاً، اتجهت أوائل جهودهم إلى المسير بسفنهم حول شمالي أمريكا، مثلما سار ماجلان حول جنوبيها، وإلـى الاتجار من حول شمال آسيا، كما أبحر فاسكودا جاما حول جنوب أفريقية. ولكن طبيعة الأشياء قضت علـى هذين المشروعين بالإخفاق التام. فسبقت كل من البرتغال وإسبانيا في أمريكا والشـرق، إنجلتـرة وفرنسـا وهولندة بنصف قرن.

ولم تبدأ ألمانيا قط، ذلك أن ملك إسبانيا كان إمبراطورا على ألمانيا في تلك السنين الحاسمة، وكان البابـا أعطى احتكار أمريكا لإسبانيا إلا أنه لم يمنحها لإسبانيا نفسها بل لمملكة قشتالة، وبدهي أن يكون لهذا الأمـر أثره في اعتياق كل من ألمانيا وهولندة بادئ بدء عن النزول إلى ساحة المغامرات الأمريكية. وكانـت مـدن الهانسا شبه مستقلة، فلم يكن من خلفهم ملك يعتمدون على مساندته، ولم تربطهم وحـدة تسـتطيع النهـوض بالمشروعات الكبار كعملية ارتياد المحيطات مثلاً. ومن سوء حظ ألمانيا، بل لعله من سوء حظ العالم أجمع، أن استنفدت قواها عاصفة هوجاء من الحروب؛ كما سنبين ذلك من فورنا، على حين كانت الـدول الغربيـة بأجمعها تنطلق إلى المدرسة المفتوحة حديثًا وراء البحار العالية [٢]، تتعلم فيها التجارة والإدارة.

---

[١] جزر مولوقا أو جزر البهارات: مجاميع من الجزر البركانية تقع في إندونيسيا الشرقية. وتشتهر بالتوابل. (المترجم)

[٢] البحار العالية: ما تجاوز من البحار الثقة الإقليمية الساحلية للدول. (المترجم)

وأخذ طالع قشتالة الهائل الميمون يتكشف في بطء إبان القرن السادس عشر أمام عيون أوربـا المنبهـرة. ذلك أنها اكتشفت عالما جديدا ثريا بموفور ذهبه وفضته حافلا بعجيب احتمالات استيطانه والمقام فيه. كـان كله ملك يمينها، لأن البابا قال بذلك. وكان بلاط روما وهو في إحدى نوبات أريحيته قد قام تحف به الفخامة والجلال، بتقسيم عالم الأراضي العجيبة الجديد، الذي كان يتبدى آنذاك أمام الخيال الأوربي، بـين الإسـبان الذين جعل لهم كل الأراضي الواقعة غربي خط يقع على ٣٧٠ فرسخًا غربي جزائـر رأس فـردي، وبـين البرتغاليين الذين منحوا كل شيء يقع إلى الشرق من ذلك الخط.

وفي بادئ الأمر كان الناس الوحيدون الذين لقيهم الإسبان في أمريكا متوحشين من الطراز شبه المغـولي [1]. وكان الكثير من هؤلاء المتوحشين من أكلة البشر. ومن سوء حظ العلم أن كان أول من بلغ أمريكا من الأوربيين، هم هؤلاء الإسبان القليلو الاستطلاع، المجردون من أية رغبة علمية والظامئون إلى الذهب، والمشبعون بـروح التعصب العمياء الراجعة إلى حرب دينية قريبة العهد. لم يصدر عنهم غير ملاحظات قليلة ذكية عن طرائق هذا الشعب البدائي وفكراته. وقد أعملوا فيهم السيف، وسرقوا ثرواتهم، واستعبدوهم وعمدوهم مسيحيين، ولكنهم لـم يدركوا إلا قليلاً العرف والعادات والأفكار الأصلية التي تغيرت واختفت أمام هجمتهم. كانوا في تدميرهم وعـدم مبالاتهم وقلة تقديرهم أشبه شيء بالنازلين البريطانيين الأوائل في تسمانيا، الذين كانوا يطلقون الرصـاص عنـد رؤيتهم رجال العصر الحجري القديم الذين كانوا لا يزالون باقين هناك، ويضعون لهم اللحم مسمما ليأكلوه.

وكانت مساحات عظيمة من الأراضي الداخلية في أمريكا أرض براري، كانت قبائلها الرحل الضاربة فيها تعتمد في معاشها على قطعان ضخمة من (البيزون) الجاموس البري الذي انقرض الآن أو كاد. وكان هنـود البراري هؤلاء على تشابه عظيم في طريقة حياتهم، وفي ثيابهم المنقوشة وفي إسرافهم في استعمال الصـباغ وفي عوام خصائصهم الجسمية برجال العصر الحجري القديم في عهده الثاني الأخير الذين عاشوا في العصر السوليوتري بأوربا. ولكن لم تكن لديهم خيل. ويلوح أنهم لم يتقدموا تقدما يذكر عن تلك الحالة البدائية، التـي يرجح أن تكون هي الحالة التي وصل إليها أجدادهم إلى أمريكا. ومهما يكن من شيء فقد كانوا علـى علـم بالمعادن. وبصفة خاصة على استخدام كبير للنحاس المحلي، ولكنهم لم يعرفوا الحديد.

وبينما كان الإسبان يتوغلون في القارة، وجدوا بأمريكا حضارتين منفصـلتين ومتطـورتين فهاجموهـا وانتهبوهما وقضوا عليهما، ولعلهما تطورتا بمعزل تام عن المدنيات القائمة في العالم القديم. وكانت إحـداهما مدنية المكسيك الأزتيكية، والأخرى حضارة بيرو. ولعلهما نشأتا عن مرحلة "شبه المدنية" للعصر الحجـري الحديث، التي انتشرت عبر المحيط الهادي من جزيرة إلى جزيرة، خطوة فخطوة، وعصـرا بعـد عصـر، مبتدئة من أرض أرومتها الأصلية حول البحر المتوسط وبالقرب منه. لقد سبق أن ذكرنا بضع نقاط مشـوقة في هذين التطورين الفريدين في نوعهما. وهما متأخران عن بلاد المشرق والبحر المتوسط بآلاف السـنين. وقد بلغ هذان الشعبان الأمريكيان المتحضران دارجين في طريقهما الخاص مرتبة توازي مـوازاة خشـنة، ثقافة مصر قبل الأسرات وثقافة المدن السومرية الباكرة. وكانت هناك قبل الأزتيك والبيروزويين (أي أهـل بيرو) بدايات حضارات أقدم منهما، إما أن خلفاءهم دمروها، وإما أن تكون أخفقت وذهبت من تلقاء نفسها.

---

[1] شبه المغولي (Mongoloid): انظر جـ ١ ص ١٧٥ من المعالم ط٣. (المترجم).

ويبدو أن الأزتيك كانوا شعبا فاتحا أقل تمدنًا، يتسلطون على مجتمع أكثر منهم مدنية، شأن الآريين في تسلطهم على بلاد الإغريق وشمال الهند، وكانت ديانتهم نظاما بدائيا معقدا وقاسيا، كانت القرابين الإنسانية وأكل لحوم البشر أثناء الطقوس تلعب فيها دورا كبيرا. وكانت تملأ عقولهم فكرة الخطيئة والحاجة إلى استرضاء الآلهة بسفك الدماء. فكانت ديانتهم أشبه شيء بصورة كاريكاتورية فظيعة كاملة لديانات العالم القديم البدائية ذات القربان.

وقد دمرت الحضارة الأزبتيكية حملة عسكرية بقيادة كورتيز. كانت لديه إحدى عشرة سفينة وقوة مكونة من أربعمائة أوربي ومائتي هندي وستة عشر حصانًا وأربعة عشر مدفعا. ولكنه التقط من يوقطان رجلاً إسبانيا شاردا. ظل أسيرا لدى الهنود بضع سنين، فتعلم إلى حد ما عدة لغات هندية، وعرف أن الحكم الأزتيكي كان مثار استياء عميق لدى الكثيرين من رعاياه، وبتحالفه مع هؤلاء الحانقين تقدم كورتيز فوق الجبال حتى دخل وديان المكسيك (١٥١٩).

فأما كيف دخل إلى المكسيك، وكيف قُتل مونتزوما رئيسها وقائدها في الحرب على يد مواطنيه لممالأته الإسبان، وكيف حوصر كورتيز في المكسيك، ثم هرب مخلفًا وراءه مدافعه وخيله، وكيف استطاع بعد تقهقر رهيب إلى الساحل أن يعود ويخضع البلاد بأكملها، - فقصة رومانسية جميلة لا نستطيع حتى أن نحاول أن نقصها عليك ها هنا. ولا يزال الدم الهندي يغلب على سكان المكسيك إلى يومنا هذا، ولكن اللغة الإسبانية حلت هناك محل اللغات القومية القديمة، غير أن الثقافة الموجودة الآن ثقافة كاثوليكية وإسبانية.

فأما دولة بيرو الأعجب شأنًا فقد وقعت فريسة بين براثن مغامر آخر هو بيزارو. فإنه أقلع من برزخ بنما في ١٥٣٠، ومعه حملة مكونة من ١٦٨ إسبانيا. فحذا حذو كورتيز بأن أفاد من الاختلافات الداخلية بين الأهالي وضمن بذلك الاستيلاء على تلك الدولة المنكودة الحظ. وعلى غرار ما فعله كورتيز أيضا حين اتخذ مونتزوما أسيرا وألعوبة في يده، فإنه قبض على "إنكا" [1] بيرو بالخديعة وحاول أن يحكم البلاد باسمه.

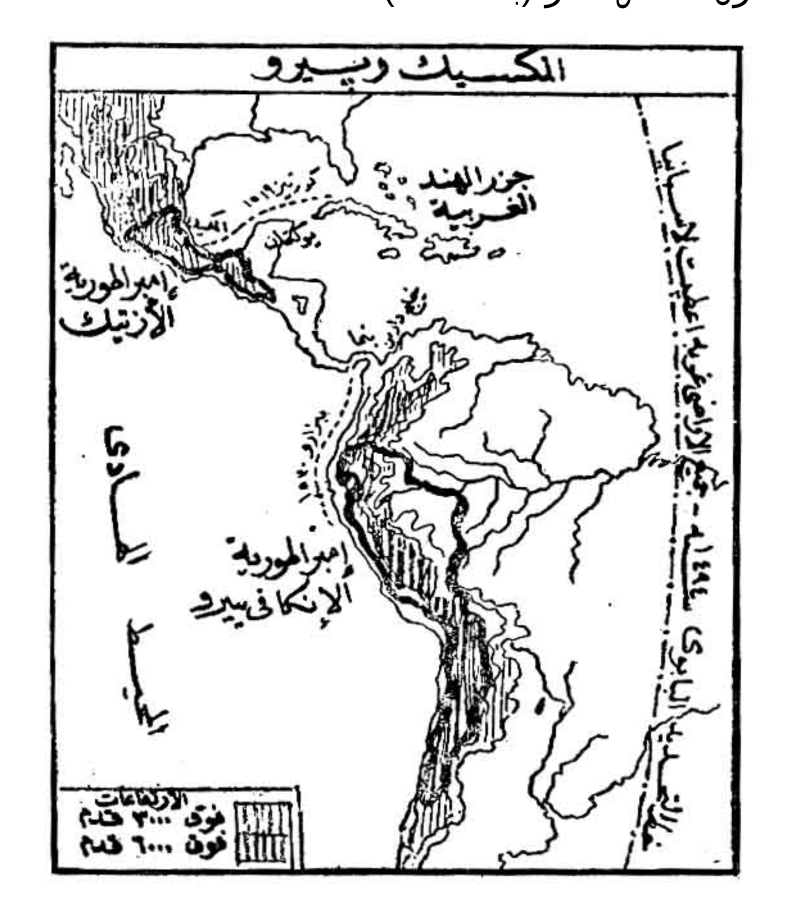
وهنا أيضا لا نستطيع أن نوفي الأحداث المعقدة التي تلت ذلك، حقها من الإيضاح، أو نسهب القول في الفتن الفاشلة السيئة التدبير التي قام بها الوطنيون، ووصول مدد إسباني جديد من المكسيك، ثم تحويل الدولة إلى مقاطعة إسبانية. كذلك لسنا بمستطيعين أن نزيدك بيانًا عن انتشار المغامرين الإسبانيين انتشارا سريعا فوق بقية أمريكا خارج منطقة البرازيل التي كان البرتغاليون يحتفظون بها لأنفسهم. وكانت قصة كل منها تكاد تكون في كل الحالات قصة مغامرين وقساوة ونهب واستلاب. وكان الإسبان يسيئون معاملة الأهالي، ويتشاجرون فيما بينهم، وذلك لأن قانون إسبانيا ونظامها، كانا منهم بمنأة تمتد شهورا بل سنوات، فلم ينتقل دور العنف والفتح إلى دور حكم واستقرار إلا بغاية البطء. ولكن قبل أن يستتب النظام بزمن مديد في أمريكا، أخذ فيض متواصل من الذهب والفضة ينهمر عبر المحيط الأطلسي إلى الإسبان حكومة وشعبا.

---

[1] إنكا: لقب ملك بيرو قبل أن يفتحها الإسبان. (المترجم).

وبعد ما انتهى طور اصطياد الكنوز العنيف الأول، جاء طور الزراعة وفتح المناجم وبذلك نشأت أولى المشكلات العمالية في العالم الجديد. فاستُعبد الهنود بادئ الأمر في شيء كثير من الوحشية والظلم؛ ولكن مما يشرف الإسبان أنهم لم يدعوا الموضوع يمر بلا انتقاد. فوجد الوطنيون أنصارا يعطفون عليهم، أنصارا عامرة أفئدتهم بالشهامة، في هيئة الرهبان الدومينيكيين وفي شخص قسيس علماني هو "لاس كاساس Las Casas" الذي قضى ردحا من الزمان يشتغل مزارعا ومالكًا للرقيق في كوبا حتى وخزه ضميره. وابتدأ أيضا استيراد العبيد الزنوج من إفريقية الغربية في وقت مبكر جدا من القرن السادس عشر. وبعد فترة غير طويلة أخذت المكسيك والبرازيل وأمريكا الجنوبية الإسبانية تتحول إلى بلاد مالكة للعبيد منتجة للثروات.

ولسنا بمستطيعين أن نحدثك هنا كما نشتهي: عن الجهود الحضارية الممتازة التي قام بها في أمريكا الجنوبية، وبوجه أخص بين الوطنيين، الرهبان الفرنسسكيون ثم اليسوعيون (الجزويت) الذين هبطوا أمريكا في النصف الثاني من القرن السادس عشر (بعد ١٥٤٩).



(شكل ١٦٣) المكسيك وبيرو

وهكذا سمت إسبانيا من الشئون العالمية إلى مرتبة موقوتة من القوة والتبرير في شئون العالم. كان ارتفاعها فجائيا جدا بارزا ومرموقًا. وكانت تلك الشبه الجزيرة القحلة الوعرة التضاريس، منقسمة على نفسها منذ القرن الحادي عشر، كما أن سكانها المسيحيين ظلوا في كفاح مستمر مع العرب؛ ثم حدث بطريقة تكاد تشبه الصدفة المحضة أنها أحرزت الوحدة في أنسب الأوقات لجني أولى ثمار اكتشاف أمريكا. وقبل ذلك الزمان، كانت إسبانيا على الدوام قطرا فقيرا، وهي لا تزال حتى اليوم قطرا فقيرا؛ وتكاد تكون ثروتها الوحيدة منحصرة في مناجمها. ومهما يكن من شيء فإنها ظلت قرنًا من الزمان سيدة العالم بسبب احتكارها لذهب أمريكا وفضتها.

وكانت ظلال رايات الأتراك والمغول لا تزال ترفرف على شرق أوربـا وجنوبهـا وتتهـددهما؛ وكـان اكتشاف أمريكا في حد ذاته نتيجة للفتوح التركية. وإلى الاختراعين المغوليين، البوصلة والورق، وإلى الأثر المنبه الراجع إلى الرحلات في آسيا، وإلى العلم المتزايد بثروة آسيا الشرقية وحضارتها – يرجـع الفضـل الأكبر في حدوث ذلك التضرم (التأجج) المدهش في الطاقات العقلية والجسمية والاجتماعية التي تأججت على "حافة المحيط الأطلسي". ذلك أن فرنسا وإنجلترة دخلتا الميدان عقَيب دخول البرتغال وإسبانيا مباشـرة، ثـم تلتهما للفور هولندة، فقامت كل واحدة من الثلاثة في حينها بدور التوسع وتكوين إمبراطورية وراء البحار.

وعندئذ ينتقل مركز الاهتمام في التاريخ الأوربي الذي كان محصورا في بلاد المشرق Levant، متحولاً عن جبال الألب والبحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي. وانقضت بضعة قرون انحدرت فيها الإمبراطوريـة التركية، والروسية وآسيا الوسطى والصين إلى منزلة ثانوية نسبيا على المسرح حتى أهملها المؤرخ الأوربي ولم يعد يسلط عليها أنواره الوهاجة. ورغم هذا فإن مناطق العالم المركزية هذه تظل مركزية علـى الـدوام، وتظل رفاهيتها ومشاركتها ضروريتين لسلام البشرية الدائم.

١١- رأي ماكيافللي في العالم

الآن سنلقي نظرة إلى النتائج السياسية المترتبة على هذا التحرر الهائل، وهذا التوسع الضخم اللذين ألما بالفكرات الأوربية إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر، نتيجة للتطور الجديد للعالم، وارتياد العالم والاتساع العظيم للمعرفة بوساطة الورق والطباعة؛ ولانتشار تهافت جديد على الحرية والمساواة. فكيف كان تأثير تلك الحال في عقلية البلاطات والملوك التي كانت تدير الشئون الرسمية للبشرية؟ لقد سبق أن أريناك كيف أخذ الضعف يدب إلى قبضة الكنيسة الكاثوليكية على ضمائر الناس في ذلك الأوان ولم يبق أحد على أي حظ كبير من الحماسة للكنيسة إلا الإسبان، وذلك لقرب العهد بخروجهم من حرب دينية طويلة انتهت آخر الأمر بالنصر على الإسلام. وكان من آثار الفتوح التركية مع زيادة واتساع القدر المعروف من العالم أن حرمت الإمبراطورية الرومانية من كرامتها التليدة التي أضفت عليها صفة الشمول العالمية، ذلك بأن نظام أوربا العقلي والخلقي القديم كان قد شرع يتحطم. فماذا كان يحدث لدوقات وأمراء وملوك النظام القديم إبان عصر التغير هذا؟

ففي إنجلترة كما سنخبرك فيما بعد، كانت هناك نزعات خفية وشائقة جدا تدفع بالناس صوب طريقة جديدة في الحكم، هي طريقة الحكم البرلماني، التي قدر لها أن تنتشر فيما بعد في كل بقاع العالم تقريبا. ولكن العالم في جملته لم يكد يحس بوجود هذه النزعات في القرن السادس عشر.

وقل من الملوك من تركوا لنا يوميات تتجلى فيها الصراحة والإخلاص؛ فإن الملكية والصراحة أمران لا يجتمعان؛ والملكية في ذاتها "وضعة" [1] تتخذ. ومن ثم فالمؤرخ مضطر إلى أن يعمل فكره حدسا وتخمينًا فيما تحويه الرأس التي تلبس التاج بقدر ما يستطيع. ولا مراء في أن سيكولوجيا الملوك تغيرت تغيرا كبيرا مع تقدم العصور. ومهما يكن الأمر، فإن لدينا كتابات رجل من رجال ذلك الأوان بالغ غاية الاقتدار نصب نفسه لدراسة وبسط "أساليب الحكم الملكي" على ما كانوا يفهمونه في أواخر القرن الخامس عشر.

ذلكم الرجل هو الفلورنسي البعيد الذكر نيقولو ماكيافللي (١٤٦٩ – ١٥٢٧)، نشأ في أسرة طيبة وتربى في بحبوحة معقولة من العيش، ودخل الخدمة العامة للجمهورية وهو في الخامسة والعشرين. وظل يعمل في الوظائف الدبلوماسية الفلورنسية ثمانية عشر عاما؛ فأسند إليه عدد من السفارات. وفي (١٥٠٠) أرسل إلى فرنسا ليتفاهم مع الملك الفرنسي. وظل من ١٥٠٢ إلى ١٥١٢ اليد اليمنى (لرئيس فلورنسا مدى الحياة) سودريني (Soderini). وأعاد ماكيافللي تنظيم الجيش الفلورنسي، وكتب الخطب للرئيس مدى الحياة (Gonfalonier)، وكان في الواقع هو الذكاء المسيطر على الشئون الفلورنسية. وعندما تغلبت أسرة ميديشي التي كان الإسبان يناصرونها على سودريني الذي كان يعتمد على معاضدة الفرنسيين، حاول ماكيافللي أن يحول خدماته إلى الظافرين ولكنه عذب على المطاطة [2]، ثم طرد من الخدمة. فاتخذ لنفسه مقاما في فيلا

[1] الوضعة: Pose كما في التصوير؛ وضع خاص يتخذه الناس لأنفسهم، وكثيرا ما يكون متكلفًا. (المترجم).

[2] المطاطة أو العذراء.. آلة للتعذيب بمط الجسم والأطراف. (المترجم)

على مقربة من سان كاستشانو، تبعد عن فلورنسا اثني عشر ميلاً تقريبا، وهناك أخذ يروح عن نفسـه مـن ناحية بجمع وتأليف الأقاصيص الشهوانية الداعرة لإرسالها إلى أحد أصدقائه في روما، ومن ناحيـة أخـرى بكتابة كتب في السياسة الإيطالية، التي لم يعد يستطيع أن يقوم فيها بدور. وكما أننا مدينون بكتاب رحـلات ماركو بولو إلى سجنه، فإنا ندين لكتب ماكيافللي "الأمير – والتاريخ الفلورنسي – وفن الحرب" إلـى عزلـه وإلى شعوره بالسآمة والملل في سان كاستشانو.

وتنحصر القيمة الدائمة لهذه الكتب في الفكرة الواضحة التي تعرضها علينا عن نوع العقول التـي كانـت تحكم ذلك العصر، والتحديدات التي كانت تغلها. فإن جوها كان جوه الذي فيه يعيش. فإذا كان أدخـل ذكـاء حادا مفرطًا إلى محيط أعمالهم، فإنه لم يزد عن مجرد وضعها تحت ضياء أسطع.

وقد تأثر ذهنه الحساس تأثرا عظيما بمكر سيزار بورجيا وقساوته وجرأته وأطماعه، وهو دوق فـالنتينو الذي قضى ماكيافللي في معسكره بضعة شهور مبعوثًا من قبل مولاه فصور ذلك الشخص الباهر في صورة مثالية في كتابه "الأمير". وينبغي للقارئ أن يفهم أن سيزار بورجيا (١٤٧٦ – ١٥٠٧) كان ابن البابا إسكندر السادس: رودريجو بورجيا (١٤٩٢ – ١٥٠٣). وربما دهش القارئ من وجود بابا له ولد، ولكن لا بد لنا من تذكر أن هذا البابا كان من البوابات السابقين على الإصلاح الديني. وكانت البابوية في ذلك الأوان في حـال تراخ خلقي، ومع أن إسكندر، كان بوصفه قسيسا قد نذر أن يعيش عزبا، فإن ذلك لم يمنعه مـن أن يعـيش صراحا مع نوع من الزوجة بلا زوجية، ومن توجيه موارد العالم المسيحي لرفع شأن عائلته. وكان سـيزار شابا قوي الطموح والجرأة، بدرجة تكاد تتجاوز طاقة الزمان الذي عاش فيه؛ وقد دبر منذ وقت مبكر مقتـل أخيه الأكبر، وكذا زوج أخته لوكريشيا. والواقع أنه غدر بعدد من الناس وقتلهم. وأصبح بمساعدة والده دوقًا على شقة كبيرة من وسط إيطاليا حيث زاره ماكيافللي. ولم يظهر إلا الشيء القليل من المقدرة العسكرية، وإن أبدى مهارة فائقة وقدرة إدارية جسيمتين. وكانت عظمته من ذلك النوع العارض غير المستديم إلى أقصـى حد. فما إن مات والده حتى انهارت كما تنهار كرة منفوخة وخزها دبوس. ولكن ماكيافللي لم يتبين ما كـان يصم تلك العظمة من ضعف وعدم سلامة. والحق أن أعظم دواعي اهتمامنا بسيزار بورجيه ينحصر في أنه حقق أعظم مثل أعلى ارتآه ماكيافللي عن أمير فائق ناجح.

وقد كثرت المؤلفات التي حاول كتابها أن يبينوا أن ماكيافللي كان يرمي من وراء كتاباته السياسـية إلـى مقاصد عريضة الآفاق شريفة الأهداف، بيد أن كل أمثال هذه المحاولات التي يقصد بها رفعه إلـى موضـع النبل، تحرمه من تحمس واهتمام القارئ المتشكك المصر على قراءة السطور ذاتها في سفر ماكيافللي بـدل قراءة أشياء خيالية بين السطور، ومن الجلي أن الرجل لم يكن يؤمن البتة بأي تقوى ولا صلاح، ولا يخامره أي اعتقاد في إله يحكم العالم ولا وجود رب في قلوب الناس، ولا أي فهم لقـوة الضـمير وسـلطانه علـى الرجال. ولم يكن ممن يؤمنون برؤى النظام الإنساني اليوتوبي العالمي العام، ولا بأيـة محـاولات لتحقيـق "مدينة الرب". فإنه لم يكن يريد مثل هاته الأشياء. وكان يلوح له أن الحصول على القوة، وإشـباع رغبـات المرء وحاجاته الجسمية وأحقاده، والترنح بنشوة الظفر في العالم، يجب أن تكون التاج الذي يكلل الرغبـات الإنسانية جميعها. ولا يستطيع أن يحقق مثل هذه الحياة تحقيقها الكامل إلا أمير. وواضـح أن مسـحة مـن

الجبن، أو إحساسا بحقارة مدعياته الشخصية، جعلته يتخلى عن مثل تلك الأحلام بالنسبة لنفسه؛ ولكـن لعلـه يأمل على الأقل أن يخدم أحد الأمراء، وأن يعيش على مقربة من المجد، وأن يشارك في المغـانم والسـلب واللذات الحسية والنزعات الشريرة المشبعة. ولعله يستطيع أن يجعل من نفسه شخصا لا يستغنى عنه! ومـن ثم نصب نفسه لطلاب التعمق والخبرة في فن الإمارة، فساعد سودريني حتى أورده موارد الفشل. فلما مطـه المديتشيون في المطاطلة ونبذوه، وانقطع به ما بقي لديه من أمل حتى في أن يكون في البلاط طفيليا ناجحـا، كتب هذه الكتب الصغيرة الدائرة حول الدهاء ليظهر أي خادم ماهر فقده بعض الأمراء!!. والفكرة المتسـلطة على عقله، التي هي مدار مساهمته العظيمة في الأدب السياسي، تتلخص في أن الالتزامـات الخلقيـة علـى الرجال العاديين، لا يمكن أن تقيد الأمراء.

ومن الناس من يميلون إلى نسبة فضيلة الوطنية إلى ماكيافللي؛ لأنه فكر في أن إيطاليا يجـوز أن تتحـد وتتقوى، - وهي التي كانت ضعيفة منقسمة على نفسها إذ غزاها الأتراك ولم ينقذها من فتحهم إياها إلا موت السلطان محمد الثاني؛ كذلك اقتتلت على امتلاك أرضها الجيوش الفرنسية والإسبانية كأنما كانت شـيئًا فاقـد الحياة؛ ولكنه لم ير في هذا الاحتمال إلا فرصة عظيمة تتاح لأمير. ولم يطالب بوجود جيش قومي إلا لأنـه رأي طريقة الإيطاليين في القيام بالحرب بوساطة استئجار رجال من المرتزقة الأجانب، طريقة لا يرجى من ورائها خير. فإن الجند في مثل هذه الحالة قد تنتقل إلى سيد يزيد لها في أعطياتها، أو هي قد تقرر انتهـاب الدولة التي في حماها. وقد أثرت انتصارات السويسريين على أهل ميلان في نفسه تأثيرا عميقًا، ولكنـه لـم يسبر قط سر الروح الحرة التي مهدت السبيل لتلك الانتصارات. وأخفقت الميليشيا الفلورنسية التـي أنشـأها إخفاقًا تاما. وكأني به رجلاً ولد ضريرا وعميت عيناه عن الصفات التي تجعل الشعوب حرة والأمم عظيمة.

ومع هذا فإن هذا الرجل الضرير من الناحية الأخلاقية؛ كان يعيش بين ظهراني عالم صغير كل رجالـه صم وعميان من الناحية الخُلقية. وواضح أن أسلوب تفكيره، إنما هو أسلوب تفكير كل بلاط في أيامه، فقـد كان هناك في كل مكان من خلف أمراء الدول الصغيرة التي نبتت عن تحطم الإمبراطورية وفشل الكنيسـة، مستشارون وسكرتيرون ووزراء مؤتمنون من الطراز الماكيافللي. فإن توماس كرومويل مثلاً، وزير هنـري الثامن الإنجليزي بعد انفصاله عن كنيسة روما، كان يعد كتاب ماكيافللي "الأمير" زبدة الحكمة السياسية. فإذا كان الأمراء أنفسهم على درجة كافية من الذكاء والمهارة، أصبحوا هم كذلك ماكيـافلليي النزعـة. وإذا هـم يدبرون الخطط ليتفوق أحدهم على الآخر، وليسلبوا معاصريهم الأضعفين، وليدمروا أندادهم ومنافسيهم، لكي يصعروا خدهم تيها فترة قصيرة من الزمان. ولم يدر بخلدهم في قليل ولا كثير أية خطـة لتنظـيم مصـائر الإنسانية، تعظم تلك اللعبة التي كانوا يلعبونها فيما بينهم.

١٢- جمهورية سويسرا

(شكل ١٦٣) خريطة لسويسرة توضع أهم الطرق والممرات

من الشائق الممتع أن يلحظ المرء أن هذه "المشاة" السويسرية التي أثرت في ماكيافللي إلى هذا الحد، لم تكن تنتسب إلى نظام الأمراء في أوربا. إذ نشأ في المنطقة المركزية نفسها من النظام الأوربي، اتحاد كونفدرالي صغير من الدول الحرة، هو الاتحاد الكونفدرالي السويسري، الذي ما لبث أن تحول صراحا في (١٤٩٩) إلى النظام الجمهوري بعد بضعة قرون من الاستمساك بالدولة الرومانية المقدسة اسميا. ففي زمن مبكر يرجع إلى القرن الثالث عشر، اعتزم الفلاحون الساكنون في الوديان الثلاثة المجاورة لبحيرة لوسرن، أن يستغنوا عن كل سيد يسودهم، وأن يدبروا شئونهم الخاصة، على طريقتهم الخاصة. وكان أكبر مصدر لمتاعبهم مدعيات عائلة نبيلة في وادي الآر، هي أسرة هابسبرج. وفي (١٢٤٥) أحرق رجال شويتز (Schwyz) قلعة "هابسبرج الجديدة"، التي كانت أقيمت قرب لوسرن لإرهابهم، ولا تزال أطلالها باقية هناك إلى اليوم.

كانت عائلة هابسبرج هذه نامية ميالة إلى زيادة ممتلكاتها، فكانت لها الأراضي والممتلكات في كل أرجاء ألمانيا، وفي (١٢٧٣) بعد انقراض بيت هوهنشتاوفن، انتخب رودلف آل هابسبرج إمبراطورا على ألمانيا، وهو امتياز أصبح آخر الأمر وراثيا في عائلته. ومع ذلك فإن رجال أوري (Uri) وشويتز وأنتر فالدن (Unter Walden) صمموا على ألا يحكمهم أي هابسبرجي، فكونوا فيما بينهم حلفًا دائما في (١٢٩١)، ثم صمدوا بين الجبال منذ ذلك الزمان إلى يومنا هذا، فكانوا في بادئ الأمر أعضاء أحرارا في الإمبراطورية، ثم أصبحوا اتحادا كونفدراليا مستقلاً استقلالاً مطلقًا. ويضيق بنا المقام هنا عن ذكر أسطورة بطولة وليم تل، كذلك ليس لدينا متسع نتعقب فيه اتساع الاتحاد الكونفدرالي تدريجيا إلى حدوده الراهنة. ولم تلبث أن أضيفت

للفور وديان تتكلم بالرومانشية [1] والإيطالية والفرنسية إلى هذه المجموعة الجمهورية الصغيرة الباسلة. وقـد أصبح علم الصليب الأحمر وهو علم جنيف رمز الإنسانية الدولية في معمعان الحـروب. وصـارت مـدن سويسرا المشرقة الناجحة تعد على الدوام ملتجأ الرجال وملاذ الأحرار الفارين من جميـع أنـواع المظـالم والاستبداد.

---

[1] الرومانسية هي اللهجات الموجودة في أعالي نهر الراين. (المترجم)

١٣- (أ) حياة الإمبراطور شارل الخامس

إن معظم الشخصيات التي تبرز في التاريخ، إنما يتم لها ذلك بسبب اتصافها ببعض الصـفات الشخصـية الاستثنائية، سواء أكانت حسنة أم سيئة، وهي التي تجعل لهم وزنًا يرجح وزن قرنائهم. ولكن ولد في غنـت من أعمال بلجيكا في (١٥٠٠) رجل عادي المقدرة سوداوي المزاج، أمه امرأة ناقصـة العقليـة، تزوجـت لأغراض سياسية، وقدر له – ولم يكن ذلك نتيجة خطأ منه ولا فضل له – أن يصبح محط أبصار أوربا وأن توضع على كاهله متاعبها المتكدسة. والمؤرخ ملزم أن يعيره عظمة عارضة لا يستحقها بأيـة حـال، وأن يضعه إلى جوار أفراد نابهين مرموقين من أمثال الإسكندر وشرلمان وفردريك الثاني. ذلك هو الإمبراطـور شارل الخامس. وقد ظل زمانًا والجو الذي يحيط به يوحي بأنه أعظم من تولى الملك في أوربـا منـذ أيـام شرلمان. على أن الواضح أنه هو وعظمته الوهمية ثمرة سياسة الزواج التـي انتهجهـا جـده الإمبراطـور مكسمليان الأول (١٤٥٩ – ١٥١٩).

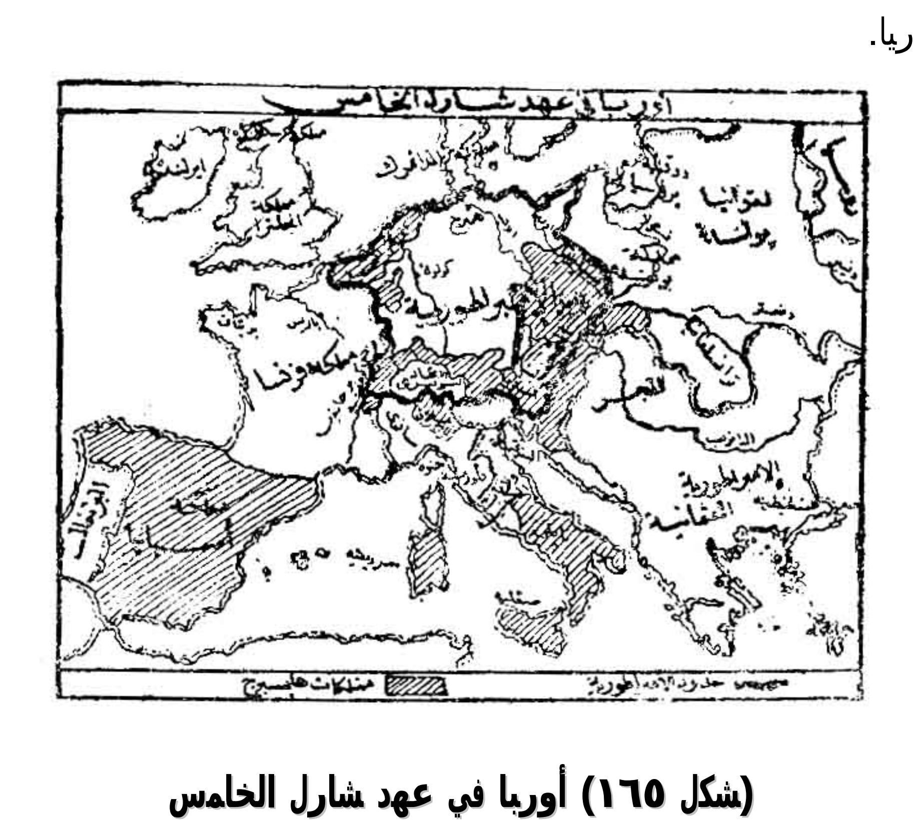
وذلك بأن بعض العائلات بلغت المجد قتالاً، كما دبرت بعضها الأخرى المؤامرات للوصول إلى السيطرة الدنيوية، أما أسرة هابسبرج فإنها شقت طريقها إليها زواجا. ابتدأ مكسيمليان حياته بميراث هابسبرج المكون من النمسا واستيريا وجزء من الألزاس ونواح أخرى، فتزوج الأراضي المنخفضة وبورجنديا - إذ إن اسـم السيدة لا يكاد يعنينا. ولكن أفلت منه معظم برجنديا بعد وفاة زوجته الأولى، على أنـه احـتفظ بالأراضـي المنخفضة. ثم حاول أن يتزوج (!!) بريتاني ولكنه لم يوفق. وتولى الإمبراطورية بعد أبيه فردريـك الثالـث (١٤٩٣) ثم تزوج دوقية ميلانو. وأخيرا زوج ابنه من الضعيفة العقل ابنة فرديناند وإيزابلا، وهما فردينانـد وإيزابلا اللذان عرفناهما مع كولمبس، واللذان لم يحكما فقط إسبانيا الجديدة الموحـدة، وسـردينيا، ومملكـة الصقليتين بل أصبحا – بحكم المنح البابوية لإسبانيا – حاكمين على كل أمريكا غربي البرازيل. وهكذا اتفـق أن حفيده شارل ورث معظم القارة الأمريكية، وبين ثلث ونصف ما لم يستول عليه الأتراك من أوربا. ومات والد شارل في (١٥٠٦) وبذل مكسيمليان قصاراه ليضمن انتخاب حفيده للعرش الإمبراطوري.

وتولى شارل حكم الأراضي المنخفضة في (١٤٠٦)، وأصبح بالفعل ملكًـا علـى الممتلكـات الإسـبانية المترامية (لأن أمه كانت بلهاء) عندما توفي في جده فرديناند في (١٥١٦). فلما أن مات جـده مكسـميليان (١٥١٩)، انتخب في (١٥٢٠) إمبراطورا وهو لا يزال في العشرين، تلك السن الغضة نسبيا.

واعترض على انتخابه إمبراطورا الملك الفرنسي الشاب الذكي فرنسـيس الأول، الـذي تـولى العـرش الفرنسي في (١٥١٥) وهو في الحادية والعشرين. وكان يعضد فرنسيس في ترشـيحه البابـا ليـو العاشـر (١٥١٣)، الذي يقتضي منا أن نلقبه بقلب الذكي هو أيضا. كان ذلك العصر في الحق عصر ملوك أذكيـاء. فهو عصر بابر (Baber) في الهند (١٥٢٦ – ١٥٣٠) وسليمان القانوني في تركيا (١٥٢٠)، وكان كل مـن ليو وفرنسيس يخشى تركز مثل هذا القدر الضخم من القوة في يد رجل واحد، الأمر الذي ينذر بـه انتخـاب شارل. وكان الملك الآخر الوحيد الذي يبدو ذا بال في أوربا هو هنري الثامن ملك إنجلترة، الـذي آل إليـه الملك في (١٥٠٩) وهو في الثامنة عشرة. وقد رشح نفسه هو أيضا للمنصـب الإمبراطـوري. ويسـتطيع القارئ الإنجليزي الناشط الخيال أن يسلي نفسه باستنتاج العواقب التي كان يحتمل ترتبها على ذلك الانتخاب.

واتسع مجال النشاط الدبلوماسي بين هذا الثالوث الملكي. وقد عرج شارل وهو في طريـق عودتـه مـن إسبانيا إلى ألمانيا على إنجلترة واستطاع أن ينال مساعدة هنري ضد فرنسـيس بتقديمـه الرشـوة لـوزيره الكردينال ولزي وكذلك قام هنري بمظاهرة عظيمة للصداقة بينه وبين فرنسيس، فأدبـت بفرنسـا المـآدب، وأقيمت ألعاب الفروسية وما إلى ذلك من ضروب الشهامات التي أكل عليها الدهر وشرب، في نزهة ملكيـة يعرفها المؤرخون باسم "ميدان القماش الذهبي" (١٥٢٠). وكانت الفروسية قد أخذت تصبح تصنعا جميلاً في القرن السادس عشر. ولا يزال مؤرخو الألمان يسمون الإمبراطور مكسميليان الأول باسم "آخر الفرسان".

ويجدر بنا أن نلاحظ أن انتخاب شارل إنما تم بعد بذل قدر عظيم من الرشَى. وكـان أكبـر مناصـريه ودائنيه، دار الأعمال الألمانية العظيمة التابعة لأسرة فاجار. ذلك أن المعالجة الواسعة النطاق لشئون المـال والائتمان، وهي التي نسميها باسم "المالية"، والتي ولت من الحياة الأوربية السياسية مع انهيار الإمبراطورية الرومانية، قد أخذ يدب في عروقها آنذاك دبيب القوة. ولا شك أن ظهور آل فاجار، الـذين كانـت ديـارهم وقصورهم تبز ما للأباطرة من ديار وقصور، يسجل حركة إلى أعلى لقوى جديدة ابتدأت قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة بكاهور في فرنسا وفلورنسا ومدن إيطالية أخرى. وتعود النقود والديون العامة، والتقلقـل الاجتمـاعي والتذمر، إلى الظهور على مسرحنا الصغير "في هذه المعالم". ولم يكن شارل الخامس إمبراطورا هابسبرجيا قدر ما كان فاجاريا.

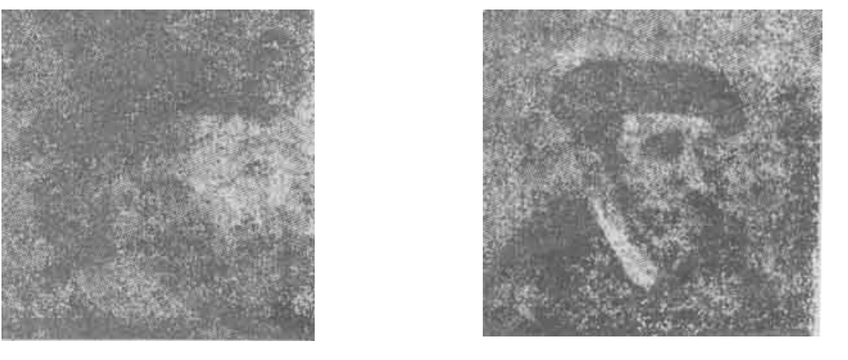


(شكل ١٦٥) أوربا في عهد شارل الخامس

وظل هذا الشاب الأشقر الذي لا يبدو عليه سيماء الذكاء الكثير، والذي له شفة عليا غليظة وذقـن طويـل قبيح، ردحا من الزمان ألعوبة في أيدي وزرائه إلى حد كبير. فإن رجالا مقتـدرين طبعـوا علـى غـرار ماكيافللي كانوا في البداية يرشدونه ويوجهونه في فنون الملكية، وأساليبها ثم أنشأ يظهر ذاتيته بطريقة بطيئة ولكنها فعالة وكان أول ما واجهه بألمانيا منذ بداية حكمه الخلافات المربكة الناشبة في المسيحية. فإن الثـورة

على الحكم البابوي التي لم تنقطع منذ أيام هس وويكليف، قد أجج لهيبها من عهد قريب العودة من جديد إلى بيع صكوك الغفران بيعا تتجلى فيه الاستهانة والجرأة المفرطة، وذلك لجمع المال لإتمـام كنيسـة القـديس بطرس في روما. فإن راهبا اسمه لوثر، تكرس قسيسا، وعكف على الكتاب المقدس يقرؤه، قد انزعج أيمـا انزعاج عند زيارته روما لبعض شئون طائفته لما رآه من خفة البابوية وبذخها الدنيوي، فانبرى في ويتنبرج (١٥١٧)، ينحي باللائمة على هذه الوسائل التي يلجأ إليها البابا رافعا ضدها على الخصومة شـارحا بعـض المباحث الدينية. ونشبت نتيجة لذلك معركة جدلية ذات شأن.

وقد خاض لوثر في بادئ الأمر تلك الخصومة باللغة اللاتينية، ثم انقلب لوقته إلى الألمانية، وسرعان مـا دخل الشعب كله في وطيس الحومة. وألفى شارل هذا النزاع متأججا عندما عاد من إسبانيا إلى ألمانيا. فـدعا إلى عقد (دايت Diet) أي جمعة إمبراطورية بمدينة ورمس على نهر الراين. واستدعى لوثر إلـى مجلـس الدايت هذا، وكان البابا ليو العاشر طلب إليه أن يسحب آراءه فأبى أن يفعل ذلك. فحضر إلى المجلس، ولكنه "في نفس روح هس تماما" أبى أن يسحب أقواله، إلا أن يقنع بخطئه بالمناقشة المنطقية أو بسلطان من الكتب المقدسة. ولكن حماته من الأمراء كانوا أقوى من أن يصيبه ما أصاب جون هس.



(شكل ١٦٦) الإمبراطور شارل الخامس (تصوير تيتيان)

(شكل ١٦٧) فرانسيس الأول (بريشة تيتيان)

وكان في ذلك موقف محير للإمبراطور الشاب، وهناك أسباب تحملنا على الظن أنه كان في بادئ الأمـر ميالا إلى نصرة لوثر على البابا. ذلك أن ليو العاشر كان من المعترضين على انتخاب شارل، وكـان علـى صداقة وود مع منافسه فرنسيس الأول. ولكن شارل الخامس لم يكن ماكيافلليا ماهرا، كما أنه اكتسـب فـي إسبانيا قدرا جسيما من الإخلاص للدين. لذلك وقف ضد لوثر. فانضم إلى المصلح الديني كثير من الأمـراء الألمان وبخاصة منتخب سكسونيا. واختفى لوثر عن الأنظار تحت حماية المنتخب السكسوني، وألفى شـارل نفسه أمام بدايات الصدع الذي قدر له أن يشق المسيحية إلى معسكرين متناحرين.

(شكل ١٦٨) هنري الثامن (تصوير هولبين)

وجاء على أثر هذه الاضطرابات، والراجح أنه كان ذا صلة بها، عصيان واسع الانتشار بين الفلاحين في كل أرجاء ألمانيا. على أن هذه الاضطرابات ملأت فؤاد لوثر بالخوف الشديد. إذ هاله مـا رأى فيهـا مـن إسراف القتل والعنف. ومنذ ذلك الحين كف الإصلاح الديني الذي كان يدعو إليه عـن آن يكـون إصـلاحا بوساطة الشعب وأصبح إصلاحا بواسطة الأمراء. وذلك أنه فقد ثقته في ذلك "الحكم الحر" الذي قام يناضـل عنه برجولية تامة.

وفي الوقت ذاته أدرك شارل أن إمبراطوريته الضخمة كان يحدق بها خطر عظيم جـدا مـن ناحيتيهـا الغربية والشرقية. فكان إلى الغرب منه منافسه الناشط القوي فرنسيس الأول، وكان الترك إلى الشرق يحتلون هنغاريا وقد تحالفوا مع فرنسيس، وأخذوا يطالبون صاخبين بمؤخرات من الجزية على الممتلكات النمسـوية. وكان جيش إسبانيا وأموالها رهن إشارة شارل، ولكن كان من أعسر الأمور عليه أن يحصل على أي عـون مالي فعال من ألمانيا. وقد أنشأ جده جيشًا من المشاة الألمان على الطراز السويسري، يغلب عليه الأصـول التي يبسطها كتاب ماكيافللي "فن الحرب" ولكن كان لا بد لهذه الجنود من الأعطيات، وكان لا بـد لمـوارده الإمبراطورية من أن تستكمل بقروض بغير ضمانات، وترتب عليها آخر الأمر أن جرت نصراء آل فاجـار إلى وهدة الإفلاس.

وجملة القول إن شارل قد وفق بتحالفه مع هنري الثامن، إلى التغلب على فرنسيس الأول والأتراك. وكان معتركهما الرئيسي هو شمال إيطاليا، واتسمت القيادة في كل من الجانبين بالغباء، فكان ما يقوم به الطرفـان من التقدم والتقهقر متوقفًا في أعظم شأنه على وصول الأمداد، واجتاح الجيش الألماني فرنسا، وأخفـق، دون الاستيلاء على مرسيليا، ثم ارتد إلى إيطاليا، وخسر ميلان، وحوصر في بافيا. وضرب فرنسيس الأول على بافيا حصارا طويل الأمد لم يكلل بالنجاح، ثم قطعت السبيل عليه قوات ألمانية جديـدة وهزمتـه وجرحتـه وأخذته أسيرا، فأرسل إلى زوجته الملكة يبلغها "أنه فقد كل شيء إلا الشرف"، وعقد صلحا مهينًا ثـم نقضـه بمجرد أن أخلي سراحه – فكأن خلاص الشرف نفسه لم يكن إلا شيئًا وقتيا.!!...

وعند ذلك انضم هنري الثامن والبابا – عملا منهما بقواعد الاستراتيجية الماكيافللية إلى جانب فرنسا، لمنع شارل من أن يصل إلى حد بالغ من القوة. أما الجيوش الألمانية في ميلان تحت إمرة كونستابل بوربون، فإنها لما لم تتسلم أعطياتها، قامت على روما بغارة كانت فيها أدنى إلى دفع قائدها أمامها منها إلى السـير تحـت إمرته. ففتحوا المدينة قسرا وأعملوا فيها انتهابا (١٥٢٧). واعتصم البابا بقلعة سان أنجلو بينما كان النهـب والقتل يعملان عملهما في الناس. واشترى رحيل القوات الألمانية آخر الأمر بدفع أربعمائـة ألـف دوقيـة. ودامت تلك الحروب الحمقاء المربكة عشر سنوات، فعادت على أوربا كلهـا بـالفقر والخسـران وخلفـت الإمبراطور وفي يده ميلانو. وفي (١٥٣٠) توجه البابا في بولونيا، وكان آخر إمبراطور ألماني توجه البابا. ولا يسع المرء إلا أن يفكر في ذلك الوجه الأشقر الذي تبدو عليه مسحة من الغباء، بما ركب فيه من الشـفة الغليظة والذقن الطويل، والذي يحمل التعبير الوقور تعبير من يتجلد إزاء مراسم مريبة وإن جاز أن تكـون شريفة.

وفي الوقت ذاته كان الأتراك يشقون طريقهم في بلاد المجر بقوة عظيمة، فإنهم كانوا هزموا ملك المجـر في (١٥٢٦) وقتلوه، واستولوا على مدينتي بوداوبست في (١٥٢٩)، وكما ذكرنا آنفًا أوشك سليمان القـانوني أن يستولي على فيينا. وقلق الإمبراطور قلقًا عظيما لهذا التقدم، وبذل قصارى جهده لصد غائلـة الأتـراك، ولكنه لقي أعظم الصعوبة في حمل الأمراء الألمان على الاتحاد، حتى وهذا العدو المرعب على أبوابهم.

وظل فرنسيس الأول ردحا من الزمان حاقدا حانقًا، ثم شبت حرب فرنسية أخرى، ولكن شارل استطاع فـي (١٥٣٨) أن يفوز بحمل منافسه على أن يتخذ موقفًا أقرب إلى المودة بإعماله النهب والتخريـب فـي جنـوب فرنسا. وعندئذ عقد فرنسيس وشارل بينهما محالفة ضد الأتراك، ولكن الأمراء البروتستانت، وهم الأمراء الألمان الذين عقدوا العزم على الانفصال عن روما، كونوا فيما بينهم عصبة على الإمبراطور، هي العصبة الشمالكالدية (نسبة إلى مدينة شمالكالدن الصغيرة من أعمال هيس، التي وضع فيها دستور العصبة)، وبـدلا مـن أن يقـوم شارل بحملة لاسترداد المجر إلى أحضان المسيحية، اضطر أن يوجه فكره إلى الكفاح الداخلي الـذي أخـذت بوادره تتجمع في ألمانيا. بيد أنه لم يشهد من ذلك الكفاح إلا حرب الافتتاح. كان كفاحا قوامه مناوشات دمويـة حمقاء بين الأمراء، الذين كانوا يطلبون لأنفسهم الرفعة والمجد، وكان يندلع آنًا حربا وتدميرا، ويتدلى آونة إلى المؤامرات والدبلوماسيات الدنيئة، وكأني بها جرابا مليئًا بأفاعي السياسات الماكيافللية التي قدر لها أن تواصـل تلويها حتى صميم القرن التاسع عشر، وأن تجر الدمار والخراب على أوربا الوسطى مرة بعد أخرى.

والظاهر أن الإمبراطور لم يدرك قط القوى الحقيقية التي كانت تعمل في هذه المتاعب المتجمعـة. كـان بالنسبة لزمانه ومرتبته رجلاً طيبا طيبة استثنائية، ويبدو أنه كان يعتقد أن الخلافات الدينية التي كانت تمـزق أوربا بددا إلى معسكرات متقاتلة – إنما هي خلافات دينية حقًا. فطفق يجمع الدايت بعد الدايت والمجلس إثر المجلس في محاولاته غير المجدية لإصلاح ذات البين. ونظرت من جديد قوانين الإيمان والاعترافـات. ولا بد لدارس التاريخ الألماني من أن يكب على دراسة تفاصيل الصلح الديني الذي عقد في نورمبرج، والتسوية التي تمت في دايت راتسبون وصلح أوجزبرج وما إليها. ولن نتجاوز هنا حد ذكرها بوصفها تفاصـيل فـي حياة الهموم والقلق التي كان يحياها ذلك الإمبراطور الفاخر الجليل.

والواقع أن أحدا من هذه الكثرة الكبيرة من الأمراء والحكام في أوربا لا يبدو أنه كان يعمل بنية صحيحة وإخلاص. فقد كانت الاضطرابات الدينية الفسيحة الانتشار في العالم، ورغبة عامة الناس في الصدق والصلاح الاجتماعي، والعلم الآخذ في الانتشار في ذاك الزمان، كانت كل هذه الأشياء تعد في مخيلة الأمراء ودبلوماسياتهم مجرد أضداد تناصبهم العداء. وانضم هنري الثامن ملك إنجلترة الذي ابتدأ حياته العملية بكتاب كتبه مناهضا الهرطقة، والذي كافأه البابا بان أنعم عليه بلقب "حامي الدين"، إلى جماعة الأمراء البروتستانت في (١٥٣٠)، لاهتمامه بطلاق زوجته الأولى لعقمها، وشغفًا منه بشابة مرحة اسمها آن بولين، ولرغبته كذلك في الانقلاب على الإمبراطور والانحياز إلى فرنسيس الأول؛ وأن ينتهب ثروة الكنيسة الهائلة في إنجلترة. وكانت السويد والدانمارك والنرويج، انضمت من قبل إلى الجانب البروتستانتي.

ونشبت الحرب الدينية الألمانية في (١٥٤٦) بعد موت مارتن لوثر ببضعة شهور. وما نحن بحاجة إلى الاهتمام بأحداث الحملة وتفاصيلها. لقد هزم الجيش البروتستانتي السكسوني هزيمة منكرة في لوشاو. وقبض على فيليب أمير هس (Hesse) الخصم الأكبر الباقي للإمبراطور بطريقة تقارب نكث العهد ثم سجن، واستبعد شبح الأتراك بدفع جزية سنوية. وفي (١٥٤٧) مات فرنسيس الأول فأراح الإمبراطور راحة عظيمة. ولذا فإن شارل وصل في (١٥٤٧) إلى نوع من التسوية، وقام ببذل آخر جهد لديه لإنشاء سلم حيث لا سلم ولا سلام.

وفي (١٥٥٢) عمت الحرب كل أرجاء ألمانيا مرة أخرى، ولم ينقذ شارل من الأسر إلا هربه سريعا من إنسبروك، وجاءت معاهدة باساو (Passau) فأوجدت في البلاد توازنًا غير مستقر. وكان التبرم بمتاعب وفخامة الإمبراطورية، قد بلغ بنفس شارل نهايته القصوى، فإنه لم تتوفر له في أي يوم من الأيام بنية كاملة السلامة، وكان بطبعه كسولاً متراخيا، وكان يقاسي عظيم الآلام من النقرس. فتنحى عن العرش. ونقل كل حقوقه الملكية في ألمانيا إلى شقيقه فرديناند، وتنازل عن إسبانيا والأراضي المنخفضة لولده فيليب. ثم تقاعد في أحد الأديرة في يوست، وفي قلبه نوع من الحقد الدفين الفاخر، بين غابات البلوط والقسطل في التلال الواقعة إلى الشمال من وادي التاجه، وهناك توفي (١٥٥٨).

ولقد أكثر الكتاب من الكتابة في نغمة عاطفية عن هذا التقاعد، ذلك الاعتزال للعالم الذي اتجه إليه ذلك الجبار المتعب الفاخر، الذي سئم العالم، وأخذ يطلب سلامه مع ا   في وحدة تقشف صارم. ولكن تقاعده لم يكن بالمنعزل ولا المتقشف؛ إذ كان معه ما يقارب المائة والخمسين من الأتباع؛ وكان مقامه يحوي كل ملذات البلاط دون متاعبه، وفضلاً عن ذلك فإن فيليب الثاني كان ابنًا بارا، نصائح أبيه لديه أوامر واجبة الطاعة. فأما تقشفه وزهده فخير شاهد عليهما هو بريسكوت حيث يقول: " لا يكاد يوجد في المراسلات اليومية تقريبا المتبادلة بين تابعيه كويكسادا أو جاز تلو وبين الوزير المقيم في بلد الوليد، رسالة لا تدور قليلاً أو كثيرا حول طعام الإمبراطور أو مرضه". ويلوح طبيعيا، أن يجيء أحد الأمرين كأنما هو تعليق مستمر على الآخر. ويندر في التاريخ أن تكون مثل هاته الموضوعات قوام مراسلات تتبادل مع إدارة الدولة. ولا بد أنه لم يكن من الهين على الوزير أن يحافظ على وقاره أثناء تلاوته الرسائل التي كانت فيها السياسة وفن الطهي والمائدة مختلطين معا بمثل تلك الدرجة. وأمر الساعي القادم من بلد الوليد إلى لشبونة أن يعدل طريقه

بحيث يمر على بلدة جاراندلا، ليحضر المؤن للمائدة الملكية. وكان عليه في أيام الخميس أن يحضر السمك لتقديمه في "يوم الصيام jourmaigre" الذي يتلوه وكان شارل يرى أن سمك النقط في المنطقة المجاورة صغير جدا؛ ولذا كان من اللازم أن ترسل أسماك أخرى ذات حجم أكبر، من بلد الوليد. وكانت الأسماك على اختلاف أنواعها تروقه وتلذه، وكذا كل شيء يقارب السمك في طبيعته وعاداته. ومن ثمة احتلت ثعابين البحر والضفادع وأم الخلول مكانًا عليا في قوائم طعام الإمبراطور وكانت الأسماك المحفوظة وبخاصة الأنشوجة تلقى منه قبولاً كبيرا؛ وأبدى أسفه لأنه لم يحضر معه من الأراضي المنخفضة صنفًا أجود، وكان شغوفًا بوجه خاص بفطيرة ثعبان الماء [١]".

وحصل شارل في (١٥٥٤) على مرسوم من البابا يوليوس الثالث، يمنحه إعفاء من الصيام، ويسمح له بأن يفطر في بكرة الصباح حتى ولو كان ينوي أن يتناول القربان.

"فأما أن شارل لم ينس مطلقًا وهو في يوست بزة ثيابه، فأمر يمكن استنتاجه من الحقيقة الواقعة، وهي أن دولاب ثيابه لم يكن يحتوي أقل من ستة عشر ثوبا من الحرير والقطيفة المبطنة بفرو القاقم أو زغب البط، أو الشعر الناعم للعنز البربري [٢]. فأما أثاث جناحه الخاص وتنجيده – فأمر يمكن إدراكه بنظرة واحدة إلى قائمة منقولاته التي أنشأها كويكسادا وجازتلو، بعيد وفاة سيدهما. فنجد من بينها أبسطة وسجاجيد من بلاد الترك وألكاريز (Alcares) [٣] ومظلات من القطيفة وما ماثلها من أقمشة، وأستارا من القماش الأسود البديع، الذي اختاره منذ وفاة أمه لحجرة نومه الخاصة، بينما كانت الشقق الأخرى مفروشة بما لا يقل عن خمسة وعشرين طاقما من الطنافس المعلقة من نسج مناويل فلاندر، وهي موشاة توشية ثمينة بأشكال الحيوانات وصور المناظر الطبيعية.

"وإنّا لنجد فيما نجد من الأطباق مجموعة صنعت من الذهب الخالص، وأخرى ملحوظة بصفة خاصة لغرابة صناعتها. ولما كان عهده عصرا ارتفع فيه فن صناعة المعادن النفيسة إلى أسمى درج الكمال، فليس لدينا خلجة شك في أن كثيرا من أبدع الأنواع صنعا كانت ملك يمين الإمبراطور. ويتراوح وزن جميع الأطباق بين اثنتي عشرة ألف وثلاث عشرة ألف أوقية [٤].

ولم يكتسب شارل قط عادة القراءة، ولكنه كان يستمع إلى قارئ يقرأ عليه أثناء تناوله طعامه على طريقة شرلمان، وكان يدلي بما يصفه أحد الرواة بأنه "تعليقات حلوة سماوية". كذلك كان يسلي نفسه باللعب الفنية وبالاستماع إلى الموسيقى أو المواعظ، وبالالتفات إلى الشئون الإمبراطورية التي كانت لا تزال تتوارد عليه وجاءت وفاة الإمبراطورة، التي كان متعلقًا بها عظيم التعلق، فحولت ذهنه إلى الدين تحويلاً تجلى فيه التدقيق

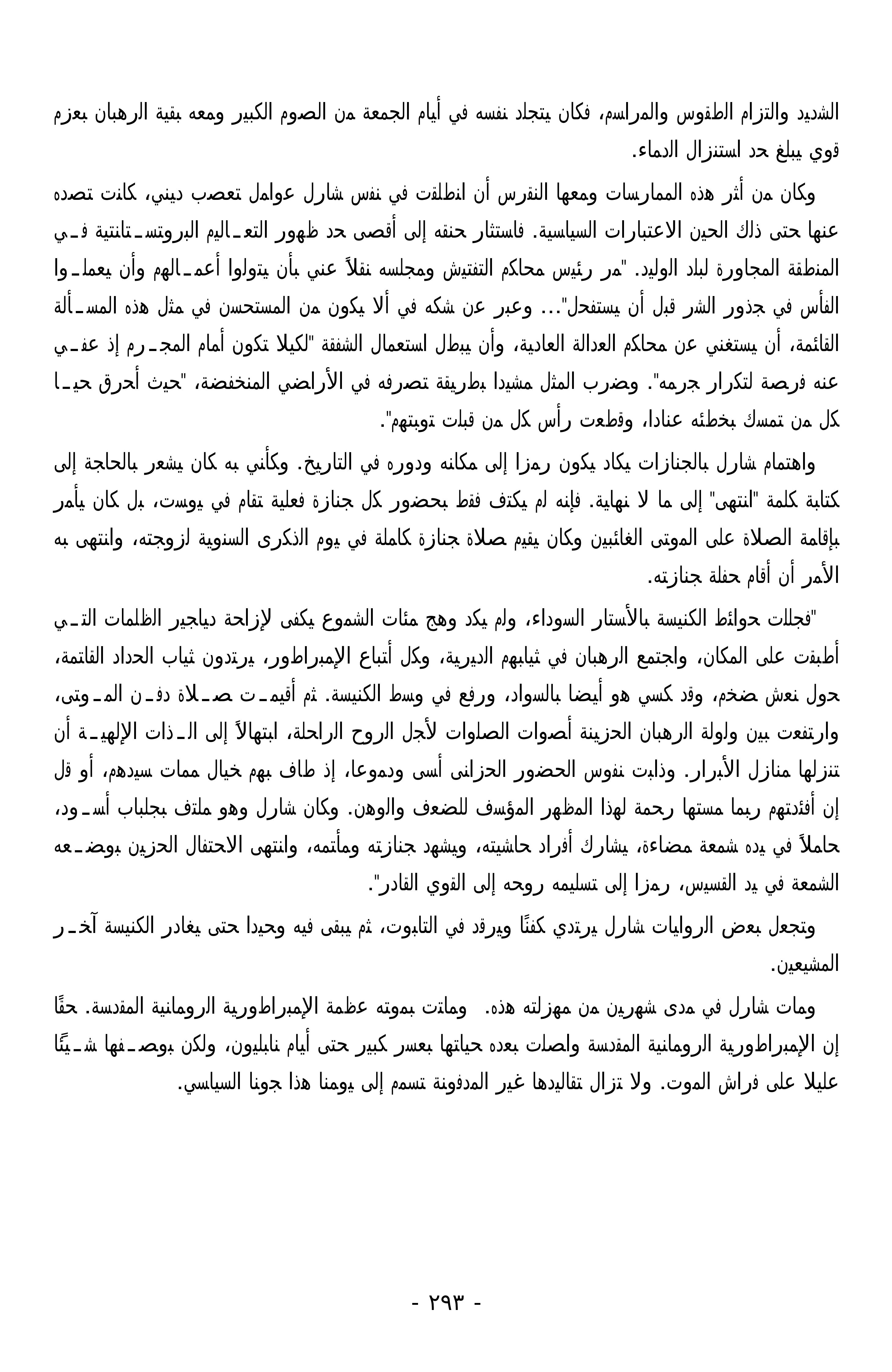
---

[١] نقلًا عن تذييل بريسكوت على كتاب روبرتسون "تاريخ شارل الخامس".

[٢] العنز البربري. أي المتربي بمراعي بلاد البربر. (المترجم)

[٣] الكاريز. مدينة بأسبانيا. (المترجم).

[٤] نقلا عن تذييل بريسكوت على كتاب روبرتسون "تاريخ شارل الخامس".



الشديد والتزام الطقوس والمراسم، فكان يتجلد نفسه في أيام الجمعة من الصوم الكبير ومعه بقية الرهبان بعزم قوي يبلغ حد استنزال الدماء.

وكان من أثر هذه الممارسات ومعها النقرس أن انطلقت في نفس شارل عوامل تعصب ديني، كانت تصده عنها حتى ذلك الحين الاعتبارات السياسية. فاستثار حنقه إلى أقصى حد ظهور التعـاليم البروتسـتانتية فـي المنطقة المجاورة لبلد الوليد. "مر رئيس محاكم التفتيش ومجلسه نقلاً عني بأن يتولوا أعمـالهم وأن يعملـوا الفأس في جذور الشر قبل أن يستفحل"... وعبر عن شكه في ألا يكون من المستحسن في مثل هذه المسـألة القائمة، أن يستغني عن محاكم العدالة العادية، وأن يبطل استعمال الشفقة "لكيلا تكون أمام المجـرم إذ عفـي عنه فرصة لتكرار جرمه". وضرب المثل مشيدا بطريقة تصرفه في الأراضي المنخفضة، "حيث أحرق حيـا كل من تمسك بخطئه عنادا، وقطعت رأس كل من قبلت توبتهم".

واهتمام شارل بالجنازات يكاد يكون رمزا إلى مكانه ودوره في التاريخ. وكأني به كان يشعر بالحاجة إلى كتابة كلمة "انتهى" إلى ما لا نهاية. فإنه لم يكتف فقط بحضور كل جنازة فعلية تقام في يوست، بل كان يأمر بإقامة الصلاة على الموتى الغائبين وكان يقيم صلاة جنازة كاملة في يوم الذكرى السنوية لزوجته، وانتهى به الأمر أن أقام حفلة جنازته.

"فجللت حوائط الكنيسة بالأستار السوداء، ولم يكد وهج مئات الشموع يكفى لإزاحة دياجير الظلمات التـي أطبقت على المكان، واجتمع الرهبان في ثيابهم الديرية، وكل أتباع الإمبراطور، يرتدون ثياب الحداد القاتمة، حول نعش ضخم، وقد كسي هو أيضا بالسواد، ورفع في وسط الكنيسة. ثم أقيمـت صـلاة دفـن المـوتى، وارتفعت بين ولولة الرهبان الحزينة أصوات الصلوات لأجل الروح الراحلة، ابتهالاً إلى الـذات الإلهيـة أن تنزلها منازل الأبرار. وذابت نفوس الحضور الحزانى أسى ودموعا، إذ طاف بهم خيال ممات سيدهم، أو قل إن أفئدتهم ربما مستها رحمة لهذا المظهر المؤسف للضعف والوهن. وكان شارل وهو ملتف بجلباب أسـود، حاملاً في يده شمعة مضاءة، يشارك أفراد حاشيته، ويشهد جنازته ومأتمه، وانتهى الاحتفال الحزين بوضـعه الشمعة في يد القسيس، رمزا إلى تسليمه روحه إلى القوي القادر".

وتجعل بعض الروايات شارل يرتدي كفنًا ويرقد في التابوت، ثم يبقى فيه وحيدا حتى يغادر الكنيسة آخـر المشيعين.

ومات شارل في مدى شهرين من مهزلته هذه. وماتت بموته عظمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة. حقًا إن الإمبراطورية الرومانية المقدسة واصلت بعده حياتها بعسر كبير حتى أيام نابليون، ولكن بوصـفها شـيئًا عليلا على فراش الموت. ولا تزال تقاليدها غير المدفونة تسمم إلى يومنا هذا جونا السياسي.

١٣- (ب) بروتستانت إذا رغب الأمير في ذلك

حمل فرديناند شقيق شارل الخامس لواء الوحدة الذي تخلى عنه أخـوه والتقـى بـالأمراء الألمـان فـي أوجزبرج (١٥٥٥). وهنالك حدثت محاولة أخرى لإقامة سلام ديني. ولا أدل علـى روح تلـك التسـوية، وعملية الأمراء ورجال السياسة القائمين بها عن أحداث ذلك الزمان الأكثر عمقًا واتساعا، من الصيغة التـي اتخذتها تلك التسوية. إذ تقرر أن يرجع الاعتراف بالحرية الدينية، إلى الدول وليس إلى أفـراد المـواطنين. "الرعية تدين بدين الملك cujus regio ejus religio"

١٣- (ج) التيار الفكري السفلي المضاد

لقد وجهنا ما وجهنا من الالتفات الكبير إلى كتابات ماكيافللي وإلى شخصية شارل الخامس، لما يلقيانه من فيض الضياء على خصومات الفترة التالية من تاريخنا وقد تحدث هذا الفصل بقصة الاتساع الضخم في الآفاق الإنسانية، والزيادة العظيمة والانتشار الكبير للمعرفة؛ فرأينا ضمير عامة الناس يستيقظ وشهدنا بوادر تشير إلى ظهور عدالة اجتماعية جديدة أشد عمقًا تنتشر بصورة عامة في كل أرجاء الحضارة الغربية. ولكن إشاعة النور والفكر هاته كانت تغادر البلاط وحياة العالم السياسية دون أن تمسهما بأي تغيير. وقلّ أن يوجد بين كتابات ماكيافللي شيء لم يكن ليستطيع أن يكتبه أحد مهرة الوزراء في بلاط كسرى الأول أو شي هوانج تي أو حتى سرجون الأول أو بيبي فرعون مصر. فعلى حين كان العالم يتقدم إلى الأمام في كل شيء آخر، فإنه كان يقف جامدا لا يتحرك من حيث الفكرات السياسية، والفكرات المتعلقة بعلاقة الدولة بالدولة وعلاقة الملك بالمواطن، بل الواقع أنه كان يرجع القهقرى، ذلك أن الفكرة العظيمة القائلة بجعل الكنيسة الكاثوليكية مدينة الرب العلمانية، قد دمرتها الكنيسة نفسها في أذهان الناس، واتخذ الحلم بالسيادة الإمبراطورية العالمية ممثلاً في شخص شارل الخامس، شكل دمية، ومر من خلال أوربا كلها ثم هوى إلى مثواه الأخير. وبدا على العالم من الناحية السياسية دلائل الرجوع إلى الملكية الشخصية المستبدة ذات الطراز الآشوري أو المقدوني.

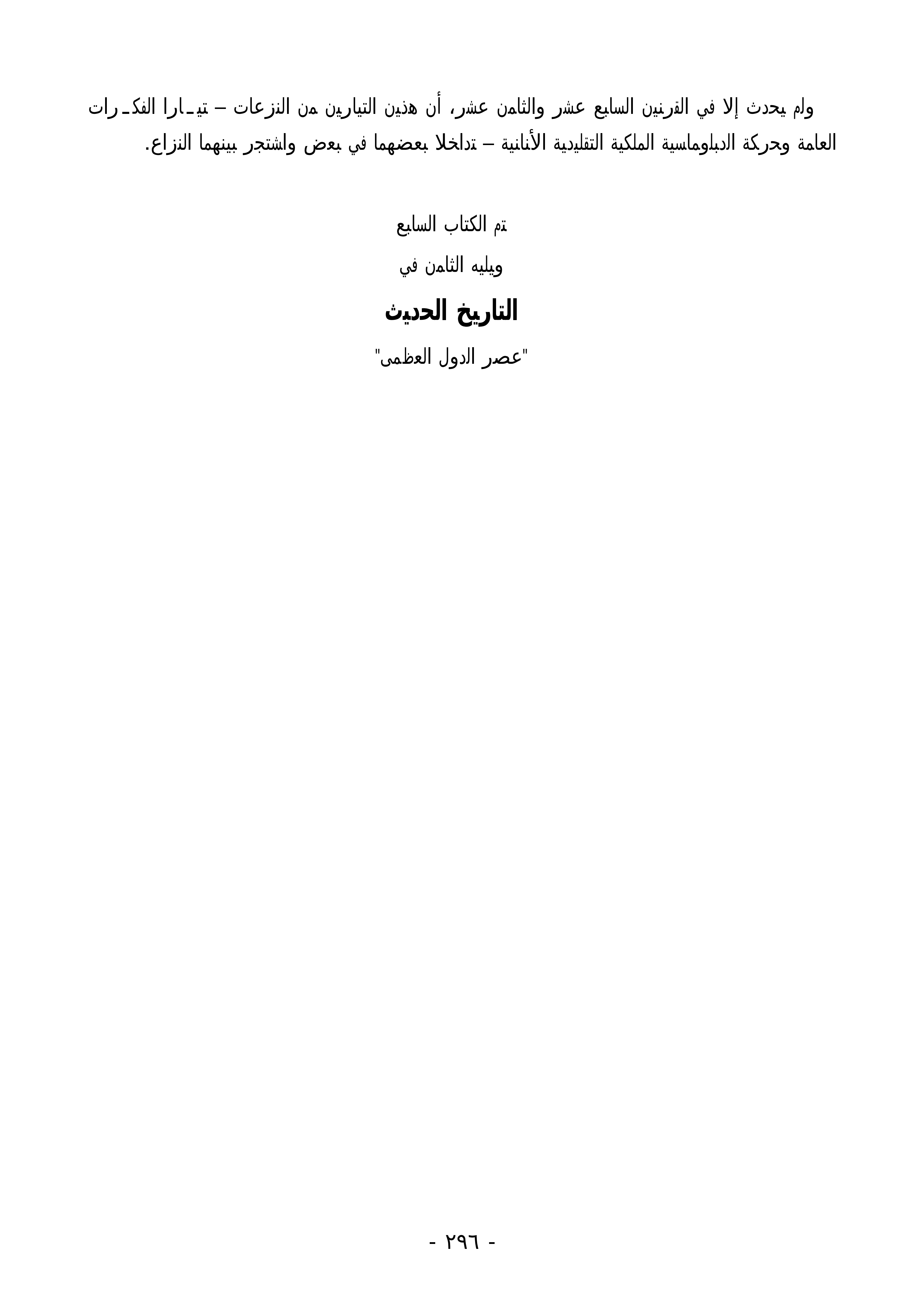
وليس معنى هذا أن الطاقات الفكرية الحديثة التيقظ في شعوب أوربا الغربية، كانت من الانهماك في إعادة الشئون اللاهوتية إلى نصابها، وفي إجراء البحوث العلمية، وفي الارتياد الاستكشافي والتطور التجاري، بحيث جعلت القوم لا يستطيعون أن يلقوا بالا إلى مدعيات الحكام ومسئولياتهم. إذا لم يقتصر عامة الرجال فقط على أن ينتهلوا من الكتاب المقدس، الذي أصبح في متناول الأيدي، أفكارا عن نظم الحكم قد تكون كهنوتية (ثيوقراطية) أو جمهورية أو شيوعية الطابع بل ترتب على العودة إلى دراسة الآداب الإغريقية الكلاسيكية، أن عادت روح أفلاطون الخلاقة المخصبة إلى التأثير في العقل الغربي.

فأنتج السير توماس مور محاكاة غريبة "لجمهورية" أفلاطون هي كتابه "اليوتوبيا"، الذي جعل الأساس فيه نوعا من الشيوعية الاستبدادية. وبعد ذلك بقرن من الزمان أظهر راهب اسمه كامبانللا في نابولي، مثل ما أظهر مور من الجرأة بكتابه "مدينة الشمس". ولكن لم يكن لمثل هاته الأبحاث أي تأثير مباشر في النظم السياسية الجارية. ولو قورن هذان الكتابان بضخامة العمل المرجو منهما، لبدت فيهما غلبة النزعات الشاعرية والنظرية والهزال. (ومع هذا فقد قُدر "لليوتوبيا" أن تؤتي ثمارها فيما بعد في "قوانين الفقراء [1]" الإنجليزية).

وظل التطور الفكري والخلقي للعقل الغربي وهذا الاتجاه صوب الملكية الماكيافللية في أوربا، يسيران ردحا من الزمان جنبا إلى جنب في نفس العالم، ولكنهما كانا يتسايران مستقلين تقريبا. وظل رجال السياسة يديرون الخطط ويقومون بالمداورات (المناورات)، كأنما ليس هناك شيء ينمو إلا قوة الملوك الحذرين المحظوظين.

---

[1] قوانين الفقراء. القوانين الخاصة بإعالة المتشردين. (المترجم)



ولم يحدث إلا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، أن هذين التيارين من النزعات – تيـارا الفكـرات العامة وحركة الدبلوماسية الملكية التقليدية الأنانية – تداخلا بعضهما في بعض واشتجر بينهما النزاع.

تم الكتاب السابع

ويليه الثامن في

التاريخ الحديث

"عصر الدول العظمى"

